الجمهوريـــــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليـم العالـــي والبحـــث العلمـــي
جامعـــة الحـاج
لخضـر باتنـــة-01-

كليـــــة العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسـم الفلسفة

رقم التسجيل:.....
الرقم التسلسلي:.....

أوغسطين بين الدين والفلسفة

أطروحة مقدمـة لنيـل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة

إعـداد الطالبة:
نسيبة مزواد

إشـراف الأستاذ الدكتـور:
موسى معيرش

لجنـــة المناقشـــة

الإســـم واللقـــب	الرتبـــة	الصفـــة	الجامعـــة
عبـد المجيـد عمرانـي	أستـاذ التعليم العالي	رئيـسا	جامعـة باتنـة -01-
موســى معيـرش	أستـاذ التعليم العالي	مشـرفـا	جامعـة خنشـلة
رابـح مراجـي	أستـاذ التعليم العالي	عـضـوا	جامعـة قالمـة
عبـد الغنـي بوسـكك	أستـاذ محاضر أ	عـضـوا	جامعـة باتنـة -01-
محمـد شـروف	أستـاذ محاضر أ	عـضـوا	جامعـة باتنـة -01-
لخضـر حميـدي	أستـاذ محاضر أ	عـضـوا	جامعـة المسـيلة

السنـــة الجامعيـــة:
1440- 1441هـ /2019 – 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلـــى روح والـــدي عبدو رحمه

الله وأسكنه فسيح جناته

إلى يمـــــــّة حفظها الله لنا

أهدي لكما هذا الجهد

ابنتكم نسيبة

شكـــــــــــــر وعرفـــــــان

اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، ولك الحمد على كل حال، وفي كل حين، اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه يا رب.. لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

والأستاذ موسى معيرش كل الإحترام والتقدير على ما قدمه لي من دعم مادي ومعنوي

الباحثة مزواد نسيـــــــــبة

مقدمـــــــــــــــــــــــــة

مقـــــــــــــــــدمة

ارتبط الفكر المسيحي بالكثير من الأحكام الجاهزة التي أثارت إشكالات عميقة: كعصر الظلام الوسيط، ووضع العقيدة الدينية –والجميع يعلم أن الدين كان ناظم العصر الوسيط– التي بكتت العقل وانكفأت على براديغم الأخروية والتوجس من الراهنية، ودوغمائية كنيسة تقوقعت على أتباعها وحاربت كل من يخالفها، وإغراق الحياة بالدين، كما أن رجل الدين المؤمن هو شخص يؤمن ويعتقد لكن لا يفكر؛ والاعتقاد الصرف مقبرة الفكر، لا يفكر في الله وأدلة وجوده إلا بما يتلى عليه من الكتاب المقدس وما ورثه من أحكام جاهزة، لا يسعى المسيحي للبحث لأنه وفي خضم توظيفه للمقدس قد صار إنسانا كاملا بل وصار مفوض الإله بيقينه بعد أن أمسك بزمام الحقيقة المقدسة وامتلكها، مقولة الحقيقة التي اكتسبها أصحاب المعتقد جعلت من العبث اكتساب أي معرفة أخرى أو فلسفة أو حتى منهج؛ كون المنهج هو السبيل للوصول إلى اليقين الذي بلغوه سلفا، فما الداعي إذن من مشاركة اليقينيّ لأي معرفة بشرية ناقصة؟ وما الداعي من جمع الدين والفلسفة في رجل واحد؟.

تعد هذه الإشكالية التي يعانيها الفكر المسيحي إشكالية فلسفية بامتياز، كونها تقودنا رأسا للبحث عن حقيقة واقعية تقابلها في التاريخ، بمعنى البحث عن فلاسفة مسيحيين سمحوا للعقل أن يقول ويسأل؛ فلاسفة بعقل سؤول، يؤسس لفكر حر متيقظ، يمنعه من الإنزلاق والسقوط في فخ الدوغمائية وما الدوغمائية سوى قتل لفعل التفكير، دوغمائية خطاب سبقه العقل بمئات السنين، تحول مع الوقت إلى مقدس بعد أن كان خطاب للمقدس، لا يعني هذا أن المقدس معرض للخطر والهدم بقدر ما يعني أن الخطاب المقدس معرض لمطرقة السؤال في محاولة جادة للإستدلال العقلي على هذا المعتقد الديني، ومن خلال هذه العملية الذهنية الصرفة يقف الخطاب المقدس في لحظة دهشة غير مسبوقة؛ لحظة "الإنفتاح" على السؤال والإمكانات المتعددة، في إطار ما يسمى بالفلسفة المسيحية.

الدارسون للفلسفة المسيحية كمبحث انقسموا إلى قسمين، قسم معارض لهذا النوع من الدمج أي الدمج بين العقل والوحي معتبرين أن محاولة الربط بين الفلسفة والدين ضرب من العبث ومضيعة للوقت، لأن الاختلاف بينهما ختلاف في الجوهر بالأساس، فالفلسفة تعتمد على مبادئ العقل واستدلالاته، والدين يقوم على اللامعقول والمافوقيات التي يعجز العقل والحس عن الوقوف عليها، وبالتالي فان القول بفلسفة مسيحية هو قول خاطئ. أما القسم الثاني فيؤكد أتباعه على نجاح العلاقة بين الفلسفة والدين من جوانب عدة أولها

وأهمها إثبات وجود الله بالعقل، هنا وجد أتباع هذا الرأي أن العقل آلية ناجعة لإثبات مختلف المقولات الدينية، فالعقل وسيلة الدين لإثبات يقينه الموجود ابتداء.

وبين هذين الرأيين يتموضع بحثنا الذي عُني بمعالجة شخصية مسيحية متمثلة في القديس أوريليوس أوغسطينوس، ومحاولة مساءلة فكره ومن ثم تحديد الطريق الذي سلكه في بحثه أهو طريق ديني خالص أم فلسفي خالص، أم أن الفلسفة والدين عنده صنعا توليفية نتجت عنها فلسفة مسيحية بامتياز. يمكن على هذا الأساس صياغة الإشكالية الرئيسية التي يحاول هذا العمل الإجابة عنها:

هل كان في طرح أوغسطين الديني أساس فلسفي؟

بعبارة أخرى ماهو ناظم الفكر الأوغسطيني؟ وكيف عالج أوغسطين السقوط الوجودي للإنسان خاصة وأنه اعتبرها قضيته الشخصية قبل أن تكون أطروحة فلسفية ودينية؟ كيف فرش أوغسطين لمشروع بناء الانسان الجديد ضمن حدود الدين؟ وهل الانسان الجديد هو الانسان المثالي السلبي؟ أم أنه الانسان الحر المريد الفعّال؟ هل الدين المسيحي يشترط لقيام أي دولة قوانين سماوية تفرضها الكنيسة على القيصر، أم أن الابداع البشري هو الفيصل في قيام الدول وسقوطها؟ وهل التاريخ عند أوغسطينس هو تاريخ كلي بقانونه الواحد الصارم الذي يتحكم في البشرية جمعاء والذي قرره الله في علمه المسبق وبثه في الوجود لنستقرأه تمهيدا لبناء حضارة عالمية، أم تاريخ حضارات جزئية متنوعة لكل واحد خصوصيتها التي تميزها عن غيرها وبالتالي فان قانونها لا ينطبق على غيرها، وما الذي يحركه؟ وفي الأخير هل سبق الايمان عقل أوغسطين أم أن عقله سبق الايمان؟

وبغية الإجابة عن الإشكال وما تفرع عنه من مشكلات اعتمدت على المنهج التحليلي كرؤيا محددة للتعامل مع الموضوع، قمت من خلاله بمحاولة تبسيط النصوص الأصلية الأوغسطينية، وكذا النصوص المأخوذة من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، إضافة إلى محاولة تجزيء الإشكالية الأم إلى عناصرها البسيطة خاصة وأن هذه الاشكالية تتضمن العديد من المشكلات الفلسفية الدقيقة والحساسة، ولتحليل الموضوع بشكل أدق استعنت بآليات منهجية أخرى تمثلت في المنهج التاريخي والمنهج النقدي، فالتاريخي كان لتقصي النصوص التاريخية والحوادث التي تطرق إليها أوغسطينوس للدفاع عن أطروحته، والتي عاد بها إلى النشأة الأولى للإمبراطورية الرومانية، بما فيها النشأة الأسطورية، إضافة إلى تقصي النصوص التي أسّس بها لفلسفته في التاريخ بخاصة، والتي اقتضتها محاولته لرسم السلسلة التاريخية مذ بداية البشرية وإلى غاية نهاية العالم، ومنهج مقارن

والذي ظهر على وجهين، الأول كان بين نصوص أوغسطين الفلسفية ونصوصه الدينية، والوجه الثاني كان بين النصوص الأوغسطينية والدراسات الدارسة لها العربية منها والأجنبية.

فرض المنهج المعتمد على الدراسة خطة بحثية مقسمة إلى مقدمة، ثلاثة فصول وخاتمة

المقدمة: اشتملت على تعريف بالموضوع يفسح لنا المجال للدخول في متن البحث نختمه بإشكالية، يتبعه تحديد للمنهج المتبع، خطة البحث، أهم الأسباب الدافعة لاختيار البحث وأهدافه، إضافة لأهم الدراسات السابقة وأهم المؤلفات المعتمدة، وننهي المقدمة بأكثر الصعوبات التي اعترضت العمل.

الفصل الأول: بحث في السقوط الوجودي للانسان، الانسان الأول الذي استحال إنسانا جديدا وتسبب في كل مآسي نسله، التي تواجههم في رحلة بحثهم عن السعادة التي تركها آدم في السماء ونزل، وحاولت فيه الاجابة عن الاشكال المتمثل في البحث عن الناظم الفيصل الذي يتحكم في فلسفة الرجل، بالاعتماد على ثلاثة مباحث كان الأول رصدا لأهم المنعرجات الفكرية التي مر بها أوغسطين وأهم الفلسفات التي تأثر بها؛ فكانت بدايته حسية، ثم انتقل منها إلى الريبية التي كان شكه فيها كليا، وبعد أن تخطاها انتقل إلى المرحلة العقلية ثم استقر عقله أخيرا إلى المسيحية، وفي المبحث الثاني تناولت الناظم الذي تدور حوله كل الفلسفة الأوغسطينية خصوصا والمسيحية عموما، مع فرق أن أوغسطين كان فيلسوفا في تناولها ولم يعتمد على الكتاب المقدس وحده، لأنه كان يخاطب العقل الانساني ككل ولم يقتصر خطابه على العقل المسيحي، ثم تحليل لكيفية ربط أوغسطين لهذا الناظم وكل الوجود البشري، ومبحث أخير كمحاولة لتقسيم البشرية والتاريخ تبعا للناظم الذي اقترحه الفيلسوف المسيحي مع تقديم تحليل مفصل لكل قسم من حيث تعريفه نشأته وعناصره المكونة قسم شرير وقسم صالح، قسم خضع للشر وقسم انتصر عليه، قسم سيطر على الجسد وقسم خضع له، قسم عادت فيه الإرادة الحرة إلى الأصل، وقسم خلقت الإرادة الحرة لنفسها أصلا جديدا.

الفصل الثاني: بحث في السقوط الحضاري للإنسان بتسليط الضوء على الإنسان الجديد تفكيره، سلوكه، أخلاقه، علاقاته المتعددة بالآخر بالدولة وبالتاريخ، في ثلاثة مباحث، مبحث أول اختص في جمع إجابات أوغسطين حول كل التهم التي وجهت لدينه، والذي أتهم بأنه المسبب الرئيسي في سقوط روما تلك الامبراطورية العظيمة التي لا تقهر، فمذ اعتنق أوغسطس المسيحية بدأت روما بالتقهقر حتى سقطت أخيرا وهي تحت حماية الرب يسوع، الذي فشل حسبهم في آداء الدور الذي أتقنه الاله مارس، بدأت الاتهامات تنهال على المسيحية، فكتب أوغسطين ثلاث مجلدات للرد عليها فكانت مدينة الله. تتبع تاريخ روما من يوم مقتل روموس على يد رومولوس وإلى غاية محاصرة القبائل البربرية لبوابة كنيسته، ومنها استخرج مكامن ضعف الحضارة ومكامن قوتها، حينها استخرج السبب الرئيسي الذي جعل قوة مثل روما تتهالك وتنهار، وهو ذاته سبب كل سقوط الحضارات عبر التاريخ، قد يتبادر للذهن كون أوغسطين مسيحيا فان السبب سيكون حتما

دينيا، لكن الرجل الذي وصل بعقله للدين ولم يولد عليه كان موضوعيا في طرحه، خاصة وأن الدين ليس العامل المشترك بين حضارات العالم. في مبحث ثاني تم معالجة الإنسان السياسي وهو يبدع ويصنع دولة، الدولة بقسميها: الدولة الكائنة والدولة التي يجب أن تكون، الدولة المنشودة المسيحية والدولة الحقيقية الرومانية، الدولة التي أرست قواعدها على هذه الأرض مقر منفانا الذي أوقعتنا فيه إرادتنا الحرة، والذي كان القتل هو المدخل الذي اختاره الانسان ليؤسس لها، وفي نفس الوقت تم إلقاء الضوء على الحركات الثلاث التي قامت بها المسيحية، حركة الخضوع للدولة وحركة الدولة داخل دولة والحركة الأخيرة أفردت لها مبحثا أخيرا حركة الدولة المسيحية المسيطرة، حينها حمل رجل الدين السيف وصار رجل دولة وقيصرا وحاكما وملكا، مد فيها القس اليد للملك وتشاركا في الحكم، جاء دور أوغسطين لا ليبدي رأيه بل ليعيش التجربة التي أخبرنا التاريخ عنها، حينها وقع بين أصعب اختيار أيختار دينه أم يختار أبناء وطنه، هل أعطى أوغسطين ما لقيصر أم كان أوغسطين هو القيصر؟.

في الفصل الأخير المعنون بالقيامة كان أوغسطين فيلسوف تاريخ مكتمل الملامح، معتمدا على مقولات هذا المبحث الفلسفي من بداية ومسار ومحرك ثم نهاية، في المبحث الأول تم طرح فكرة تقسيمات المراحل التي مرت بها البشرية، والتي استقاها من الكتاب المقدس، قام بتفسيرها وفق الأصول الفلسفية، إذ حدد المسار بالخط المستقيم رافضا أي تفسير تاريخي آخر لأنه لا يتناسب وأهم حادثة عرفها وهي دخول اللامتناهي في المتناهي، واندماج الكامل في الناقص، والثابت يشارك الزمان والمكان مع الناقص، حاول أوغسطين جاهدا تبسيط هذا الحدث الذي يصعب على العقل استيعابه، ومحاولة ربطه بالعقل قبل الايمان، دخول الله في التاريخ كانت اللحظة التي حدد أوغسطين على أساسها المسار الذي لا يتكرر ولا يدور، انتقل بعدها لتحديد المحرك الذي يقود هذا المسار أدرجته في مبحث ثاني، كان الدارج في دراساتنا أن المحرك هو العناية الالهية، لكن أوغسطين حدد الصراع بعيدا عن العناية وكان أكثر واقعية وأكثر ميدانية في بسط القضايا، ولم يتوان في ذكر حقيقة العلاقات التي تربط الأفراد والمجتمعات والدول الحضارات، فخرج عن المتوقع الذي ننتظره من الأديان، فيكون المحرك هو الحوار أو التكامل أو غيرها من المشاريع الرنانة الطوباوية التي ينبغي أن تكون، لا ينكر أوغسطين ما ينبغي أن يكون لكن هو ارتكز على ما هو واقعي ارتكز على حقيقة العالم وحقيقة العلاقات إنه الصراع. وفي المبحث الأخير من الفصل الأخير تناولت المطاف الأخير، أين يأتي السيد المسيح مجددا ليجمع شمل أمته ويقودهم نحو السعادة في كنفه، ويحقق السلام الذي عجزت عن تحقيقه كل الشعوب وكل الدول، عجز عقل الانسان عن الوصول إليه، العقل البشري بكل منجزاته واستدلالاته وكل قدرته التي بها وحدها وصل إلى اليقين، عجز عن تحقيق السلام والعيش فيه، لأن الانسان الجديد لا يقبل المشاركة مع الآخر، لا في

سلطة ولا في ممتلك أيا كانت طبيعته، ولن يتحقق السلام مادام الانسان الجديد هو من يسيطر على العالم، لن يتحقق الا بمجيء السيد المسيح مجددا.

وفي الأخير كانت الخاتمة والتي ضمّنت فيها اللحظات الرئيسية التي قام عليها البحث، وكذا محاولة فتح آفاق بحثية تتعلق بالفكر الوسيط أكثر ما تتعلق بالفكر الاوغسطيني.

يمكن إجمال دوافع البحث في محاولة نقل التجربة الأوغسطينية الحقيقة للساحة الفكرية العربية، ومحاولة التخلص قدر المستطاع من الدراسات المتسرعة لذات الفكر وما نتج عنها من مغالطات معرفية، لأن البين التي تتوسط الدين والفلسفة تحمل في طيّاتها الكثير من القضايا والإشكاليات بل والمآزق التي تتجنب الكتب العربية والمراجع الأكاديمية الخوض فيها، ربما لكون الدراسات الآن توجهت صوب الحداثة وما بعدها وتجاوزت فرضا الدراسات القديمة والوسيطية، لم يقتصر الأمر على الكتب والمنشورات بل حتى الملتقيات العلمية الفلسفية والندوات الوطنية، وفي المقابل شهدته الفلسفات الغربية اهتماما بالغا بإعادة إحياء الفكر الأوغسطيني لأهمية مواضيعه المتنوعة التي طرحها.

أهمية البحث تكمن أساسا في محاولة تسليط الضوء على مكامن الفلسفة في الفكر الأوغسطيني، خاصة وأن أغلب الدراسات التي تتناول أوغسطينوس هي دراسات في الشريعة الإسلامية، إذ تعتمده نموذجا في دراسات مقارنة الاديان للمقارنة بينه وبين مختلف الشخصيات الإسلامية في إحدى القضايا العقدية، أما الدرسات الفلسفية فتكاد تكون منعدمة على الرغم من أن المادة الفلسفية فيها دسمة جدا.

هذا يحيلنا للدراسات الأكاديمية السابقة إذ تتركز معظمها في تخصص مقارنة الأديان كما سبق الذكر، أما أطروحات الفلسفة فتكاد تنعدم، نجد أطروحة مهمة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه للطالب كحول سعودي للسنة الجامعية 2016م-2017م تحت عنوان: مكانة الحدس في فلسفة القديس أوغسطين، إذ تعتبر الأولى من نوعها عربيا التي تتخصص في فكرة جوهرية من نظرية المعرفة لدى فيلسوفنا على الرغم من أن الدراسات الأجنبية في هذا الموضوع لا تعد، كما نجد رسالة ماجستير للطالبة ياقوت قرعوني للسنة الجامعية 2005م-2006م، تحت عنوان: نظرية المعرفة عند القديس أوغسطين وقد ركزت فيها على التحولات والمنعرجات الفكرية التي مر بها أوغسطين والانتقادات التي وجهها للمانوية، الشكية والأفلاطونية المحدثة,

وظفنا في هذا البحث مجموعة من المصادر والمراجع والمقالات وقد اعتمدت في المصادر على بعض من أعمال القديس أوسطين إذ يصعب الالمام بكل مؤلفاته لضخامة عددها إذ تتجاوز المائتي كتاب، وقد فرضت المادة المعرفية على البحث جملة من المصادر الأوغسطينية أهمها: مدينة الله بمجلداتها الثلاثة، الاعترافات، في الحياة السعيدة، مزمور ضد الدوناتية، رسالة القديس بولس، إضافة إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد لتدعيم الطرح الأوغسطيني من مصدره الأصلي، والتفاسير اليهودية والمسيحية على حد سواء.

أما بالنسبة للمراجع فيمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات أما المجموعة الأولي فتتمثل في المراجع الأساسية والتي تعتبر دراسات منفردة حول القديس أوغسطين فنجد كتاب أوغسطين لجاريث ماثيو، كتاب القديس أوغسطين والأوغسطينية لهنري إيرية مارو، كتاب المفردات والأسلوب لكريستيان نادو، كما أثريت الدراسة بمقال علمي للدكتور موسى معيرش بعنوان: مشكلات القيم في فلسفة.

المجموعة الثانية وتتمثل في المراجع التي كان القديس أوغسطين عنصرا من عناصرها ومن أهمها التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية لنورمان ف. كانتور، كتاب روح الفلسفه المسيحيه في العصر الوسيط لإيتين جلسون، كتاب فلسفة العصور الوسطى لعبد الرحمان بدوي، كتاب تطور الفكر السياسي لجورج سباين،... إلخ.

أما المجموعة الثالثة فتضم المرجع الثانوية والتي لا تدرس فكر القديس أوغسطين إلا أننا نعتمدهم سواء لتدعيم فكره أو نقده خاصة فيما يتعلق بعامل قيام الحضارة وسقوطها، من أهم هته الكتب نجد أهم جمهورية أفلاطون، كتاب القوانين لأفلاطون، عالم الغيب لشيشرون، ووومطارحات ميكيافيلي وغيرها.

وكأي بحث أكاديمي فإن الصعوبات جزء لا تتجزأ من هيكلته، بل إنه العنصر المتكرر في كل مباحثه ومطالبه، خاصة فيما يخص مواضيع العصور الوسطى ودراسات فلسفة التاريخ، لأن البحث فيها هو بحث في وجهة نظر بل في إيديولوجيات أصحابها، كون الإشكال المطروح ونحن نتتبع الأحداث هو: من الذي يكتب التاريخ؟، فالصعوبة هنا ليست صعوبة هذا البحث بقدر ما هو صعوبة مبحث فلسفي بأكمله، فأي معلومة هي الصحيحة؟ وأي زاوية نظر نعتمد وكل زاوية تناقض الأخرى وتنفيها؟.

بالإضافة إلى العجز عن دراسة مؤلفات الرجل بلغته اللاتينية وهي اللغة التي كتب بها، والترجمات الفرنسية والإنجليزية من اللاتينية هي ترجمات لرجال دين، لهذا قد تكون ترجماتهم أخذت طابعا دينيا أكثر منه فلسفي، قد يؤدي الأمر إلى طمس الجانب الفلسفي لأوغسطين أكثر فأكثر.

الفصل الأول: السقوط االوجودي للإنسان

المـــــــــــــبحث الأول: المرجعيات الفكـــــــــــرية للفلســـفة الأوغسطينية.

المبـــحث الثاني: جدلــــــــــية الحب/الخطـــيئة في الـــــتاريخ.

المبحث الـــثالث: جدلية الإنسان الأصل/الإنسان الجديد.

تمـهيـــــــــــد

حياة العظماء حياة سؤولة على الدوام، يحمل صاحبها مطرقته ليحطم بها كل حقيقة جاهزة تعترضه، تلك الحقيقة التي صبت الذات فيها، وفرضت عليها السباحة في حدودها، فأدت لسجن الفكر في قوالب لم يبذل رائدوها أو مديروها عناء تفكيكها وخلخلتها. فوقع العقل في فخ "المعتقد" المتكلس، هنا كان لزاما على العقل السؤول أن يجترح أسئلة جذرية جريئة وعنيفة "تعلق" كل حكم مسبق وفق سيرورة ديناميكية لهوية تعمل على تفكيك ذاتها وإعادة بنائها بصورة متتالية وسلسة أولا، وتفكيك الآخر والذي يكون على مستويين، مستوى تتماهى فيها الذات مع ما كان خارجا عنها، ومستوى تنفصل فيه. ينطلق العقل من الانقلاب على كل مصمت مشكوك فيه بعد مسيرة من الترحال بين المعتقدات والفلسفات والأفكار، فلا يكاد العقل يستأنس لفكرة حتى ينقلب عليها، دائم التنقل بين متون المعرفة باحثا عن الحقيقة.

الحقيقة هاجس الجميع لكن طريقة الوصول إليها هي التي تحدد العظماء من غيرهم، أهي طريقة ثورية تنقلب فيها على كل قديم صار بالتقادم مقدسا، أم يولد بها ثم يستميت في الدفاع عنها دون تمحيص أو حتى مجرد طرح سؤال ثم ينتقد كل من يرى عكس مقولاته.

لم يختلف أحد من المسيحيين حول مكانة القديس أوغسطينوس، إذ نصّبوه أعظم لاهوتي في الألفية الأولى من التاريخ المسيحي إن لم يكن في التاريخ المسيحي ككل، وإلى غاية يومنا هذا يدينون لاستمرار المسيحية له، بل الأكثر من ذلك فإن موسوعية الرجل اللاهوتية جعلت الفرق المسيحية على اختلافاتها الجوهرية تتنازع على ضم أوغسطين إليها، فالبروتستنتية تقول أنه أباهم، والكاثوليكية تقول أنه الذي طور كنيستهم وأوصلها إلى هذه المتانة التي تتميّز بها.

رغم هذا الاتفاق على الجانب اللاهوتي من فكر الرجل؛ إلا أن مشروعه الضخم تعرض للكثير من ردود الأفعال المتناقضة، هنا تتموضع الإشكالية التي تعرض لها الفكر الأوغسطيني بين من اعتبره ثائرا على المسلمات العقدية والفكرية، باحثا حرا عن الحقيقية بعد أن تخلص من كل ما ورثه من عصره من أحكام مسبقة وعقائد جاهزة، أم إن أوغسطين هو ابن أمه التي أرغمته على اعتناق الدين المسيحي والذي برغم ما عاشه من تجاذبات فكرية عاد لحضن أمه وحضن فكرها الكاثوليكي الصارم؟

مشروع أوغسطين الفكري هو عينه حياته التي عاشها بمراحل مختلفة صنعت كل مرحلة جزءا من مشروعه، لذا من العبث محاولة الحكم على الفكر الأوغسطيني دون الرجوع إلى اعترافاته، هي الفيصل في الحكم على الرجل دونا عن بقية كتبه، لأن الاعترافات هي سيرته التي كتبها بنفسه عن نفسه، وفيها ذكر بالتفصيل المنعرجات الفكرية والفلسفية التي مر بها بداية من تاغست قريته المتواجدة في أقصى الجزائري مرورا بأسمى المراتب في قرطاج وميلانو وصولا إلى بونة بعنابة.

المبحث الأول: المنطلقات الفكرية للفلسفة الأوغسطينية.

يعتبر كتاب الاعترافات أول مدونة فعلية على شكل سيرة في تاريخ الأدب عموما والغربي خصوصا، كتبها أوغسطينوس ليعرض حياته للناس رذائله قبل فضائله، طرح فيها المنعرجات الفكرية التي مرّ بها والتي صنعت فلسفته ونحتت سؤاله، منذ حمل الكتاب المقدس لأول مرة ورماه إلى غاية حمله مجددا في نهاية رحلته وتقديسه، مرورا بعدة فلسفات مركزية آنذاك من مانوية وشكية وأفلوطينية وأفلاطونية وغيرها. هي ليست سيرة حياة ومراحل مرّ بها بقدر ما هي أهم فلسفات العصر اليوناني والوسيط لسائدة آنذاك والتي تأثر بها ومن ثم انتقدها تحت وطأة هاجس البحث الدائم عن الحقيقة.

"13 نوفمبر 354م جاء القديس إلى العالم بتغاست في نوميديا بإفريقيا، بجوار مداوروش وهيبو[عنابة] (...) من عائلة فقيرة، لكن نزيهة، إذ كان أبوه باتريس "الوثني" ذو مكانة مرموقة في مدينته، كونه واحد من القضاة المسؤولين عن تحقيق العدالة"[1] أما أمه مونيكا القديسة فقد كانت "تعلمه الإيمان، لا بكلام ولا بنهي وأوامر، بل بالنموذج والقدوة والممارسة من خلال سلوكها الروحي اليومي، كانت تعي جيدا مدى انطباع السلوك في ذهن الأطفال، فلم تكن تحتقر صغر سن الأبناء"[2]، مساحة الحرية التي وسعّتها الأم في بيتها أثّر بالإيجاب على شخصية أوغسطين الطفل وجعله حرا في اختيار المعتقد والتوجه الذي يشاء لاحقا.

أما والد أوغسطين فكان كل همه أن يرى ابنه في مراتب الدنيا العليا، إذ كان "يهتم بمستوى ابنه الاجتماعي والعلمي ويتحمل من أجله ما فوق طاقته من نفقات الدراسة والأسفار والمعيشة (...) كل ذلك في سبيل أن يرى ابنه وقد احتل مكانة مرموقة"[3]، وعلى عكس مادية والده، كانت والدته تأمل أن ترى ولدها في مراتب روحية عليا، إبنا للسيد المسيح ناشرا للرسالة. أمام هذا التشظي العقدي الذي عاش أوغسطين في كنفه اختار أن يساير مسيحية أمه، ويحقق مرغما حلم والده بالتدرج في الدراسة على الرغم من كرهه الشديد

[1] Peter brown, Le vie de saint augustine, traduirde l'anglais par Jeanne henri marrou,éditionsde seuil, Paris, 1971, pp2-3.

[2] بولا البراموسي: القديسة مونيكا، مر: الأنبا موسى، بطريركية الأقباط الأرثوذوكس، القاهرة، دط، دت، ص: 23.

[3] المرجع نفسه، ص: 25.

للمدرسة، لما كان لها من ذكرى سيئة في حياته؛ إذ تلقى ضربا مبرحا وعقابا شديدا بسبب نتائجه السيئة وفشله في دروسه.

طفولة أوغسطين كانت طفولة مرح بامتياز، لعب ولهو وتمتع بملذات الحياة، وانسياق خلف كل ما يلبي نزواته، ويشبع شهواته، وجد سعادته في هذا النمط من الحياة واستمات فيه، فكان حسيا في اختياراته متشبعا بها، حسيا في سعادته، حسيا في تفكيره، تغلغلت الحسيّة شيئا فشيئا في حياة أوغسطين وعقله السؤول حتى استحوذت عليه، في هذه المرحلة الحسية من حياته طالع الكتاب المقدس تلبية لطلبات والدته الملحّة والمتكررة، لكنه ضحك ضحكا شديدا من تفاهة القصص التي وردت في الإنجيل الشبيهة بقصص العجائز المشوقة والساذجة معا، والتي لا تقنع بخيالها الشاطح غير الأطفال الصغار، إذ تعج بالتشبيهات واختلاق الأحداث التي لا يستوعبها عقل، فتقوم بتركيب ما لا يركب إستدلاليا فتخبرهم بأن إنسانا تبادل أطراف الحديث مع حيوان (كما حدث بين حواء والحيّة ننظر سفر التكوين الاصحاح 3)، وتقنعهم بأن هناك بشرا لهم قدرات خارقة لقوانين الطبيعة الصارمة كأن يقوم بشري بفلق بحر إلى قسمين (سفر الخروج 14: 21-25)، أو أن يتحل الماء إلى خمر (يوحنا 2: 1-11)، وإن تغاضى العقل عن كل هذا هل يتغاضى عن ميت يقوم من قبره ويواصل حياته بين الأحياء بصورة طبيعية؟ (يوحنا 11: 38-44)، هي قضايا يقف أمامها العقل الحسي المادي عاجزا عن إثباتها أو حتى تصديقها، عجز أوغسطين عن استيعاب هذه القصص جعله يرمي النص المقدس لينخرط في نص العالم الحاضر-المثبت أمامه.

نص ركيك لم يعجب الشاب الممعن في الشعر والخطب السياسية، المبحر في كتب التاريخ، الذي وجد أن خطب تولى المفوه الروماني أعظم من أن تقارن بهاذ النص المقدس الفارغ من المتانة والإبداع؛ قال :"بدا لي أنه لا يستحق حتى مقارنته بكتابات تولى العظيمة"[1]، وذلك أن عقله الحسي عموما تعذر عليه استيعاب وجود كينونة مفارقة بمعنى :"وجود شخص عظيم يصعب على حواسنا إدراكه"[2]، فقرر تعليق الروح وكل ما هو متعالي ليختار اللعب والفنون والمسرح وكل ما يشبع رغباته الحسية ونزواته الجسمانية حتى يحقق سعادته الآنية، يقول "أنا لا أحب غير اللعب (...ليصل إلى) أول تصور أن الحياة لعبة"[3]، عبة يحاول الانسان الاستمتاع بها قدر الإمكان لتحقيق السعادة التي يبحث عنها الجميع والتي وجدها أوغسطين في المادة. لم يتجاوز الشاب

[1] أوغسطينوس أوريليوس: الإعترافات، تر: برتي شاكر، دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط5، 2011، ص 39.

[2] المصدر نفسه، ص 14.

[3] Jacque Chabanne: Saint Augustin, édition France-empire, Paris, 1961, p 37.

عامه السادس عشر حتى جذبه تيار الملذات التي انغمس فيها وسيطرت على كل معارفه وتوجهاته؛ يقول :"تصاعد دخان رغبات جسدي الدنيئة التي غطت كالسحب قلبي وأظلمته حتى لم أعد أميز بين الصفاء الواضح للحب وغشاوة الهوى والشهوة(...) فانغمست في شهوتي وظللت وتناثرت أشلائي، هويت في بئر الدعارة"[1]، فأصبح شغل الشاب الشاغل هو الإلمام بأكبر قدر ممكن من الملذات وإحراز قدر كبير من الملذات.

كان أوغسطين حسي المذهب، والحس والإحساس "هو قسم من الإدراك وهو إدراك الشيء الموجود في المادة الحاضرة عند المدرك، مكنوفة بهيئات مخصوصة من الأين والكيف والكم والوضع وغيرها، فلا بد له من ثلاثة أشياء: حضور المادة، واكتناف الهيئات، وكون المدرك جزئيا(...)"[2]، والحس "هو القوة التي بها ندرك الإحساسات، والحواس هي آلات الحس (...) والحسي والمحسوس هو ما يدرك بالحواس، (...و) الحسي هو المنسوب إلى الحس فهو عند المتكلمين ما يدرك بالحس الظاهر، وعند الحكماء ما يدرك بالحس الظاهر والباطن، والحسي يسمى محسوسا، ويقابل الحسي العقلي"[3]، والمدركات الجزئية والحس الظاهر هو ما كان يشغل قوى الرجل الناشطة والحقيقة هي كل ما يصدر عنها، فظن أوغسطين أنه وصل للحقيقة وبها تحققت سعادته.

السعادة تبعا للحسيين هي كل ما يرضى رغبات الجسد ويحقق لذاته الآنية السريعة، وهي نفسها السعادة عند أوغسطين، إذ كان مولعا بالماديات متلهفا لاقتناص أكبر قدر منها بأي طريقة، غير مبالي بانعكاساتها على الآخر مادامت تسعده؛ يقول "كان بالقرب من كرمنا شجرة أجاص (كمثرى) محملة بالثمار، ولكن لا لون ولا طعم لها، ورغم ذلك ذهبت بصحبة فتيان فاسقين في وقت متأخر ذات ليلة حسب عاداتنا الشريرة باللعب واللهو في الأزقة حتى أوقات متأخرة، وقمنا بهز هذه الشجرة وسرقة أحمال كبيرة منها، لا لنأكل منها بل لكي نُلقي بها إلى الخنازير لتتذوقها هي أيضا. كنا نحب أن نفعل ذلك لا لشيء إلا لأنه كان مكروها من الآخرين"[4]، إذن كان الهدف هو تحدي الآخرين وفعل كل ما يخرج عن المألوف، هو بحث من زاوية أخرى عن التحرر من قيود المجتمع، وعدم الخضوع لقوالبه والانعتاق من قيود القوانين وشرائعه هي

[1] أوغسطينوس أوريليوس، الإعترافات، مصدر سابق، ص 25.

[2] جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الشركة العالمية، لبنان، دط، 1994، ج1، ص ص 43- 44.

[3] المرجع نفسه، ص 44.

[4] المصدر السابق، ص 29.

رغبة في "الحرية " من جهة والاستماتة في الخطيئة من جهة أخرى؛ والخطيئة هي حكم يطلق على كل سلوك يحرم على الجسد لزهد بنشده، لذاته الجسدية التي يحققها، وإذا كانت الحرية هي الهدف من السرقة فإن الجمال هو المحفز لها، فالجمال هو ما يثير الجسد ويفجر شهواته يقول: "للأجساد الجميلة محاسنها وللذهب والفضة زخرفها، ولكل جميل فتنة أما لذة اللحم ففي اللمس وهكذا كل حسي يلقى في الجسد ما يوافق طبعه"[1]؛ وهذا ما يفسر إسراف أوغسطين في الزنا معتبرا أن الجمال يكمن في التناسق والتناغم الذي يحدث بين جسدي الرجل والمرأة؛ يقول: "كانت تصوراتي هي الولع بالماديات"[2]، فكانت القيمة الجمالية للشيء تتحدد بمظهرها الخارجي المادي إذ لا مجال هنا لاختراق الظاهر للوصول إلى باطن الشيء أو جانبه الروحاني أو الوجداني.

المطلب الأول: أوغسطين والمانوية

في سيرورة بحثه عن الحقيقة اعتنق أوغسطين المانوية والتي أعطت المشروعية لمذهبه الحسي بل وطورته، أو ربما كان من الأساس يبحث عن المشروعية لحسيته فوجد المانوية، وأيا كانت علة البحث فقد كان الرجل باحثا حاد الذكاء منتقلا بين متون الحكمة لا يوفر جهدا للحصول على مختلف الكتب وفك شفراتها، مهما بلغت من الصعوبة ومهما أعجز أسلوب صاحبها أكفأ الأساتذة، فيخبرنا مثلا عن كتاب الفئات العشر لأرسطو يقول "وقع بين يدي وأنا لم أتجاوز بعد العشرين من عمري فقرأته وفهمته دون مساعدة من أحد؟ لقد تعلقت بهذا الكتاب جدا وكأنه شيء إلهي، حتى أن أساتذتي في قرطاجة وأمثالهم أيضا كانت خدودهم تتوهج فخرا حينما يذكر إسمه، وحينما أتداول أمر هذا الكتاب مع آخرين، كانوا يقولون إنهم بالكاد استطاعوا فهمه، وبمساعدة بعض معلمين مقتدرين لم يكتفوا بشرح ما جاء بالكتاب شفهيا، بل رسموا أشياء كثيرة من مضمونه على الرمال لتبسيطها، ورغم هذا كله لم يزيدوا شيئا على ما قد فهمته وحدي دون عون من أحد"[3]، لم يقتصر اطلاعه على كتب الفلسفة وحسب يقول: "لقد استطعت أن أستوعب وحدي دون مساعدة معلم، ودون صعوبة كبيرة، كل ما كتب عن الخطابة والمنطق، والهندسة، والموسيقى، والرياضيات، وأنت تعلم ذلك يا إلهي وكيف لا تعلم وأنت الذي وهبتني سرعة الاستيعاب وفطنة التمييز"[4]، وعلى الرغم من تنوع الكتب التي درسها وحللها إلا أن نظرته لا تزال حسية مكتف بالمعارف الجزئية التي نتجت عنها.

---

[1] أوغسطينوس أوريليوس: شرح رسالة القديس يوحنا الأولى، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط4، 2001، ص 35.

[2] أوغسطينوس أوريليوس: الاعترافات، المصدر السابق، ص 51.

[3] المصدر نفسه، ص ص 64 -65.

[4] المصدر نفسه، ص 65.

وهذا ما كانت المانوية تدعو له، لكن ليس كل المانوية بل فئة "السماعين"، إذ أن مريدي المانوية يتراوحون بين صيديقين وسماعين، ولكل فئة من هاتين شعائر وواجبات تختلف عن الأخرى "فينبغي للذي يريد الدخول في الدين أن يمتحن نفسه فإن رآها تقدر على قمع الشهوة والحرص على ترك أكل اللحم وشرب الخمر والتناكح، وترك أذية الماء والنار والسحر والرياء، فليدخل في الدين وإن لم يقدر على ذلك كله فلا يدخل في الدين، وإن كان يحب الدين ولم يقدر على قمع الشهوة، فليغتنم حفظ الدين والصديقين، وليكن له بإزاء أفعاله القبيحة أوقات يتجه فيها للعمل والبر والتهجد والمسألة والتضرع فإن ذلك يقنعه في عاجله أو آجله، ويكون صورته الصورة الثانية في المعاد"[1]، أي أن يمارس الانسان المحب للمانوية كل نزواته ثم يكفر عنها لاحقا بخدمته للصديقين، مادام أن قلبه مازال ينبض بحب المانوية، فلا شك أنه سيزهد عن مغريات الجسد عاجلا أم آجلا لأن خدمته للصديقين وخدمتهم لهم يوميا تساعد في التأثر بهم والاقتفاء أثرهم الصالح، لكن أليس من الغريب أن يعتبر المحب للشهوات المادية، والخاضع لرغبات الجسد على حساب الروح من أتباع المانوية وفرقة من فرقها وهي الديانة المعروف عنها الزهد ونبذ المادة؟

الخطايا والآثام جزء لا يتجزأ من العقيدة المانوية فهي تؤمن بوجود إله الظلام إلى جانب إله النور*، وما الخطايا التي يقوم بها الانسان سوى قوة إله الظلام التي تغلّبت على الجانب الخيّر في الانسان وخبأ دور إله النور، بالقضاء على ذرات النور المنتشرة في روح الانسان، ذرات ظلام ونور تتصارع داخل الفرد محاولة السيطرة عليه بانتشارها ومحاصرة الذرات الأخرى، لكن تبقى الغلبة الكونية لإله النور، ما دفع بأوغسطين إلى جعل "في

[1] محمد بن إسحاق النديم، الفهرست، تر وتح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1997، ص 330.

* المانوية نسبة إلى ماني 216م في بلاد بابل الشمالية، أتاه الوحي عندما أتم إثنتا عشرة سنة يروي ماني ما حدث بينه وبين القرين السماوي الذي يلازم الأنبياء أو ما يسمى بالفارقليط –ويقصد به ماني هنا الروح القدس– الذي أنزل إليه الوحي يقول:"في هذه السنة نفسها عندما كان الملك أردشير على وشك التتويج نزل الفارقليط الحي، وكملني للمرة الأولى وأباح لي معرفة السر المحجوب عن عصور وأجيال بني البشر، السر العميق والعالي، سر النور والظلام، سر الصراع، والحرب، والحرب الماحقة، كل هذا أباحه لي، (...) وهكذا أباح لي الفارقليط وعلمني كل ما كان وسيكون"، بقي مخفيا أمر نبوّته منتظرا أن يسمح له القرين بالجهر بالدعوة معتبرا نفسه المخلّص الذي بشر به السيد المسيح قبل صعوده للسماء، في سنة 240م، نزل الروح القدس سامحا له بالتبشير، بدأ في التنقل بين الدول جامعا للناس بمعيّة المعجزات التي منحها له الرب، نجح في نشر رسالته على نطاق واسع في إيران وبابل ومصر ،إلى ان وافقته المنية سنة 277م، تقوم الفلسفة المانوية على فكرة الصراع القائم بين أهورمازدا ويمثل الخير، وأهريمان أو أهرمينو ويمثل الشر، كانا في البداية توأمين إختار كل منها بارداته الحرة الطبيعة التي يرغب بها، هناك من اعتبر أهريمان شيطانا وهناك من رمز له بالمادة وهناك من اعتبره إلها، وبرغم هذه الاختلافات إلا أن الجميع متفق على أن أهريمان أقل مكانة من أهورامازدا والذي سينتصر عليه في النهاية وتتغلب مملكته مملكة النور على مملكة الظلام. ننظر أمين معلوف: حدائق النور، تر: عفيف دمشقية، دار الفرابي، بيروت، ط4، 1998. وننظر جيو وايد نفرين، ماني والمانوية، تر: سهيل زكار، دار حسّان، ط1، 1985.

إحدى المناقشات التي دارت مع المانويين- فاوست ينطق بالكلمات التالية: إنني أبشر أن هناك عنصرين رئيسيين هنا: الرب، والمادة، فأعزو كل ما هو شرير إلى المادة، كما أعزو إلى الرب كل قوة خير كما هو لائق به"[1]؛ وبانتظار أن ينتعش النور في الانسان ويحي وينهزم الشر بداخله وينحسر، أي أن يفعّل الخير ويخمل الشر، يجب أن يبقوا على مقربة من الصديقين، كيف لا وهم مخلوقات أهورمازدا "مخلوقات ملهمة جدا (روحانية) ومحبة للمعرفة وجديرة بالثناء"[2]، ويؤكد ذلك أهورمازدا في حواره مع زرادشت عندما سأله هذا الأخير عن الطريقة التي تجعل أهورمازدا قريبا منا على الدوام فأجاب "مهما حدث ومهما كان دعه يُرضي ويُفرح الانسان الصالح، لكي يحميه أهورمازد من الأشرار لأن الانسان الصالح مثيل للإله أهورمازد، فعندما يقوم بفعل هذا يعني أن أهورمازدا يقوم من خلاله، المجد والطيبة لذاك الذي يُرضي الصالح، سيبقى على الأرض طويلا، وجنة ونور أهورمازدا والسعادة والطمأنينة ستكون له"[3]. بمعنى أن الصديقيين هم التجليات الجسمانية لأهورمازدا الروحاني بخيريتهم ونورهم، فبقي أوغسطين على مقربة منهم حتى يكفروا عنه خطاياه التي غمرت قلبه بانتظار اللحظة التي تنتقل فيها ذرات النور إلى جسمه الذي سيطرت عليه مادة أهريمان.

انخرط أوغسطين في المانوية بعد أن وجد في تعاليمها ما يجيبه عن الكثير من الإشكاليات لعل من أبرزها إشكالية مصدر الشر في العالم وأصله، بل وجد في أهريمان سبيله في تفسير ما يقوم به من شرور، وأكثر من ذلك كان يرمي عليه حمل أخطائه، لذا كان بعد كل دنس يتلوث به هو وأصدقاؤه يقول: "فكنا نبغي التطهير من هذه الأدناس، فرحنا نحمل الطعام لمن يطلق عليهم الصفوة والقدسين [الصديقين] ليصوغوا في جوفهم ملائكة وآلهة يمكننا بهم أن نتطهر"[4]، فكان التطهر من شوائب أهريمان سهلة عند المانوية، تزول بمجرد خدمة الصدوقيين وكسب رضاهم، فيكفي تقديم نصيب من الطعام لصدوقي حتى تكفر جميع الذنوب والآثام وإن كانت زنا أو سرقة أو دعر، والتي كان يمارسها أوغسطين بكل رضى مادام أن هناك ربا يرمي عليه عبء الخطأ، ورب آخر يسامحه بخدمة بسيطة يقدمها لأبناء النور.

بقي الرجل مخلصا للمانوية طيلة تسع سنوات من التاسعة عشر إلى الثامنة والعشرون من عمره، اطلع فيها على كل ما كتبه وقاله أصحاب معتقده، كيف لا وهو الخطيب المفوه، القارئ النهم، الباحث عن

[1] جيو وايد نفرين، مرجع سابق، ص 63.

[2] الأفستا (الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية)، إعداد: خليل عبد الرحمان، روافد للثقافة والفنون، سوريا، ط2، 2008، ص 794.

[3] المرجع نفسه، ص ص 835 -836.

[4] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص 49.

الحكمة، إلى أن جاء اليوم الذي التقى فيه بأكبر زعماء المانشية الصديقين وهو "فستوس الميلي"، كان متحمسا لهذا اللقاء حتى يساعده على إزالة اللّبس حول كثير من المسائل التي كانت تؤرق أوغسطين، لم ينكر أوغسطين براعة فستوس الخطابية لكنه لم ينبهر بها مثل البقية كونه هو الآخر قد نال لقب أستاذ الخطابة وقبلها أستاذا في النحو، كانت سلاسة لغته وعذوبة كلماته سبيله لإخفاء ضعفه المعرفي، لكن فيلسوفنا ميّز جهله بسهولة بعد أن طرح عليه بعض الأسئلة أثناء محاضرة ألقاها بقرطاج، وجد أن إجابته فارغة المضمون يقول "وجدته جاهل تماما بالفنون الحرة، وحتى قواعد اللغة التي يعرفها اتضح أن معرفته بها معرفة عادية، كان قد قرأ مجموعة من خطب شيشرون ومجموعة من كتب سينكا، ومجموعة قصائد شعرية متنوعة، ومجموعة من كتب المانشيين التي أعدت وكتبت جيدا باللغة اللاتينية، بالإضافة إلى ممارسته للخطابة يوميا كل هذا أكسبه مستوى خاص من الفصاحة، وزاد متعته وإغوائه بمرور الوقت لأنه جاء تحت إرشاد عقل واع وفطنة فطرية (...)وبعدما اتضح أنه يجهل مثل هذه العلوم التي تخيلت أنه بارع فيها، بدأت لا أعول عليه في تفسير الأمور التي طالما حيرتني كثيرا"[1]، كان لقاء أوغسطين مع فستوس نقطة انعطاف جذرية في حياته، فبعد تسع سنوات من التبعية يكتشف أن كل ما كان يؤمن به هو محض سفسطة لا تتضمن أي قاعدة مؤسسة أو معرفة مبيّنة يقول :"ثم أدرك في نهاية الأمر، أني لم أتعلم منهم شيئا (...)ومن ثم انفض حماسي لكتابات المانشين، ولم أعد آمل في معلميهم شيئا ذي قيمة (...)هكذا، صار فستوس الذي أوقع كثيرين في فخ الموت هو ذاته الذي حل ربطي مع هذه الجماعة، دون علم أو قصد"[2]، بعد صدمته في معلمهم الأكبر انكب على كتبهم يراجع ما فيها، فانصدم للمرة الثانية لأنه وجد "أن كتبهم كانت مليئة بالأكاذيب والخرافات المضجرة عن السماء والنجوم والقمر، لم أعد أعتقد أنه كان بإمكانه أن يعطيني إجابات مرضية عن ما كنت أرغب في معرفته أو يستطيع مقارنة ما كان يقوله بالحسابات والتقديرات التي قرأتها في كتب أخرى"[3]؛ تسع سنوات في سجن الحواس المانوية كانت مجرد وهم، انخدع فيه الشاب المثقف السؤول.

عاش أوغسطين صدمة معرفية حقيقية بعد أن اكتشف أن تسع سنوات من المعرفة اليقينية هي محض هراء لا يقين من ورائه، كل ما كان مقتنعا به خاطئ تماما، لم يعد في ذهنه سوى الفراغ، لم يعد يدرك أين هي الحقيقة أو بالأساس ما الحقيقة وما هو طريقها وأين يجدها؟. صدمة فعلية جعلته يفقد ثقته في كل معرفة

[1] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص 73.

[2] المصدر نفسه، ص 74.

[3] المصدر نفسه، ص 73.

تأتيه، بل في كل معرفة قد تحصل عليها سابقا، يرجع أوغسطين السبب وراء انخداعه كل تلك السنوات إلى الحواس يقول: "أما أنا فقد اتبعت تخيلاتي وأفكاري عن الماديات والجسديات التي أنهكتني كثيرا كما لو كنت أختنق من شدة وطأتها علي"[1]، لم يقتصر شك أوغسطين على المعارف، بل امتد إلى نفسه التي خذلته كل هذه السنوات، إلى عقله الذي ظن أنه وصل إلى درجة من التعقل والحكمة تحميه من هكذا فراغات عقلية لكنه انخدع بسهولة، امتد إلى كل شيء يحيط به وبه: بذاته، فغادر أوغسطين المانوية وهو لا يعرف شيئا، مشتت الذهن باحثا لكن هذه المرة ليس عن الحقيقة بل عن أوغسطين الذي أضاعته المانوية ورمته في فضاء من العدم، أوغسطين الذي كان يتباهى بشرح أصعب الكتب الأرسطية، خدعته كتب لا تقول شيئا، فغادر المانوية وهو يشك في كل شيء.

المطلب الثاني: أوغسطين والشكية

إنتقل أوغسطين إلى روما ومنها إلى ميلانو وهو في حالة متقدمة من الشك يقول :"إن الشك قد راودني بكل ما كنت أعتقد أنه حقيقة مؤكدة تمسك بها قلبي، فأحسست بالخزي لأنني خدعت وظللت طويلا وأنا متمسك بما كنت أعتقده أنه حقيقة مؤكدة، وهكذا كنت مثل طفل يثرثر ويهذي عن أمور مشكوك فيها، معتبرا إياها حقائق؟ ولم أدرك أنها بطلان إلا مؤخرا"[2]، وكنتيجة لهذه التجربة التي عاشها أوغسطين مع المانويين وقع في مأزق ابستمولوجي عميق حول ما الحقيقة؟ وأين هي؟ وما كنهها؟ وكيفية الوصول إليها؟

الحقيقة التي اعتقد أوغسطين أنه توصل إلى الإجابة عنها طيلة السنوات المادية، لكنه خدع وهو المعروف بحدة ذكائه وسرعة بديهته، بدأ الرجل يعيش صراعا داخليا عنيفا "علّق" فيه كل حكم على أي معرفة سبق وآمن بها، بل ورفض أي معرفة جديدة يدعي أصحابها أنها الحقيقة، رفض أي معرفة دوغمائية. في خضم هذه الصراعات تعرف صاحبنا على قديس يدعى "أمبروز"*، تعلق به لما رأى منه من رحابة صدر

[1] أوغسطينوس: الإعترافات، مصدر سابق، ص 80.

[2] المصدر نفسه، ص 87.

* القديس أمبروز: أو أمبروسيوس ولد عام 340م، والده أومبروسيوس حاكم بلاد الغال، تربى في أسرة مسيحية صالحة، عرف عنه فصاحته وسعة معرفته، وقوة شخصيته، إذ يخبرنا التاريخ أنه وقف في وجه الإمبراطور السفاح ثيئودسيوس ومنعه من دخول كنيسته حتى يعترف بذنبه وجرمه إزاء آلاف المواطنين الأبرياء، لم يخف من بطشه بل واجهه بكل حزم وامتنع عن حضور اجتماعاته ومنعه من دخول الكنيسة حتى يتوب ويخضع للرب مجددا، توفي يوم الجمعة العظيمة الثالث من شهر أفريل من عام ثلاثمائة وسبعة وتسعين للميلاد. ننظر أمبروسيوس: الأسرار، تر: بيت التكريس لخدمة الكرازة، مؤسسة القديس أونطونيوس، القاهرة، ط2، 1996.

وسعة فهم، خاصة وقد عرفه على جانب آخر من المعرفة وهي المعرفة الروحية التي كان يدلل عليها ويبرهن على صحة ما جاء فيها، وعلى الرغم من كون الرجل مستمع جيد إلا أنه لم يكن يثق بكلامه ويشك فيه بعد صدمته تلك، تعرف عليه وأعجب بسلاسة طرحه وبالفكر الجديد الذي تعرف عليه من هذا الرجل، لكن لم يثق في كلمة واحدة قالها، ولم يستأنس بنص واحد مما خطب به الناس حينها.

في هذه الفترة العدمية من حياة الرجل تعرف صدفة على الشكاك، وانجذب لفكرهم الذي عبّر عن أزمة أوغسطين المعرفية وساندها، خاصة وأن كل روادها يعايشون نفس المأزق الذي يعايشه أوغسطين، ونفس الخدعة التي انطلت على أوغسطين، فكان أن آمنوا بنفس المبدأ: نحن لا نعرف شيئا، ولا يوجد بالأساس حقيقة نستطيع أن نعرفها، فانضم إليهم لفترة قدرت بثلاث سنوات كاملة، كان يرى خلالها أن كل المعارف المسبقة لا بعضها خدعة من الغباء تصديقها، إذ كان شكه شكا كليا، يقول أوغسطين في هذا الشأن "وهو يعلمهم (يقصد أمبروز) أن ابن هذه الأم (مونيكا) يشك في كل شيء وأن الطريق إلى الحياة لا يمكن اكتشافه"[1]، وكان يرى في كل الصور الخارجية أوهاما وخيالات وزيف، و يرى ذلك حتى في ذاته وحقيقة وجوده، وكعادة الرجل السؤول انكب على كتب الأكاديميين يدرسها ويحلل مفاهيمها، ويتأكد من صحة أطروحاتهم وقوة براهينهم لأن عقله السوي الباحث رفض أن يستمر في حالته العدمية العبثية، رغبة منه في الخروج من تلك الأزمة الإبستمو-أنطولوجية التي عصفت بكيانه، يقول "كان الأحرى بي أن أواجه الشك"[2]، وبدأ البحث محاولا إيجاد أي مخرج يساعده، كان يريد أن يعود لحالة الاستقرار الذهني التي كان يشعر بها مع المانوية، يقول "ثم وددت أن أتيقن من حقيقة أشياء لا أراها، مثلما أنا موقن من أن حاصل جمع سبعة وثلاثة هو عشرة، بالطبع لم أكن مجنونا حين رغبت في ذلك، لكن تمنيت أن أتيقن من حقيقة الأمور مثلما أتيقن من الأرقام سواء كانت أمور ملموسة ومحسوسة أو أمور روحية لم أتمكن من تصورها وفهمها مثل الأمور المادية الجسدية"[3]، وكأن أوغسطين بقوله هذا قد توصل إلى معرفة وجود الأعداد والتسليم بحقيقتها فكانت بداية بحثه عن الحقيقة*.

[1] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص87.

[2] المصدر نفسه، ص 87.

[3] المصدر نفسه، ص 88.

* وهي نفسها الفكرة التي نجدها عن ديكارت إذ يقول: "لعلنا غير مخطئين إذن في الاستنتاج أن علوم الطبيعة والفلك والطب، وسائر العلوم الأخرى التي تدور حول الأشياء المركبة هي عرضة لشك قوي، إن الثقة بها قليلة. أما الحساب والهندسة، وما شاكلها من العلوم، التي تنظر في أمور

رغبة أوغسطين الملحة في التخلص من ذلك الشك الذي اقتحمت كل كيانه وما يحيط به، جعلته يحاول مرارا الاجابة عن الاسئلة التي تعصف بذهنه في كل لحظة تمر به، لكنه كلما استكان إلى حقيقة ما أو معرفة إنتكس مجددا لأنه يستحضر في كل مرة تجربته المعرفية مع المانوية فيعود لحالته الأولى، التي يظن فيها أنه مخطىء في كل ما عرفه وتوصل إليه، ومع تكرار محاولاته وتكرار إحساسه بالخطأ، وجد أن العنصر المشترك بين كل تلك المحاولات ليس الحقيقة لأنه لم يثق بعد في أي معرفة يصل إليها هو أو توصله إليها الكتب فكل معرفة هي خاطئة، وجد أن العنصر المتكرر هو الخطأ الذي يقع فيه في كل مرة يحاول الاجابة عن سؤال ما، "فإذا قالوا: ماذا لو كنت مخطئا في طريقة استدلالها؟ أرد عليهم: حسنا، إذا أخطأت فأنا موجود، ذلك لأنه يتعذر على شخص غير موجود أن يقع استدلاله في الخطأ. وعليه بيّن بذاته أنه إذا أخطأت فأنا موجود [Sum Si Fallor]، كيف لا وكوني مخطئا يبرهن ضرورة أني موجود. وإذا افترضت جدلا إمكان وقوع إستدلالي في الخطأ، فسوف أكون أنا من وقع في الخطأ، ومن ثم فأنا على يقين من حقيقة وجودي، وأعرف أنه يتعذر علي أن أخطئ في معرفة أني موجود"[1]، فكانت الأخطاء الذي يقع فيها أوغسطين والتي تسببت مرارا في نكسته، كانت هي السبب في نجاته، فمادام أنه يقوم بخطأ ما فهذا دليل أن صاحب الخطأ موجود ويقوم بفعل ما، مقولة أوغسطين "إذا أخطأت فأنا موجود" يجعلنا نستحضر مقولة "أنا أفكر إذا أنا موجود" لديكارت وكأن الكوجيطو أوغسطيني الأصل، ابتدأ براهنه بالأنا أي الذات المفكرة كمنطلق للمعرفة وأساس لها، فالذات هي منطلق المعرفة ومبدأها، ومن الانسان ينطلق شعاع العقل ليدرك باقي الموجودات ويعيها.

الذات بداية الحقيقة، ناظم لا مجال للشك فيه، فمادامت الذات تقوم بفعل ما وليكن الخطأ والشك فهذا إثبات على وجودها، يقول "الذي يشك يحيا، والذي يشك يعلم أنه يشك، والذي يشك يريد اليقين، والذي يشك يتذكر ما يشك فيه؟ والذي يشك يحكم بأن الحقائق لا يمكن أن تؤخذ مباشرة بوصفها شيئا يقينيا، ومعنى هذا كله أنه الشك أولا موجود وهو حقيقة، وثانيا أن العمليات النفسية المتصلة بهذا الشك هي

بسيطة جدا، وعامة جدا، دون اهتمام كثير بمبلغ تحقيق هذه الأمور في الخارج أو عدم تحقيقها، فهي تحتوي على شيء يقيني، لا سبيل إلى الشك فيها"، ننظر رينيه ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت–باريس، التأمل السادس، الطبعة الرابعة، 1988، ص ص 28–29.

[1] جاريث ماثيو: أوغسطين، تر: أيمن فؤاد زهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 1984، ص ص 61–62.

أيضا حقائق يقينية، ومعنى هذا أننا وصلنا إلى إثبات وجود حقائق يقينية، ولكن هذه الحقائق معناها أيضا أن هناك ذات هي التي تشك، وهي التي تقوم بكل تلك العمليات النفسية"[1].

توصل أوغسطينوس أخيرا لحقيقة ثابتة، لكن الجدير بالذكر أن البرهان هنا لم يكن حسيا أو باستخدام أي آداة حسية بل كان استدلالا عقليا "أنا أشك، إذن أنا موجود"، "أنا أخطئ، إذن أنا موجود"، تخلص أخيرا من الحسية التي ورثها عن تسع سنوات من المانوية، ووجد أنها قاصرة عن الوصول إلى الحقيقة واليقين يقول: "وليس الأمر هنا كما هو بالنسبة إلى الأشياء الخارجية التي لا نستطيع الوصول إليها إلا بواسطة حواسنا، مثلا لا نصل إلا اللون بلا حاسة النظر وإلى الصوت بلا الأذن وإلى شم الروائح بدون حاسة الشم وإلى التذوق بدون الذوق وإلى معرفة الأجسام القاسية و الرخية بدون اللمس، إن الأشياء الحسية التي تعبر عنها الصور بأمانة وندركها بعقلنا وتحتفظ بها ذاكرتنا تحفزنا إلى أن نتوق إلى الحقائق عينها التي ترسمها لنا، غير أنني هنا وبعيدا عن كل وهم خيالي أو اعتباطي، على يقين من أنني كائن موجود أعرف ذاتي وأحبها وأتحدى بهذا اليقين اعتراضات الأكاديميين"[2]. وبعيدا عن كل المدركات الحسية والمعارف الناتج عنها كما يقول صاحبنا فإن اليقين الوحيد الذي يستطيع أن يتحدى به الشكاك ويبطل حججهم به ليس حسيا، بل من خلال الكوجيطو وما الكوجيتو عنده سوى جملة من الاستدلالات العقلية التي أوصلته إلى الحقيقة.

يذهب الباحث المتخصص في الفكر الأوغسطيني جاريث ماثيو إلى أبعد من ذلك في تحليله لهذه الفقرة من كتاب مدينة الله يقول "في الحق هذه الفقرة بلغت من الجرأة والطموح حدا بعيدا، فهي تعقد مقارنة بين الانسان من جهة والثالوث الإلهي المقدس من جهة أخرى، (...) إذ يحاول أوغسطين في هذه الرسالة أن يشرح لنا كيف يمكن أن نتفهم حقيقة أن الله ثالوثا في جوهر واحد تفهما صحيحا اعتمادا على إدراك ثالوث النفس، بما يشتمل عليه من ذاكرة وذهن وإرادة، بوصفه ثالوثا في نفس واحدة وتقوم فكرة أوغسطين على أن في النفس ثالوثا يتألف في الذاكرة والذهن والإرادة، وهو بذلك يشبه إلى حد ما الثالوث الإلهي المقدس، ولذا لم يتردد أوغسطين البتة في القول بأن الذاكرة ليست مجرد جزء من النفس أو ملكة من ملكاتها، ونفس الشيء ينطبق على الذهن والإرادة، بل الذاكرة هي النفس"[3]، فكما أن الإبن ليس الآب وليس الروح القدس، إلا أن الابن هو الله والآب هو الله والروح القدس هو الله، كذلك الذاكرة ليست الإرادة وليست الذهن إلا أن الذاكرة

[1] نقلا عن عبد الرحمان بدوي: فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات-دار القلم، الكويت-لبنان، ط3، 1979، ص23.

[2] أوغسطينوس أوريليوس: مدينة الله، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2، 2006، ص 43.

[3] جاريث ماثيو، مرجع سابق، ص 67.

هي النفس حينما تستحضر ما مرّ عليها من أفكار ومعارف، والذهن هو النفس حين يفهم ما وصل إليه من معارف، والإرادة هي النفس حين تكون حرة وتقرر القول والفعل معا، تماما كما خرج السيد المسيح من الروحانية إلى التجلي في هيئة بشرية؛ هي تمظهرات ثلاث لشخص واحد، ثلاث تجليات مختلفة لكنها من أصل واحد وما الاختلاف فيها إلا اختلاف في الوظيفة أو الدور الذي يؤديه.

يعود صاحبنا مجددا لفكرة الكوجيطو ويقول: "إن أخطأت فأنا موجود، ومن لم يكن لا يخطئ، وعليه فأنا موجود إن كنت أخطىء فكيف أعتقد بأني موجود طالما أني أخطىء، ومن ثم كما أني موجود وأنا الذي أخطىء، فإن كنت أخطىء فلا شك بأني أعرف أني موجود إن لم أخطىء أبدا، وعليه لكوني أعرف أني أعرف ذاتي فلا مجال لدي للخطأ، وفي الواقع بما أني أعرف أني موجود أعرف أيضا أني أعرف ذاتي، وعندما أحب هذا الكائن وهذه المعرفة أضيف إلى ما أعرف عنصرا ثالثا وهو حبي الثابت، إذ ليس الخطأ أني أحب لأن ما أحبه أكيد، ولو كان غير صحيح فصحيح أني أحب خطأ. وكيف ألام شرعا لكوني أحب ما هو خطأ إن لم يكن ذاك الحب حقيقة؟ وإذ إن موضوع حبي حقيقي وأكيد فمن ذا يستطيع أن يشك بحقيقة حبي وصحته؟ ما من أحد لا يحب أن يكون سعيدا، ولكن كيف يكون سعيدا من لا وجود له؟"[1]. والملاحظ هنا أن القديس بدأ التدرج في استخدام اليقينيات التي يعجز الشكاك عن دحضها انطلاقا من الكوجيطو أنا أخطئ إذن أنا موجود؛ فكان أن

"أعرف أني موجـــود" .....اليـــقين الأول

"أعرف أني أعرف ذاتي" .....اليقـــين الثـاني

إنتقل إلى يقين ثالث مختلف عن اليقينين السابقين المتمثل في:

"حبي للحقيقتين السابقتين"..... اليقـــين الثالث

فحتى لو قال أحدهم أن كل ما تحبه هو مجرد وهم فإنه يثبت بطريقة أخرى وجود الحب وحقيقته.

اليقين الرابع:

- هل أنت ســـــــــعيد؟ لا أعرف.

[1] أوغسطينوس أوريليوس: مدينة الله، مصدر سابق، ص 43.

- هل أنت غير ســــــعيد؟ لا أعرف.
- لكنك تحب أن تـــــــكون سعيدا.
- فكيف يكون سعـيدا من لا وجود له.

تتوالى الحقائق التي استنبطها أوغسطين من ذاته والتي أطلق عليها المعرفة الباطنة، لبكت الشكاك فيقول في رسالته "في الثالوث" :"ولو أن هذه الأشياء ترتبط بمعرفة الإنسان فحسب لكنها قليلة العدد، اللهم إلا إذا قمنا بتكثيرها بحيث لا تصبح قليلة العدد، وإنما سيصل عددها إلى رقم لا متناه، ذلك لأنه حينما يقول المرء :أنا أعرف أنني أحيا، فإن قوله هذا يقتضي أنه يعرف شيئا واحدا في حين يقتضي قوله :"أنا أعرف أني أعرف أنني أحيا، أنه يعرف شيئين، وبالتالي فإن معرفته شيئين تقتضي قيام معرفة ثالثة ورابعة وخامسة وهلم جرا"[1]، فما دمت أخطىء فأنا أعرف أني أخطىء وأعرف أني أعرف أني أخطىء، وأنا أعرف أني أعرف أني أعرف أني أخطىء إلى مالا نهاية من المتتاليات الإدراكات، وبالتالي فأنا عرفت أولا إدراكات لا متناهية وبالتالي فانا أقر بوجودها، وعرفت تاليا أن هناك ما يسمى باللامتناهي، وبهذا كان الخروج من عبثية الشك وبداية اليقين بداية داخلية ذاتية باطنية عقلية، فمن خلال العقل استنبطن جملة الأسئلة التي حدّث بها أوغسطين ذاته ووصل بإجاباتها إلى اليقينيات، لكن ما مصدر هذه المعرفة الباطنية؟ وبعبارة أخرى ما هي طبيعة هذه الذات المفكرة العارفة؟

يجيب أوغسطين عن هذه الإشكالية الفلسفية الصعبة بنص مطول من كتابه "في الثالوث" يقول :"لا مبرر لنا على الإطلاق في أن ندعي معرفة شيء ما، ما دمنا نجهل جوهره، لذلك فإن الفكر [الفكر هنا موجود في ترجمات أكثر تخصصا على أنه النفس الناطقة] حيث يعرف نفسه، فإنه يعرف جوهره، وما إن يتحقق من ذاته، حتى يتحقق من جوهره والحال أنه على يقين من ذاته، ولكنه ليس على يقين تام من أنه هواء أو نار أو أي جسم آخر، أو ما يمت بصلة إلى الجسد، فما هو إذن بشيء من كل ذلك، وكل ما نطلبه منه، ونحن نأمره بالتعرف إلى ذاته، أن يكون على يقين من أنه ليس بشيء من تلك الأشياء التي ليس متثبتا منها (...) والحال أن ظنه من أنه نار أو هواء أو أية مادة أخرى غير ثابت. ويستحيل على الفكر [النفس الناطقة] استحالة مطلقة أم يدرك ما هو بالطريقة نفسها التي يدرك ما ليس هو، وهو يدرك بصورة من مخيلته كل تلك الأشياء: الهواء وهذا أو ذاك من الأجسام أو من أجزاء الأجسام ومكوناتها ومجموعاتها، وأشياء معتبرة من

[1] نقلا عن جاريث ماثيو، مرجع سابق، ص 71.

الروح، لا على أنها تملكها كلها، بل على أنها واحدة منها، فلو كانت واحدة منها، لأدركها الفكر على خلاف ما يدرك الأشياء الأخرى، أي لا كوهم في مخيلته (...)بل بنوع من أنواع الحضور الفعلي الداخلي وغير الوهمي، إذ لا شيء أشد حضورا لدى الفكر من ذاته بالطريقة التي يدرك بها أنه يحيا ويتذكر ويعرف ويريد، ولم يتخيلها كما لو كان يبلغها بالحواس خارج ذاته، فلا يدعين إذن لذاته وبصورة كيفية، أي ظن من هذا القبيل، ولا يزعمن أنه أي شيء من تلك الأشياء، وما تبقى له بعد ذلك من ذاته فهو وحده ما هو"[1]، فمن منطلق اليقين الثاني السابق الذكر فإن النفس الناطقة تعي ذاتها، تعي أنها بطبيعة غير مادية، كما يرى الماديون ويعيدون النفس للنار أو الهواء أو أي عنصر مادي آخر، وليتجاوز أوغسطين هذا المأزق بدأ بتفسير طريقة تفكير النفس الناطقة في ذاته والتي تختلف إختلافا جذريا عن طريقة تفكيرها في ما هو خارج عنها، إذ أن العناصر المادية أيا كان نوعها تتطلب تدخل المخيلة حتى تعيها النفس وتتذكرها أي من خلال وسيط يقوم بتجريد الأشياء التي انطبعت عليها الحواس، جردتها من ماديتها واحتفظت بها كتصورات تستحضرها الذاكرة متى ألزمتها النفس بالحضور، وهذا يعني أن المتخيلة تستحضر كل ما نقلته الحواس إليها.

الحواس تنقل كل ما كان معرفة مادية، بعبارة أخرى المتخيلة تنقل صور الأشياء المادية، أما النفس الناطقة فلا تستدعي وسيط بل إن حضورها حضور مباشر داخلي وعليه فجوهر النفس الناطقة يختلف تمام الاختلاف عن مادية الأشياء الخارجية وهذا ما صاغه جاريث ماثيو في الاستدلال التالي:

1"-إذا كانت كل نفس ناطقة مفردة مقدارا معينا من الهواء أو النار أو أي عنصر من العناصر المادية الأخرى، فإن هذا المقدار من الهواء أو النار أو أي عنصر من العناصر المادية الأخرى يستطيع أن يكون حاضرا أمام ذاته تمام الحضور أي واعيا بذاته تمام الوعي.

2-لكن مادام أن أي مقدار من الهواء أو أية مادة أخرى لا يستطيع أن يكون حاضرا أمام ذاته تمام الحضور، أي واعيا بذاته تمام الوعي.

3-فالنفس الناطقة المفردة ليست على الاطلاق مقدارا من الهواء أو أي عنصر مادي آخر"[2]

وصاغه مجددا بشكل مبسط في البرهان التالي:

[1] نقلا عن هنري إيرية مارو، القديس أوغسطين والأوغسطينية، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007، ص ص 80-81.

[2] المرجع نفسه، ص 86.

"1-إذا كانت النفس الناطقة قد نشأت عن عنصر مادي معين، فإن من شأن النفس بمقتضى كونها حاضرة أمام ذاتها تمام الحضور، أن تفكر في هذا العنصر المادي الذي نشأت عنه.

2-لكن النفس الناطقة لا تفكر، بمقتضى كونها حاضر أمام ذاتها تمام الحضور في أي عنصر مادي.

وعلى هذا فإن

3- النفس الناطقة لم تنشأ البتة عن أي عنصر مادي"[1]، بهذا البرهان انتهى أوغسطين إلى لا مادية النفس.

تجدر الإشارة إلى الجانب الآخر من الوجود وهو الوجود المادي. أو الإشارة الى الشق الثاني من الكوجيطو: أنا أشك إذن "أنا موجود"، أي المادة التي تحوي هذه الذات المفكرة أو النفس الناطقة حتى تؤدي وظائفها المرتبطة أساسا بهذا البدن، فهي تريد وتعرف وتتذكر وتفكر، لذا لا يمكن أن نفصل الجسد عن النفس لأنه الأصل في أداء وظيفتها، فإذا كانت النفس تمثل مثولا فوريا أمام ذاتها، فإن المادة لكي تمثل لا بد من وسيط لذلك وهو الذاكرة؛ إذ أن الذات العارفة عرفت بوجود أجسام مادية خارجة عنها و سواء وصل وجودها مشوها للذات العارفة أو وصل على حقيقته فإنه موجود على كل حال فما دامت أشك في شيء (مادة) ما أو أفكر فيه أو أحبه أو غير ذلك فإنه موجود، "إذ ليس خطأ أني أحب لأن ما أحبه أكيد، ولو كان غير صحيح فصحيح أني أحب خطأ (...) وإذ إن موضوع حبي حقيقي وأكيد فمن ذا يستطيع أن يشك بحقيقة حبي وصحته؟"[2]، تنتقل تلك المعارف بعد أن تنطبع على الحواس (الأذن –السمع–، الأنف–الشم–، اليد–اللمس–، اللسان–الذوق–، العين–الرؤية–) تنتقل إلى الذاكرة على شكل صور أو مشاعر ومنها تعرفها الذات، وهذا هو الفرق بين البدن والنفس؛ إذن إنهما متمايزان في الماهية تماما. وعليه البدن موجود.

بعد ثلاث سنوات من التبعية تيّقن الرجل من تهافت مذهب الأكاديميين، فراح يتحداهم في مناظرات لينقل إثباته لأتباع هذا المذهب حتى يصلوا للحقيقة. جمعها في كتابه "الرد على الأكاديميين" أدرج فيها جملة من الأدلة أجد أهمها على الاطلاق التالي :"حسنا؟ فأنا أطلق على هذا الكل الذي يحتوينا ويمدنا بأسباب الحياة، كيفما اتفق –اسم العالم– وأعني بهذا الكل الذي يتبدى أمام ناظري وأدركه بسماواته وأرضه (...) وإذا سألتني، هل ما تراه حتى وإن كنت نائما هو العالم؟ فقد أجبتك بالفعل إنني أسميه العالم كيفما يتبدى لي

[1] هنري إيرية مارو، مرجع سابق، ص ص 87-88.

[2] أوغسطينوس أوريليوس: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص 43.

بوصفه كذلك" يقدم أوغسطين في الفقرة السابقة وربما لأول مرة في تاريخ الفلسفة الغربية فكرة العالم الظاهر للأنا، أي العالم الذي يدركه كل إنسان فرد بوصفه موضوعا للوعي أو مادة للذهن"[1]، فهنا يجيب أوغسطين عن تساؤل الشكاك فيما يخص إذا كان ما يعيشه هو مجرد حلم لم يستيقظ منه بعد، فيقول أنه حتى ونحن في الحلم نسميه عالم؛ فهو موجود.

تخلص أوغسطين من حلقة الشك المفرغة، تعرف بعدها على ذاته وعلى الآخر، لكنه لم يجد بعد الحقيقة التي ينشدها أو التيار الذي يمتلكها، فاستمر في البحث وهو يعلم أن الحقيقة في مكان ما، وأن عقله هو الطريق الوحيد الذي سيوصله إليها دون شك أو خوف من خذلانه مجددا.

المطلب الثالث: أوغسطين والأفلاطونية المحدثة

تخلّص أوغسطين من شكوكه لكن الكثير من الأفكار المانوية والشكية بقت عالقة في ذهنه ولم يجد سبيلا للتخلص منها، كفكرة الشر وطبيعة الله. فحتى وقد توصل أوغسطين لوجوده بقي جاهلا بطبيعته يقول :"واعتقدت أن كل ما لا يمتد ليشغل مساحة ما ليصير محضورا في أبعاد معينة يكون كالعدم، لم يقدر قلبي أن يتصور سوى الأشياء التي اعتادت عيناي أن تراها. ولم أفهم آنذاك أن طبيعة عقلي الذي كون هذه الصور في مخيلتي يختلف عن طبيعة وجوهر هذه الأشياء السامية العظيمة"[2]، لم يخرج أوغسطين بعد من بوتقة تشيىء الله وإعطائه أبعاد مادية، إذ كان عاجزا عن الخروج من تصورات عقله الضيقة التي أوهمته أن كل ما كان خارج الفضاء الخارجي المحسوس هو عدم، وبالتالي فالله موجود ضمن هذه المادة، لكن على أساس هذا الطرح بأي صورة تجلى الله؟.

يجيب أوغسطين على هذا التساؤل بقوله :"حيث أني تصورت أن الأجزاء الكبيرة في الأرض تسع الأجزاء الكبيرة منك، والصغيرة في الأرض تسع الأجزاء الصغيرة منك، وبطريقة ما يصير الكل ممتلئ منك، فمثلا بما أن الفيل أكبر حجما، فظننت أنه يتسع للكثير منك، بعكس العصفور الصغير. بناء على طريقة تخيلي هذه كُنت تعطي الأجزاء الكبيرة منك لما هو كبير في هذا العالم والعكس صحيح"[3]، وهنا كان أوغسطين يدين بالتفسير الحلولي الكموني؛ إذ حسب رأيه الله حال في الطبيعة كامن فيها فكل تشكل مادي

[1] هنري إيرية مارو، مرجع سابق، ص 41.

[2] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص 104.

[3] المصدر نفسه، ص ص 104-105.

لأي موجود كان الله مادته الأولية وهيولته أي "أن الكل داخل في الكل (...) وأن جميع عناصر الوجود تتضمن بعضها بعضا"[1]، فلا يمكن وقتها أن نفصل المادة من شكلها كما لا يمكن لنا أن نفضل الدهن عن اللبن. وبهذا يأخذ الله صفة المادية "الممتدة" في الوجود؛ الله مادة.

في هذه المرحلة من التفكير لم يفلت أوغسطين الكتب من يديه بل واصل بحثه واطلاعه إلى أن تعرف على كتب الأفلاطونية المحدثة وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية، وفيها وجد طريقا جديدا للمعرفة؛ وجد فيها بعض اليقين، تعرف عليها من خلال أمبروز الذي كان يستعين بها من أجل الرد على ناقدي الدين المسيحي ومعارضيه، فكان لزاما عليه أن يرد ردا فلسفيا حتى يتماشى ولغة العصر؛ إذ كانت الفلسفة هي لغتها، وحتى يكيف التعاليم المسيحية والبراهين الفلسفية لتجلب إليه الفلسفة أكبر قدر من المستمعين، فكانت الأفلاطونية المحدثة هي أقرب الفلسفات للمسيحية نظرا لوجود العديد من التقاطعات بينها؛ "فالأفلاطونية المحدثة في جوهرها (...) طريقة للوصول إلى وجود معقول وبناء أو وصف لهذا الوجود، وأفدح خطأ يمكن أن نقع فيه هو أن نعتقد أن الوظيفة الأساسية لهذا الوجود المعقول تفسير المحسوس، فبيت القصيد في المقام الأول الانتقال من دائرة تكون فيها المعرفة والسعادة مستحيلتين إلى دائرة تكونان فيها ممكنتين، والمشابهة التي يمكن بفضلها الانتقال من دائرة إلى أخرى، مادام المحسوس صورة للمعقول لا تكمن أهميتها في تفسيرها للعالم الحسي بقدر ما تكمن في قدرتها على الايصال إلى ما هو موجود في ذاته دونما صلة بالعالم، فحياة الآلهة في الأسطورة لا ضلع لها بعالم البشر كذلك فإن الوجود المعقول لذى أفلوطين لا يعرف العالم ولا ينزل إليه"[2]، هذا ما وافق عليه أمبروز ودفع به إلى أوغسطين.

وجد الفيلسوف في الأفلاطونية ما كان ينقصه من إجابات عن الله وطبيعته، إذ فتحت له آفاق فلسفية كانت المادة قد حجبتها، فهو هنا ينتقل بذاته إلى مستوى آخر من التفكير وهو التفكير العقلاني في جواهر مفارقة للمادة، سامية، غير حالّة فيها، لا تدركها حواسه، ولن تقوى على ذلك الإدراك، ويبق أهم وأبرز تقاطع بين الأفلاطونية المحدثة والمسيحية فكرة الأقانيم الثلاثة؛ إذ يقول أفلوطين بأقنوم واحد أول هو الله انبثق عنه الأقنوم الثاني وهو العقل هذا الأخير إنبثق عنه الأقنوم الثالث وهو النفس، يقول أفلوطين في هذا الصدد :"إذا كان بعد الأول شيء فهو من هذا الأول حتما، فإما يكون منه سواء بلا توسط، وإما أن يرد إليه بتوسط

[1] جميل صليبا، مرجع سابق، ص 244.

[2] إميل بروهيه: تاريخ الفلسفة، تر، جورج طرابسي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1987، ص 242.

ما بين الطرفين، فيكون نظام الثواني والثوالث: فالثاني يرد إلى الأول والثالث إلى الثاني. ذلك لأنه لابد من أن يكون شيء قبل الأشياء كلها وهو بسيط"[1]، أي بين الأقنوم الأول والثاني لا يوجد وسيط فمن الأول ظهر الثاني مباشرة، لكن كيف ذلك؟

قبل أن يعالج أفلوطين هذا الإشكال حاول أن يصف الأول الواحد فيقول :"بسيط، يكون مختلفا عما يتأخر عليه، قائما في ذاته مع ذاته، ليس مختلطا بما ينبعث عنه وبوسعه مع ذلك أن يكون حاضرا إلى غيره من وجه آخر، فهو الواحد حقا، وليس بمعنى أنه كان شيئا ما أولا ثم أصبح واحدا (...) ثم إنه يفوق الأمور كلها اكتفاء بذاته بكونه بسيطا أولا. فإن لم يكن أولا كان في حاجة إلى ما قبله"[2]، والواحد هو كل شيء وليس أي شيء فهو الأصل الأول الذي لم يسبقه أول. أوجد كل الموجودات ولم يوجده آخر، منه انبثقت الموجودات وليس بموجود متعين ولا بجسم ولا بامتداد مكتف بذاته كامل، ولكن إن كان مكتفيا بذاته فما الحاجة لباقي الموجودات ولما أوجدت من البدء؟

يرى أفلوطين أنه "إن كان الأول كاملا وأكمل من الأشياء كلها، وكان هو القدرة الأولى، وجب فيه أن يكون الأقوى بين الحقائق كلها ووجب في الحقائق القديرة الأخرى، على قدر ما تكون قديرة، أن تقلده في قوته، فإن سائر الأشياء إذا أدركت كمالها، نراها تلد ولا تطيق أن تبقى مع ذاتها في ذاتها بل إنها تحدث شيئا آخر (...) فكيف يبقى في ذاته ما كان هو الأكمل وهو الوجود الأول، فكأنه يبخل بذاته (...) ثم كيف يكون الأصل بعد ذلك، لابد من أن ينشأ منه شيء، إذا ما دام شيء ينبعث من الأمور الأخرى وهي تستمد من قيامها في ذواتنا إذ أنها تستمد منه هذا القوام لا محالة(...) فالواقع هو أنه يجب في أصل الأمور المتأخرة أن يكون هو فائق الإكرام، كما أنه يجب في مولوده الأول أن يكون فائق الإكرام أيضا وهو صاحب المقام الثاني نظرا إلى الأصل الأول وأفضل الأشياء كلها"[3]، هنا يظهر تأثر أفلوطين بفيثاغورس في فكرة الواحد من جهة وبأفلاطون في فكرة الخير المطلق من جهة ثانية.

فالواحد لأنه خيّر خير مطلق انبثق ذلك الخير، ولأنه كامل كمال مطلق انبثق ذلك الكمال، والانبثاق هنا أو ما يسمى بالصدور لا ينقص من خير أو كمال الواحد شيئا، يعطي أفلوطين مثال الشمس :هي ومن

[1] التاسوعة "5"، أفلوطين، تر من اليونانية: فريد جبر، مر: جيرار جهامي، سميح دغيم، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 1997، ص 457.

[2] المرجع نفسه، ص 457.

[3] المرجع نفسه، ص ص 457-458.

شدة حرارتها تنبعث عنها أشعة ساخنة تزداد حرارتها كلما اقتربنا منها وتنقص كلما ابتعدنا عنها، أو كالثلج والذي من شدة برودته تنبعث عنه موجات باردة ازدادت كلما اقتربنا منه ونقصت البرودة كلما ابتعدنا عن الأصل، أو هو كالزهرة التي من شدة عطرها تدفقت منها رائح زكية، زادت كلما اقتربت والعكس كذلك؛ فالشمس أو الثلج أو الازهار لا تحتفظ بحرارتها أو برودتها أو عطرها بإرادتها، وإنما هو فعل لا إرادي ناتج عن خيرية الواحد.

إنبثق عن كمال الأول وخيريته الأقنوم الثاني وهو العقل أو كما يسميه أفلوطين في مواضع أخرى "الروح المفكرة"، وهو أكثر المنبثقين شبها بالواحد وبصفاته وأكثرهم قربا منه يقول: "وهنا لا بد لها من أن نزيد قولنا وضوحا. إنا نقول في الروح إنه صورة للواحد إذا، ولذلك أولا يجب في الذي ينشأ أن يكون كالواحد وأن يحتفظ بالكثير منه وأن يغدوا متماثلا معه، مثلما يكون الضوء من الشمس. ولكن الواحد ليس بروح فكيف يستطيع أن يلد الروح؟ لأن المولود يلتف إلى الوالد فيشاهده وهذه المشاهدة هي الروح بالذات، ذلك لأن ما يدرك الآخر من حيث هو آخر إنما هو إحساس أو روح"[1]؛ فالروح المفكرة صورة الواحد وشبهه لكنها ليست هو ولا يمكن لأي شيء آخر أن يكون هو وإلا ما كان الواحد.

نتجت الروح المفكرة أو العقل عن الواحد وحدث بينهما تفاعل على أساسه كان عقلا إذ ان الروح إلتفت إلى مصدر إنبثاقها وأدركته، هذا الفعل التفاعلي المتمثل في "إدراك" الأصل والتعرف عليه، هذه العملية التي حدثت هي ما جعلها روحا مفكرة، تدرك وتعقل، أخذت الروح عن الواحد خيريته وكماله، وكما حدث أولا تكرر الفعل وانبعثت الروح هي الاخرى وكان أن صدرت النفس كأقنوم ثالث، بمعنى أن النفس صدرت عن الأقنوم أي أنها صدرت عن الأقنوم الأول ولكن بوسيط هو العقل. والنفس هنا أشبه الموجودات بالعقل ولكنها ابتعدت في الشبه عن الواحد، فكما سبق وأن ذكرنا أن الشمس كمصدر للحرارة تصدر أشعة ساخنة تنقص حرارتها كلما ابتعدنا عن الأول والنفس ابتعدت عن الواحد بمقدار أقنوم، ومع ذلك فالنفس والعقل أشبه المخلوقات بالواحد، وهنا توقف الواحد عن الانبثاق الواحدي، لتبدأ النفس في الانقسام فظهرت باقي الموجودات، يظهر الآن الشبه بين المسيحية والأفلاطونية بوضوح يقول أوغسطين :"قرأت فيها كلمات، ليس مثل هذه الكلمات الآتية بالتحديد، ولكن كان لها التأثير والمغزى عينه مدعما بعدة أدلة مختلفة: فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ، هذا كان في البدء عند الله كل شيء به كان وبغيره لم يكن

[1] أفلوطين، مرجع سابق، ص 43.

شيء مما كان. (فيه كانت الحياة) والحياة كانت نور الناس، والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه (يو1:1-5)"[1]، بعد أن تمعن أوغسطين في الفكر الأفلاطوني واكتشف ذلك البعد الجديد في المعرفة، جاء دور أمبروز ليربط بين ما تيقن منه أوغسطين وبين ما تحويه أسفار الكتب المقدسة، جاء دوره ليخبره أن الأفلاطونية لها حضور قوي في كتاب أقوى هو كتاب المسيحية، ولكن أوغسطين ليس من أصحاب العقول التي تقتنع بالكلام دون تمحيص.

المطلب الرابع: أوغسطين والمسيحية:

يقول يوسف كرم في كتابه "توهم(...أوغسطين) أنه وجد فيها العقائد المسيحية الكبرى، وهي غير موجودة بلا ريب، وإنه إنما خرج بالفلسفة الأفلاطونية لهذا السبب مما يدل على أنه كان مسيحيا بالقلب قبل أن يطلع عليها وأنه قرأها بهذا الاستعداد، توهم أنه وجد فيها القول بالكلمة (...) على أن القديس أوغسطين سيستدرك فيقول انه لم يقرأ فيها تجسيد الكلمة"[2]، مثل هذه القراءات لفكر أوغسطين تقزم بشكل مسف مسيرة الرجل العقلية ورحلته التي كان يجهل مرساها أكان سيكون مسيحيا أو وثنيا أم كان سيتوقف عند أحد تلك المراحل الفلسفية التي خبرها، أو ربما كان سيتجاوزها لفلسفات أخرى وما أكثرها في عصره، قوله أن أوغسطين كان مسيحيا بالقلب لهو مغالطة وسوء فهم لفلسفة الرجل، لا يخفى على أحد أن أوغسطين حمل في بداياته الكتاب المقدس إكراما لوالدته التي يحب ورغبة منه في كشف الحقيقة التي يصبو إليها، لكنه لم يقتنع بما جاء فيه وابتعد عنه كليا، إذ أنه صار حسيا قلبا وقالبا، ونبذ أي تفسير روحي واستهزأ به، لم يذكر الرجل أبدا أنه كان مسيحيا أو يرغب في المسيحية، بدليل أنه هرب في جنح الليل من والدته وسافر إلى قرطاج، تاركا وراءه أما تلزمه بدين لا يعني له شيئ، وبقي يبحث عن المجهول وما غفل عنه القائلون بهذا الكلام أن أوغسطين عندما قال الحقيقة تكمن بداخلنا، فهو لم يقصد أنه كان يحتفظ بالمسيحية في قلبه أثناء سفره الفكري، بل كان يقصد بها الاتجاه الاشراقي الذي توصل إليه في نهاية رحلته، يقصد بع المعلم الساكن فينا والذي قزمت وجوده المادة وانجرافنا حو ملذاتها، والقول أن امرأة عجوز تحكمت في شخص أوغسطينوس وفي توجهه الأخير هو أيض من المغالطات الشائعة، خاصة أن لقاء الأم وابنها كان بعد لقاء الابن بامبروز وبعد تعرف الابن بالافلاطونية المحدثة.

[1] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص 113.

[2] يوسف كرم، مرجع سابق، ص21.

صحيح أن أوغسطين صرّح في أكثر من مرة أن المسيحية ليست هي الأفلاطونية ولا الأفلوطينية؛ يقول:"لم تحتوي كتب أفلاطون على كل هذا ولم تقدم صفحاته شيئا عن هذه التقوى "دموع الاعترافات" و"روح ذبيحتك التي كانت مضطربة"، "قلب منكسر ومنسحق"(مز 51: 17)، خلاص الشعوب، المدينة العروس، (أنظر رؤ 21: 2) "عربون الروح" (كو 1: 22، 5: 5)، "كأس الخلاص". لا أحد يسبح في الكتب الافلاطونية ويقول :"إنما لله إنتظرت نفسي" لأن "من قبله خلاصي، إنما هو صخرتي وخلاصي ملجأي لا أتزعزع كثيرا"(مر 62: 1-2)، ولا أحد من اتباعهم يسمع الرد وهو يقول: " تَعَالَوا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ"(متى 11: 28)، لأنه سخروا من قوله أنه " لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ ""(متى 11: 29)، "أَنَّكَ أَخْفَيْتَ هذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ"(متى 11: 25)"[1]، كلام أوغسطين لا ينفي طرحنا بل ينفي صريحا أن تكون المسيحية بكل عقائدها وأفكارها هي نفسها ما هو موجود في فلسفة أفلاطون أو أفلوطين، وهذا ما لم يقله أوغسطين، لأنه عندما وصل للمسيحية لاحقا وجد أن هناك الكثير من التفاصيل والمعتقدات التي تنكرها الفلسفات أو على الأقل لم تعترف بها، وإلا كان فكر أوغسطين قد استقر بها، لكن من يستطيع أن ينكر أن الافلاطونية كانت بوابة أوغسطين نحو المسيحية، ألم تكن محرك عقل أوغسطين لاستيعاب فكرة التثليث؟ و ألم يكن أفلاطون سبب توجه أوغسطين نحو فكره الاشراقي من خلال فكرته عن التذكر.

أكد أوغسطين أن الافلاطونية ليست المسيحية لكنه قرأ "فيها كلمات ليس مثل هذه الكلمات (يقصد الانجيل) الآتية بالتحديد، ولكن كان لها التأثير والمغزى عينه مدعمة بعدة أدلة مختلفة"[2]، فالأفلاطونية المحدثة كانت المرحلة التي سبقت المسيحية والتي عرف من خلالها أمبروز، من أدلتها وبراهينها، وهذا ما ميّز أمبروز عن باقي رجال الدين المسيحيين الذين التقى بهم أوغسطين، خاصة وأن أمبروز كان يعتمد على الفلسفة في إيصال الدين المسيحي، إذ كان يعتمد على التأويل في تعامله مع أسفار الكتاب المقدس وهو ما أخذه عنه صاحبنا لاحقا.

بقي أوغسطين متابعا لخطب أمبروز معجبا بفصاحته ورجاحة عقله، وكذا بأفكاره المتينة الجديدة على عالم أوغسطين المادي، على الرغم المرحلة المتقدمة من التجريد التي وصل إليها عقله الفعال، لكنه أراد أن

[1] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص ص 123-124.

[2] المصدر نفسه، ص 113.

يصل إلى مستوى من المعرفة اليقينية تعادل في يقينيتها المعارف الرياضية، وقبل أن يصل أوغسطين إلى الايمان بالأفكار الكاملة التي لا نراها، تدّرج للوصل إلى إثبات الكمال الذي لا يرى انطلاقا من الناقص الذي يرى، وفي هذا الصدد يوجه أوغسطين رسالة يقول فيها: "بداية يجب أن نقول لهؤلاء الذين بحماقتهم قد أعطوا لعيونهم الجسدية أهمية جعلتهم لا يصدقون كل ما يرون بهذه العيون: كم من أمور يصدقونها بل ويعرفونها ولكنها لا ترى بعيونهم تلك؟ هذه الأمور غير المحصاة توجد في عقولنا نفسها —مع العلم أن طبيعة هذا العقل ذاته أيضا غير مفحوصة– كالإيمان الذي به نصدق أمرا ما والفكر الذي به نحكم بأن نصدق الشيء أو لا نصدقه، بالإضافة إلى أمور أخرى كثيرة، هذه الأمور جميعها غريبة عن أنظار العيون الجسدية، وبرغم من ذلك كم هي مكشوفة وواضحة ومؤكدة لعيون فكرنا الداخلية؟ إذا كنا دون شك ندرك وجود الايمان والأفكار رغم أنه لا يمكن رؤيتهما بالأعين الجسدية"[1]، فالحياة ليست مجرد سلوكات وتصرفات وكذا موجودات عينية نراها ونحسها وبالتالي نستطيع أن نستدل عليها بانطباع حواسنا عليها، ويشرح الأمر في موضوع آخر بقوله :"لكن أنت يا من لا تصدق إلا ما تراه، هو ذا الماديات التي حولك تراها بعيون الجسد، ونيّاتك وأفكارك الخاصة تراها بعيون عقلك إذ هي حاضرة في عقلك، ولكن أخبرني، نيّة صديقك بأي عين تراها؟، فلا يمكن أن ترى النيّات بعيون الجسد"[2]، فأنت لا تستطيع أن تحدد نيّة الأخر تجاهك أو حبه لك أو كرهه، بل قد ترى بعين جسدك حبا جما، في حين أن ما يخفيه داخله كره جم، وبالتالي فعيون جسدك خدعتك وسلوكاته التي شاهدتها ليست هي الحقيقة الكامنة فيه، فلا مفر إذن من الايمان بهذا العالم الجديد من الأفكار المخفية والتي تعجز حواسي عن الانطباع عليها.

بعد أن تيقن من وجود أفكار لا تدركها حواسه، راح يفكر في أفكار يدركها العقل لكنها ليست من طبيعته، فالعقل على الرغم من قدرته التجريدية وآلياته الاستدلالية إلا أنه مثل الجسم الذي يعتبر جزء منه ناقصا متغيرا، متطورا، فانيا، عرضا ومعلولا، فاذا كان العقل يتميز بهذه الصفات فمن أين عرف صفات كالعلة والكمال والثبات، خاصة وأن الفرق بين العلة والمعلول كالفرق بين الجوهر والعرض، فان كان العقل عرضا فما مصدر فكرة الجوهر المتواجدة في العقل، وبأي عين رأيناها هل أبصرناها كما تبصر العين العالم الخارجي أو لمسناها كما تلمس اليد الموجودات، هل انطبعت عليها حواسنا؟ كيف تنطبع عليها حواسي وهي أفكار مجردة؟.

[1] أوغسطينوس: الإيمان بأمور لا ترى، تر: أسرة القديس ديديموس، كنيسة الشهيد مارجرجس، الاسكندرية، دط، دت، ص ص 9-10.

[2] المصدر نفسه، ص11.

العين قاصرة عن الوصول إلى هذه اليقينيات والحقائق الأزلية، لذا لا يكفي دوما حسب أوغسطين أن ننظر لنرى فان عجزت عيني المحسوسة عن الرؤية، تدخلت عين النفس لترى، والنفس عينها العقل، وكما أن للعين نور الشمس يساعدها على الرؤيا، فكذلك وجب أن تشرق للنفس نور يساعدها على الرؤية؛ بمعنى "أن هناك نورا أزليا أبديا هو نور الشمس الذي نستطيع من خلاله أن ندرك الحقائق، وهذه الحقائق الموجودة في النفس هي فيض من النور الأول وهو الله أو بعبارة أخرى اللوغوس LOGOS أو كلمة الله"[1]، فنور الله على النفس كنور الشمس على العين وهذا ما يسمى الاشراق، ويقصد أوغسطين بذلك أن المعارف اليقينية التي حلت بالعقل كان مصدرها مباشرا من النور الالهي دون أي وساطة، فالمعرفة انكشفت أمام النفس مباشرة بعد أن سقط ستار الوسطية، كشفها لنا المعلم الداخلي الساكن بداخلنا قبل حتى أن نتعلمها من العالم الخارجي فنحن حسب أوغسطين "نعقل الأشياء ولا نرجع CONSULTE في ذلك إلى كلام يطنطن من الخارج، بل إلى حقيقة حاضرة داخل النفس، وما الكلمات إلا منبه إليها. نرجع إلى المعلم الذي قيل عنه أنه مستقر في الانسان الداخلي وهو المسيح أي قوة الله الدائمة Dei Virtus والحكمة الخالدة Sempiterna، ترجع إليه كل نفس ناطقة لكن لا ينكشف لها الا بحسب قدرتها وإرادتها الحسنة والسيئة، وخطأ أحدهما ليس خطأ الحقيقة التي يرجع إليها، إذ لا يخطىء النور الخارجي بل تخطىء أعيننا الحسية، هذا النور الذي يرشدنا للأشياء المرئية بقدر ما نستطيع التمييز بينها"[2]، وهذا ما يفسر غياب هذا الاشراق لدى البعض الآخر؛ إذ أن إرادتهم الحرة إختارت أن تخرس الصوت الداخلي بعد اختيارهم للسلوكات المنافية للفضائل التي يدعوا لها المعلم الداخلي. فالمعلم الداخلي في ذات كل واحد فينا وكل واحد بقدرته ينميه أو يقزمه وقد يعدمه، وبهذا تكون اللغة والكلمات الخارجية مجرد تنبيهات خارجية توقظ الذاكرة لتتذكر ما زرعه المعلم الداخلي في ذواتنا، كل معرفة خارجية موجودة إبتداء في ذواتها، وما عمل الحواس هنا سوى التنبيه لنتذكر.

إذا أسقطنا فكرة أوغسطين الاشراقية على ما حدث له في البستان ربما نجد تفسير لذلك الصوت الذي سمعه، صوت طفل ولا وجود لطفل، ألا يبدوا وكأنه صوت المعلم الداخلي بعد أن عادت إرادة أوغسطين إلى طريق الصلاح بمساعدة القديس أمبروز، يخبرنا أوغسطين عن الحادثة فيقول :"فجأة سمعت صوتا من المنزل المجاور لنا، لم أميّزه إذا كان صوت صبية أم صبي، يصيح ويكرر قوله هذا باستمرار" تناولها واقرأها: تناولها

[1] عبد الرحمان بدوي، مرجع سابق، ص 25.

[2] أوغسطينوس أوريليوس: محاورة المعلم، تر: حسن حنفي(نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط)، دار التنوير، بيروت، ط1، 2005، ص 85.

واقرأها" فتبدل محيّ وجهي، وبدأت أصغي جيدا وأتساءل هل هذه كلمات أغنية كثيرا ما يرددها الأطفال حين يلعبون ويمرحون، بيد أني لم أكن أتذكر أبدا أني سمعت من قبل كلمات من هذا القبيل، توقف سيل الدموع مني، ونهضت لأني فهمت أن هذا لا يمكن أن يكون سوى أمر من الله لأفتح الكتاب المقدس (...و) بشغف شديد وسريع اتجهت إلى المكان الذي كان فيه أليبوس جالسا فيه، حيث كان هذا أيضا هو المكان الذي كانت فيه رسائل بولس الرسول، فأمسكت الكتاب وفتحت وبسرعة رحت أقرأ ما وقعت عليه عيناي "13لاَ بِالْبَطَرِ وَالسُّكْرِ، لاَ بِالْمَضَاجعِ وَالْعَهَرِ، لاَ بِالْخِصَامِ وَالْحَسَدِ14.بَلِ الْبَسُوا الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ، وَلاَ تَصْنَعُوا تَدْبِيرًا لِلْجَسَدِ لأَجْلِ الشَّهَوَاتِ"(رو13: 13-14) ولم أكن في حاجة إلى أن أقرأ المزيد لأني بمجرد انتهائي من قراءة هذه الآية حتى أشرق شعاع نور في قلبي، وانقشع كل ما بي من ظلام الشكوك"[1]، صار أوغسطين بعد كل هذه التقلبات الفكرية مسيحيا ووجد الحقيقة؛ وجد اليقين.

"آه الحقيقة، الحقيقة ولا شيء سواها، كم كانت أعماق نفسي حتى النخاع تلهث وراءها لتدركها"[2]، شعار أوغسطين الشاب الذي تربى على البحث والكتاب، يريد أن يصل بنفسه إلى الحقيقة بعيدا عن ما كان دارجا آنذاك، وبعيدا عن الحقيقة التي ولد ووجدها جاهزة أمامه، فتنقل بين متون الفلسفة باحثا عن الحقيقة التي ترضيه وتقنعه، المتتبع لرحلة أوغسطين الفكرية يلاحظ أن الرجل كل ما انضم إلى فلسفة ما، أو توجه سرعان ما انسحب منه بعد أن يكتشف عيوبه ويجمع ثغراته فينقده نقدا لاذعا، وكل مرحلة قادته للمرحلة التي تليها بنفس الترتيب الذي أخبرنا به وهو يكتب سيرة حياته، فمن المانوية انتقل إلى الشكية ومنها إلى الأفلاطونية المحدثة والتي لم ينخرط فيها بقدر ما تأثر بأفكارها، حتى وصل أخيرا إلى المسيحية وفيها فقط أخلص، إذ لم يجد فيها عيبا واحدا أو ثغرة على الرغم من أنه درس الكتاب المقدس والكثير من كتب أباء الكنيسة ورجالها، ولم يزده إطلاعه إلا تمسكا بهذا الفكر وهذه العقيدة، قضى بقية حياته مدافعا عنها، ناشرا لها، أسقفا على رأس كنيسة بونة إلى أن توفي بها سنة 430 م مخلفا أكثر من مائتي رسالة وكتاب بين فلسفة ودين.

[1] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص 144.

[2] المصدر نفسه، ص40.

تنقلات أوغسطين الفلسفية التي أوصلته أخيرا للدين، سمحت له بدراسة القضايا العقدية واستخراج المفاهيم الفلسفية التي يستطيع من خلالها مخاطبة العقل الاستدلالي بلغته هو، والبدية تكون بدراسة ناظم الفكر الأوغسطيني والذي يعتبر هو أيضا ناظم الفكر المسيحي والمتمثل في جدلية الحب/الخطـــيئة.

المبحث الثاني: جدلية *الحب/الخطـيئة*.

ما إن حال الكروبيم بين الانسان وكماله، بين الانسان وأبديته، بين الانسان وثباته حتى استحال موجودا ناقصا–ميتّا–متغيرا، فالنقص والتغير والموت كصفات عرضية إضافة إلى العديد من العوارض الأخرى كالتطور والامتداد، تعتبر قوانين صارمة ثابتة تفرض على كل من اخترق حاجز الكروبيم ودخل حيز الزمان–المكان، وبالتالي فالإنسان عند اختراقه لجدار الزمان يصبح خاضعا لسلطة قوانينه الصارمة، هذا الفقد الذي خبره الإنسان الأول بتركه لعالم المثل وعودته للتراب كان بمثابة نكبة انسحبت على كل سلالته البشرية لاحقا .فلحقها ما لحقها من تغيرات أنطولوجية شغلت تفكير الفيلسوف، ورجل الدين، ورجل الدين الفيلسوف، خاصة وأن الأديان السماوية أعطت مساحة معتبرة في كتبها المقدسة لتبرير هذا المأزق وتفسيره تفسيرا عميقا.

أولا: الإنسان الأول

الديانة المسيحية اشتركت واليهودية في تفسير الأمر بالعودة إلى سفر التكوين الذي وصف المشهد الأول بالتفصيل في قوله:

"1وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ 2فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، 3وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا 4.«فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا 5!بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ 6.«فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ .فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ 7. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ 8.وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. 9فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟ 10.«فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ 11.«فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟ 12«فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ 13.«فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ 14.«فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ 15.وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ 16.«وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ 17.«وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ

مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ 18.وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ 19.بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ 20.«وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ 21.وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا 22.وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ 23.«فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا 24.فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ."[1]

الاصحاح الثالث من سفر التكوين الذي أنزله "يهوه" على موسى، يوضح في مشهد تمثيلي سردي ممتع قصة السقوط الوجودي للإنسان الأول وأقصد هنا بالانسان الأول آدم وضلعه الأعوج الذي استل منه ليؤنس وحدته "حواء"، لعب الشيطان فيه دورا أساسيا وسببا مباشرا في التحريض على السقوط، دخل ليخاطب حواء بعد أن انتحل هيئة الحية، فلماذا لم يدخل بشخصه مباشرة؟

خلق الله الملائكة في أيام الخلق الستة بأمر إلهي بأن يكون النور فكان النور، حينها تحوّل النور من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل "خلقوا مشاركين بذلك النور الأبدي، الذي هو حكمة الله، اللامتغيرة (...)، إن النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آت إلى العالم ينير أيضا كل ملاك طاهر، ليصير نورا لا بذاته بل في الله"[2]، فالملائكة خلقوا كلهم على حد سواء في هيئة نور، مشاركين الله في سعادته وحكمته الأبديتين، بما فيهم إبليس، الذي كان يحي هو الآخر في الله حياة كاملة السعادة، قلبه وقلب باقي الملائكة عامر بحب الله ولا يشاركهم في حبه شيء على اعتبار أن السعادة هي العيش في الكنف الإلهي بالقرب منه والتمتع بنوره وحكمته الخالصة دون وسائط، دون شكوك بل بيقين خالص.

يركز أوغسطين في أكثر من موضع على جزئية أساسية متمثلة في الملائكة، ليؤسس من خلالها لفكرته الفلسفية حول "الحرية"، ويهدف من هذا التأسيس الفلسفي العقدي معالجة إشكالية هل الانسان مخيّر أم مسيّر؟. وانطلاقا مما توصل إليه توجه رأسا لبكت الكثير من الفلسفات كالزرادشتية والمانوية في فكرة الشر خاصة، ليأتي بعدها ببديله الفلسفي.

إبليس هو العينة الأولى التي انطلق أوغسطين منها في عملية استقرائه، فإبليس كان مشاركا لجميع الملائكة في الصلاح وحب الله وهذا ما يؤكده الكتاب المقدس في قوله "باركي الرب يا جميع أعمال الرب"[3]،

[1] سفر التكوين، الاصحاح 3.

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 18.

[3] دا (3: 57).

بعد أن أنهى الرب خلقه سبحته جميع مخلوقاته دون استثناء بما فيهم ابليس لأنه كان من ضمن الملائكة مسبحا، سعيدا، أزليا، حكيما، هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ في سفر حزقيال الاصحاح 28: "أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ، مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ. 13كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ، عَقِيقٌ أَحْمَرُ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ وَزَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَبَهْرَمَانُ وَزُمُرُّدٌ وَذَهَبٌ. أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صِيغَةِ الْفُصُوصِ وَتَرْصِيعِهَا يَوْمَ خُلِقْتَ. 14أَنْتَ الْكَرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ، وَأَقَمْتُكَ. عَلَى جَبَلِ اللهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ. 15أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمِ خُلِقْتَ حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ."، من يوم خلقت وأنت كامل الجمال صالح محب ملآن بالحكمة هكذا خاطب الرب لوسيفر؛ زهرة الصبح كما كان يطلق عليه قبل أن يخطئ، والخطأ منه صدر ولم يكن فيه ابتداء، بل الأصل فيه الصلاح والكمال.

واستمر لوسيفور كذلك إلى أن دخل آدم التاريخ، تاريخ مفارق خارج حدود الزمان والمكان، هناك بدأت المنافسة تستعر لكنها منافسة من طرف واحد يملأها الكبرياء والحسد من طرف لوسيفر لآدم المفضل، وعن التحول الجوهري الذي حدث في شخص لوسيفر وكيف صار شيطانا والشيطان مشتق من شطن والتي تعني العناد والمقاومة، يقول الرب في سفر إشعيا الاصحاح 14 "12كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ، بِنْتَ الصُّبْحِ؟ كَيْفَ قُطِعْتَ إِلَى الأَرْضِ يَا قَاهِرَ الأُمَمِ؟ 13وَأَنْتَ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ، وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ الاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي الشَّمَالِ. 14أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ."، تكبّر لوسيفور وطمع أن يصير مثل العلّي الرب ويجلس على جبل الاجتماع ليتحكم في الملائكة ويترأسهم، طمع في مكانة الرب وسلطته، فكان هذا أول تحدي لأوامر الرب الخالق بل أول تمرد شهده الخلق، هنا انقسمت الملائكة الجميع خاضع للرب محب له، وإبليس رافض ثائر، على الرغم من أنهم جميعا ذوو طبيعة واحدة صالحة خلقها الله الكلي الخير ووزعها بعدل بين ملائكته، هذا العدل الإلهي عينه قضى أن يخلق مع كل طبيعة صالحة إرادة حرة بمعنى إرادة مخيّرة في اختيارها، فإما يحافظ على طبيعته الصالحة أو يتخلى عن الصلاح، و"الكتاب المقدس نظر إلى طبيعة إبليس، لا إلى خبثه حين قال: "إنه بداية عمل الله" إذ لا شك في أن طبيعة لا عيب فيها سابقة للعيب الذي يفسدها على أن العيب مناهض للطبيعة، ولا يسعه إلا أن يؤذي الطبيعة، ولا يعد الابتعاد عن الله عيبا، لو لم يكن مناهضا لطبيعة الوجود مع الله"[1]، فإبليس تخلى بإرادته الحرة عن الطبيعة التي خلقه الله عليها، "ولم يثبت على الحق"، وماذا يعني أنه لم يثبت عن الحق غير كونه كان ثابتا ثم نكص، بمعنى أن الثبات على الحق هو الأصل في التكوين الأنطولوجي للخلق بما فيه إبليس. والحق هو التجلي في محبة الله.

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص26.

المحبة هي المكون الأصلي والطبيعي للقلب، ومتى تغيّر المكون تغيرت معه طبيعة المخلوق واختل توازنه، وانتقل من حالة استقرار إلى وضعية صراع، وإبليس هو مخلوق من قبل الله الكلي القدرة كجزء ضئيل من هذا العالم، تابع لبقية المخلوقات وكغيره من باقي الموجودات، خلق بطبيعة محبة صالحة متزنة، فالأصل فيه هو الصلاح، لكن حدث أن شارك الحب الإلهي الأصلي، حب آخر زائف ومتى ما دخل الحب الزائف القلب تناقص الحب الأصلي إلى أن ينعدم، وكلما آل الحب إلى الانعدام ابتعد الكائن عن الله، ومن كان قلبه غير عامر بالله فلا مكان له في الجنة.

نحن الآن أمام إرادة حرة متوافقة مع طبيعة الموجود (لوسيفور) فنتج لزاما عن هذا التوافق "السلام" الداخلي للموجود (بين طبيعته وإرادته)، وسلام خارجي بين إرادة المخلوق والإرادة الإلهية لتوافقهما أيضا، واستمر التوافق بين الإرادات وبالتالي استمر السلام إلى أن جاءت اللحظة التي منح فيها الله"سلطة" ما "لآدم"؛ "سلطة" اقتضت أن يميّزه الله عن كل الكائنات.

إهتز التوافق والانسجام، فكانت تلك السلطة الممنوحة لآدم بمثابة محرض قوي للإرادة على الانقلاب والثورة، رغبة في السلطة عينها وطمعا في تلك المكانة، وحسدا للموجود(آدم) التي نالها، وكبرا عن النزول تحت هو أقل منه مكانة، وغيرة من الحضوة التي طمع فيها، فكان أن تشكلت مفاهيم جديدة لم تكن موجودة قبلا كالرغبة والطمع والحسد والكبر والغيرة، حلت محل طبيعته الأصلية التي خانها على الرغم من تعرض إرادات كل المخلوقات لنفس المحرض، إلا أن إبليس فقط من استجاب له، وامتلأ قلبه بتلك المفاهيم التي تجتمع في حب من نوع آخر هو حب الذات بدل حب الله. فعوقب على اختياره وتعرض للنفي والطرد، فقرر أن يثبت أن نفس المحرض إن تعرضت له إرادة آدم ستستجيب له. وهو ما حدث بالفعل عندما طمع آدم في أن يعلو أكثر بأن يصير كالله بعد أن أغرتهم الحية، إذن فالعلو وازدياد السلطة كان المحرض هنا، وهو ما أكده الرب بقوله: "بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر، وبالفعل تحقق الأمر وهو ما أكده الرب بقوله "هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر"، وتظهر الرغبة والطمع مجددا ويظهر أيضا "الإمكان" الذي تمتاز به الإرادة الحرة لآدم.

آدم الآن واقف بين إمكانين مفتوحين كل إمكان يمثله خطاب، الخطاب الأول هو خطاب الرب بتحذير آدم من أكل الشجرة ويليه عقاب إن خالف هذا الأمر وهو الموت، والخطاب الثاني يمثله الشيطان وفيه حث على أكل الشجرة ويليه مكافأة وهي مشاركة الله في معرفة الخير والشر، وما على آدم الآن سوى أن "يفعل" تبعا "لإرادته الحرة" بعد أن "يفكر" في أي الخطابين أكثر إشباعا "للرغبة"، رغبة آدم، آدم هو الموجود

الذي خلقه الله وخلق معه الحرية–التفكير–الفعل ليجعل منه كائنا عاقلا مسؤولا عن خياراته، فاختار آدم أن يحب نفسه بعد أن كان كله حبا لله، وأن يشبع رغبته في مشاركة السلطة والعلم الإلهي، أراد أن يصير كخالقه. فخان ذلك الحب الذي يملأ قلبه، خان طبيعته. لكن في الحقيقة الحية لم تكذب عليه وفعلا صار الانسان عارفا للخير والشر، فعلا انفتحت أعينهما، فعلا شاركا الرب الإله في هذه المعرفة.

ثانيا: تفاهة الشر

تعتبر إشكالية الشر من المآزق الحساسة والمفصلية لدى رجال الدين، كونها تعرض صاحبها في أغلب الحالات للوقوع في التناقض، وأي تناقض قد يقع سيمس رأسا الذات الإلهية، إذ أن كل موجود في هذا الوجود من مصدر واحد هو الله سواء أكان حسيا أو روحاني، سلوكا أو شعورا، عاقل أو غير عاقل:

- كل موجود مصـــــــدره الله.
- الله خيّر خيـــــــــــر كلي.

– فما مصدر الشـــر في العالم؟

هنا تأتي براعة رجل الدين–الفيلسوف وحده القادر على المحافظة على نسقية الفكر الديني، وتجنب الوقوع في تناقض يقضي على أهم ثوابت الدين بل وناظمه "الله خير خير مطلق"، وأوغسطين في هذا المأزق أبان عن مهارة عالية وحجة فلسفية دامغة تجاوز بها أهل زمانه، بل وانتقد الفلسفات التي سبقت والأكثر من ذلك أثر في الفلسفات التي تلته. براعة تكمن في تتفيه الشر وتقزيمه، بداية سنصف المأزق كما ذكر في الكتاب المقدس ثم نعود لتأسيسه وتخريجه فلسفيا بتطبيق المنهج الأوغسطيني تعقل كي تؤمن.

قالت الحية لحواء "بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر"[1] وما إن أكلا (حواء وآدم) من الشجر حتى تفتحت أعينهما فعلا، لكنهما لم يريا الخير والشر بل كان أن ما رأوه أجسادهما عارية "فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضا معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان"[2]، فدخل مصطلح جديد إضافة لكل ما طرأ على طبيعة آدم الصالحة وهو مصطلح الجسد، وهنا نطرح الإشكال ما علاقة الشر والخير بالجسد؟ ولماذا كان الجسد أول عقاب لآدم عقب تناول الشجرة مباشرة؟

[1] سفر التكوين، الاصحاح 3.

[2] سفر التكوين، الاصحاح 3.

أ. الجسد

تفتح عين آدم على الجسد العاري كان أول ما حدث لآدم وحواء بعد تناول الشجرة، وهو أول عقاب، وهذا ما يؤكده قول الرب "من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟"[1]. وكأن عري الجسد كان كحتمية تلزم الأكل من الشجرة ومخالفة أوامر الرب، أي مخالفة طبيعة الانسان الأصلية الصالحة وانتهاك الوصية بوعيه وإرادته الحرة فاستولى "عليهما الخجل من عريهما الجسدي. وظهرت لهما أولى أوراق التينة. فراحا يغطيان بها الأعضاء التي لم تكن لهما سابقا موضع خجل، ثم شعرا في جسدهما الثائر على الوصية بحركة ما كانا يعرفانهما من قبل وهي كناية عن ردة فعل إنتقامية، عادلة ضد عصيانهما الشخصي، النفس التي تسكر من التفريط بحريتها الشخصية تحتقر خدمة الله فيبادلها الجسد الاحتقار"[2]، ومنه فإن لآدم وحواء في الجنة جسدا، خلق الله الأول من تراب ونفخ فيه من روحه، وخلق الثاني من ضلع آدم وكساه لحما أي كانا جسدين ولم يكونا من الموجودات النورانية أو الروحية، بمعنى أن الله خلق الله آدم خلقا مباشرا من التراب ،أما خلق حواء فكان بوسيط وهو آدم وكلاهما مخلوقان من الله.

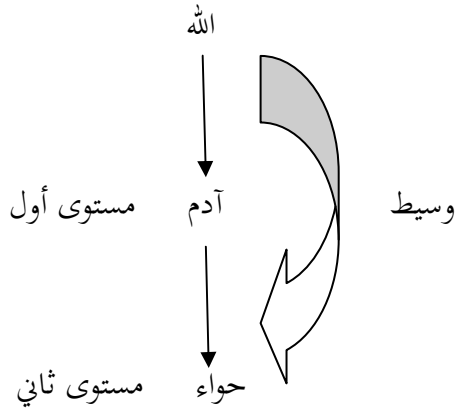

إذا أسقطنا نظرية الصدور الأفلاطونية على تدرج آدم في الخلق نجده أشبه لله من حواء؛ إذ كلما ابتعد الموجود عن الموجد الأول قل الشبه بينهما وربما هذا ما يفسر توجه الحية بالإغراء إلى حواء دون آدم، وبالفعل استجابت حواء للإغراء بإرادتها الحرة وكذلك آدم، فتحولت أعينهما عن رؤية الله وحبه إلى رؤية الجسد وحبه، تمردا على الله وأوامره فكان عقابهما أن تمرد عليهما الجسد، فبعد أن كان جسد الطبيعة الصالحة صار جسد الطبيعة الفاسدة، وبعد أن كان تحت إمرة النفس في توافق تام لدرجة أن كل أعضائه عارية غير خجلة من بعضها، اليد كالوجه كالأعضاء التناسلية كباقي الأعضاء، كانت كلها خاضعة لسلطة النفس المطلقة فلا شهوة

[1] سفر التكوين، الاصحاح 3.

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 125.

تشتهيها ولا نزوة تثيرها، ثم حدث أن انقلب الجسد على الروح وتمرد على سلطتها تماما كما تمردت هي على سلطة الله، وهنا بدأت بوادر الصراع الداخلي تظهر داخل ذواتنا الحرة، بين قوة الجسد التي تطلب تلبية رغباته ونفس تحاول أن تحجمه، هذا كان إرثنا الأول عن الإنسان الأول، إرث صارم ومؤلم ورثته كل البشرية التي كانت كبذرة داخل آدم، فهو كلنا، هو نحن بالقوة، هو الوحدة التي جمعتنا جميعنا في كيان واحد هو "الانسان الأول".

يحيلنا أوغسطينوس لفلسفة الجسد خاصة به، فالجسد باعتباره مادة وكل ما يرتبط بها من أعراض آنيه خاضعة لسلطتي الزمان والمكان، وما يترتب عن هاتين السلطتين من قوانين حتميه: فناء، نقص، موت، تغير، تحديد ومحدوديه وغيرها،كلها تعرض الانسان لجملة من النزوات تزيد من انعطافه عن طريق الخير، وعلى رأسها الجسد، الذي عزم أن يتمرد على النفس كما تمردت هي على خالقها، فهل تكون المادة عموما بمغرياتها هي مصدر الشر الذي يبحث عنه فيتفق بذلك مع الأفلاطونية المحدثه؟ هل يجعل القديس للشر مصدرا فيعطيه بذلك وجودا مستقلا، ونعترف إذن به في هذا العالم ويتفق حينها مع أصحاب المذاهب الثنائيه كالزرادشتيه والمانويه ؟

يجيب الفيسلوف أوغسطين على كل هذا القلق الذي يعصف به بالعوده الى الكتاب المقدس في قول الرب "ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا، وكل مساء وكل صباح يوما سادسا"[1]، كل المخلوقات هي حسنة إذن لا شر فيها، وهو ما جعل صاحبنا يصل لفض كل صلة تربط الشر بالمادة، والقول "بأن المادة لا يمكن أن تعتبر شرا حتى ولو لم نر فيها شيئا سوى مبدأ بسيط للإمكان واللاتعين"[2]، حتى مغريات المادة حسنه جدا وضرورية للعيش السوي المعتدل، بل وإن العقل يطلبها لكن دون إفراط أو تفريط "والواقع أنه يسرع إلى كل ما هو دعارة وتسلط وإلى كل ما شابه ذلك من تلك الاشياء التي بها يظن الكثيرون من المتطرفين والأشقياء إنهم يحوزون الفرح والسلطة، وفي الواقع إنه ليضمر ويتضاءل بسبب الدناءات والمخاوف والغم والشهوة وكل ما شابه ذلك،(...) ولكن بعد أن يجد السعادة ينظر إليها(...) ويستمسك بها، وإذ يخرج من تأثير ذلك الفراغ، لن يعود إلى تلك الاشباح الخداعة، التي بعد أن يعانقها، تسقطه عن إلهه وتخفيه في ظلماتها"[3]، فالانسان الذي يتحكم في جسده هو الانسان الذي أدرك أن الجسد وسيلة للعيش ولعبادة الرب وليس غاية نسعى لاشباعها في كل مرة بشكل أعمق من الذي سبقه حتى تستحوذ على النفس وتنسى الله.

[1] سفر التكوين، الاصحاح (1، 21).

[2] إيتين جلسون: روح الفلسفه المسيحيه في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبه مدبولي، مصر، ط3، 1996، ص165.

[3] أوغسطينوس: في الحياة السعيدة، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007، ص120.

نحي أوغسطين منحا مخالفا تماما لما جاء به أفلاطون والرواقية، وغيرهم من الفلاسفة الذين اعتبروا الجسد سجن النفس وعقابها الذي أقحمت فيه كعقاب إلهي على الخطيئة التي وقع فيها الانسان، أما أوغسطين فالجسد عنده كان منذ البدء في الجنة مع آدم وحواء ينعم مع النفس بالكمال والأبدية، وما شهده من تغيرات وصفات دخيلة لم يكن هو السبب فيها، بل الإرادة الحرة التي اختارت النفس من خلالها أن تحب ذاتها وتمتهن الرب؛ إذن هي صفات دخيلة سببها الخطيئة التي اقترفتها النفس، بل الأكثر من هذا فقد صوّر أوغسطين الجسد وقد تضامن مع الرب الذي ثارت عليه النفس فثار هو عليها وخرج عن إمرتها، فصار بذلك الجسد ذو قوة مستقلة له كيانه الخاص من نزوات وشهوات، وصار الانسان ملزما على الإختيار بينه بين النفس، أو حسب تعبير القديس بوليس "حياة بحسب الجسد وحياة بحسب الروح"[1]، والحياة بحسب الجسد هي حياة فاسدة فساد النفس التي عصت الرب، حياة فيها من الحسد والكبرياء والفتن والشرور ما يجعلها قادرة على إبعاد النفس عن الله أكثر، فظهرت الشهوة في الانسان كبديل لمحبة الله الخالصة، والتي "تجسد ميل البشر المستمر نحو الخطيئة"[2]، فالشهوة وغيرها من نزوات الجسد أصبحت ذات وجود طبيعي في كل انسان، ولما كان الانسان مؤلفا من جسد ونفس؛ (إنسان = نفس+ جسد)، كان لزاما على هذين القطبين أن يتعايشا، إذن لا يمكن أنا يحي الجسد بمعزل عن النفس أو يمارس شهواته دون أخذ النفس بعين الاعتبار، وهذا ما تحاول النفس فرضه راغبة في العودة إلى طبيعتها الأولى الصالحة المسيطرة على الجسد قبل وقوع الخطيئة.

إن هذا العجز الذي يعانيه الانسان –العجز الروحي–، سببه عدم مقدرته على التماهي في الكلي الكامل، حتى آدم لم يتمكن من ذلك على الرغم من أن جسده كان صالحا خاضعا، بسبب الارادة والحرية التي منحها الله له فحدثت الخطيئه، لكن لماذا لم تفعل الملائكة المتبقية في الجنّة نفس الفعل التمردي على الرغم من امتلاكهم ذات الارادة الحرة، وهل الحرية تستلزم بالضرورة الخطيئة والتمرد على الله؟

ب. في الارادة الحرة:

الحرية إذن لا تمانع التماهي ولا ترغب دوما في السقوط والفساد، بل الإرادة والفعل هما اللذان يحركانها ويختاران أي الإمكانات أنسب للصلاح الكامن فيها، صحيح أن الانسان الأول (آدم+ حواء) كان صالحا، لكن لم يدم ذلك طويلا فالرغبه في "السلطة" التي فاقت رغبتهما في التماهي مع الكامل والعيش "تحته"، الرغبة في التفوق على "التحت" والمماثلة بالله "بل الله يعلم أنه يوم تأكلان تنفتح أعينكما وتكونان كـــالله

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 155.

[2] كريستيان نادو: المفردات والأسلوب، تر: شادي رباح نصر، دار النايا، بيروت، ط1، 2014، ص 51.

عارفين الخير والشر"[1] الـ"كـ" التي حركت االإرادة وقررت أن تقود حريتها نحو "الفعل" وهو التمرد والذي تجسد في "الأكل"؛ الأكل هنا لم يكن فعلا عاديا بقضم ثمار شجرة، وإنما رمزيته تقول أكثر من ذلك فهو"تحد" لأوامر الخالق وخروج عن "العبودية" وعن "التحت"، ورغبة في الوصول إلى حرية كاملة ربما، حرية تتجاوز ذلك الأمر الالهي القائل ب"المنع"، لا تأكل من الشجرة.

سجن "التحت" كان محرضا قويا للانعتاق، فحرية آدم التي كانت مقيدة بعدم الاقتراب من "شيء ما" وليكن الشجرة، كانت ترغب في حرية أكبر وحرية كاملة وحرية ليس فيها قيد، لكن هذا التمرد تسبب في سقطات للإنسان أهمها السقطة االروحية التي أدت إلى موته ميتات كثيرة، فمحاولة انعتاقه من العبودية أخضعه لعبوديات أكثر: عبودية للخطيئة، عبودية للجسد، عبودية للموت...، إلى أن جاء السيد المسيح ليعيد لنا الحرية وكأن الله يريد أن يخبرنا أن الحرية لا تتحقق إلا به ومن خلاله، وأن حريتنا من حريته وضمنها.الآن آدم مغترب عن الله، وصار عبدا لذاته الفاسدة وعارفا ما الخير؟ وما الشر؟، وهنا ظهر مفهوم جديد وهو الشر. فما حقيقة الشر في المسيحية وعند أوغسطين؟.

الإيمان المسيحي حث على اجتناب الشر، وحث على ضرورة التقيد بتعاليم السيد المسيح، والمؤمن المسيحي هو الذي يلتزم بتلك التعاليم حتى يعيش في ملكوت الرب بجوار اليسوع فيجتنب الشر، لكن المؤمن المسيحي السؤول هو الذي يبحث عن هذا الشر ومصدره، فالمنطق العقلي السوي وقع في مأزق حقيقي يتضمن التالي:

- إذا كان الله مصدر كل موجود،
- والشر موجود،
- إذن الله مصدر الشر

تعرضت هذه المفارقه لهجوم كبير من قبل الفلاسفة وغير السماويين، في محاولة منهم لإثبات أن الشر مصدره الله، فحتى إن نفينا الشر عن الله وأرجعناه لشهوات الإنسان وميولاته، وقلنا أن الشر كسلوك أو "شعور" ناتج عن الانسان، ألا يحيلنا هذا أيضا إلى الله، باعتباره خالق الانسان وخالق كل ما فيه من سلوك وشعور إلى كل ذرة فيه؟ هنا وقف رجال الدين_الفلاسفة للرد على ما يعتبرونه "إدعاءات"، لكنها في الحقيقة "إستنتاجات منطقية" ناتجة عن مقدمات وضعها رجال الدين أنفسهم؛ أليس الله مصدر كل شيء في الوجود، وللشر حيّز من الوجود مهما كبر أو صغر ولا يمكن إنكار ذلك بأي شكل من الاشكال.

ونفي الشر عن الله الخيّر يقودنا للاستدلال التالي:

[1] سفر التكوين، الاصحاح(3،5).

- الله خير خير كلي. (مقدمة 1)
- الله مصدر كل الوجود. (مقدمة2)
- إذن الشر غير موجود. (نتيجة 1)
- أو الشر موجود من مصدر ثاني غير الله (الطاويه، الزرادشتيه، المانوية) (أو النتيجة2)

إذا أردنا أن ندرك حقيقة الشر لدى أوغسطينوس فيجب أن نعود إلى حيث عاد هو، إلى عمق الانسان وجوانيته، فنعود معه إلى عمق أوغسطين ذاته ونستخرج من مسيرته مكامن الشر، أسبابها ومصدرها، فنجد أن الزاوية في فكرة الشر عنده تكمن في ما قاله في كتابة في الارادة الحرة: "ولما كان فرسا ضالا هو أفضل من حجر لا يظل، ما دام الحجر لا يملك من أمره حركة ولا إدراكا، فإن الكائن الذي يخطئ بمليء إرادته الحرة هو أفضل من الكائن الذي لا يخطئ البتة لأنه يفتقر إلى الارادة الحرة"[1]. والإرادة الحرة هي "اتصاف صاحبها بنزوع واع متمكن من نفسه،(...) وهي تدل بالجملة على نزعة نهائية مستقرة، أو ميل قوي يحمل صاحبه على الفعل،(...) الارادة هي القوة التي هي مبدأ النزوع وتكون قبل الفعل"[2]، كما تظهر في قول الرب يسوع:"يشبه ملكوت السماوات إنسانا ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل عبيده ليدعوا المدعويين إلى العرس فلم يريدوا أن يأتوا"[3] فالرب يقر بحرية الأفراد ومسؤوليتهم المطلقه على كل سلوكاتهم واختياراتهم، أي هي ذلك النزوع الحر الواعي المتعقل نحو الفعل هذا دون سواه دون أي عنف و إن كان رمزيا أو أي ضغوطات خارجية مهما كان نوعها كالتهديد في قول الرب "موتا تموت"[4]، وتحقق التهديد.

إن رفض الآخر للخطيئة (الأخطاء) التي نقترفها يجعلنا نعيش في مجتمع من الممنوعات والعقوبات، يحسها البعض كسجن يسلب حريتهم، فما يكون لهم إلا أن يستعيدوها من خلال فعل كل ما يرفضه المجتمع، بهذا "الفعل" يطلق العنان للحرية ويجعل صاحبها يحس أنه إنسان كامل الارادة. هذا ما تؤكده القصة الواردة على لسان صاحبنا "كانت بالقرب من كرمنا شجرة إجاص (كمثرى) محملة بالثمار، ولكن لا لون ولا طعم لها، ورغم ذلك ذهبت بصحبة فتيان فاسقين في وقت متأخر ذات ليلة حسب عاداتنا الشريرة باللعب واللهو في الأزقة حتى أوقات متأخرة، وقمنا بهز هذه الشجرة وسرقة أحمال كبيرة منها لا لنأكل منها. بل لكي نلقي

[1] جاريث ب.ماثيوز، مرجع سابق، ص178.
[2] جميل صليبا، مرجع سابق، ص58.
[3] إنجيل متى، الاصحاح، (3 - 22).
[4] سفر التكوين، الاصحاح، (3،2).

بها إلى الخنازير لتتذوقها هي أيضا. كنا نحب أن نفعل ذلك لا لشيء إلا لأنه كان مكروها من الآخرين"[1]، فقرة صريحة تبيّن موقف أوغسطين من الآخر.

المحرض هنا كان تحدي الآخر، لم يحس أوغسطين بعد "الفعل" الذي قام به بالندم (الألم)، بل كان ينتشي بالانتصار الذي حققته الحرية، ظنا منه أنها استعادت ذاتها وانتصرت على ساجنيها. إذ لم يكن الهدف من وراء السرقة الأكل أو بيع ما سرقوه أو الاستفادة منه بأي شكل من الأشكال، حتى أنهم قاموا فوق ذلك برمي ما سرقوه طعاما للخنازير؛ بل كان الهدف هو القيام بفعل السرقة في حد ذاتها "وهكذا كانت خطيتي وحدها هي مصدر متعتي، فحتى إذا تذوقت إحدى هذه الثمرات لم أشعر بمذاق الثمرة، وإنما بحلاوة الاثم، (...ف) رحت كسجين أحاكي الحرية"[(2)]، لم يكن أوغسطين يستمتع بتبعات السرقة بل كانت المتعة في السرقة كفعل مستقل عن مخلفاتها، هذا ما أصر عليه وكرره في أكثر من موضع في الاعترافات، فهل كان حريصا على أن يجعل من فعل السرقة سلوكا طائشا لا هدف حقيقي من ورائه؟ "هكذا كانت خطيتي وحدها هي مصدر متعتي، فحتى إذا تذوقت إحدى هذه الثمرات لم أشعر بمذاق الثمرة وانما بحلاوة الاثم"[(3)]. على الرغم من أن هذا الطرح لم يقنع الكثير من اللصوص الذين يمتهنون السرقة لكسب لقمة العيش، أو للسيطرة على مناطق والاستحواذ على ما_من فيها، فأوغسطين لم يكن يسرق قاصدا السرقة في حد ذاتها، بل كان يثور على مجتمع حرّم كل سبل اللذة، وقنن السعادة.

صحيح أن لا هدف حقيقي من كل ذلك الإجاص، لكن السرقة كانت بالنسبة له فعلا تحرريا ثوريا من كل قيد فرض عليه، وإن كان القيد أخلاقيا قيميا كالنصائح التي تقدمها له أمه "مونيكا"؛ يقول" كانت تحذرني سرا ألا أرتكب الزنى، وخاصة ألا اشتهي امرأة رجل آخر على الاطلاق، لقد بدت هذه النصيحة وكأنها نصيحة نسائية، وبالتالي من المخجل أن أطيعها(...)فهرولت في عماي خجلا من أن أكون أقل من أقراني سفها"[(4)]، فالتسابق لفعل أكثر الملذات تحريما كان تسابقا نحو الحرية، ونحو تقزيم مساحة تدخل الآخر في حياة الأفراد الخاصة وطرق البحث عن السعادة فيها وتحقيقها.

كل هذا التمرد الذي عايشه الرجل ابتدأه —وهو أحسن من ينتقي الألفاظ والمصطلحات في الاعترافات وأحسن من يرتب الأفكار ترتيبا يجعلنا نستنتج قبله الفكرة التي يرنو إليها —ابتدأه بحادثة دشن بها كل طيش قام به لاحقا، يقول :"وفي عامي السادس عشر تركت المدرسة إلى حين بسبب قلة موارد والدي. فعشت معهما، فكانت تلك الحقبة مليئة بالعبث حتى إن أغصان رغباتي الدنسة علت فوق رأسي بغزارة، ولا يد

[1] أوغسطينوس: الإعترافات، مصدر سابق، ص29.
[2] المصدر نفسه، ص ص31-32.
[3] المصدر نفسه، ص31.
[4] المصدر نفسه، ص28.

تقتلعها. وعندما رآني أبي و أنا أسبح في الماء، ولاحظ نموي وزحف الرجولة على شبابي الثائر، راح يستبشر قدوم أحفاد له في المستقبل، لذا قام و زف البشرى لأمي وهو سعيد باضطراب الحواس هذه التي بسببها قد نسيك العالم يالله"[1]، يعود الجسد للظهور مرة أخرى فزحف الرجولة لجسد أوغسطين وبداية تدفق رغبات الجسد هو ما جعل آدم يغطي جسده بورق التوت، فرغبات الجسد وتلبية النفس للأمر بدافع تحقيق الحرية، والحرية هنا هي مطلب الجسد يرغب في تحقيق كل نزواته، والتي متى ما تحققت انخفض صوت النفس وابتعد القلب عن الله، فالحرية كفعل نشده أوغسطين حينها كانت حرية الجسد وكذا النفس الخاضعة للجسد البعيدة عن الله وهي النفس الميتة في حالتها الثانية.

سلطة الجسد خلقت لنفسها منظومة مفاهيم أخلاقية قيمية وتحررية خاصة بها، تجعلها تحاول تحقيقها بأي طريقة وإن كانت تخالف عادات المجتمع وقيمهم وتخالف حتى الأوامر الإلهية، بل وترى في فعلها التحرري حقا من حقوقها وعلى الآخر تقبله، لأن الأسس التي بني عليها فكرها تختلف عما هو سائد، ويصبح بذلك الآخر الملتزم بمنظومة مجتمعه عدوا يحاول التمرد عليه وتخريب أساسياته فكريا وسلوكيا؛(تخريب الشجرة)، كما وتصبح الأوامر الإلهية سجن استبدادي من صاحبها الديكتاتوري الذي لا يصلح أن يكون ربا بقدر ما يكون مستبدا إذ يخلق النزوات ثم يهددنا إن اتبعناها، فيكون هذا سببا في أن يبتعد عن الله، لكن الحقيقة أن الله هو من ابتعد إذ لا يمكن أن يجتمع الله وشهوة إطلاقا؛ فالله هو من ابتعد في اللحظة التي ظن صاحبنا أنه هو من بادر بالابتعاد. إذا كانت المادة ليست مصدر الشر ولا الجسد ونزواته، وغذا كان الشيطان هو الآخر ليس مصدرا للشر، فما هو مصدر هذا الشر في العالم؟

ج. مصدر الشر

هنا تماما تبدأ الاجابة عن إشكاليتنا وإشكالية أوغسطين الأساسيه التي تفرعت عنها الكثير من المشكلات الفلسفية الشائكة، يقول صاحبنا: "هذه هي طبيعة الشر التي كنت أبحث عنها، وأتساءل حولها: "من أين يأتي الشر؟"، فالشر ليس جوهرا، لأنه لو كان كذلك لكان خيرا، فالشيء إما أنه جوهر غير قابل للفساد، ومن ثم يصبح خير أسمى، أو أنه جوهر فاسد، وهو لم يكن يفسد إن لم يكن فيه صلاح وبالتالي تصورت وبدا لي، أنك خلقت كل الأشياء صالحة. وليس هناك جوهر على الاطلاق لم توجده. لذلك كل الأشياء موجودة، لأنها صالحة جدا، نعم هي كذلك لأن إلهنا خلق كل شيء، حسن جدا"[2]، إذن انحسار الصلاح والخير لا ينفي عنه الجوهرية، نعم الخير جوهر ولا جوهر غيره وأي ظهور لعامل جديد ما هو إلا انعكاس لهذا الانحسار أو النقص، وبهذا يكون الشر هو نقص الخير هو ابتعاد عن الجوهر.

[1] أوغسطينوس: الإعترافات، مصدر سابق، ص27.

[2] المصدر نفسه، ص ص 116-117.

يعرف أوغسطين الشر بربطه بالخير، إذ لا يعطيه استقلالية خاصة به ليجعل له تعريفا خاصا، بل يجعله تابعا للخير ولا يعرّف إلا به يقول: "إن النقص في الخير شر، فإن تعرض الخير في الكائن إلى النقصان، لابد أن تبقى له بقية من كيان وبوسع هذه البقية أن تعيده إلى كيانه الأصلي، لأنه مهما بلغ هذا الكائن من صغر، فلا يسعنا أن ندمر الخير الذي يجعل منه كائنا، ما لم ندمره هو نفسه (...) ونخلص بالتالي إلى تلك النتيجة المدهشة: بما أن كل كائن خير بذاته، فإذا قلنا أن الكائن الفاسد كائن شرير، كأنما نقول إن ما هو خير هو شرير، وليس من شرير سوى الخير، والحال أن كل كائن خير ولا وجود لما هو شرير، مادام الشر لا كيان له بحد ذاته"[1]. هذه هي النقلة التي أحدثها أوغسطين إذ قتل أهريمان ونفى اليانغ وكل جوهر مستقل بذاته، لا وجود للشر ككيان لا وجود للشر أصلا، إنه خير منحسر، إنه تماما كالمرض الذي يصيب الجسد فهل هناك مرض ابتداء؟ طبعا لا، بل هو كنتيجة لنقص في الصحة، إذن ما هو المرض غير خلل حدث في الجسم أو مناعة فقدت بعد أن كانت تحمي الجسد من أي خلل، كالطبيعة السلمية التي خلقها الله خيّرة ثم يحدث بفعل الإرادة الحرة أن تهاجمها عوارض جديدة لم تكن موجودة قبلا ليعيش الفرد في صراع بين الطبيعة الخيرة والرذائل الشريرة إلى أن ينتصر أحدهما على الآخر، الشر كالمرض كلاهما يظهران بعد أن يحدث خلل في الطبيعة الأصلية الخير والصحة مثلا.

لا وجود للشر: "إن الشر في حد ذاته لا شيء، فهو بالمطلق شيء سلبي. وهكذا نرى على الفور أنه من المستحيل أن نفكر في الطبيعة الجوهرية للشر حيث أنه لم يتم تعريف الشر ك(شر) بل ولكن من خلال الاشارة إلى كينونة أخرى مختلفة عنه"[2]، وهذا ما قزم الفكرة التي كانت سائدة بمواجهة بين الله (الخير) والشيطان (الشر) أو الشر عموما، فالشر عند فيلسوفنا لا يرقى أن يواجه الله أو أن يوضع في كفة معه، وإن وجد القارئ أن أوغسطين يستخدم كثيرا تقابلات بين الله والشيطان مثلا في قوله :"لا يجوز أن نضطرب لكثرة من يحالفون الشيطان وقلّة من يتبعون الله، الحنطة أقل من التبن كميّا، ولكن كما أن المزارع يعرف أن يتدبر كومه التبن الكبيرة، هكذا فإن الله الذي لا يعير جمهور الخطأة أهميه، يعرف أن يتدبر أمرهم لئلا يلحقوا الفوضى والفساد في إدارة مملكته، حذار أن نفكّر في أن الشيطان قد انتصر لأنه اجتذب اليه عددا كبيرا من الناس، لأنه من الممكن التغلب عليه بعدد قليل"[3]، فهو إنما يقصد بها انجذاب الناس نحو النزوات في مقابل ابتعاده عن الفضائل، ولا يعني أبدا قوة مقابل قوة.

الشيطان إن ضر فإنما يضر البشر وحدهم، ولا عذر لهم مدام أنه إنوجد في ذواتهم بإرادتهم الحرة ولا دخل لله فيه، أما الله فهو أعلى من أن يكون في مواجهة مع هذا العرض المسمى "شرا"، يؤخذ عليه فقط أنه

[1] نقلا عن هنري إيرينيه مارو، مرجع سابق، ص74.

[2] كريستيان نادو، مصدر نفسه، ص95.

[3] أوغسطينوس: تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007، ص57.

تحدي الله وتمرد على أوامره العادلة، يقول أوغسطين: "إذ ذاك يصبحون له أعداء بفعل إرادة المقاومة وليس بالقدرة على الإيذاء، الله ثابت لا يتغير ولا يفسد ،بيد أن الرذيلة التي تقاوم الله ليست شرا، بل لأنفسهم، وليست شرا بقدر ما تفسد فيهم خير طبيعتهم وفي الواقع، الرذيلة مناقضة، وليست الطبيعة لمناقضة لله (...) الشر لا كيان له، الطبائع التي أفسدتها الرذيلة الناتجة عن الإرادة الشريرة، ليست شريرة إلا لكونها ضحية لرذيلة بينما هي جيدة بصفتها طبائع"[1]، الإرادة هي المسؤولة رأسا عن هذا الخلل في الخير، والذي جعلت الغنسان يتمرد وحسب ولا يقدر على فعل أكثر من هذا، فهو إذ تمرد فقد عصى أوامرا إلهية، ولن يقدر على مواجه الرب إطلاقا، فلا وجود لأهريمان حتى يشكل قوة مقابل قوة أهورامازدا، وإنما هو مجرد رد فعل ناتج عن نقص في الخير.

الشر إذن ليس جوهرا ،ليس ذاتا مستقلة، ليس الشيطان، الشيطان هنا أخذ دور تفجير المكبوت داخل الانسان، إخراج ما يريده ويخاف من عواقبه، الشيطان ليس إلا رمزا يحمل دلالات عميقة، هل الشيطان من أخرج الإنسان من الجنة؟ لا الشيطان فقط فتح الإمكانات أمام الانسان، وجه نظره أمام رغبات كانت مخبوءة بين الخوف من الله وحبه، حب الله يمنعني من القيام بما أحبه لنفسي، الشيطان وضع حب الله جانبا وقال: أختر الآن ما تريد بكل حرية ودون قيد، الحب قيد، نعم هو كذلك مادام أنه فوق إرادتي، ومتى ما أتيحت لي فرصة الاختيار وأعطيت لإرادتي الحرية التهمت الشجرة، الشيطان فتح عيناي، رأيت الحرية، ورأيت جسدي العاري، عار من كل قيد، جسد حر ينبض بالحياة.

الحية أحيل المخلوقات لم تخدعني بل أرتني الجانب الآخر الذي أعماه حب الله، أعماني حب الله فلم أعد أرى سواه، الحية أحالتني لرؤية ما سواه، الحية هي عقلي الذي انتفض على قلبي الأعمى، وانفتحت عيناي، الشجرة محرم أكلها، محرم معرفة سرها، الشجرة هي مكبوتاتي المحرمة. هي كل ما هو مدفون بداخلي وأعجز عن معرفة سره أو الاقتراب منه حتى لا أموت موتا، الشيطان، الحية، الشجرة ليست شخصيات واقعية وإن كانت كذلك فهي هنا ليست سوى وسائل لأعرف من خلالها ذات الانسان.لأعرف نفسي بنفسي. الشيطان، الحية، الشجرة هي أنا، الأنا المحرمة.

أوغسطين نقلنا بتفسيره لمشكلة الشر إلى مستوى آخر من التفكير، مستوى يحسب له لم يسبقه اليه غيره ،بعد أن أعاده لحجمه الحقيقي كونه مجرد عرض تابع لا جوهر له و"الأمر الأهم بالنسبة لسلب الجوهرية عن الشر هو أن الاعتراف بالشر يؤسس رؤية فقط معنوية للشر، فإذا كان السؤال: "من أين أتى الشر؟" يفقد كل معنى أنطولوجي ،فإن السؤال البديل "من أين أتى فعلنا للشر؟" يهبط بمسألة الشر كلها من كرة

[1] أوغسطينوس: مدينه الله، مج2، مصدر سابق، ص ص62-63.

الفعل(التصرف) الارادة"[1]. بمعنى أنه مجرد فعل ناتج عن اختيار معين وربما لو قلت أنه مجرد "رد فعل" على إختيار معيّن سيكون موفي لأوغسطين حقه، فالفعل هو الاختيار والمقصود هنا هو اختيار آدم، أين لم يكن هناك شر بالأساس، فآدم إختار وفق إرادته الحرة، فنتج عن ذلك نقص في الخير؛ بمعنى أنه نتيجة للفعل أو "رد الفعل".

كما وأن الشر مشكلة شخصية كل مسؤول عن اختياره، ولا يفهم من وراثة الخطيئة أننا ورثنا الشر ومجبرون عليه، الأمر الوحيد الذي أجبرنا عليه هو "الموت" أما الشر فهو خاص بالفرد، له أن يفعله وله أن يتجنبه كل حسب "حبه لله" أو "حبه لذاته" ونستطيع أن نثبت ذلك بالإستعانة بالكوجيطو الأوغسطيني "أنا أخطئ إذن أنا موجود"

أنا: ماهية ذاتيه مستقلة استقلالا كليا عن آدم وعن خطيئته.

أخطيء: فعل حر إرادي.

يستلزم عن هذا

أنا: ماهيه متحققه.

موجود: كينونه فعالة مستقلة.

حل أوغسطين لمأزق الشر هو دراسة فريدة من نوعها، فبعد أن أعطته كل الفلسفات التي سبقته مشروعية وجودية واعتبرته وجودا مستقلا بذاته تمثله قوى خارجيه كالطاوية والزرادشتية والمانوية، أو داخلية كالجسد عند أفلاطون وغيرها، جاء أوغسطينس ليسحب منها هذه الاستقلالية الأنطولوجية ويعيد للشر حجمه الحقيقي؛ فاعتبر الشر مجرد فعل أو سلوك يقوم به الانسان لنقص الخير في قلبه وابتعاده عن الرب، وكلما زاد ابتعاده عن الرب كلما نقص فيض الخير عليه؛ فتكون بذلك التصرفات والأفعال الناتجة عن نقص الخير هي ما يسمى بالشر.

ثالثا: التثليث

الكلمة عند اليونان تعني اللوغوس فهي النفس الكلية التي أوجدت الأنفس المفارقة للموجودات وهي اللامتناهي عند أنكسماندريس، وهي التي تجري الماء فلا تستطيع أن تدخله مرتين أي القانون العام الذي يسير عليه الوجود في تغييره من ضد إلى ضد عند هيراقليطس، وهو الشيء الوحيد الثابت في هذا الوجود الدائم السيلان، وهي الثبات والوحدة عن بارميندس وهي العدد عند الفيثاغوريين فكما أن الواحد أصل جميع الأعداد

[1] بول ريكور: فلسفة الإرادة (الانسان الخطاء)، تر: عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2002، ص ص228-229.

فكذلك العدد أصل جميع الموجودات، وهي المحبة التي تجمع العناصر أو الجذور المختلفة عند أمباذوقليدس وهي العقل الذي يحرك العناصر ويجمع بينها أو يفصل عند أنكساجوراس. وهي ذلك الوسيط بين الإله والانسان الحامل للوحي أو هو صوت الضمير الأخلاقي عند سقراط، وهي تلك الحقائق الثابتة الحقيقية وهي الواهبة الصور للمحسوسات، وهي واسطة بين الإله وبين العالم من جهة وهي التي تنظم العلاقة بين المثل الثلاثة من جهة أخرى عند أفلاطون، وهي الوسيط بين المحرك الأول باطلاق وبين المحرك الأول الذي يتحرك، وهذه الواسطة هي مبدأ الوجود، حيث أن من خلالها نشأ الوجود، وعن الحركة تحركت عناصر الطبيعة تبعا لطبيعة هذه العناصر، فالحركة هي المبدأ الأول باعتبارها انفعال الفعل عن الفاعل الأول أو المحرك الأول بإطلاق فلها من الأهمية ما جعلها تكون ذلك اللوغوس المقدس أو الكلمة عند أرسطو[1]، وبعد هذه الفلسفات جاءت المسيحية لتزيد من عمق "الكلمة–اللوغوس" وتبرز معالمها وتغوص في كنهها.

"في البدء كان الكلمة والكلمة عند الله، وكان الكلمة الله"، الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: "الآب والكلمة وروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد"، وفي موضع آخر "وهو متسربل بثوب مغسول بدم، ويدعى إسمه كلمة الله"، وما هو مبين من أسفار العهد الجديد أن الكلمة هي عنصر ضمن ثلاثة عناصر تشكل مجتمعة السر الإلهي المتمثل في "التثليث"، سر لا نراه ولا يمكن أن نخبره بحواسنا لكن نستطيع أن نستدل عليه بآثاره، إذ ليست المعرفة الحسية وحدها هي الحقيقة وليس المحسوس هو كل ما يحويه هذا الوجود (...) فكيف لا نؤمن بالمسيح إذا؟"[2]، فالتثليث من الأمور التي لا تُرى على الرغم من كونها أهم أساس من أسس العقيدة المسيحية، عقيدة تقتضي الايمان برب واحد بهيئات ثلاث.

المسيحيون موحدّون هذا هو أول مبدأ الذي ترتكز عليه في الديانة المسيحية؛ "إسمع يا إسرائيل، الرب إلهك إله واحد"(تثنية6،4)، وليس كما هو متداول بوجود ثلاثة آلهة مستقلة، بمعنى ثلاثة جواهر مستقلة، فأين تظهر الوحدانية في ظل هذه الكثرة من الشخوص؟ وكيف يكون الله واحد وثلاثة في نفس الوقت؟ وكيف يكون آبا وإبنا وروح قدس في آن معا؟ ولماذا يخترق الكمال حيّز الزمان والمكان ويدخل التاريخ ليعاني ويتألم؟.

"أيها الرب إلهنا نؤمن بك آبا وابنا وروحا قدسا، فلو لم تكن ثالوثا لما قالت الحقيقة "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس" متى (19,28)لو لم تكن ثالوثا في إله واحد، ولو أنك أنت الله، كنت آبا في ذلك، وكلمتك المسيح اليسوع ابنا في ذاته، وعطيتك روحا قدسا في ذاته، لما قرأنا في رسائل الحقيقة "أرسل الله إبنه" (غل 4،4)، ولما قلت أنت أيها الإبن الوحيد، في الروح القدس "ذاك الذي

[1] أنظر ياسين حسين الويسي: الكلمة واللوغوس في الفكر الفلسفي والديني، دار صفحات، سوريا، ط1، 2016، الفصل الأول.
[2] أوغسطينوس: الايمان بأمور لاترى، مصدر سابق، ص ص 9-10.

سيرسله الآب باسمي" يو(14، 26) و"الذي سأرسله أنا إليكم من الآب يو(15،26)"[1]، يجيب أوغسطين عن هذا السؤال بشكل مباشر في قوله: "إذا كانت الكينونة الإلهية واحدة في ذاتها، فإنها تتمثل في الثالوث أي أن الخالق يبقى واحد حتى إن تجلى لنا في هيئة الآب والإبن والروح القدس وهكذا، إن هؤلاء ليسوا ثلاثة آلهة بل هم خالق واحد متحدين في الكينونة المقدسة التي لا يمكن أن تنقص، على أي حال لا يجب خلط هذه الكينونات الثلاثة، لأن هؤلاء ليسوا ثلاثة كينونات، فهم يبقون منفصلين أي أن الآب ليس الإبن والإبن ليس روح القدس، وأن روح القدس في حد ذاته روح الآب وروح الابن، ليست الآب ولا الابن"[2]، فهم منفصلون ومندمجون في آن معا، كيف ذلك؟

يرفض أوغسطينوس التهم الموجهة للمسيحية كونها وقعت في تناقض وأنها لم تراعي أبسط مبادئ العقل إذ لا يمكن أن يكون أ و ب في مكانين مختلفين في نفس الوقت، لأنه حينها يكون أ ليس ب، وبالتالي كيف يكون الله هو الإبن أو روح القدس خاصة وأن الإبن هو بيننا يأكل وشرب ويعيش كالبشر؟ أقول يرفض أوغسطين هذا النقد ويعتبره جهلا بأبجديات المسيحية، فالمسيحية لا تقول بأن أ هو ب ولا تقول بثلاث جواهر أصلا والأمر واضح في قول أوغسطين بأن الخالق واحد بذات واحدة ولكن له هيئات ثلاث مختلفة بعضها عن بعض، هذا ما يبسطه المخطط التالي:

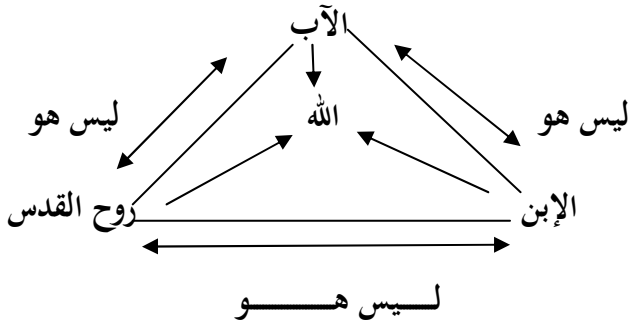

حقيقة أن مفهوم التثليث يحمل في طياته الكثير من الغموض والمغالطات لكن هذا لمن لم يطلع أبجديات التثليث، فمتى ما فرقنا بين الجوهر الواحد والأشخاص الثلاثة، أو بين الجوهر الواحد والهيئات الثلاث سيزول اللّبس، فليس هناك ثلاث جواهر منفصلة وإلا لقلنا فعلا هناك تعدد وهناك تناقض، وإنما هو جوهر واحد هو الله، نقول مثلا الانسان الواحد له عقل ونفس وجسد، والعقل ليس هو الجسد والجسد ليس هو

[1] هنري إيرينيه مارو، مرجع سابق، ص 85.
[2] كريستيان نادو، مرجع سابق، ص 135.

النفس ولا النفس هي العقل، لكن الجسد هو الانسان والنفس هي الانسان والروح العاقلة هي الانسان، فالإنسان واحد لكنه يحوي ثلاث صفات ذاتية تختلف بعضها عن بعض:

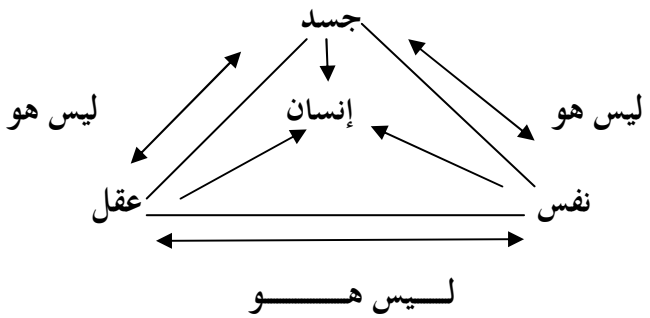

صحيح أنها تختلف عن بعضها البعض لكن كل صفة تشارك الإنسان في جوهره الإنساني، كل عضو ليس الآخر لكن كل واحد منهم هو الإنسان. سبب الاختلاف الآن هو أن لكل هيئة وظيفة خاصة بها تلزمها هي ولا تُعني بها الهيئة الأخرى. كل واحد منها هو جوهر في حالة "ما" وليس هو "كل" الجوهر . وكذلك التثليث ولأوغسطين مثال آخر:

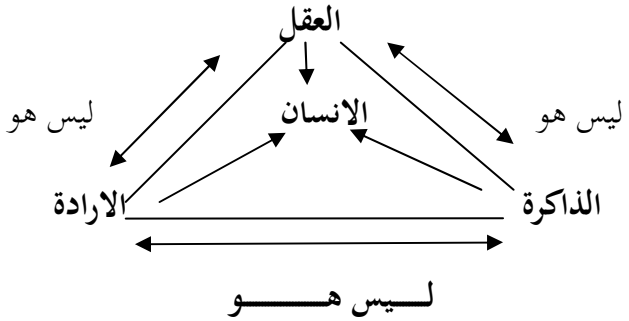

لدينا الآن ثلاث ملكات مختلفة كل واحدة لها دورها ووظيفتها، منفصلة عن بعضها البعض، لكن هل يمكن أن تعمل الذاكرة بمعزل عن العقل؟ أو نقول هناك عقل دون ذاكرة وإرادة فعالة؟ "هذه العمليات الثلاث مرتبطة ارتباطا تداخليا بالتبادل وذات أهمية مكافئة، ببساطة هناك ثلاثيات أخرى، مثل: الذاكرة والذكاء والإرادة، أو العقل والمعرفة والحب (...) لقد أجابت القياسات التمثيلية باكتساح عن أسئلة النقاد الذين ظنوا

أن مفهوم "الثلاثة في واحد" هو سخيف، لكن مرونتها وتعددية معناها أعظم من أن تسمحا لعقولنا بأن تنقل هذه المفاهيم إلى الرب"[1]، ثلاث ملكات مختلفة بثلاث أدوار مختلفة في كيان واحد هو الإنسان.

يقول الرب في الانجيل "خلقناك على صورتنا وشبهنا" ليس المقصود هنا الشكل أو الكيان وإنما الطبيعة الواحدة الجامعة، لكن بنوع من المفارقة والرفع خارج قوانين الزمان والمكان وما يصحبها من منظومة مفاهيمية حتمية كالتطور والتغير والفناء، كذلك الثالوث من حيث وجود ثلاث أقانيم؛ ثلاثة شخوص وهنا فعلا يظهر عجز اللغة عن الوصول إلى التوصيف الحقيقي لهذا الوجود التعالقي، فالأقانيم ليست جواهر مستقلة كل على حدى، على الرغم من أن المخطط يوضح انفصالها فالآب أولا ثم الإبن ثم الروح القدس، وأن الإبن ليس هو الآب ولا الآب هو الإبن ولا الروح القدس هو أي منهما، كل أقنوم مستقل عن الآخر لكنهم متحدون في الجوهر الواحد هو الله، فالله هو الآب وهو الإبن وهو روح القدس، فمن حيث الجوهر الواحد الأقانيم هي ذات الجوهر، فالجوهر واحد من حيث أن الآب الإبن روح القدس يعودون لأصل واحد وجوهر واحد هو "الله"، والقول بالعودة للجوهر الواحد لا تعني أن الله خلقهم، ففي اللحظة التي نطلق على الأقانيم حكم الخلق يستحيلون "موجودات"؛ بمعنى لديهم بداية وإن كانت خارج الزمان وهذا ما يسحب منهم صفة "الألوهية" أو صفة الجوهر الألوهي الواحد. لذا فقولنا بالعودة إلى الجوهر لا يعني الرجوع بل يعني الاتحاد.

الأقانيم لم توجد وإنما فعل الوجود كامن فيها، وهي صاحبة الفعل في إيجاد وخلق الموجودات، فالله هو الخالق، ومن البهتان اعتبار أن وجود ثلاث أقانيم تعني أن الله تعدد أو انقسم أو حتى تألف من أجزاء، ومن البهتان اعتبار أن نزول السيد المسيح هو نزول جزء من الله أو نزول كيان منفصل عنه فيتحقق فعليا "تعدد الآلهة"، وهذا خطأ فالأقانيم لم تخرج منه أو عنه بل هي "واحدة فيه". لكن مادام الجوهر واحد متحد لماذا هذه التسميات مختلفة؟.

بداية يجب نتفق أن الإبن هو الله والآب هو الله وروح القدس هو الله

الإبن (جوهـــــــــر) = الله (جوهر)

الآب (جـــــــــوهر) = الله (جوهر)

روح القــدس (جوهر) = الله (جوهر)

[1] هنري شادويك: مقدمات قصيرة جدا، تر: أحمد محمد الروبي، مر: هاني فتحي سليمان، مؤسسة هنداوي، مصر، ط1، 2016، ص 97.

من هذه المساويات نجد أنه لدينا أربعة جواهر الله، الابن، الآب والروح القدس، وبالتالي تعدد في الآلهة لذا لتفادي الوقوع في التناقصات يجب ابتداء أن نضبط المصطلحات التي أطلقت على هذه الكيانات فنقول:

الآب (أقنـــــــوم 1) = الله (الجوهر)

الإبن (أقنـــــــوم 2) = الله (الجوهر)

روح القدس (أقنوم 3) = الله (الجوهر)

فاستبدالنا لمصطلح (جوهر) "بأقنوم" سيحدث فرقا في ما كنا نعتقده تناقضا فلله الجوهر ثلاثة أقانيم "الصيغة التاريخية للثالوث الأقدس هي أن الله واحد في الجوهر ولكن له ثلاثة أقانيم، وعلى الرغم من أن الصيغة غامضة، بل تبدو متناقضة، إلا أنها لا تتضمن تناقضا بأي حال ذلك أن وحدة الله تتأكد من ناحية الجوهر أو الكينونة (being)، في حين أن تنوع الألوهية تم التعبير عنه بالأقانيم، وعلى الرغم من أن تعبير "الثالوث القدوس" ليس موجودا في الكتاب المقدس، غير أنه من الجلي أن المفهوم موجود هناك، فالكتاب المقدس من ناحية يؤكد بقوة وحدانية الله إلا أنه من ناحية أخرى يؤكد بوضوح الألوهية التامة لأقانيم اللاهوت الثلاثة: الآب والإبن وروح القدس"[1]، لكن هل تغيير التسميات سيؤثر في تشكل أربع شخصيات أو أربعة كيانات؟ هل هذا يعني أن الإبن وهو الذي قلنا سابقا أنه هو الله عندما اتحد بالجسم البشري انفصل عن الله؟ هل حدث في هذه الوحدة انقسام؟.

يجيب سبرول عن هذه الإشكالات ويحاول حل هذه المآزق بالعودة إلى مفهوم الأقنوم الذي أقام له سبرول دراسة إيتميولوجية تمخض عنها قوله :"جزء من المشكلة التي نواجهها هنا هي لأنه حين نشأت هذه الصيغة في الكنيسة الأولى فهي اشتقت من الجذور اللاتينية لكلمة "أقنوم" والكلمة اللاتينية هي "persona"(أشخاص) أما وظيفتها الأساسية هي اللغة اللاتينية هو كمصطلح يستعمل في فن الدراما، تعرفون جميعا الأمور التي تميز عالم الدراما أي القناعين التوأمين الذين يشيران إلى المأساة والكوميديا، الوجه المبتسم يدل على الكوميديا والوجه العابس يدل على المأساة ويتم تصويرهما على شكل قناعين يناسبان وجه الممثل (...) أذكر وأنا في الثانوية العامة (...) إشتريت تذاكر لمشاهدة تجسيد النسخة الحديثة لسفر أيوب في مسرحيته، ما علق في ذهني من هذه المسرحية هو أنه متى أراد (الممثل) تغيير شخصيته في المسرحية، متى أراد أن يبين أنه يلعب دور الله، كان يضع قناعا على وجهه وهو قناع الله، وكان يتكلم عبر هذا القناع متخذا شخصية الله، ثم متى أراد لعب دور الشيطان (..) كان يضع قناعا مختلفا، تيمنا بالتقليد القديم في الدراما

[1] آرسي سبرول: حقائق وأساسيات الايمان المسيحي، تر: نكلس سليم سلامة، مكتبة المنار، مصر، دط، 2000، ص 39.

اليونانية وفي المسرحيات الرومانية، أين جرت العادة لدى الممثلين المحترفين أن يلعبوا أكثر من دور واحد في المسرحية. إن كانوا يمثلون قصة ليوريبيدز على سبيل المثال، كان بإمكان الممثل أن يلعب بأكثر من شخصية والطريقة التي كانوا يتبعونها ليميزوا بين الشخصيتين هي التكلم من وراء أقنعة والكلمة اللاتينية التي تعني "قناع" فهي كلمة "persona" "أقنوم" إذ عندما بدأ أشخاص مثل تروتوليان يتكلمون عن عقيدة اللاهوت وعن الكائن الواحد والأقانيم الثلاثة فهو كما يقول أن الله يؤدي ثلاثة أدوار فهو كان يلعب دور الآب من ناحية ودور الإبن من ناحية أخرى"[1]، وبالتالي عندما نقول الآن أن الله واحد في الجوهر وثلاثة في الأشخاص أو الشخوص نكون قد أدركنا كما يرى سبرول أن المعاني ليست ذاتها أي: الجوهر ≠ الشخص، بل الأكثر من ذلك أن الشخص بالمعنى اللاتيني لا يعني person بالمعنى الإنجليزي أو الفرنسي أو حتى العربي، لأن الإنسان الكيان مستقل هو شخص واحد بالمعنى الحديث لكلمة شخص، وليس بالمعنى الأصلي للكلمة

والآن نقول:

God is one in essenc

And three in person

↓

الله واحد في الجـوهر

وثلاثة في الأقانيم

والآن فالعبارة تكون عبارة منطقية وغير متناقضة منطقيا من حيث تركيبها اللغوي والتركيبي ولا حتى فلسفيا وعقديا.

لكن لا يكفي هذا لنبرر التثليث المسيحي إذ أن أي إله واحد له العديد من الصفات والأدوار فيأخذ دور العادل ودور المحب ودور الخالق والعاقل، فلماذا ثلاث أقانيم بالذات وليس أكثر؟ وفيم يختلف هذا المعتقد عن باقي أدوار آلهة المسلمين أو آلهة اليهود، بمعنى مالذي يميز هذه الشخوص الثلاث عن باقي أدوار الآلهة الأخرى؟.

[1] برنامج جددوا فكركم: أر سي سبرول، 17/09/2000 ملكوت سات: تعريف الثلاث أقانيم. السلسلة رقم 11.

يجيب القديس أوغسطين بقوله: "إننا نؤمن ونثبت ونعلم، كعقيدة إيمانية بأن الآن قد ولد الكلمة أي الحكمة التي خلقت كل شيء، إبنه الوحيد، واحد مثله ،أزلي مثله، كلي الصلاح مثله، وبأن الروح القدس هو روح الآب والإبن معا، مساو لهما في الجوهر والأزلية، إنه الثالوث سبب صفة الأشخاص، إله واحد سبب الألوهة التي لا تنفصل كلي القدرة بسبب التماسك الكلي في القدرة، على أن كل واحد هو الله"[1]. فهنا يوضح أوغسطينوس أن توحيد الله أساس العقيدة المسيحية كما التميز بين ثلاث صفات ذاتية هي أيضا أساس لهذه العقيدة. ومن مقولته نستطيع استخراج ثلاث صفات وهي: الكينونة أو الذاتية، الحكمة أو الكلمة والروح. ويؤكد القديس اثناسيوس في رسالته لأساقفة أفريقيا العام 369م أن هذه الصفات تشكل وحدة لكنها وحدة جامعة أي أن الله واحد وحدانية جامعة (تجمع الحكمة والكينونة والروح) وقد عبر عنها في ما أسماه الهومو أووسيوس والذي "يحمل في طياته أيضا مفهوم علاقة التواجد (الاحتواء) التي للأقانيم داخل جوهر الله الواحد (...) وبالنسبة للقديس إثناسيوس لم يكن هذا التواجد (الاحتواء) المتبادل يعني مجرد ارتباط أو اتصال متبادل بين الثلاثة أقانيم الإلهية ، ولكنه كان يعني السكنى الكاملة المتبادلة بينهم: بينما كل أقنوم يظل "كما هو" محتفظا بتمايزه كآب أو إبن أو روح قدس، إلا أنه يكون بكامله في الآخرين كما أن الأخرين هما بالكامل فيه"[2]، بمعنى دور الإبن لا يمكن للآب أن يشغله، فالأدوار مخصصة لكل أقنوم بشكل متفرد.

الايمان بالثالوث هو إيمان بالوحدة الشاملة الجامعة الكلية، أما عن دور كل أقنوم فيجيب القديس غريغوريوس "كل عملية تأتي من الله إلى الخليقة، وتسمى بحسب فهمنا المتنوع لها، لها أصلها من الآب وتأتي إلينا من خلال الإبن وتكتمل في الروح القدس (أما القديس أثياسيوس فيقول): الآب يفعل كل الأشياء من خلال الكلمة في الروح القدس"[3]؛ هنا يبدو لنا تمايز عمل كل أقنوم لكن بشكل مترابط فما يؤديه الإبن يشاركه فيه الآب والروح القدس "فنحن نؤمن أن الثالوث القدوس هو الخالق وأن الأقانيم الثلاثة يعملون معا مع تمايز دور كل أقنوم في عملهم الواحد فالسيد المسيح يقول "مهما عمل ذلك (أي الآب) فهذا يعمله الإبن كذلك" (يو 5: 91) ومثلما قيل في (...) سفر التكوين (...) "في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة خالية وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن النور"[4]، ويلاحظ اشتراك الروح القدس والكلمة مع الآب في خلق السماوات والأرض"[5]، فالإبن هو كلمة الرب التي

---

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 39.

[2] المصدر نفسه، ص 317.

[3] إبراهيم القمص عازر: مدخل إلى علم الثالوث، مر: موريس تاوضروس، إنسبريشن للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 2015، ص77.

[4] سفر التكوين، (1 : 1-3).

[5] المرجع السابق، ص 77.

تكلم بها "لأني أنا الرب أتكلم والكلمة التي أتكلم بها تكون(...) يقول السيد الرب السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول (لو 21: 33) "[1]، فالآب كينونة قائمة بذاته روح قائم ذاته وعقل قائم بذاته ايضا هي كلها الله.

الآب= ذات الله أو كينونته.

الإبن = الكـــــــــــــلمة

= الإبن = كلمة الله العاقلة، أو عقله الباطن.

الإبن = الحكمـــــــــــــة

روح القدس = الروح أو الحياة

إذن فالله المسيحي هو إله واحد موجود بذاته (الآب) ذو العقل الناطق الحكيم (الابن)، ذو روح الله أزلية أبدية (روح القدس). هذه هي إذن الشخوص بالمفهوم اللاتيني أو هذه هي الصفات الذاتية التي تميز كل أقنوم عن الآخر.

إذا كان الآب هو الكينونة والروح القدوس هو الروح فإن الإبن هو كلمته العاقلة (لأن الفلاسفة المسيحيين يسمون الكلمة في مواضع عدة بالحكمة كالقديس أوغسطين)، هذه الكلمة الموجودة منذ الأزل "في البدء كان الكلمة" اتحدت بالجسد البشري، بمعنى أن الله نزل من المفارق إلى التاريخ وشاركنا السيرورة التاريخية، وامتزج بالعالم الناقص، امتزج الله الكامل الأزلي بالتراب. أحد المكونات التي خلقها هو :"من أعلى السماوات انطلق (مزمور 18 .7)، ومن الآب أتانا، لا في مجيء مؤقت بل جيل أبدي، وإلى أقاصي السماء مسيرته ولأنه إله كامل ساوى أباه"[2]؛ دخل الله التاريخ.

كلمة الله العاقلة أو عقل الله الناطق اتحدت بالجسد الإنساني فتجسد الرب، أو صارت الكلمة جسدا و"التجسد هو حقيقة صيرورة الكلمة جسدا، تعني أن الله نفسه حاضر في العالم، فهو معنا، والتجسد يعني حضور الله في العالم كجزء من تاريخنا كإنسان بين الآخرين، فهو إعلان الله للإنسان، إعلان مصالحة الله مع الناس الكلمة صار جسدا هذا يعني أن الله والانسان تقابلا معا، أكثر من ذلك، فقد أصبحا واحدا في

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 124.

[2] أوغسطينوس: عظات في المزامير، نقلها إلى العربية: سعد الله سميح حجا، دار المشرق، بيروت، ط1، 2013، ص 169.

شخص المسيح، الله الخالق يماثل مخلوقاته ويولد من امرأة ويعيش كالبشر الآخرين في العالم (...) وهكذا يصبح الله الأزلي الذي لا يعتريه فساد غير المنطور والذي لا يدني منه، المخدوم من الملائكة، يصبح إنسانا ويلبس جسدا كالآخرين تماما"[1]. فكانت أن اخترق الأبدي الفاني واتحد به أي اتحد اللاهوت بالناسوت اتحد الكامل (الله) بالناقص (الانسان) "اتحادا أقنوميا ليكونا واحدا لا اثنين ولكن بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير (...) لو كانت ولادته قد تمت بشكل طبيعي أي من زرع بشري لاستحال تحقق هذا الاتحاد لأن الفساد المتوارث الساري والكامن في جسد البشرية كله يحول دون ذلك، فالله أو اللاهوت نور وحياة الخطية في الكيان البشري ظلمة وموت. ولا يمكن أن يحدث اتحاد بين النور والظلمة أو بين الحياة والموت، لهذا الاتحاد الاقنومي اللاهوت والناسوت في شخص السيد المسيح الواحد أصبح الجسد المتحد جسده هو والدم المتحد دمه هو وأصبح مفهوما لنا (...) قول الرب: "هذا هو جسدي، هذا هو دمي، من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الآخر"[2] عاش السيد المسيح بيننا لكن لم يولد مثلنا من أب وأم بشريين، وإلا لكان ورث الخطيئة البشرية ولحمل جسدا بطبيعته الجديدة الفاسدة وهذا ما كان سيجعل اتحاد اللاهوت بالناسوت مستحيلا وهذا لا يعني أن جسد السيد المسيح يختلف عن البشر، على الاطلاق فالجسد كان جسد بشريا لكنه خاضع للرب الكامن فيه، جسد يشبه الجسد الأول قبل الخطيئة، جسد آدم المحب لله، الخاضع للنفس الخاضعة للرب.

تجدر العودة مجددا للتركيز على فكرة أنه حتى لو كان الجسد خاضعا وبطبيعته الأولى فهذا لا يعني أنهما متمازجان وهذا ما أكد عليه المجمع المسكوني الكبير الذي عقد في خلقدونية سنة 451م " إن اليسوع إنسان حق وإله حق، وأن الطبيعتين في المسيح متحدين دون اختلاط أو امتزاج أو فصل أو انقسام، وكل طبيعة منها احتفظت بطبيعتها الخاصة"[3] اختار الله الجسد ليمتزج به دلالة على رفعة مكانة الجسد فهو العنصر المخلوق الذي اختاره الله ليتجلى به للبشرية ويدخل به للتاريخ، فرؤية الجسد العاري عند انفتاح أعين آدم وحواء بدل الخير والشر لا يعني أن الجسد هو الشر أو حتى مصدر الشر بل الصراع الذي سيعانيه الانسان الذي يتألف من جسد ونفس من جراء رغبات الأول وقمع الثاني ورفضها، فالإنسان كما يعرفه يسوع المسيح: "الانسان بما هو إنسان ليس كائنا شهوانيا وحسب، وطبيعته ليست محصورة في الميول نحو اللذة وحدها ففيه الروح أيضا،

[1] حنا الخضري: المسيح إله أم إنسان (قراءة في فكر كارل بارت)، مر: وائل ألبان حداد، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 2014، ص 25.

[2] ظريف سدرة محارب: الخطاب الإلهي في العهدين ومصير الانسان(رؤية مسيحية)، دار يوسف كمال للطباعة، القاهرة، دط، 2007، ص ص167-168.

[3] آرسي سبرول، مرجع سابق، ص89.

وكذلك جذوة من الكائن الإلهي"[1]، فالرب يعطي مكانة للجسد ورفعة بعد أن كلله بالدخول فيه وهو القادر على الظهور بأي صورة ملائكية أو مفارقة أخرى، فمكانة الجسد في المسيحية مقدس، وكل موجود من الله مقدس.

رابعا: الموت كشر حتمي:

مهما حاول الانسان المتعالي بعبقريته أن يقبض على العالم ويسود عليه، ومهما حاول أن يتجاوز إشكالاته وإشكالات الآخر ومهما اعتقد أنه تجاوزها بكل ما خلقه من زخم تكنولوجي مترف التطور، تبقى هناك إشكالية يعايشها كل يوم إنها "الموت"، هذا المأزق الذي عجزت عبقرية الانسان عن إيجاد إكسير ينجيها منه، إنها التجربة التي عجز الأحياء عن إيجاد مفهوم دقيق لها أو معرفة ما يحدث فيها، إنها السر الذي وقف العقل البشري عاجزا أمامه، إنها النقص الكامن فينا، إنها الزوال الذي نؤول إليه في كل دقيقة تمر علينا، إنه الفناء الذي ينتظر كل موجود على هذه الأرض، إنه الفقد الذي يفقد الانسان توازنه، إنه الألم الذي يواجهنا فيكشف عن ضعف الانسان أمام جبروته وهو يخطف كل من حولنا ويتوعدنا بالمثل، إنه الشقاء الذي توعد الرب به آدم إن أكل الشجرة، الموت هو السر الوحيد المتعلق بالأفراد كل على حدى، هو السر الوحيد الذي لا يشترك فيه الافراد إنها تجربة شخصية بحتة. إنها التجربة الوحيدة التي يستمتع فيه كل فرد بفردانيته، لا نملك أي يقين تجاهها، هل هي مواجهة مباشرة مع العدم؟ أم هي بوابة لاختراق عالم أكمل؟

وبعيدا عن كل هذا القلق فالموت عكس الحياة التي منّها الله على الانسان الأول ثم سحبها منه، لأن الإنسان في الكتاب المقدس بعهديه هو إنسان خالد بالأساس، وبعد أن تمرد على الله وعصى أمر الله دخل الموت إليه ونتج عنه الموت الأبدي، أي موت لا تليه حياة، ولكي يعيدها له –الحياة– دخل التاريخ وافتدى بابنه وأقامه فقمنا معه، أي لم يعد موتا أبديا، بل موتا تليه حياة أخرى "لقد أتى ربنا يسوع المسيح بألوهيته، لكي يفني الفناء الذي فينا"[2]. فبات واضحا أمام الانسان أن الوجود الحقيقي هو الوجود الذي لا يعتريه فساد، هو الوجود الذي لا يطرأ عليه تغيير، إذن فالموت هو بحث داخلي عميق للعودة إلى حالتنا الأصلية الأولى، عودة "للوجود الحقيقي" الذي خلقنا على صورته وشبهه، هذا لا يعني أن وجودنا الآن هو وهم أو خيالات أو زيف، لكنه يحمل في ذاته بذور فنائه. وجود يسير قدما نحو الموت، يقول أوغسطين "ثم بدا لي أنه مع أن الأشياء قد تفسد، إلا أنها مازالت صالحة، لأنها لو لم تكن كذلك لفسدت تماما، ولو كانت صالحة بدرجة عالية، لما فسدت،(...) لذلك إما أن الفساد لا يضر، وهذا شيء غير ممكن، أو أن كل فاسد ينتقصه الصلاح وهذا مؤكد. بيد أنه إذا كانت هذه الأشياء تخلو من كل صلاح، فسوف تفنى تماما، أما إذا ثبتت

[1] هيجل: حياة يسوع، تر: جرجي يعقوب، دار التنوير، لبنان، دط، دت، ص58.

[2] أوغسطينوس: حياتنا الأبدية، تر: الأنبا إيساك، دير السريان، لبنان، ط1، 1998، ص26.

وجودها، فسيصير حالها أفضل من ذي قبل، لأنها ستحي في عدم فساد، وليس ما هو أكثر استهجانا من أن يدعي أحدهم أن هذه الأشياء تصير أفضل إذا فقدت كل صلاحها"[1]

ويمكن تلخيصها فيما يلي:

الحالة الأولى: هي الحالة التي يكون فيها الصلاح كليا وهي متحققة لدى الملائكة ولدى آدم قبل أن يخطئ.

الحالة الثاني: الفساد الكلي الذي لا صلاح فيه؛ وهي غير متحققة لأنها إن تحققت فهذا ينفي عن الله صفة الصلاح، إذ لا أثر للصلاح هنا أو أن الله الكلي صلاح له كينونة لكنها مستقلة عن هذا الوجود، بمعنى أنه ليس من الله.

الحالة الثالثة: إمتزاج الصلاح والفساد لكن الأصل فيها هو الصلاح، وهذا ما أكده أوغسطين في كثير من المواضع بمعية الكتاب المقدس في قوله "لذلك فطالما هي (الأشياء) موجودة، فهي صالحة، ولهذا السبب بعينه نقول، إن كل ما هو موجود، هو صالح"[2]، وتزداد نسبته وتنقص حسب اختيارات الأفراد وفق ارادتهم الحرة بمعنى قد تكون إرادة الأفراد صالحة، وتختار السمو ومحاكاة الكمال المتعالي وقد تكون فاسدة وتختار الانعكاس في الجسد والتراب فينحصر الخير والصلاح. وفي هذه الحالة يظهر الانقسام الذي تمعن أوغسطين في دراسته؛ إنقسام المدينة السماوية والمدينة الأرضية، بل إن المدينة الثانية منقسمة على ذاتها بسبب شر سكانها "لنعطي مثالا يوضح انقسام مملكة الشيطان وهو أن روح الطمع وروح التبذير ينتميان لمملكة الشيطان، وهما منقسمان على نفسيهما، فالذي يطمع لا يجمع، والذي يبذر يسرف ويفرق"[3] ، وهي صفات مدينة البشر الخاطئين.

الإرادة الحرة هي التي تحدد مصير الانسان كما حددت مصير آدم، باعتبار أنّا كنا كامنين فيه وجسدنا من جسده فلو بقي بطبيعة الجسد الأولى لبقينا، أما وأنه بدّل من طبيعة الجسد فإننا سنحصل على طبيعة جسده الجديدة، الطبيعة الجديدة الفاسدة للجسد ليست فقط ما ورثناه من أبينا بل هناك تركة أقسى من هذه بكثير وهي "الموت" لقول الرب "لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا" (3 .1) فبعد أن كان آدم وحواء خالدين كباقي الملائكة عوقبا عقابا شديدا وهو الحرمان من الخلود، وبالتالي صار آدم ينتظر النهاية المتمثلة في الموت، استحال آدم لكائن فاني بعد أن كان خالدا، هي تجربة جديدة تماما أقحمته فيها إرادته الحرة ومحبته لذاته بدل عن الله، تغيرت المحبة فتغير الجسد وتغير المصير، وعلى الرغم من أن آدم كان عالما بالعقاب سلفا فالله أخبره به ومع ذلك تحدى الكلام الإلهي وأكل، فكان لزاما أن ينفذ الرب وعدة ويطبقه ولهذا نجده في سفر الخروج يقول :"هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة

[1] أوغسطينوس: الإعترافات، مصدر السابق، ص116.

[2] المصدر نفسه، ص116.

[3] أوغسطين: التحديف على روح القدس، تر: تادرس يعقوب ملطي، بيروت، ط2، دت، ص7.

أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد"[1]، فأشجار الحياة أو الخلد كانت في متناول الانسان (آدم +حواء) يأكلان منها كما يشاءان لأن أكل الخالد لثمرة الخلود لن يغير شيئا، أما وقد حكم عليهما بالموت فإن أكل الشجرة يخالف الحكم الإلهي ويمنحهما ما حرمه الله منه فأخرجهم من الجنة ومعها عقوبات كثيرة أخطرها كان الموت.

"علينا أن نتأمل، بالعمق في طبيعة الموت، وإن كانت النفس متأكدة من أنها لن تموت، فلها موت خاص بها، إنها الخالدة بمعنى أنها لن تنقطع عن أن تحيا وتسعر على طريقتها الخاصة، والجسد يموت ويحرم من الحياة، ولا يحيا بذاته، غير أن النفس تموت عندما يتخلى الله عنها، كما يموت الجسد عندما تتخلى النفس عنه، وهكذا فإن موت الاثنين معا هو موت الانسان، فالنفس التي يتخلى عنها الله تتخلى هي عن الجسد"[2]، فإذا أسقطنا هذه المقولة على وضع آدم وحواء فأين يظهر الموت وهما لا يزالان أحياء، والذي مات فعلا هو الجانب الروحي؛ مات حب الله في قلوبهما، ماتا عندما ابتعدا عن الله وحرما من العيش بجواره ماتا عندما تخلى الله عنهما، أما الجسد فوعد الله قائم عليه لكن لشدة حبه لآدم ونسله من بعده منحه الوقت الكافي ليستدرك آدم خطأه ويتوب ومن ثم تحقق الأمر الإلهي وماتا وعادا إلى التراب الذي منه خلق آدم: "حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلى التراب تعود"[3]، وعليه عندما نسأل بأي موت هدد الله الناس الأولين إن تجاوزوا الوصية التي فرضها ولم يطيعوا، أي الموت؟ هل هو موت الجسد أو النفس أو موت الانسان بكامله؟ أم أنه الموت؟ الجواب يتناول كل الموت، "الأول يتعلق بموت النفس والجسد والثاني يتعلق بالكل. الأرض بأسرها تتكون من عدة أراض والكنيسة من عدة كنائس، وهكذا فالموت يتكون من الميتات كلها (...) فهذا لا يعني فقط الجزء الأول من الموت الأول عندما تحرم النفس من الله ولا الجزء الثاني عندما يحرم الجسد من النفس ولا ذاك الموت الأول بكامله أي عذاب النفس المنفصلة عن الله والجسد بل يعني كل أنواع الموت (...)إنه كل موت ممكن يتناوله التهديد"[4]

[1] سفر التكوين، (3-3).

[2] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص 109.

[3] سفر الخروج، (3-5).

[4] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص ص 124 -125.

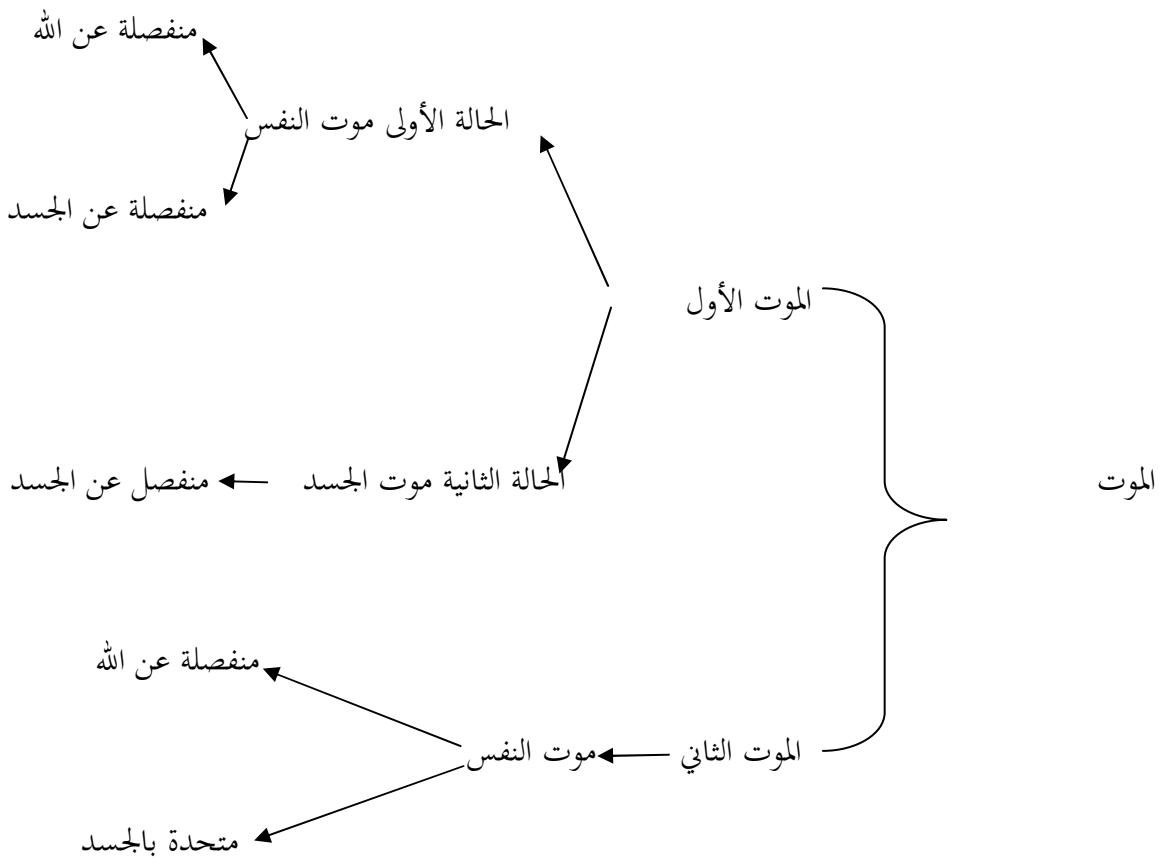

آدم وحواء في البداية عانيا من الحالة الأولى من الموت الأول، ثم خبر جميع الميتات الأخرى إلى أن اتحد جسده بالتراب اتحادا أبديا لا قيامة بعده، هو ذا الموت الذي خلفه آدم لجميع نسله، لكن الله الكلي القدرة المحب للبشر قرر أن ينقذ البشر من هذا العذاب والفناء فأرسل الله كلمته لتحل في الجسد، فوعد الرب بموتا تموت يعني أن موت آدن وحواء لن يليه أي قيامة فهو موت أبدي.

"بشرية السيد المسيح كانت مثل بشريتنا وصار انسانا "من أجلنا". وأخذ وضعنا كي يتصرف كفادينا، أصبح بديلا عنا، أخذ عنا خطايانا كي يتألم بدلا عنا، كما أصبح رئيس إيماننا، الذي أكمل ناموس الله بدلا عنا، وهنا عملية تبادل مزدوجة في الفداء، فقد نقلت خطايانا إلى يسوع ونقل إلينا بره (...) يسوع كبشر كانت تحده قيود الزمان والمكان فهو كسائر البشر (...) يعرق ويجوع ويبكي ويتحمل الألم وكان بشرا قابلا للموت، وفي كافة هذه النواحي كان مثلنا"[1]، حمل كل أوزار خطايانا البشرية التي ورثناها، حمل الموت على كتفه وتألم جسده البشري وهو على الصليب وصرح من شدة العذاب ليفدينا ويعيد لنا الحياة التي سلبها منا

[1] آرسي سبرول، مرجع سابق، ص90.

آدم "فالجميع يموتون بآدم ويحيون بالمسيح"[1]، منحنا الله بمحبته ابنه وكلمته ليتأ لم ويموت، يموت جسده البشري بدلا عنا، مثل موت كل أجسادنا البشرية لنحيا ولتحرر من الخطيئة المتوارثة، جاء الرب يسوع ليحررنا، وهنا تظهر الحرية مجددا كمفهوم أساسي في العقيدة المسيحية. الانسان حر ولما سلبت حريته تجلى الإبن ليعيدها له: "إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يحرركم"[2]، أخرجنا السيد المسيح من اغتراب العبودية وأعاد لنا جزءا من طبيعتنا الأولى وهي الحرية، كما أعاد لنا برحمته ومحبته خلودنا وذلك بالسر الإلهي العظيم الذي يلي الصلب؛ المتمثل في قيامة السيد المسيح.

القيامة هي السر الذي جعل التلاميذ يزدادون يقينا من ألوهية السيد المسيح بعد أن دفنوا جسده بأنفسهم بعد أن سلمه الله "للموت والهلاك، لقد تركه لهذا الموت الذي صار منتصرا وهذا الانتصار –أي انتصار الموت على السيد المسيح– أصبح انتصارا على البشرية أيضا، لقد مات المسيح. وبذلك ماتت معه البشرية، ولكن القصة لا تنهي هنا (...) فالله الذي تركه على الصليب وأسلمه إلى الموت، أقامه من بين الأموات، نعم لقد انتزعه من الموت، وفي إقامته أقام البشرية فيه، لقد مات لأجل خطايانا ودفن خطايانا في القبر، وعندما قام تركها في القبر معلنا بذلك أننا لسنا بعد خطاء" [3]، لو لم يقم المسيح لما قمنا لكنه مات كما ذكر الرب "موتا تموت" وقام لنقوم معه فالسيد المسيح هو الوحيد القادر على حمل خطايا جميع البشر، فلا يستطيع أي انسان أن يصلب بدلا عن السيد المسيح لأن وزر كل البشرية لا يقدر على تحمله أحد إلا الرب ولهذا فإن خطيئة آدم حملها الرب اليسوع، وبالتالي فالله لم يتراجع في تهديده وحاشى أن يتراجع، بل جمع كل العقاب الذي وعد به وصبه على ابنه وخير دليل على ذلك ما جاء في إنجيل متى من صرخات السيد المسيح: "إيلي إيلي لما شبقتني". فتحقق وعد الله وتحقق الخلاص من الموت.

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 143.

[2] إنجيل يو، (8: 31 -32).

[3] حنا الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، مج1، دار الثقافة، القاهرة، دط، 1981، ص106.

المبحث الثالث: *جدلية الإنسان الأصل/الإنسان الجديد.*

تعتبر الخطيئة ناظم فكر أوغسطين، التي خلقت جدليته الفلسفية؛ الانسان الجديد في مقابل الانسان الأصلي، هذه الثنائية الوجودية الحاسمة امتدت في الزمان والمكان، واستمرت الانقسامات على أساسها، وعلى أساس انخراط كل إنسان في المدينة التي تتوافق وانتماءه، فكان أن تشكلت مدينتين، مدينة إلهية من نصيب الإنسان الأصلي، ومدينة أرضية من نصيب الانسان الجديد، بات بيّنا أن الخطيئة هي التي خلقت المدينة الأرضية، لكن ليس بالمعنى الحرفي للخلق، لأن الخلق من فعل الاله وحده.

الخلق من القضايا الحساسة في الفلسفات القديمة، التي بحثت في مصدر الوجود وكيفية تشكل هذا العالم، تنوعت الأصول بتنوع الفلسفات من ماء طاليس وهواء أنكسمانس وبيرون أنكسمندريس وواحد فيثاغوس والعناصر أنباذوقليدس الأربعة وغيرهم –درس اليونان الطبيعيون هذه الاشكالية وأسهبوا في دراستها، على الرغم من أن دراستهم لأصل الوجود لم تكن أصيلة لهم، بل اقتبسوها من الحضارات الشرقية القديمة، لأن إرجاع أصل الوجود إلى الماء ليس خالصة لطاليس بل هي بابلية المنشأ، زادها طاليس طابعا فلسفيا بجملة من البراهين والحجج ليستسيغ العامة النقلة النوعية التي أحدثها أنذاك، إذ كان أول من وضع الآلهة جانبا وأعطي للماء المركزية في الوجود.–، من هذا الأصل الواحد بحثوا كيف تعدد الوجود بمعنى كيف صدرت الكثرة من الواحد، فوجدوه يتراوح بين تخلخل وتكاثف وفيض إلهي، لكن أصحاب الأديان السماوية القضية عندهم محسومة، ولا مجال للنقاش فيها لأن أصل الوجود معلوم هو "الله الخالق" للوجود والعدم، لكن طريقة الخلق هي ما سنناقشه الآن.

معالجة أوغسطينوس لفكرة الخلق لم تقتصر على الجانب اللاهوتي المسيحي وحسب، بل اعتمد الحجة الفلسفية والاستدلالات العقلية، وتفرّد في المزاوجة بين الكتاب المقدس وأسفاره وبين صيرورة هيراقليطس، تجريد فيثاغورس، مثالية أفلاطون، مقولات أرسطو، بذرية الرواقية، فيض أفلوطيين وغيرهم بشكل جعل من نظريته في الخلق نظرية لاهوتية فلسفية متينة.بدأت عملية الخلق كما أخبرنا بذلك الكتاب المقدس بالسموات والأرض في اليوم الأول من أيام الخلق الستة، تلاه فيما بعد خلق "الفلك الوسط بين المياه العليا والسفلى والمسمى سماء هو اليوم الثاني وإلى معرفة الأرض والبحر وسائر أنواع النباتات المتجذرة في الأرض اليوم الثالث، وإلى معرفة نيري الكون وسائر الأجرام السماوية هو اليوم الرابع، وإلى معرفة الحيوانات والطيور والأسماك المولودة من المياه

هو اليوم الخامس، وإلى معرفة سائر الحيوانات الأرضية والإنسان نفسه هو اليوم السادس"[1]، أكمل الله الخلق في أيامه الست تلك ثم جاء اليوم السابع ليستريح فيه، مفهوم اليوم الذي ذكره الكتاب المقدس هو مفهوم رمزي، وليس له علاقة بين بالأيام التي نعرفها في منظومتنا البشرية، أما المفاهيم الأبدية فهي مختلفة تماما، ذلك أن عملية الخلق "يجب أن لا تتضمن أي مفهوم للديمومة، أو لحظة معينة من الزمن، فقد خلق الله كل شئ معا، بشكل متزامن ومتآني، والحديث عن ستة أيام هو تعبير بشكل صوري كي يسهل الفهم على مخيلتنا الضعيفة وليست هي بالطبع أيام كأيامنا"[2]، لأنها مفاهيم توصل إليها العقل الناقص للإنسان، ويخال أن المفاهيم الأبدية تشبه مفاهيمنا كمفهوم الزمان.

أولا: الزمن الأوغسطيني

الزمان في مفهومه هو "المضاد للأبدي، لأن الزماني يدل على المتغيّر، والأبدي على الثابت، ونسبة الزماني إلى الأبدي كنسبة المتناهي إلى اللامتنهي. الزماني متعلق بالحياة المادية، على حين أن الأبدي متعلق بالحياة الروحية"[3]؛ فعملية الخلق تمت بالأساس خارج الزمان، لكون الزمان هو الآخر مخلوق مثله مثل بقية الكائنات، لذا فالسؤال عن القبل أو البعد لا طائل منه، بمعنى السؤال عن ماذا كان يفعل الله قبل الخلق؟ أو متى خلق الله المخلوقات؟ كون هذه الأسئلة متعلقة بالواقع المادي، الزمان فيها مرتبط بالمكان وبالحادثة، ذو قوانين صارمة تضبط العالم المادي تجعله مختلفا عن العالم السماوي، الزمن هو النقطة المركزية التي تجعل العالمين مختلفين اختلاف الثابت عن المتغيّر.

الزمن عند أوغسطين يأخذ معنا مختلفا تماما عن المفاهيم المعروفة حينها، إذ يعتبر الحديث عن ثلاث أزمنة: ماضي وحاضر ومستقبل، حسبه هو أكبر مغالطة عرفها التاريخ، فالماضي، ماهو الماضي؟ هو زمن غير موجود وأحداث نستحضرها في أذهاننا لكننا لا نجدها أمامنا، وماهو المستقبل؟ هو زمن سيكون لاحقا لكنه غير موجود في الحقيقة، لأننا ننتظر تحققه لكنه لم يتحقق بعد، وماهو الحاضر؟.

الزمن الحاضر هو قولنا مثلا نحن نعيش هذه السنة؛ بمعنى لدينا سنة حاضرة، لكن الحقيقة أن هذه السنة الحاضرة هي مجموعة أشهر، فاذا كان الشهر الأول كانت بالضرورة بقية الأشهر مستقبلا لا وجود لها، بمعنى

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص15.
[2] علي زيغور: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة والاصلاح، دار الحياة، بيروت، دط، 1998، ص126.
[3] جميل صليبا، مرجع سابق، ص 638.

كانت قيد التحقق ولم تتحقق بعد، إذا انتقلنا من الشهر الأول إلى الشهر الثاني كان بالضرورة الشهر الأول ماضيا والشهر الثاني حاضرا وبقية الأشهر مستقبلا، لكن الحقيقة أن الشهر هو مجموعة أيام والأيام ساعات والساعات دقائق والدقائق ثواني والثواني لحظات لا نكاد نمسكها.

الزمن الحاضر هو تلكم اللحظات التي لا أكاد أمسكها، أقوم خلالها بحادثة ما أو بتعبير أدق ساقوم بجزء لا أكاد أمسك به من الحادثة، سأقوم به يعني أنه لم يتحقق بعد وإذا تحقق صار فورا ماضيا، وبهذا يكون الحاضر هو تلك اللحظة التي تحوي داخلها نقيضين، هو تلك اللحظة التي يتصارع فيها الماضي والمستقبل، تلك اللحظة التي لا وقت محدد لها، تتضمن حادثة نرغب في تحققها وسرعان ماتتحقق تصير ماضيا؟ فالحاضر يسير وفق سيرورة هيراقليطية مستمرة التغيّر بشكل مستمر مستقيم لا ينتهي ولا يتكرر، بمعنى أن الحاضر لحظة تحول باستمرار غير ثابتة، لأن الحاضر لو كان زمنا ثابتا استحال أزلا، والأزلية والثبات من صفات الله وحده، أما زمننا فهو متغيّر باسمرار، وهذا هو بالذات قانون المخلوقات الصارم الذي يميّزها عن الله، فالزمن المتغيّر المتحرك في اللحظة الواحدة هو ناظم الكون المتغيّر المتحرك أيضا.

إن كان للماضي والمستقبل وجود إذن لا يكون ذلك خارج الحاضر؛ يتضمنهم، فلا نقول هناك ثلاثة أزمنة: ماضي، حاضر ، مستقبل بل من "الأصح أن نقول: في الكون أزمنة ثلاثة: حاضر الماضي وحاضر الحاضر وحاضر المستقبل، وهذه الطرق الثلاث موجودة في عقلنا ولا أرى لها وجودا إلا فيه"[1]، فالزمن عند أوغسطين هو ظاهرة عقلية بمعنى إن افترض أوغسطين أن الماضي صار في حيّز اللاوجود وكذلك المستقبل فكيف يقول بحاضر الماضي وحاضر المستقبل؟

يجيب الفيلسوف على ذلك بقوله :"حاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة وحاضر الأشياء المستقبلة هو الترقب (الإنتظار)"[2]، فالماضي باعتباره أحداث مضت في زمان مضى فهي غير موجودة الآن بين ظهرانينا في واقعنا المعاش، بل تعود لوقت مضى وانعدم، وما بقي منه الآن سوى مجموعة حوادث نستحضرها في ذاكرتنا متى أردنا ذلك، بمعنى أن الماضي محلّه الذاكرة، والحاضر هو ما أمر به الآن تقع عليه رؤيتي وحواسي، أعيشه وأعيه وأدركه تماما الإدراك، أما المستقبل فهو الآخر أحداث أترقب حدوثها وأتوقعها، لكنها لم تتحقق بعد فمثلا عند رؤية خيوط الصباح أتوقع بل أتيقن من طلوع

[1] أوغسطينوس: الإعترافات، مصدر سابق، ص254.
[2] المصدر نفسه، ص254.

الشمس، وعلى الرغم من أن التوقع يقيني وسيحدث بالضرورة إلا أنه لم يحدث بعد، ويبقى في العقل مستقر حتى تقع عليه حواسي ورؤيتي. فالعقل إذن هو مسكن الزمن.

ثانيا: النظرية البدرية

نتساءل الآن: كيف تم الخلق؟ ولماذا؟ ومتى؟

يقول أوغسطين "الله علم بها –المخلوقات– قبل أن توجد، ولم توجد ثم علم بها، بل وجدت لأن الله علم بها"[1]؛ فعلم الله المسبق سبق الموجودات في وجودها الفعلي أي الوجود بالفعل، وعلم بها لأنها كانت كأفكار في علمه الكلي الكامل، فكر بالموجودات ثم خلقها، بمعنى أن الموجودات كانت كماهيات في علم الله ثم استحالت موجودات فعلية، سبقت هنا الماهية الوجود وبأمر إلهي تجسدت.

هناك صفتان أخريان إضافة لعلم الله المسبق لكن قبل ذكرهما تجدر الاشارة إلى أن وصف الله بصفات لا تنفي عنه إطلاقا أنه بسيط، فأن يقال عن الله أنه عليم، بصير، مريد، قادر لا يعني أنه يتركب من هذه الصفات أي مركب، فعندما نقول أنه عليم مثلا فهو عليم في ذاته لا إضافة لذاته، وهذا ما يقوله القديس أوغسطين "وعليه، فإننا نسمي الكائن الإلهي الأسمى بسيطا لا فرق فيه بين الصفة والجوهر والذي لا يدين بألوهيته وحكمته وغبطته إلا لذاته. صحيح أن الكتب المقدسة تسمي روح الحكمة كثير المزايا (الحكمة 22/4) لأن له الكثير في ذاته، لكنه هو كل ما له، وكل ذلك ليس سوى ذاته إذ لا وجود لعدة حكمات: الحكمة واحدة وتتضمن الكنوز التي لا حد لها ولا نهاية، الأسباب غير المرئية والثابتة لأعمالها المرئية والمتغيرة. ما صنع الله شيئا دون معرفة فلم يصنع بكل تأكيد إلا ما عرفه ومن ثم استنتاج رائع وحقيقي: ليس لنا أن نعرف هذا الكون لو لم يكن، ولو لم يكن في علم الله لو لما يكن"[2]، بمعنى عندما نقول أن الله حكيم وعالم وقادر فلا يعني أن الله يتكون من هذه الصفات ويتجزأ إليها، بل هو تلك الصفات ذاتها، فهو واحد حكيم وواحد قادر وواحد عادل.

الله يريد وإذا أراد فعل شئ فعله، لكن إرادته ليست متكررة أو مجزأة، بل هي إرادة ثابتة ترتبط بالموجودات مرة واحدة لا تتكرر، ومن خلال قوته يستطيع أن يجسد ما يريد، وما يريده هو ما يفكر فيه.

[1] أوغسطينوس: الإعترافات، مصدر سابق، ص20.

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص21.

فبعلم الله وإرادته وقوته خلق الله الموجودات على مستويين؛ خلق الله الموجودات بالفعل وخلق الله موجودات أخرى بالقوة، وهنا نتساءل:

-كيف تجسدت الأفكار الالهية في شكل موجودات فعلية؟

يذكر الكتاب المقدس أن الله قام بداية في الأيام الستة بخلق كائنات ليست هي كل الوجود ولكنها أجزاء مهمة منه، الأجزاء الأولى الصادرة من الله مباشرة المتمثلة في الملائكة، العناصر الأربعة، ونفس الإنسان الأول فقط، وهي موجودات بالفعل ليس بينها وبين الله وسيط، خلقها بأمر منه، فكانت وتحققت، على الرغم من أن السفر ذكر مخلوقات كثيرة لكن الخلق هنا كان على مستويين، فبعد أن خلق السماء والأرض خلق "الفلك الوسط بين المياه العليا والسفلى والمسمى سماء هو اليوم الثاني وإلى معرفة الأرض والبحر وسائر أنواع النباتات المتجذرة في الأرض اليوم الثالث، وإلى معرفة نيري الكون وسائر الأجرام السماوية هو اليوم الرابع، وإلى معرفة الحيوانات والطيور والأسماك المولودة من المياه هو اليوم الخامس، وإلى معرفة سائر الحيوانات الأرضية والإنسان نفسه هو اليوم السادس"[1]، يقول أن النباتات متجذرة في الأرض، والحيوانات والطيور والأسماء المولودة من المياه، فالكائنات الحية المختلفة لم تخلق بصورة مباشرة كموجودات بالفعل، بل صدرت من الموجودات الأولى؛ الموجودات بالفعل، على شكل موجودات بالقوة. حتى الانسان الأول على الرغم من أن نفسه موجودة بالفعل إلا أن جسده خلقه الله من تراب ولم يخلق بشكل مباشر.

الموجودات بالقوة هي التي ستوجد حتما في المستقبل لا الآن، لكنها ستوجد بالضرورة، والتي تتمثل في "النبات والحيوان خلقها الله في أصول بذرية غير محسوسة أودعها طين الأرض"[2]، أودعها في بذور وهي تمثل نظرية القديس أوغسطين البذرية التي أخذها عن الرواقية والأفلاطونية، وترى أن المخلوقات قد تشكلت لكنها لم تتجسد في الواقع بل وضعت في بذور، هذه البذور هي البذور الأم أو البذور الرئيسية الأولى التي وضعت فيها كل المخلوقات التي ستظهر فيما بعد حيوانات ونباتات إضافة إلى جسد آدم أو الانسان الأول الذي خلقت نفسه سابقا بالفعل، والبذرة هنا مفهوم رمزي إذ لا يقصد بها البذرة التي نعرفها بل كناية عن الثمرة الكامنة فيها، والتي ستخرج منها بشكل ضروري مستقبلا، بمعنى هي غير موجودة كثمرة فعلية، لكنها ثمرة

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص15.
[2] يوسف كرم، مرجع سابق، ص41.

ستتحقق مستقبلا، للتعبير فعل الانبثاق، فمن هذه البذور تخلق جميع الموجودات التي تتجسد وتغادر البذور، ليست دفعة واحدة وإنما بمرور الزمن ومن هذه الموجودات تظهر أخرى وهكذا.

الله هو الذي خلق البذور وخلق فيها القدرة على التشكل، خلق المادة وخلق فيها إمكانية أخذ صورة ما، إذ لاوجود لمادة دون شكل معينة لتكتمل ماهيتها، وهو مايطلق عليه الرواقيون المبدأ الفاعل والإنفعالي؛ "المبادىء إثنان فاعل وانفعالي، أحدهما هو المادة دون صفة، والثاني هو الصفة التي تعطي للمادة شكلها، بالصفة تعرّف الكائنات"[1]، والله عندما بث البذور بث فيها المادة والشكل معا، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ولا يعرف أحدهما دون الآخر، فكل ما ينشأ الآن وما سينشأ مستقبلا هي مخلوقات خلقها الله وحده في بداية الخلق، بث كل واحدة على حدى، فهي ليست متطورة بل ثابتة وفردة.

يمكننا هذا من القول أن العالم من جهة أولى خلق كاملا وتاما فلا شئ فيه سيظهر أو يتحقق إلا وهو مخلوق، ومن ناحية ثانية لم يُخلق العالم إلا ناقصا بسبب أن ما سيُخلق لم يُخلق إلا بحالة بذور أو بذورية. فكيف تظهر هذه البذور؟ "إنها بشكل خاص رطبة، أي أنها تؤوب إلى العنصر المائي الذي هو واحد من العناصر الأربعة التي خلقها الله كخلق الملائكة كما رأينا. وفيها أيضا مبدأ نشاط وفعالية وتطور، وهذا المبدأ هو سبب التوالد والإخصاب. وبناءا على هذه الأساس نستطيع القول أن الله قد أنهى الخلق منذ البدء؛ لأن كل ما سينجم بمرور الزمن موجود في هذه العناصر، كما أنه صحيح أيضا القول الآخر وهو أن الخلق مستمر"[2]، فالبذور فعالة نشطة كحال الكائنات الحية التي تصدر منها، وحالة الرب الفعّال الخيّر خيرا كليا، خير فاض فنشأت الكائنات ونشأ البشر على صورته وشبهه، وكلما ابتعدت البذور عن الصانع الأول كلما قل الشبه بينها، حال جميع المخلوقات الذي صدرت عن المخلوقات الأولى بالفعل.

ثالثا: مدينة الله

يخطئ من يعتقد أن كتاب مدينة الله هو كتاب في علم الكلام نظرا لإسهاب القديس أوغسطين في حديثه عن الخلق وعن الملائكة أصلهم ،طبيعتهم وصفاتهم بالإضافة لدراسته لله، صفاته، كيفية الخلق وأيام الخلق وتأويله لاستراحة الله...إلخ، ،لكن صاحب مدينة الله تناول المسائل الكلامية ليؤصل لفكرته حول

[1] ف. أجرو: رسالة في النظام الفلسفي للرواقية، تر: يوسف هواويني، مر: علي حمية، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009، ص ص61-62.

[2] علي زيغور: أوغسطينوس، مرجع سابق، ص 129.

مدينتي الله و الأرض فيقول "والآن وبعون من ربنا وملكنا، الذي التزمت أن أكون أمينا له، إعترافا لما له عليّ من دين، واستنادا إلى ثقة به وطيدة، أباشر رسم صورة للمدينتين : مدينة السماء ومدينة الأرض، اللّتان تظهران، في العالم متداخلتين ومختلطتين من حيث الولادة والتقدم والآخرة التي تنتظرهما وأريد بدءا ذي بدأ أن أبين الاصل لكل منهما في تنوع الملائكة "[1]. وحري بنا أن نبدأ من حيث بدأ القديس أوغسطين ؛الملائكة

بدأُ التاريخ عند القديس أوغسطين كان مع المدينة المقدسة، والبحث الأركيولوجي عن بداياتها الأولى تعيدنا إلى بداية الخلق مع أول المخلوقات إنها الملائكة؛ يقول "والآن بما أني أواجه ولادة المدينة المقدسة، بدءا بالملائكة القديسين، النخبة المجيدة للمدينة، التي لم تعرف سعادتها مرارة النفي، أود بعون الله ان أسال الشهود الإلهيين ما يمكن أن يعطوني من أنوار حول هذا الموضوع"[2]، خاصة وأن الكتاب المقدس لا يذكر الملائكة في عملية الخلق الذي دامت ستة أيام، أيعني هذا أنهم لم يخلقوا؟

هناك الكثير من المواضع التي ذكرت فيها الملائكة في الكتاب المقدس فيقول القديس أوغسطين "لكن الكتاب المقدس يصرخ بذلك عاليا إن نشيد الشبان الثلاثة في أتون النار يشهد بذلك فيبدأ بهذه الكلمات: 'باركي الرب يا جميع أعمال الرب' (دا 50/3)، والنشيد يتضمن ذكر الملائكة في تعداد أعمال الرب وفي (المزمور148/1-5) جاء ما يلي: 'سبحوا الرب من السماوات سبحوه في الأعالي سبحوه يا جميع ملائكته سبحوه يا جميع جنوده سبحيه أيتها الشمس والقمر سبّحيه يا جميع كواكب النور سبحيه يا سماء السماوات ويا أيتها المياه التي فوق السماوات لتسبح هذا إسم الرب لأنه قال خُلق كل شئ وأمر فخُلقت"[3] ، فهذه الأسفار دليل على خلق الملائكة في إحدى أيام الخلق الستة، ولكن في أي يوم منها؟

نستطيع أن نحصر خلق الملائكة في أحد الأيام الثلاثة الأولى لأن الكتاب المقدس يذكر "عندما خلقت الكواكب مجدتني ملائكتي بصوت عالي"[4]، فاليوم الرابع خلق الله الكواكب فمجدته ملائكته؛ وعليه فإن خلق الملائكة تم إما في اليوم الأول أو الثاني أو الثالث، لكن في اليومين الثاني والثالث معروف ما خُلق فيهما؛ فاليوم الثالث خُلقت الأرض والبحر وسائر أنواع النباتات المتجذرة في الأرض، أما اليوم الثاني قد انبسط

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص 6.
[2] المصدر نفسه، ص16.
[3] المصدر نفسه، ص 17.
[4] الكتاب المقدس: سفر أيوب، الاصحاح 7/38.

الفلك بين المياه السفلى والمياه العليا وظهرت السماء، لم يتبق سوى اليوم الأول الذي قال فيه الرب "في البدء خلق الله السماء والأرض" هل نقول هنا أن الملائكة من المخلوقات السماوية؟

يخبرنا الكتاب المقدس أن الكواكب خُلقت في اليوم الرابع ولما كانت الشمس تتضمن في الكواكب فكيف تسمى الأيام الثلاث الأولى أياما دون الشمس دون ليل ونهار ودون صباح ومساء؟، يحل الكتاب المقدس هذه المعضلة ف "يخبرنا عن النور الذي خُلق في البدء بكلمة من الله" (التكوين1/3-5) منها نتوصل لمعرفة يوم خلق الملائكة "فهم بكل تأكيد النور المسمى نهار، وليس النهار الأول بل نهار واحد دلالة على وحدتهم(...) وفي الواقع عندما يقول الكتاب المقدس 'ليكن النور فكان النور'. إن كان من المعقول اعتبار ذلك النور خلق الملائكة فبالتأكيد أنهم خُلقوا مشاركين بذلك النور الأبدي الذي هو حكمة الله (...) إن النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آت إلى العالم، ينير أيضا كل ملاك طاهر، ليصير نورا لا بذاته بل في الله الذي لا نستطيع أن يبتعد عنه إلا ويفقد طهارته"[1]. بات معلوما الآن أن النور الالهي هو مصدر نور الملائكة، من الله يأخذون النور، فكلما كانو قريبين من الله كانوا نورا، ماذا لو ابتعدوا عن الله؟ ولماذا اصلا يبتعدون؟ وما مصير من يبتعدون عنه؟

قبل البدء في دراسة انقسام الملائكة وسببه ومصيرهم، تجدر بنا التاكيد على نقطة أساسية في الفكر المسيحي وهي "أن ميول الملائكة الصالحين والاشرار المتناقضة وليدة التناقض بين الارادات والرغبات فيهم وليست وليدة الاختلاف في الطبيعة طالما أنهم جميعا من خلق الله الصانع والخالق لكل جوهر صالح بطبيعته"[2]؛ بعبارة أخرى أن الله خلق كل الملائكة على السواء بنفس الطبيعة دون تفريق وذلك راجع للعدل الالهي، وأي اختلاف فهو اختلاف في الرغبات وجموحها في فئة لأخرى. فقد خلقت الملائكة بالقرب من الله تنعم بنوره آخذة من حكمته الأبدية باعتبارهم قريبون منه، لكن "كثيرون تخلوا عن هذا النور فحرموا من الحياة السعيدة والحكمة التي هي الحياة الأبدية الواثقة من أبديتها الثابتة، لكنهم حافظوا على الحياة العاقلة التي فقدت الحكمة ولم يعد باستطاعتهم أن يفقدوها ولو أرادوا"[3] فالحكمة الأبدية تبقى كذلك طالما ظلوا قريبين من مصدر الحكمة، وإذا ابتعدوا عن مصدر الحكمة الأبدية فإنها تصبح غير ذلك "عاقلة".

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 18.
[2] المصدر نفسه، ص 59.
[3] المصدر نفسه، ص 22.

إضافة إلى مشاركتهم في الحكمة نجد أنهم يمتلكون السعادة الحقة وهي السعادة في الله، وهي أعظم سعادة ولا مجال لسعادة تضاهيها، والتي يعرفها القديس أوغسطين بقوله: "هي رغبة شرعية في كل كائن: التمتع بلا تشويش بالله ذاته، الخير الثابت، وبعيدا عن كل شك، وعن كل ظلال يعزى لضمان الغبطة الأبدية إننا نعتقد بإيمان وورع، إن تلك السعادة هي سعادة ملائكة النور"[1]، السعادة الحقة الكاملة.

كل الملائكة على السواء كانوا يتشاركون في هذه السعادة وكذا الحكمة، فهم كانوا كلهم صالحين حتى إبليس الذي أصبح فيما بعد شريرا، كان أصله صالحا ويدلل القديس أوغسطين على ذلك في عدة مواضع فيقول :"فقد شاء أن يكون إبليس الذي خرج صالحا من يد الله أن يصير شريرا، انقسمت الملائكة إلى قسمين ملائكة النور الصالحين وملائكة ضالين يترأسهم إبليس؛ هؤلاء انفصلوا عن الملائكة القديسين بمحض إرادتهم وذلك لأن الرب خلق كلا الطرفين بنفس الطبيعة، ولو أنهم ثبتوا على الحق لشاركوا القديسين في سعادتهم وحكمتهم الأزلية، لكنهم ابتعدوا عن نور الله، ولم يثبتوا على الحق لأن الحق ليس في نفوسهم. فكان أن انقسموا إلى فئتين فئة خيّرة تتمتع بقربها من الله، وفئة ضالة تكبرت على التقرب من الله "الواحدة تتقد حبا مقدسا لله والأخرى تتقد حبا مشينا لعظمتها الشخصية وكما كتب "يقاوم الله المتكبرين ويهب نعمته المتواضعين"[2] ، وعن مستقرها "الواحدة تسكن في سماء السماوات والأخرى من فوق إلى المناطق السفلى من الهواء؛ الواحدة يكللها شعاع من التقوى هادئ والأخرى تقتلها شهواتها المظلمة، الواحدة برضى من الله تغيث برأفة وتقسو بعدل، والأخرى تسوقها كبرياؤها إلى التسلط والأذية، الأولى تخدم صلاح الله تجاوبا مع كامل محبتها للخير، والأخرى قيدتها قدرة الله في شهوتها الشريرة تتلاعب الواحدة بالأخرى فتخدمها غاضبة ثائرة وتغار من عدوتها التي تجند على طريق الحياة الذين تختارهم للمجد (...)إحداهما ذات طبيعة جيّدة وإرادة حسنة والأخرى سيئة بإرادتها وحسنة بطبيعتها"[3]، فكلا الفريقين خيّر بالطبيعة لكن اختلفت إرادتيهما، فإرادة كلا الطرفين الحرة هي من حددت وجهذه سواء كانت خيّرة فأصبحوا قديسين أو إرادة شريرة فكانوا شياطين.

تخلت الشياطين بمحض إرادتهم الفاسدة عن السعادة الحقة لجهلهم بها "يحوّلون في سبيل ارتقاء بذخ في الحياة، أبدية سامية ويبدلون حقيقة أكيدة بأباطيل خداعة ومحبة متبادلة بالحقد والمنازعات وقد أضحوا متكبرين خداعين، حسودين، وعلى هذا النحو يتحد البعض بالله فيسعدون ويتخلى الآخرون عن الله

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 24.
[2] يعقوب، (6/4).
[3] المصدر السابق، ص 54.

فيشقون"[1]، خلصنا للقول أن سبب تحول الملائكة عن طبيعتهم هو إرادتهم السيئة، لكن ما هو السبب في تغير الارادة في حد ذاتها؟ ولماذا رفضوا أن يكون الله مصدر نورهم؟

الإرادة الشريرة تظهر من خلال الصد عن الخير وإتباع الشهوات من خلال رذائل يتبعها وينحرف نحوها، أما الرذيلة التي أدت بالشيطان إلى البعد عن الله فهي "الكبرياء"؛ هذا ما يؤكده الكتاب المقدس "(الكبرياء أصل كل خطيئ) (بن سيراخ10/10) رفضوا أن يكون الله مصدر ما هم عليه من صلاح، لو أنهم اتحدوا بالكائن الأسمى لكانوا أفضل، لكنهم آثروا كيانا لهم، أقول عندما فضلوا أنفسهم عليه؛ تلك هي عثرتهم الأولى وذاك هو التعري الأول والعيب الأول لطبيعة مدعوّة لمشاركة الأسمى بسموه، دون أن تكون سامية بحد ذاتها: إنها لخليقة سقطت لأنها خانت، ما بطلت أن تكون لكنها بطلت أن تكون كيانا صالحا، فأصبحت شقية"[2]، بذلك هوت الشياطين من المكانة السامية التي كانوا فيها خاصة بعد قيام إبليس بإغواء حواء ووقوع آدم وهي ضحية له. لكنه منذ البدء "وُجد خائنا للحقيقة، خارج جماعة الملائكة القديسين، ممعنا في الثورة ضد خالقه، متحيرا، متباهيا بقدرته الشخصية التي غش بها، لقد تمادى في إغراءه ولم يتمكن من الهروب من يد القدير إذ رفض أن يخضع بتقوى على ما هو حقا، نراه يتوق بكبرياء عمياء (...)فهذا يعني أن إبليس منذ أن خلق، خلع عنه البر الذي لا يبقى إلا بإرادة تحب الله وتخضع له"[3]، إبليس كان لوسيفر.

هؤلاء هم السكان الروحيون لمدينة الله، بل إنهم أول مؤسسيها فبهم حاول القديس أوغسطين أن يؤصل لنظريته الفكرية اللاهوتية والفلسفية في آن معا، لكن لا يزال علينا تتبع الطرح الأوغسطيني لبداية المدينة السماوية ومعها الأرضية بعيدا عن السكان الروحيين وبعيدا عن الدراسة اللاهوتية، أي بعد أن يقوم القديس أوغسطين بتجسيد هذه النظرية في الواقع من خلال إنزال المدينتين على الأرض، فما مصير مدينة الله بعد ذلك؟

كان آدم وحواء يعيشان في الجنة وقلبيهما مليء بحب الله بجنبه ومع ملائكته العدول، في سعادة أبدية وكانوا هم الورثة الشرعيون لمدينة الله أو على الأقل مكملي السلسلة الأزلية لمدينة الله فالله "خلق آدم ابتداء "سليما مستقيما، لأنه خالق الطبيعة من دون الألم"[4]، لكن ما حدث قلب كل الموازين الوجودية؛ حدثت

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 59.
[2] المصدر نفسه، ص ص66-67.
[3] المصدر نفسه، ص 25.
[4] المصدر نفسه، ص 126.

الخطيئة. خرج آدم وحواء من الجنة بعد أن تبدد حب الله في نفوسهم وورث البشر نفس العاطفة وهنا يتضح طرح آخر للخطيئة عند القديس أوغسطين بقوله "وما هي هذه الخطيئة؟ التعدي على وصية المسيح، الوصية الجديدة. وما هي تلك الوصية الجديدة؟ 'وصية جديدة أعطيكم إياها أن تحبوا بعضكم بعضا' كل من أتى عملا مضادا للمحبة ومضادا للمحبة الأخوية لا يحق له أن يفخر بأنه من الله مولود. وكل من رعى المحبة الأخوية وكان لها أمينا فلا يمكنه أن يرتكب بعض الخطايا ولا سيما ما كان منها ضد المحبة الأخوية وماذا نقول عن باقي الخطايا 'إن قلنا أن ليس فينا خطيئة نظل أنفسنا وليس الحق فينا' ولنصغ إلى قول آخر من الكتاب المقدس 'المحبة تغطي خطايا كثيرة'"[1]؛ فالخطيئة قيست عند آدم وحواء بالحب، كذلك باقي البشر تقاس لديهم بنفس المقياس.

بعد انقسام الملائكة وطرد آدم وحواء من الفردوس الأعلى ظهرت الكثير من الصفات المتناقضة كالخير والشر، والجديدة كالكبرياء والميل للشهوات المادية كتحول جديد فبعد أن كان كل الخلق من ملائكة والبشريين الأولين يحبون الله ويعيشون فيه اتجهوا لتلك الأسباب اتجاها آخر فأصبحوا يشاركون حب الله حبا آخر، من هنا ابتداء الانقسام الحاصل على مستوى الوجود ككل ابتدءا من الملائكة القديسين وصولا إلى آخر البشر على وجه الأرض، وهي نفسها الفكرة التي نجدها منطبقة على أرض الواقع على رغم تنوع الدول واختلافها يقول القديس أوغسطين: "ومع أن الأمم المنتشرة فوق سطح الأرض متنوعة المعتقدات والعادات واللغات والأخلاق والسلاح بشكل غريب، فلا تكون سوى مجتمعين بشريين يسميهما الكتاب المقدس مدينتين، مدينة البشر للذين يهوون العيش بسلام بحسب الجسد، ومدينة الله للذين يهوون العيش بسلام بحسب الروح، وحين تتحقق أمنية هذه وتلك تعيش كل منهما بسلام بحسب طريقتها الخاصة"[2].

سنأخذ من هذه المقولة النوع الثاني من المدن بالدراسة وهي المدينة التي تعيش بسلام ولكن حسب الروح.

قبل البدء في تفكيك مدينة الله عند القديس أوغسطين يجب توضيح أنه لا يقصد بالمدينة منها ذلك الجانب الملموس من أسوار وقصور وبيوت وحكومات وملوك، وإنما يقصد بها ذلك الجمع الإنساني الذي اجتمع في حب عامل مشترك بينهم، ولتوضيح العلاقة بين هذه الجماعة دون تلك يضرب القديس أوغسطين مثال المسرحية التي ضمت كثير من المتفرجين، لا يعرف بعضهم البعض وليس تربطهم علاقة، لكنهم تجمعوا

[1] أوغسطينوس: شرح رسالة القديس يوحنا الأولى، تر: الخوري يوحنا الحلو،(دار المشرق، بيروت، ط4، 2001، ص 77.
[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص ص156-157.

في مكان واحد موجهين نظرهم نحو الممثلين يتفاعلون للمشاهد نفس التفاعل ضحكا أو حزنا،جمعتهم رغبتهم في مشاهدة المسرحية بل الأكثر من ذلك جمعهم حبهم للممثل، وبالتالي فإن سبب تجمع الناس هو الحب.

الحب هو الرابطة الصوفية الروحية التي حددها القديس أوغسطين لتصنيف هذا الانقسام، لكن القديس أوغسطين يرى أن الحب يتعدد وتتنوع أشكاله حتى أنه لا يمكن حصرها، فنقول أن عدد الشعوب بنفس التعدد والتنوع، وهذه الأنواع الكثيرة للحب ومهما استحال حصرها فإنها تتمحور في نوعين اثنين لا ثالث لهما، فإن كان موجها نحو المال أو النساء أو العمل أو السلطة...الخ فهو يندرج في حيّز حب الذات، أو أنه يفضل الميل نحو الفضائل على ملذاته الخاصة فيندرج في النوع الثاني وهو حب الله على حساب الذات.

النوع الثاني الذي يسميه القديس أوغسطين "حب الله حتى احتقار الذات"[1] هو الذي بنى المدينة السماوية، سكانه الأوائل هم الملائكة القديسين الذين أحبوا الله أكثر من حبهم لذواتهم ولم يكن الكبر جزءا منهم، فكانوا أول سكانها ثم يليه البشر الذين يقولون "للآلهة –مجدي أنت ورافع رأسي–(مزمور4/3) (...)مدينة تقدم لنا مواطنيها موحدين بالمحبة، يتبادلون الخدمات، حكاما مجلين ومحكومين مطيعين(...) تقول لله: –أحبك يا رب قوتي الوحيدة– (مزمور2/17)(...) في قلب المدينة الالهية تبقى التقوى حكمة الإنسان الوحيدة، وأساس العبادة الشرعية للإله الحق، ومكافأتها مضمونة في مجمع القديسين حيث ينضم البشر إلى الملائكة –ليكون الله الكل في الكل–(قور28/15)"[2]، يتحد البشر والملائكة أصحاب القلوب المحبة فرحين في كنف الكل.

هذه الملكوت السماوية التي تضم العدول المتميزين بالسعادة الأبدية؛ مدينة الله، لم تخلق كمدينة متجسدة كاملة وإنما تم وضع أساس هذه المدينة اللامرئية من قبل الملائكة ثم تابعت بناء "نفسها بالتدريج بقدر ما يستمر العالم أو يدوم، وهذا العالم نفسه لا مبرر لدوامه واستمراره إلا بقدر ما ينتظر تحقيق غايته النهائية. فهو يقضي فترة وجوده وهو يمهد ويجهز لتحقيق مدينة الله أو المجتمع الأبدي الذي يتألف من السعداء، وهو مجتمع غريب عن كل مجتمع آخر غريب عن كل أمة، وأن يختار أعضاؤه من بين جميع الأمم"[3]، وبعبارة أخرى فإن هذه المدينة التي لا ترى تشمل كل المراحل التاريخية منذ بداية الخلق أي الأيام الست الأولى

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، ج2، مصدر سابق، ص 211.

[2] المصدر نفسه، ص212.

[3] إيتين جلسون، مرجع سابق، ص 493.

مرورا بكل الحقب التاريخية الماضية والحاضرة وحتى المستقبلية، إلى غاية نهاية العالم بل وإنها تستمر حتى الديمومة الأخيرة فالقديس أوغسطين لم يعنى في دراسته بالتاريخ كتعيين ولا بتاريخ دون تعيين كما أنه لم يخص بالذكر حضارة معينة وإنما تحدث عن التاريخ الكلي الشامل منذ بداية الخليقة وحتى نهاية العالم وذلك باعتبار أن التاريخ يتجاوز الحضارة بتفاصيل عديدة .

بعد الملائكة قام هابيل بتأسيس المدينة السماوية كإسقاط للمفهوم من الجانب المثالي إلى الواقعي أي تم إنزال مدينة الله من السماء إلى الأرض حتى لا تبقى محصورة في الملائكة أو في آدم وحواء المثاليين أي من الملائكة إلى البشر فكان هابيل ابن آدم الذي يعتبر ثاني مولود على وجه الارض.

أن يؤسس هابيل مدينة الله لا يعني أن يضع لها حدودا وأسوارا وإنما بولادته ولد مواطن مدينة الله، الذي كان منذ نشأته سائحا على وجه الأرض ولم يبني شيئا لأن مدينة القديسين في السماء، وإن تكن تلدها هنا مواطنين، يبقى أعضاؤها في المنفى حتى قيام ملكوتها عندما "تنهض أجسادهم من التراب يدخلون الملكوت الذي وعدوا به ليملكوا فيه، مع سيدهم ملك الاجيال"[1]. هابيل مواطن مدينة الله كان محبا لله خاضعا له، عندما طلب منه الرب قربانا قدم تقدمة صالحة اذ قدم للرب بالكثير واحتفظ لنفسه بالقليل مفضلا ما يريده الرب على ما يريده هو، مؤثرا رغبات الرب على رغباته الذاتية، فقد كان عبدا بارا، وكان هابيل كنموذج بشري على سكان مدينة الله طغت محبة الله على أي محبة تكنها نفسه لأمور زائلة.

صورته التوراة على أنه الرجل المسالم الذي يقدم خدّه الأيسر لمن يصفعه على خده الأيمن، الرجل النموذج، الذي يجب أن يحتذي به كل من ينشد الصلاح، "2وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، أَمَّا قَايِينُ فَكَانَ فَلَّاحًا لِلْأَرْضِ. 3 وَحَدَثَ بَعْدَ ٱنْقِضَاءِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ ٱبْتَدَأَ يُقَدِّمُ مِنْ ثِمَارِ ٱلْأَرْضِ قُرْبَانًا لِيَهْوَهَ.4 وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ شَحْمِهَا. فَنَظَرَ يَهْوَهُ بِٱسْتِحْسَانٍ إِلى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ،5 وَلٰكِنْ لَمْ يَنْظُرْ بِٱسْتِحْسَانٍ إِلى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ. فَٱحْتَدَمَ غَضَبُ قَايِينَ جِدًّا، وَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ.6 فَقَالَ يَهْوَهُ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا ٱحْتَدَمَ غَضَبُكَ وَلِمَاذَا تَجَهَّمَ وَجْهُكَ؟7 إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلَا تُرْفَعُ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ، فَعِنْدَ ٱلْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ ٱشْتِيَاقُهَا. فَهَلْ تَسُودُ أَنْتَ عَلَيْهَا؟».8 ثُمَّ قَالَ قَايِينُ لِهَابِيلَ أَخِيهِ: «لِنَذْهَبْ إِلى ٱلْحَقْلِ». وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي ٱلْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ"[2]، فكان بارا بربه إذ قدم له أجود ما أنتجه جهده وتعبه، في حين أن قايين قدم له

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 217.

[2] سفر التكوين، (4: 2-8).

كمية بسيطة من أنتجت له الأرض، محبا للرب مقدما له ماتشتهيه، فنفسه لم تكن تطمع، أو ترغب في التمسك بالماديات التي انبهر بها قايين، كما أن الكتاب المقدس لم يذكر أن هابيل قد تعدى على قايين ولو دفاعا عن النفس، إذ لم يكن الصراع من مفاهيم عقله الطاهر، ولم يكن القتل من مقبولا عنده بأي شكل من الأشكال، ففضّل الموت على قتل أخيه. ضحى بنفسه من أجل فضائله وقيم الإنسان الأول.

تعتبر أورشليم المقدسة ممثلة المدينة السماوية إذ تذكر كثير من النبوءات أن مدينة الله التي ستتحقق في آخر الزمان سوف تتجسد في أورشليم؛ يقول فالقديس أوغسطين "إنها نبوءة صريحة عن أورشليم العليا التي تتخذ الله جزءا لها، أورشليم تلك تضع خيرها السامي، وكل خيرها في الرب، لتكون له، (...) يسمي الكتاب أورشليم مدينة الله، ويعلن عن أن بيت الله سيرتفع في حصنها"[1].

أورشليم فيها رمز الله التي سيتجسد فيها في نهاية العالم، وهذا لا يعني أن مواطنو مدينة الله ينتمون فقط إلى أورشليم بل إنهم يتوزعون على العالم أجمع، لكن يصعب على المرء معرفة سكانها من غيرهم لأن الكثير من الناس يبدون صالحين وسكانا مثاليين لمدينة الله محبين لله أكثر من حبهم لذاتهم، لكنهم من الداخل عكس ذلك تماما فهم بالتالي منافقون ويخفون حقيقتهم ويبدون ظلالا، فكانوا بذلك عكس ماهم عليه ولا ينتمون لمدينة الله؛ فنجد في كثير من الأحيان أشخاص هم خدام للكنيسة لكنهم ليسوا منها على اعتبار أنها ممثلة لمدينة الله من خلال سنها للشرائع وإحقاق الحق وإبطال الباطل، ويخطئ من يعتبرها مدينة لله في حد ذاتها، لأن الحقيقة الداخلية للفرد لا يعلمها إلا الله فخدام الكنيسة قد يكونون هم رؤساء مدينة الله وفي المقابل نجدهم أكثر الناس فجرا وحبا للشهوات، ومن ناحية أخرى قد نجد ان أكثر مواطني مدينة الأرض فجرا تحول إلى خيرة رجال الكنيسة مدافعا عنها ناشرا لتعاليمها كما هو الحال لدى القديس أوغسطين، ويدلل على ذلك وعلى ضرورة التحولات التي تطرأ على الانسان آخذين بعين الإعتبار أنه ولد الشرير أولا ثم البار أي أن الأبرار كانوا أغلبهم أشرار.

يتعايش كل البشر على الرغم من انفصالهم مع بعضهم البعض في إطار اندماج المدينتين السماوية والأرضية، فالقديس أوغسطين يرى أنهما كانتا مرتبطتين في زمن آدم مرورا بعصر نوح وإلى غاية عصر ابراهيم عليه السلام، وبعد ظهور شعب الله المختار انفصلتا، فمن انظم إلى شعب اسرائيل كان من سكان مدينة الله، ومن لم يكن منهم كان من سكان المدينة الأخرى فيصنفه إلى باقي الحضارات الأخرى المحرومون من اللطف

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 262.

والهداية الالهية، "كانتا يتقدمان معا ويمهدان لظهور المسيح، مهد بنو اسرائيل له روحيا ومهدت الحضارات القديمة له سياسيا وفقا لتدبير من العناية الإلهية انتهى التمايز بظهور المسيح"[1] وبقيتا منفصلتين على هذا الحال إلى غاية ظهور المسيح في العالم فهما.

"سأله واحد...يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس. فقال له اليسوع تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثاني مثلما تحب قريبك لنفسك"[2]، سكان مدينة الله هم موطنون يحبون الله ويحبون الاخرين كحبهم لأنفسهم، يعيشون في سلام دائم وصلوا إلى ذروة الاتاركسيا، يتعاملون كروح واحدة سكنت في جسد واحد، محققين لما حدده المسيح.

رابعا: مدينة الأرض

سبق وذكرنا أن الملائكة نتيجة لكبريائهم و حسدهم و حبهم لأنفسهم أكثر من حب الله، إضافة إلى ابتعادهم عن الحقيقة الأزلية و عن النور الإلهي، هم أول من أسس للمدينة الثانية التي سماها القديس أغسطين مدينة الأرض. وبعد الملائكة ظهرت خطيئة حواء وآدم التي خرّبت الطبيعة البشرية ونقلت إلى الأجيال البشرية عبودية الخطيئة "[3]. أصبح البشر عبادا للشهوات و لمصالحهم الخاصة، يحبون أنفسهم لدرجة امتهان الذات الإلهية، فأصبحوا كما يقول القديس أغسطين يعيشون تبعا للجسد وبعد أن كانت سعادتهم في محبة الله أصبحت سعادتهم وخيرهم الاسمى في الملذات الحسية الذاتية.

يعطي القديس أغسطين مفهوما للحياة حسب الجسد متميزا فيقول :"وأما اعمال الجسد فهي ظاهرة: الزنى والدعارة والفجور وعبادة الاوثان والسحر والعداوة والشقاق والغيرة والغضب والدنس والخصام والتخريب والحسد والسكر والعربدة وما أشبه، وأنبهكم الان كما أنبهكم من قبل أن الذين يعملون هذه الأعمال لا يرثون ملكوت الله"[4]، فوصف الخطيئة أنها من أعمال الجسد ليست حقيقة في حد ذاتها، بل هو كناية على نزوع الإنسان إلى الشهوات وحب الملذات الحسية الملموسة كما هو الجسد ملموس، ولا يعني هذا أن النفس ليس لها علاقة بالخطيئة بل أنها تقود الانسان في كثير من الأحيان تقود الانسان البار لارتكاب الخطأ فيقول

[1] أحمد محمود صبحي، مرجع سابق، ص ص 173-174.

[2] إنجيل متى، (22/35-39).

[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 156.

[4] المصدر نفسه، ص158.

القديس أغسطين :"وليس الجسد الفاسد هو الذي جعل النفس خاطئة بل النفس الخاطئة هي التي جعلت الجسد فاسدا"[1]، هذه الفكرة تخالف آراء الفلاسفة خاصة منهم أفلاطون الذي يرى في الجسد سجنا للروح وهو الذي يقودها إلى الرذائل والمفسدات.

العائشون حسب الجسد هم مواطنو وسكان مدينة البشر، يحققون رغباتهم المادية ويجعلون تحقيقها غاية في حد ذاتها ، ويشبه القديس أغسطين سلوكاته بالسلوكات الحوانية التي يغيب فيها العقل وحب الله "يقول القديس أغسطين للقرنثيين بوضوح: 'فانه اذا فيكم حسد وخصومة الا تكونون جسديين وتسلكون بحسب البشرية' (قور3/3) السلوك بحسب الجسد، هو سكوك حيواني"[2]، ويذكر أيضا في الكتاب المقدس "الانسان الحيواني لا يدرك ما لروح الذات لأن ذلك جهالة عنده ولا يستطيع أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه بالروح"(قور1/3)، فأن تسير الروح وتصبح جانحة نحو الملذات الحسية تاركة الملذات الروحية الأزلية هو سلوك حيواني.

مدينة الأرض هي مدينة "تقع أسيرة التسلط من خلال رؤسائها وانتصاراتها على سائر الأمم،(...) تعتز بمقدرتها وقدرة رؤسائها (...) وإن حكماء المدينة إذ يعيشون بحسب الجسد، لا يطلبون الخير إلا في ذواتهم: خير الجسد وخير النفس والذين منهم قد عرفوا الله 'عرفوه وما مجدوه كإله وما شكروه، بل سفهوا في أفكارهم وأظلمت قلوبهم الغبية وزعموا أنهم حكماء فسيطرت عليهم كبرياؤهم التي تمادت في ما سموه حكمة وأصبحوا حمقى، وهذا المجد لا يحق إلا لله غير القابل للفساد، استبدلوه بشبه صورة إنسان ذي فساد وحيوانات وطيور وزحافات لأنهم قادوا الشعوب واتبعوها إلى مذابح الأصنام واتقوا المخلوق، وعبدوه دون الخالق، الذي هو مبارك إلى دهر الدهور' (رومة 1/21-25)"[3]، هي مدينة الشرور ونقص الخير لدرجة انعدامه.

الخطيئة هي التي قادت العالم إلى هذا الإنقسام والذي دخلت إليه بإنسان واحد فقط وورثها كل البشر من بعده، لكنهم لم يرثوها بنفس الدرجة ولكن بدرجات مختلفة، فمنهم من نالت منه الخطيئة واستبعدته، ومنهم من نالت من بعض حواسه ليست كلها...الخ. وكانت النتيجة أن ظهر انسان جديد حيواني قبل قيامه برغباته يكون على استعداد للقيام بها، فلا تحدث صدفة أو على الرغم منه، وإنما كما يطلق عليها القديس

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص ص 160-161.
[2] المصدر نفسه، ص 163.
[3] المصدر نفسه ، ص 212.

أوغسطين "قابلية الشهوة الحسية"[1] هذه العبارة في غاية الدقة اذ يعبر بها القديس أغسطين عن استعداد الفرد الفطري للانحراف وتلبية شهواته التي يصنفها القديس أغسطين إلى عدة انواع "هناك شهوة الانتقام التي تسمى غضبا، شهوة التكديس التي هي البخل، وشهوة الانتصار على الاخر المسماة عنادا، وشهوة المجد الشخصية المسماة تبجحا وكم من الشهوات المعروفة بالاسماء، والتي لا اسماء لها"[2]، ومهما تعددت الشهوات فإن كل ما يتعلق بالمادة ويشبع الحواس هو شهوة جسدية.

مدينة الأرض وكما يسميها القديس أغسطين مدينة الشر كان لها مؤسس فعلي بعد إبليس وخطيئة حواء وادم الذين اكتفوا بوضع أساسها، ليأتي قايين ابن آدم وأخ هابيل فيبني جدرانها ويؤسسها تأسيسا فعليا، فقد أحب مصلحته الخاصة وخالف أوامر الرب، كما أنه قدّم تقدمة سيئة كقربان للرب، فتقرب بالقليل الردئ، واحتفظ لنفسه بالكثير له من جهة، ومن جهة أخرى نجد الحسد الشديد على أخيه مما أدي لقتله، فسالت دماء هابيل على جدران هذه المدينة الارضية.

أي مدينة سيئة التي شيدت بالدماء وأي دماء دما الأخ فرغبة قايين باستئثار الزوجة الجميلة لنفسه، وكذا رغبته في التسلط وفي المجد الارضي هما من أهم ما جعله على تلك الحال، لكن هابيل لم يكن لينافسه على سلطانه فهو من مواطني مدينة الرب الكارهين للسلطان الزائف المحبين للرب، هذا الحب أنساه أي حب آخر، ولو كان حب المجد والسيادة. فلم تكن بالتالي "بين الأخوين قابيل وهابيل عداوة صادرة عن رغبة في أمور الأرض والحقد المميت لا يصدر عن الخوف من أن يقاسمه الآخر السلطة، هابيل لا يفكر بالتسلط على المدينة التي يبنيها أخوه بل من ذلك الحسد الجهنمي الذي يبعثة الشيطان في نفوس الأشرار ضد الصالحين، دون أي سبب، سوى الصلاح في هؤلاء والشر أولئك"[3]، فسكان مدينة الأرض انصاعوا لإرادة شريرة لكنها خاضعة لتغيير.

إرادة الانسان ليست ثابتة على أمر معين أو اتجاه محدد فقد يكون الظالم ظالما في هذه اللحظة بارا في اللحظة التي تليها والعكس صحيح، بأن يكون البار بارا في ثانية وفاجرا في الثانية التي تليها، هؤلاء المواطنون الضالون نجدهم في كثير من الأحيان يتقربون من الله بقرابين، لكن يجب أن لا ننخدع بهم لأنهم لا يرغبون بها التقرب من الله، وإنما كان نفاقا للوصول إلى السلطة "تلك هي حال من يفضلون ما يريدون على ما يريده الله،

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق ، ص 191.
[2] المصدر نفسه ، ص ص 191-192.
[3] المصدر نفسه، ص 222.

نابذين الاستقامة، عائشين في فساد قلوبهم، يقدمون إلى الله قرابين، معتبرين أنهم من خلال ذلك يكتسبون مساعدة الله لا لكي يشفوا من أمراضهم الروحية، بل إشباعا لرغباتهم الآثيمة. تلك هي صفة أبناء مدينة الأرض، يخدمون الله أو الآلهة لينالوا تحت رعايتهم ما يتوقون إليه من انتصارات والسلام الارضي، الذي يصبوا إليه شهوة التسلط، لا بداع من المحبة"[1]، فأبناء مدينة الأرض يعتبرون الله كوسيلة للمتعة بعالم على عكس الأبرار؛ الذين يعتبرون العالم وسيلة للتمتع في الله، وبعبارة أخرى العالم هو غاية الأشرار ووسيلة للأبرار وغايتهم هي السعادة في الرب.

الخطيئة هي التي تقود الناس للخطأ، هذه المقولة فيها جانب من الصحة فالخطيئة ورثها البشر على حد سواء، هذا ما يذكره الكتاب المقدس "أنا لست أعمل ذلك بل الخطيئة الساكنة في" (رومة17/7)، فالخطيئة متأصلة في كل انسان آخذة من نفسه نصيبا؛ قد تسود عليه أو يسود عليها هذا ما يقوله القديس أغسطين :"ذلك الجزء من النفس يسميه الفلاسفة جزءا شهوانيا، يجب على الروح ألا تنقاد اليه، بل تقوده وتأمره وتبعده عن الأعمال المحرمة بقوة العقل؟ وحين ينهض هذا القلق في ذاك الجزء من النفس، وتنصاع إلى توجيهات الرسول القائلة :'لا تجعلوا أعضائكم سلاح الآثم للخطيئة، إذ يذل ويقهر ويدور نحو الروح، الذي يخضعه لسلطان العقل"[2]، فيجب إذن أن يخضع الشهوات وذلك الجانب الفاسد من النفس إلى العقل حتى يقزمه، وإلا فانه سيكبر حتى يطغى على العقل، فلا يقوى الانسان على شئ سوى الانصياع للخطيئة.

إذا كانتت أورشليم هي عاصمة مدينة الله ومقرها الروحي، فماذا عن مدينة الأرض؟

مقر مدينة الأرض هي بابل، كان كل من على وجه المعمورة على لسان واحد، ويروي لنا الكتاب المقدس قصتها :"وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاما واحدا، وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك، وقال بعضهم لبعض تعالوا نصنع لبنا وننضجه طبخا، فكان لهم اللبن بدل الحجارة والحمّر كان لهم بدل الطين، وقالوا تعالوا نبني لنا مدينة وبرجا، رأسه إلى السماء، ونقم لنا إسما كي لا نتبدد على وجه الأرض كلها. فنزل الرب ينظر المدينة والبرج الذي كان بنوا آدم يبنونه، وقال الرب هوذا شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة وهذا ما أخذوا يفعلونه، والآن لا يكففن عما هموا به حتى يصنعوه. هلم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. فبددهم الرب، من هناك على وجه الأرض كلها وكفوا

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 226.

[2] المصدر نفسه، ص 228.

عن بناء المدينة، ولذا سميت بابل، لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها، ومن هناك شتتهم الرب على كل وجهها"[1].

تشير بابل إلى مدينة الأرض وهي تعني التشتت والفرقة وهو حال مواطنوا مدينة الرب ممن يفضلوا مصالحهم الخاصة على مصلحة الجميع، ولا يعنون بالتجمع والروابط الاجتماعية بقدر ما استفحل الكبرياء والحسد فيهم، لم يبنها ابناء الله، بل المواطنون الذين يعيشون حسب الجسد فكان اسم المدينة بابل معبرا عن حال مواطنيها متشتتين متفرقين، ولم يكن منهم من كان بارا.

مدينة الأرض لا تشبه مدينة الرب في كون مواطنيها محبين لبعضهم البعض يؤثرون سعادة الآخر على سعادتهم، يقدمون ما بين أيديهم لبعضهم البعض، وكلهم لله حتى يعيشوا في سلام دائم. أما مدينة الأرض فان مواطنيها يغتصبون حقوق الاخرين لأنفسهم كما أنها "تنقسم عادة على ذاتها، عراك ومناوشات دامية وانتصارات قتالة، أو على الأقل معدة للموت، أيا يكن الجزء منها الذي ينهض وبيده السيف ليحارب جزءا آخر منها فإنها تسعى إلى النصر، بينما لا تزال اسيرة رذائلها. إن انتصرت وتباهت في كبريائها يؤدي بها إلى الموت، أما إذا فكرت بوضعها وبما ينتظرها من سوء طالع، ولم تستسلم إلى نشوة الازدهار ولا إلى الخوف من ردات الفعل الممكنة التي يواجهها بها الحظ السيئ فان ذلك النصر الاقل شؤما يبقى دوما طعام الموت"[2]. وعلى ذلك فلم ولن تنعم مدينة الأرض بالسلام؛ فالمدينة التي قضت على الأخرى ونعمت بالسلام فوجئت بسقوطها المحتوم، والسلام الذي عايشته هو سلام مؤقت زائل، وكلما سعوا نحو السلام واقتربوا منه فإنما يقتربون أكثر من البؤس والشقاء، ويبتعدون أكثر عن الله وعن السلام الأزلي المتعالي الذي ينعم به مواطنوا مدينة الله.

لا ضير في تسمية مدينة الأرض بمدينة الشر خاصة وأن أوغطينوس لا يعتبر الشر جوهر في الانسان، كما لا يعتبر الجسد مصدرا له، بل الشر هو نقص في المحبة، وغلبة النفس الشهوانية على النفس العاقلة في رحلة صراعهما الدائم؛ الشر من مخلفات الخطيئة كما الموت من مخلفاتها، وبالتالي كما أن الموت مقدر على جميع البشر كذلك الشر، وبعدها كل فرد هو حر في الرجوع إلى النفس العاقلة أو الغرق أكثر في ماديات العالم.

[1] سفر التكوين، (1/9-11).

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 220.

من خلال كل ما سبق وإجابة على السؤال الذي افتتحنا به الفصل الأول فيمكن القول أن أوغسطين وإن كان قد عاد إلى بداية الخط الذي ابتدأ منه البحث، وهو التيار المسيحي الكاثوليكي كما أرادت والدته أن يكون، لكن هذا لا يعني أن الرجل تأثر بوالدته، وأنها أجبرته على اعتناق هذا المذهب دون الآخر، فالرجل كان عقليا في سؤاله عقليا في إجابته، انتقل بين مختلف الفلسفات دارسا باحثا محللا وناقدا، هرب من أمه وإلحاحها وأبحر في جنح الليل حتى يعيش في جو من الحرية التي ينشدها دوما ويشترطها ليمارس عقله السؤول عمله، اعتناقه للمسيحية في نهاية المطاف أعطى للدين المسيحي مشروعية عقلانية وتبريرات فلسفية أكثر من أي وقت مضى، لأن تجربته الفلسفية المتنوعة منحته عدّة فلسفسية متينة.

منحته الفلسفة معرفة حسية عندما كان الرجل مانويا وعدة عقلانية عندما تنقل بين الشكية والأفلوطينية، خاصة المرحلة التي استطاع فيها ولوحده الخروج من العدمية التي كانت تحيط من كل جانب، هناك تعرف على المسيحية لكنه لم يعتنقها مباشرة، بل تعقلها ثم آمن بها، بمعنى توصل إلى وجود الله ورصد مختلف الأدلة التي تدعم إجابته ومن ثم استكان إلى الأسرار التي تنجم عن إيمانه بذلك الإله الذي أثبته.

فأوغسطين وهو يجوب مختلف الفلسفات سعى إلى دراسة مباحث الوجود المتنوعة لكن بطريقة تختلف عن طرح آباء الكنيسة، مسائل متعددة طرحها كالسياسة والأخلاق والتاريخ وغيرها، هنا نطرح التساؤل التالي كيف عالج أوغسطين هذه القضايا الفلسفية وما موقع الدين في هذا الطرح؟

الفصل الأول: السقوط الحضاري للإنسان

المبحث الأول: **أخلاق القيام والسقوط**

***المبحث الثاني*: من دولة المجد إلى مدينة الرب.**

المبحث الثالث: **من أغسطس إلى أوغسطين.**

تمـهـــــــيد

شهدت العصور الوسطى أهم حدث تاريخي بعثر أوراق المؤرخين والفلاسفة وشتت وحدة تحليلاتهم فنتج ما يزيد عن مائتي نظرية تتراوح بين نظريات تاريخية ونظريات في فلسفة التاريخ، تركزت جميعها رغم اختلاف مناهجها على إشكالية واحدة صارمة؛ على روما التي استطاعت عبر سنين أن تجمع عوامل العظمة والقيام المتين لإمبراطورية قوية، ثم سقطت بعد قرون من الصمود، حالة كهذه يكون العقل البشري السؤول مستعدا أمامها، بل متوقعا النتيجة سلفا فهي في الأخير قوة تصارع قوة والفوز للقوة الأكبر أو الأذكى أو التي تملك البطل ...إلخ، ولا يمنع ذلك أن يدرسوا سبب سقوط الأولى وقيام الأخرى، وتكون النتائج منطقية، فمن الطبيعي أن تسقط روما ومن المنطقي أن تزول حضارة لتحل محلها أخرى، هو قانون التاريخ الصارم الذي لا استثناء فيه، أما غير الطبيعي وغير المنطقي أن يكون هذا الزوال والسقوط على يد الكلت.

المعروف عن الكلت أو كما يسميهم الرومان بالغال أنها جماعة بربرية همجية تعيش في مناطق إستبسية جرداء لا خيرات فيها، فقد كانت "على شكل قبائل منفصلة بعضها عن بعض وأحيانا تشكلت اتحادات من عدة قبائل، ولكن هذه الإتحادات لم تكن متينة الروابط ولم تصل إلى مرحلة الدولة"[1]، لا تملك وجها من وجوه التحضر أو التنظيم العسكري الذي يسمح لها بمواجهة روما العظيمة وإسقاطها.

لم تكن الإشكالية الأساسية سقوط روما بقدر ما كانت سقوط العظمة والتحضر على يد البدائية والهمجية. حاول المؤرخون والفلاسفة والسياسيون وكل مهتم بالشأن الحضاري أن يبحث عن السر العميق الكامن وراء ذلك، هو سر حقا، إذ ليست مجرد معركة هزم فيها جيش أمام آخر، بل هو تاريخ حضارة دام آلاف السنين سقط على يد لا تعرف للحضارة معنى، هل يعني هذا أن الاشكال هو في سقوط الحضارة على يد الهمجية فقط؟ بمعنى لو أسقطت روما على يد حضارة عظيمة أخرى هل سيكون الأمر عاديا؟

جاءت الإجابات رومانية صادمة إذ أدانت تنكر روما للآلهة الأصلية التي حمت روما ورعتها لقرون من الزمن، واعتنقت دينا جديدا عجز أن يرد عنها هجوم قبائل مجهولة. وهذا ما أكده احتجاج الرومان في خطبهم "هل من سبيل لمعرفة أغراض الآلهة إلا من خلال استعراض تلك السلسلة الطويلة من السنين التي منوا علينا فيها بالرخاء والسعادة؟ علينا أن نظل أوفياء لهذا الماضي المجيد، علينا أن نسير على خطى أبائنا الذين سعدوا هم أيضا باتباع خطى أبائهم انصتوا لروما وهي تخاطبكم أيها الأمراء العظام. آباء الوطن، احترموا ماضيّ الطويل الذي حرصت فيه دائما على إقامة الشعائر التي أخضعت بها كافة شعوب الأرض، بها طردت

[1] نعيم فرح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، جامعة دمشق، دمشق، دط، 1978، ص 11.

هنيبعل بعيدا عن الأسوار بها أخرجت غزاة الغال من الكابطول"[1]، وأمام توالي الاتهامات التي أدانت الدين الجديد والذي حل محل الديانة الوثنية بقرار رسمي من الإمبراطور الروماني قسطنطين، لم يقف معتنقوا المسيحية في وضع المتهم الضعيف بل راحوا يدافعون عن دينهم بكل ما أوتوا من حجة، وكان من أكبر رجالاتها آنذاك وأقواهم حجة القديس أوغسطين.

[1] عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، دار المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005، ص 176.

المبحث الأول: أخلاق القيام والسقوط

كان القديس أوغسطين مقتنعا بالمسيحية متبنيا لها حتى النخاع، وفي نفس الوقت محبا لروما ولفنونها وعلومها محترما للحكم الروماني وقوانينه، كيف لا وهو ذات الحكم الذي رسّم المسيحية وجعلها دين إمبراطورية. جعل صاحبنا من الرد على الاتهامات التي مست هويته مهمته والتي خصص لها إثنتا عشر سنة من عمره، باحثا محللا منقبا في تاريخ روما، ما تمخض عنه مؤلفه الضخم "مدينة الله"، فيه إجابة مفصلة عن سبب سقوط روما والتي بكل تأكيد دافعت عن المسيحية وأعطت جملة من البدائل المنطقية السياسية والدينية، الاجتماعية والأخلاقية التي كانت السبب الحقيقي الذي يقف وراء سقوط روما.

الطريق الذي سلكه أوغسطين لمعالجة هذه الإشكالية والتي أوشكت على وضع المسيحية في مأزق خطير، طريق مختلف تماما عن الطريق المتوقع من رجل دين مسيحي، فالمتوقع أن يقول صريحا الدولة سقطت لأن هناك من لم يخلص للدين المسيحي وبقي خاضعا للوثنية، أو لم يطبق تعاليم المسيحية الحقة، أو أي تبرير آخر مرتبط بتطبيق التعاليم المسيحية، أما صاحبنا فترك كل هذا جانبا وبدأ في الحفر عميقا في الحضارة الرومانية، بل وقد استعان بالحضارات الشرقية القديمة حتى يجد وحدة الدراسة التي ترتكز عليها الحضارات في قيامها، والعامل الأساسي الذي تدور حوله باقي مقومات الحضارة وتدين له بتماسكها، فليس غريبا على أوغسطين وهو الفيلسوف الذي تعقل ثم آمن بالمسيحية، أن يبحث عن وحدة الدراسة في التاريخ لا في الكتاب المقدس لأنه يعلم جيدا أن روما قامت كحضارة عظيمة دون الاستعانة بأية وساطة سماوية بل كان دينها وثنيا صرفا، حتى أنها ازدهرت في الوقت الذي كانت تحاول فيه إبادة كل أثر مسيحي، ففي حكم روما قتل المسيح، وفي عهدها قتل بولس وبطرس، وفي ذات العهد عذب وفتك بالمسيحيين بأبشع الطرق، وبالتالي لو كانت المسيحية السبب في قيام الإمبراطورية أو التخلي عن تعاليمها هو السبب في سقوطها لما قامت لروما قائمة منذ البداية، فأوغسطين ليس بالسذاجة التي تجعله يقع في فخ التعصب، فعاد إلى تاريخ روما على ألسنة مؤرخيها الثقات قبل أن تعتنق المسيحية فاستعان بسلتس وفرجيل وشيشرون ، شيبون، سينكا، تولا، ووقف على كل النكبات والكوارث والهزائم التي حلت بها ، وعلى هذا الأساس نطرح السؤال التالي: إن لم تكن تعاليم المسيحية هي وحدة الدراسة ففيم تتمثل؟

أجمع مؤرخوا روما أنها وقبل المسيحية كانت تعيش بداية نهايتها وهذا ما صرح به سلتس قائلا: "ها هي الجمهورية الرومانية تتحول شيئا فشيئا وتتهاوى من علياء مجدها في الرذيلة والعار"[1]، أكد على ذلك شيشرون

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 87.

حين قال "الجمهورية قد انتهت ولم يعد لها من وجود"[1]، أو كما وصفها شيبون بكونها "مهترئة فاسدة"[2]، إذ كانت روما تعيش اضطرابات داخلية وحروب أهلية لا تنتهي وكان ذلك قبل ميلاد السيد المسيح والتبشير بالمسيحية أساسا، خاصة في العهد الجمهوري وقبل الثورة الزراعية أين كان العمال في الأراضي يتقاضون أجورا لا تصل لحد الكفاف، على الرغم من الكدح المتواصل "في كل يوم من شروق الشمس إلى غروبها حتى تدركه الشيخوخة، فإذا اشتكى أو عصى أمر حارسه ألزم أن يعمل ورجلاه مكبلتان بالأغلال وأن يقضي الليل في جب تحت الأرض لا تكاد تخلو منه كل ضيعة واسعة"[3]، كانت هذه حالة السكان الأصليين للأراضي التي أحتلتها روما.

شعور عميق بالظلم وبانتهاك للحقوق وانعدام للأمان هو ما خبره الرق، حيث حولتهم الأنظمة الرومانية الظالمة إلى آلات لخدمة الأراضي، لا يملكون فيها أبسط الحقوق التي تضمن لهم حد الكفاف، لتتهاوى تلك الآلات من جراء الجوع لا يبالي تجاههم أرباب العمل، فما إن تعجز الآلة حتى تعوضها مئة آلة، أفراد ليس لهم أي قيمة في المجتمع مسلوبوا الحرية والإرادة، جعلتهم روما يحسون بالعدمية الفعلية فلم يك لديهم ما يخسرونه لذا كانوا ينتظرون فرصة واحدة في هيئة صوت يجمعهم ليتمردوا على هذا الوضع. حتى وإن فشل تمرد العبيد فلن يعاقبوا بوضع أسوء مما هم فيه، وإن نجحوا حصلوا على الحرية.

وهذا ما حدث بالفعل في "عام 196م حين ثار أرقاء الريف في إيتروريا وعمالها الأحرار ولكن الجيوش الرومانية أرهبتهم وقتلت الكثير منهم أو أسرتهم، ومنهم من جلدوا أو صلبوا عقابا لهم على فعلتهم (...)، وحدثت مثل هذه الثورة عام 185م في أبوليا وقبض على 7000 من العبيد وحكم عليهم أن يعملوا في المناجم(...)، وفي عام 139م شبت نار حرب الأرقاء الأولى في صقلية، فقد لبى دعوة إينوس أربعمئة من الأرقاء وذبحوا الأحرار من أهل مدينة إينا، ثم أقبلت أفواج العبيد من الضياع ومن الأجباب الخاصة في صقلية فضاعفوا عدد الثوار، حتى بلغ سبعين ألفا، ومالبثوا أن احتلوا أجرجنثم، وهزموا الجيوش الرومانية التي كانت في الولاية، واستولوا على الجزيرة كلها تقريبا. واحتفظوا بها حتى عام 141م"[4]؛ لم تكن هذه الثورة الوحيدة التي شنها الرق والتي عرّضت روما لانقسامات عنيفة بل تبعتها لاحقا ثورة القلادياتور بزعامة سبورتاكوس والتي

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 90.

[2] المصدر نفسه، ص 92.

[3] ويل ديورانت: قصة الحضارة (قيصر والمسيح)، تر: زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة، بيروت، دت، دط، مج 3، ج1، ص 235.

[4] المرجع نفسه، ص ص 235-236.

ألحقت خسائر مادية فادحة، ولكن الأهم من ذلك علّمت الفرد الروماني معنى الثورة من أجل الحرية، ومعنى معارضة النظام الجائر، واحتمالية إقامة دولة عادلة بديلة داخل الدولة الظالمة.

لم تقتصر السقطات التي تعرضت لها روما على ثورات الرق الداخلية، بل تعرضت في كثير من المرات للاحتلال وكانت أيضا قبل ولادة السيد المسيح، هنا يتساءل أوغسطين مستنكرا :"أين كانت جماهير الآلهة عندما احتل المغول روما وأحرقوها لسنوات طويلة قبل الانحطاط الأخلاقي فيها؟ كانوا حاضرين ولكنهم نائمون؟"[1]، كان أوغسطين مطلعا على كل هذه الثورات والانقلابات وعلى تاريخ روما بكل تفاصيله، فهو الباحث النهم الواسع الاطلاع، استحضر كل ما اطلع عليه في فترة شبابه أين كان معجبا بخطب السياسيين والتي فضلها على الكتاب المقدس، وهي ذاتها التي ساعدته على الخروج من الورطة التي وقع فيها دينه المسيحي.

كما كان ملما بكتب الرومان التاريخية وهذا ماجعله يدرج وبسلاسته المعهودة أغلب الحوادث ويذكر مختلف الملوك من أقدمهم "كسازدانابال* Sardanapale" إلى أحدثهم أغسطس وصولا إلى من عاصروه، حتى أنه خصص فصلا من كتابه مدينة الله لروميلوس وأخيه ريموس المؤسسين الأولين لروما، إستعان أوغسطين بالتاريخ الروماني حتى يثبت أن بداية السقوط كانت قبل زمن قبل مجيء المسيح والمسيحية وكأي مواطن روماني مخلص لرومانيته راح يبحث عن السبب وراء هذا السقوط وهذه المشاكل الداخلية ابتداء، التي أودت بحضارة عظيمة كروما.

أولا: فساد آلهة الوثنيين

هندسة الكتابة الأوغسطينية توقعنا دوما في تكرار الأفكار والإطناب في الشرح، فنجد الفكرة الواحدة مشروحة بشكل موسع في بداية العنصر ثم نجدها في عشرات العناصر بعدها بنفس الشرح يزيد عليها بعض الأمثلة، والحقيقة أن الأمر مبرر جدا فالرجل في حرب ضد الوثنيين هي حرب للبقاء، فهو الوحيد المخوّل لرد التهم عن المسيحية فإما ينجح ويلجم غضب العوام أو يفشل ويقضي على دين بأكمله فيعود لسيرته الأولى قبل قسطنطين، ما وصلت إليه المسيحية من مكانة مركزية داخل أنظمة الدولة ليست بالأمر الهيّن الذي يجعل رد أوغسطين كما فعل مع الدوناتية والبيلاجية أو المانوية في رسالة أو إثنتين، بل هي مسؤولية الحفاظ على دين بأكمله من الزوال وعقيدة من التشويه، ألزمته أن يكتب مجلدات ثلاث كان فيها كالمحارب الذي يسدد

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص 96.

* سازدانابال ملك روماني أسير الملذات أمر بأن يحفر على بلاط قبره: إلا لا يحمل إلى الموت سوى التهتك الذي التهم كل شيء في حياته، ننظر المصدر نفسه، ص90.

طعنات كثيرة لعدوه القوي حتى يتأكد من مقتله، كذلك فصاحبنا متوتر خائف على المسيحية وعلى روما أيضا، جعله الأمر يتطرق للفكرة ويكررها مرارا ليؤكد عليها وعلى حقيقة أنها من أهم أسباب سقوط روما، هذا ما لا نجده في باقي رسائله التي تميّزت بالدقة في الطرح والتسلسل في الشرح.

كان من ضمن تلك الأفكار المحورية التي ساهمت بشكل مباشر في تحطيم روما فساد الآلهة التي كان الرومان يعبدونها. إنها الآلهة الوثنية؛ عدد كبير من الآلهة تم اقتراضهم من اليونان ومن أساطير الحضارات السابقة، ولكن بتسميات مختلفة،-فجوبيتير ملك الآلهة عند الرومان هو نفسه زيوس الاغريقي-، استقدام الآلهة من اليونان أدى بالضرورة إلى استقدام شعائرها وطقوسها وهو ما أكده المؤرخ الروماني بولبيوس بقوله :"لما حلّت بالرومان كارثة كاني Cannae، ولاح أن رومة لن يعصمها عاصم من هانيبال استولى الرعب على الشعب الروماني (...) وحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية ثم باستخدام الطقوس اليونانية في عبادة الآلهة كلها، الرومانية واليونانية على السواء"[1]، كان عدد الآلهة الرومان كبيرا فلكل فعل إله؛ فللرجولة والنمو إله (مارس)، وللزرع إله (ساتورنوس)، وللخصوبة إله (سيرس)، ولحماية القطعان (بالبيس وفرنوس) وللحكمة إلهة (منيرفا)، وللحب إله (فينوس)، كما أن للقمر إله (ديانا)، وللمياه إله (نيبتون)، وللسماء إله (جونو)* وغيرها الكثير، ومع توسع روما ارتأى مجلس الشيوخ والكهنة أن يزيدوا من عدد الآلهة ليثّبتوا أقدام الامبراطورية أكثر –المثير للاهتمام أن الآلهة القديمة لم تكن محصورة في الذكور فقط بل كانت الآلهة النساء مشاركات في الألوهية والفعالية واتخاذ القرارات الوجودية- وليتحكموا في ذلك العدد الضخم من السكان يقول بولبيوس :"إني أرى أن الميزة التي تمتاز بها الجمهورية الرومانية والتي ترفع من قدرها فوق سائر بلاد العالم أنما هو طبيعة دينها، ذلك أن ما يعد عند الشعوب والأمم عيبا من العيوب وسبة في الأعقاب وهو الخرافات لهو نفسه العامل الأكبر في تماسك الدولة الرومانية، فهذه الشؤون تكتسي بثوب من الآلهة والفخامة، وتسري في الحياة الخاصة والعامة سريانا لا يضارعها فيه غيره من الأديان (...)ولكن الجماهير كلها دون استثناء متقلبة الأهواء لا تثبت على حال، تملأ قلوبها الرغبات الطليقة التي لا تتقيد بقانون والشهوات التي لاتخضع لحكم العقل، والانفعالات العنيفة ومن أجل هذا كان لابد من وجود أسباب للإرهاب لا تراها العين، ومواكب ومظاهر دينية فخمة تمسك هذه الجماهير بعضها ببعض"[2]، فيكفي أن نذكر أمرا الهيا حتى تذعن له أذقان السواد الأعظم، من خلالها استطاع القيصر أو الامبراطور و قبلهما مجلس لشيوخ أن يتحكموا في عدد ضخم من الناس.

[1] ديورانت، مرجع سابق، ص 196.

* ننظر علي عكاشة وآخرون: اليونان والرومان، دار الامل، العراق، ط1، 1991، ص ص 232-233.

[2] المرجع السابق، ص ص 195-196.

توصل العقل البشري لاختراع الفكرة الدينية، فالشعوب منذ العصور البدائية الأولى تبدي نوعا من الخوف الممزوج بالاحترام لتلك القوى الخارقة الخفية وللأساطير التي تستحضر آلهة لم يروا منها غير الأوثان الصخرية، فيكفي أن يأتي الكاهن ويخبر الناس أنه رأى إلها ما يخبره بالتحرك للقتال حتى يتسابق الجميع للمشاركة في هذه الحرب المباركة ليكسب رضى الآلهة وغنائم الملك. لم يكن بيد الدولة غير هذا الحل لتنظيم الشعوب والتحكم فيها، وسواء كان الدين خطة عسكرية أو إستراتيجية دولة أو أنها حقيقة وصلت الرومان مشوهة، فان الأمر نجح وتمت السيطرة على الرعايا بنجاح.

استطاع الحكام أن يروّضوا شعوبا بأكملها بواسطة الدين الذي استحال وسيلة ناجعة للترويج للملك، ولتقبل أوامره دون اعتراض أو خروج عنه، وحتى وإن كان الدين وسيلة في يدي السلطة فان الشعب مؤمن به ومخلص له، يرى فيه ملجأ حين يقع في مأزق يقف عاجزا أمامه، فيرتاح عندما يفكر أن تلك القوى الخارق ستجد حلا لمأزقه لا محالة، يرى فيها منقذه من شر محدق به لا يستطيع أن يرده، فيظن أن الله القوي سيكف الشر عنه بل وسيبكته، يرى فيه الحامي له وهو يحارب، والمكلل لحروبه بالنجاح، هو من سيحقق له أحلامه التي يعجز في الواقع عن تحقيقها. إنه العجز العامل المتكرر في كل ما سبق، هو ما يجعل الانسان يعود لله؛ هل القوي يحتاج لقوي أو أقوى ليسترد حقه، أم أنه يتولى دور الله حينها؟، ثم يعود له متى عجز، هل الدين هو فقط ملجأ، أليس هو ذلك النموذج الذي يحتاجه الانسان لاشباع جانبه الروحي بعيدا عن اغتراب جانبنا المادي المشيأ؟.

يحتاج الانسان للتقرب من الآلهة القيام بطقوس وعبادات فردية وجماعية، يحاول من خلالها نيل شفقة الرب ورضوانه، ولتصيب الدولة عصفورين بحجر واحد كانت تشرف إشرافا مباشرا على الأعياد والاحتفالات والطقوس التي صارت شعبية لتنال رضى الرب والشعب كحال كل الحضارات البائدة، وعلى هذا الأساس وضعت الحكومة الرومانية فرعا إداريا مستقلا ومتخصصا "مهتمه تنظيم العلاقات بين مجموعة المواطنين والآلهة الراعية، وقد أُسند هذا الفرع إلى مجلس من الكهنة برئاسة الكاهن الأعظم ووضعت مهمته استطلاع مشيئة الآلهة في مجلس العرافين، ولهذا وضعت الدولة نظما كهنوتية لهذه الآلهة ووزعت السلطة الدينية على أربع جماعات عليا يرأسهم الكاهن الأعظم (...) 1- مجلس العرافين (...) 2- مجلس الكهنة (...) 3- كهنة الولائم (...) 4- كتب حماية وتفسير الكتب المقدسة"[1]، وكلما زادت أعداد الآلهة زادت الاحتفالات والأعياد ولا يبالغ المؤرخون حين يحصون أكثر من مئة يوم عيد في العام الواحد، أعياد تأخذ أشكال مختلفة

[1] أحمد علي عجيبة: دراسات في الأديان الوثنية (موسوعة العقيدة والأديان)، الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004، ج9 ، ص ص 181-182.

بعضها كئيب وحزين يسوده جو من الخوف كأعياد التقرب من آلهة الموت وتمجيد الموتى واسترضاء سكان الدينونة.

بعضها البخر يكون يوما للقرابين وللأضاحي كما يحدث "في الخامس عشر من شهر فبراير بعيد لوبركاليا المخصص للإله فونس الحامي من الذئاب وكان يضحي في هذا العيد بالمعز والضأن"[1]، لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملأ البطون، وكثيرا ما كان العامة يتخذونها فرصا للإباحية الجنسية، وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية هزلية لبلوتس :"في وسعك أن تأكل ما تشاء، وتذهب حيث تشاء، وتحب من تشاء، وعلى شريطة أن تمتنع عن الاتصال بالأرواح والأرامل والعذارى، والغلمان الأحرار" ويلوح أنه كان يحس بأنه ثمة بعد هذا مجالا واسعا للاختيار"[2]. هذا ما وقف عليه صاحبنا ووصفه توصيف دقيقا.

كان أوغسطينوس موضوعيا في طرحه ذاتيا في حكمه معتمدا على مصادر تاريخية رومانية وعلى ما عايشه هو بنفسه فترة شبابه، يقول: "يوم الوضوء السماوي الاحتفالي للعذراء برسنتيا والدة جميع الآلهة علنا وعلى سريرها كان المغنون ينشدون أغاني يخجل الانسان من سماعها موجهة إلى والدة الآلهة أو والدة شيخ من مجلس الشيوخ، أو حتى أي إنسان آخر شريف، وماذا أقول؟ بل يخجل من أن تقال لأم واحدة من المهرجين لأن الانسان يحتفظ في قلبه تجاه والدته عاطفة من الحياء، لا تقوى على طمسها الأعمال الخلاعية والوقفات الشهوانية التي تقام أمام والدة الآلهة وجمهور غفير من الجنسين فتثير موجة من الحزن خجلا من السمع والبصر؟ أما كان يعود ذلك الشعب المندفع وراء فضوله إلى بيته مشمئزا خجلا؟ إن كانت تلك هي الاحتفالات المقدسة فكيف يكون انتهاك القدسيات؟ إن كان ذاك هو الوضوء فكيف يكون الوسخ؟"[3]. يذكر هذه النماذج ولم يذكر ولو لمرة واحدة في مجلداته الثلاث العيد الذي يقام كل أول يوم "من شهر مايو كان يحتفل (الناس) بعيد الآلهة الصالحة "Bone Dea" (... كما نجد) عيد السترنالياً* يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرون من ذلك الشهر وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم زحل، الذي لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات، والذي يتبادلون فيه الهدايا ويتحررون من كثير من القيود، ويلغي

[1] ديورانت، مرجع سابق، ص 135.

[2] المرجع نفسه، ص135.

[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2. مصدر سابق، ص ص 66-67.

*السترنالیا: مشتق من الإله ساترون إله الذرة عند الرومان ويقال أن اسمه ساتوس معناها الحرث. ننظر أرثر كورتل: قاموس أساطير العالم، تر: سهى الطريحي، دار نينوى، سوريا، د ط، 2010، ص163.

فيه أو يعكس إلى حين مابين الأحرار والعبيد من فروق فكان من مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار سادتهم، ويصدروا إليهم الأوامر، ويتهكموا عليهم، وكان السادة يقفون على الموائد لخدمة العبيد، يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام"[1]، هذا الاحتفال بعينه يعكس جانبا إنسانيا راقيا أين تظهر فيه معالم المساواة في الواقع ففيه يخدم السيد العبد وفيه يعتقه ويمنحه الحرية. وفيه يسترد العبد ماهيته ويصير إنسانا حرا مستقلا، لم يذكر أوغسطين هذه الجزئية الإنسانية المهمة، أو ربما ذكرها في رواق معرفي آخر عندما ناقش الجانب السياسي ومجد فيها روما وأخلاق العظمة التي كانت تتميز بها في بدايتها، ولم يعد الأمر للدين، لم يذكر ذلك بل حمل الدين الوثني كل الذنوب الرومانية وعهرها ودياثتها، حمل الدين وطقوسه الخلاعة التي صارت تميز شعب روما والتي استمدها من خلاعة آلهته، فلم يعد يحس بأي خجل وهو يشاهد تلك الاحتفالات.

الجدير بالذكر أن الفيلسوف كان ضمن الجمهور الذي لم يكن يشعر بأي خجل من الاحتفالات بل يذكر أنه كان يستلذ بها ويستمتع بالتمثيليات هناك، حيث يذكر في أكثر من موضع من اعترافاته كم كان مولعا بالفن والمسرح لدرجة أنه استحوذ عليه طيلة فترة شبابه التي كان فيها حسيا، أين كان جسده مسيطرا على عقله وروحه، يقول أيضا "كنت أحضر تلك المشاهد والاستعراضات المدنسة وأتلذذ بتلك الحركات الجنونية والحفلات الموسيقية والألعاب السافلة التي تقام على شرف الآلهة والآلهات"[2]، إستنكار أوغسطين المسيحي لتقبل أوغسطين الحسي (المتفرج الروماني) غير مبرر، فأوغسطين الحسي لا يرى في الجسد عورة ولا يرى في الوضوء السماوي خجلا بعد ما جاءت تعاليم الطقوس من الآلهة التي يعبدها ويحبها، خاصة وأنها تمنحه كامل حرية التمتع وتلبية الرغبات، والاستمتاع بالجسد الذي تمجد في المسارح ففي "التاسع والحادي عشر والثالث عشر من هذا الشهر (أبريل) يحتفل اللبيراليا عبيد ليبر Liber وليبرا Libera إله العنب وآلهته، وكانت جماعات من الرجال والنساء في ذلك اليوم يمجدون جهرة عضو التذكير في الرجال وهو رمز الاخصاب"[3]، إله العنب وآلهته ليبر وليبرا مشتقة من الحرية، فكان الاحتفال يعكس فكرة ربط الحرية بحرية الجسد أو تعظيم الاخصاب، بعبارة أخرى كانوا يربطون الحرية بالحرية الجنسية.

طقوس فاجرة كما يطلق عليها أوغسطين المسيحي، طقوس متحررة كما يطلق عليها أوغسطين الحسي، كانت تقام أمام طاقم الكهنة من أكبر رتبة فيها وهو الكاهن الأعظم وصولا إلى كهنة الولائم لمباركتهم وتشجيعهم، فتعاليمهم كانت تحث على مثل هذه التمثيليات بل بلغ الأمر أكثر من ذلك، و"أن

[1] ويل ديورانت، مرجع سابق، ص ص 136-137.
[2] المرجع نفسه، ص 66.
[3] المرجع نفسه، ص136.

الاله الجديد تقام له حفلات تدار فيها كؤوس الخمر على المحتفلين، وإذ كانت هذه الحفلات تقام سرا وفي الليل فقد راجت الإشاعات القائلة بأنها كانت حفلات حمراء يصحبها الخمر والفجور الطليق، وقد وصفها ليفي بقوله: "إن الفسق بالرجال كان أكثر من الفسق بالنساء" ثم يقول بعد هذا، ولعله في ذلك ينزل لغو القول منزلة التاريخ المحقق: " ومن لم يكن يرضى بالدنس ... كان يضحي به قربانا للإله"[1]، فكان الفاضل الرافض للمعصية منبوذا أيام الإحتفالات الدينية المقدسة.

الآلهة باعتبارها مصدر الشرائع والتعاليم غيرت منظومة أخلاقية بأكملها، بما تفرضه على شعبها "آه لما سكت أولئك الآلهة عن إعطاء قوانين في الحياء والوداعة وفرضوا على ذلك الشعب إباحيات مخجلة كسبا لخطوة ألوهة مصطنعة وسلطة شريرة"[2]، وجد الناس في السلطة الإلهية تشريعا يضمن لهم حرية إخراج كل مكبوتاتهم وممارسة كل دعارتهم وتلبية رغبات جسدهم دون خوف من عقاب أو تجريم، بدل أن يجد ترغيبا على التعاليم الفاضلة وتهديدا لمن يخالفها، أيُّ آلهة هذه التي تنشر الرذيلة غير آلهة تريد تخريب المجتمع لا بناءه؟، هل هي خطة الكهنة ليبقوا في مراكز رفيعة في الدولة وهم يعلمون تمام العلم أن تغييب المجتمع يكون بتلبية نزواته، وأن ذات الشعب سيرحب بالأمر وسيشكر آلهة سمحت له بأن يفجّر كل ما ترفضه الفطرة السليمة.

أين الغرابة فيم يقوم به الشعب؟ أليس المتدين الحق هو الذي يحاول محاكاة إلاهه وتعاليمه، وكلما زاد تدينه كلما زاد قربه من إلاهه، فيحاول أن يكون رحيما كالرحيم ، عادلا كالعادل، محبا كالمحب، كيفما كان الإله يكون عبده، فحتى إن كان الإله زان كانوا مثله، كالإله ليبرا، أو كان إلها زاهدا كالإله ميترا الذي كان: "يضمن الخلاص لأتباعه ويلزمهم بالمبادئ التطهيرية السامية. والحقيقة أن صلوات الميترائية التي وصلتنا تشبه إلى حد كبير الابتهالات اليهودية المسيحية إلى الرب"[3]، كانت الآلهة متنوعة بين داعرة وزاهدة فاضلة، وكان لكل إله أيام عيد مخصصة له، يحاول فيها الفرد أن يحاكي كماله، فالكمال هو الهدف الثابت الذي يحاول الانسان الوصول إليه، ومادامت الآلهة كاملة فكل فعل تقوم به كامل مثلها، وإن كان عهرا فوقتها لن نسميه عهرا بل عبادة.

هذه هي العبادة الوثنية بتعاليمها التي خضع لها الشعب ودعمتها الدولة، بأن سخرت لها هيئات حكومية مستقلة مهامها الأساسية الحرص على إقامة الطقوس في تواريخها المحددة، تنظيمها، وتحضير كل

[1] ديورانت، مرجع سابق، ص 198.
[2] المرجع نفسه، ص 87.
[3] كانتور ف نورمان: التاريخ الوسيط حضارة البداية والنهاية، تر وتع: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات، مصر، ط6، 2001، ص 52.

مستلزمات الاحتفال بالآلهة والاهتمام بكل تفاصيلها مهما كانت بذاءتها يقول أوغسطين: "شيشرون (...)رئيس مجلس بلدي منتخب يهتف في لفوروم Forum أن من بين واجبات وظيفته أن يجعل الآلهة فلورا* Flora مرضية لدى الناس بواسطة الاحتفال بفخامة تلك الالعاب التي تكتسب صفتها الدينية قدر ما تكون وقحة وسافلة، وإذ كان قنصلا يوم كانت المدينة تعيش خطرها الدائم قال إن الاحتفالات بالألعاب استمرت عشرة أيام من دون إغفال أي شيئ، إرضاء وتهدئة للالهة"[1]، والسؤال الذي ينتصب أمامنا الآن: إذا كان المجتمع منهار أخلاقيا إلى هذا الحد، كيف استطاعت روما أن تقوم وتستمر لقرون؟.

ثانيا: الفرد الروماني

سقوط روما لم يكن سقوطا عاديا لامبراطورية عظيمة، بل هو سقوط فكرة "أبدية الحضارة"، التي خمّن فلاسفة التاريخ إمكانية تحققها، لذا كان البحث حثيثا حول روما بالأخص، ما دفع المؤرخين والفلاسفة للعودة إلى بداية الفرد الذي صنع روما. الفرد الروماني الذي صنع عظمة حضارته بنفسه، لم يتردد أوغسطين وهو يصرح بهذا الكلام ولم يخف من سخط رجال الذين زعموا أن العناية الالهية هي التي تقرر فتصنع الحضارات وتسقطها، وأن الله هو الذي يسيّر التاريخ ويوزع أدوار العالمية والانحطاط كيفما يشاء، فمنح لروما العالمية ولقرطاجة الإنحطاط، أوغسطين يوقن أن الله فتح الامكانات أمام الانسان وأعطاه حرية الاختيار وعلى الرغم من ذلك فالله عالم بما سيختاره الانسان سلفا، ولتبسيط هذا الاشكال نستحضر المثال التالي: "لنفرض مثلا أني أقوم بالتصويب في انتخابات إتحاد طالبات الجامعة بواسطة مكنة التصويت، ولنفرض أيضا أن مكنة التصويت المستعملة في الانتخابات مجهزة سلفا بحيث تقوم بتسجيل جميع أصوات الناخبين آليا لصالح مرشح واحد بعينه، وليكن بربارة سميث ولأنني مؤيد للسيدة بربارة سميث قمت بالضغط على الأيقونة الخاصة بها بمعزل عن أية مؤثرات أو ضغوط خارجية وكذلك بدون أن أعرف بأنه حتى لو قمت بالضغط على الأيقونة الخاصة بمنافسها في الانتخابات لسجلت مكنة التصويت صوتي لصالحها فينتج عن ذلك كله أني قمت بالتصويت لصالح بربارة سميث وأني مسؤول مسؤولية أخلاقية عن هذا الفعل"[2]، وبالتالي فاختياراتنا الحرة ستتوافق في النهاية مع علم الله المسبق، وسنختار ما علم الله أننا سنختاره، ولن نختار ما علم الله أيضا أننا لن نختاره، ليس غريبا على أوغسطين الفيلسوف أن يعيد بناء الدولة والحضارات للأفراد، بل ليس من الحكمة غير ذلك، وإلا كيف يستطيع رجل الدين المسيحي أو اليهودي أو حتى المسلم لاحقا أن يبرر قيام دولة وهي لا

* فلورا: آلهة الفاكهة والبراعم والكروم والربيع والزهور منحها زوجها فافونوس (إله الريح الغربية) الشباب طول حياتها تملك زهرية من يلمسها يحمل، لمستها جنون وانجبت الآلهة مارس إله الحرب. ننظر أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 106.

[1] أوغسطينوس، مدينة الله ، مج2، مصدر سابق، ص ص 105-106.

[2] المصدر نفسه، ص160.

تدين بتلك الأديان بل وتحاربها، ولم تعتمد على أي معتقد من معتقداتها لتقوم أساسا، وبالتالي فالدين ليس العامل الأساسي لقيام الحضارات.

مادام الدين ليس هو السب في قيام روما، فما الذي يجعل الفرد الروماني قادرا على بناء حضارة؟

يجيب التاريخ على هذا السؤال على لسان فريجيل الذي قال :"طرد تاركينوس فأمر أوزسنا بأن يستقبلوه وضيق الحصار على روما، غير أن أبناء إينيه Enée أسرعوا إلى الموت في سبيل الحرية، ذاك الشيء الوحيد الذي كانوا يطمحون إليه وهو أن يموتوا كراما أو يعيشوا أحرارا، أحرار طفحت قلوبهم بحب المجد"[1]، والمجد بما هو طلب العزة والرفعة والشرف كان هدف كل فرد روماني، سواء كان مواطنا عاديا أو ذو منصب سياسي في الدولة فكانت كل خطبهم وحواراتهم تترفع عن ذكر الأفراد والمناصب بل كان أي خطاب يوجه باسم روما وتخاطب فيه روما، فبدل أن يقال أيها الشعب يقال يا روما أو أيها الرومان، وكان الفرد بدل أن يقول أنا فلان يقول أنا الروماني، فها هو شيشرون في خطبته الشهيرة ضد أنطونيوس يصف لنا حال مواطن تم تعذيبه "رجل روماني يجلد بالصياط أيها القضاة في وسط الفوروم؟ وطول مدة هذا الجلد لا يتأوه الرجل ولا يسمع منه في وسط آلامه وبين قرقعة السياط سوى هاتين الكلمتين:"أنا روماني""[2]، كان شعورهم بالإنتماء للوطن عميقا، وكان التضحية بأي شيء أو شخص مقابل روما ومقابل دخول التاريخ لصنع مجد روما أمرا عاديا بالنسبة لهم.

ها هو بروتوس يصرخ في الرومان الغاضبين من اغتيال يوليوس قيصر قائلا :"أيها الرومانيون إن كان بينكم صديق لقيصر يحبه ويتهالك وجدا عليه، فليسمح لي أن أقول له: أيها الصديق الكريم إن بروتوس قاتل قيصر كان يحبه أكثر من حبك إياه ، أيها القوم والله لو كذب الناس جميعا ما كذبتكم، فاعلموا أني ما قتلت قيصر لأني كنت أبغضه بل لأني كنت أحب روما أكثر منه"[3]، وأنطونيوس هو الآخر يعتمد على نفس نمط الخطاب، يقول :"أيها الرومانيون إن الخنجر الذي ذبحت به قيصر في سبيل رومة لا يزال باقيا عندي لذبح بروتوس في سبيل قيصر إذا أرادت روما ذلك"[4]؛ كانت التضحية بالصديق أمرا عاديا لدى الرومان لكن ليس من أجل مصلحة شخصية أو طمعا في حكم أو سلطة، بل من أجل مصلحة روما وحدها، فأي سبب قد يهدد وجودها أو تطورها يجب أن تتم إزاحته فورا، فيقتل الصديق (قتل بروتوس صديقه يوليوس)، والأخ (قتل رومولوس لأخيه ريموس).

[1] أوغسطينوس، مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص241.

[2] نقلا عن سلامة موسى، أشهر الخطب ومشاهير الخطباء، مؤسسة هنداوي، مصر، دط، 2011، ص64.

[3] نقلا عن المرجع نفسه، ص 65.

[4] المرجع نفسه، ص 65.

الأكثر من ذلك فان الثروات الضخمة التي كان يغنمها العائدون من الموت قادة وجنودا، لم تكن تثيرهم أو تغريهم بل كانوا يقدمونها لروما خالصة؛ إذ كان المواطنون "يأتون عن طريق انتصاراتهم بالثروات والكنوز إلى روما مع بقائهم فقراء مدقعين وكان الفقر يحتل مكانة رفيعة"[1]، هذا ما حرص عليه القادة والأباطرة النزهاء، وقلدهم فيه جنودهم المحبين المطيعين لهم، نتيجة لأخلاقهم المتواضعة :"فالأباطرة كانوا ينفرون من كل مراسم الآلهة والعظمة التي قد تسيء إلى مواطنيهم والتي لا تجديهم هم أنفسهم نفعا، ولا تزيد في قوتهم شيئا فتظاهروا بأنهم يشاطرون رعاياهم في كل ما يهمهم في أمور الحياة. تبادلوا معهم سلسلة من الزيارات والحفلات المنتظمة، ولم يسموا في ملابسهم وقصورهم وموائدهم عن مرتبة عضو ميسور من أعضاء السناتو"[2]، يفضلون مشاركة جنودهم الاحتفالات البسيطة على مشاركة حفلات الأباطرة الفخمة لان المجد الحقيقي يتحقق بالجنود ويستمر بتضحياتهم وحدهم.

استجابة الرومان لأي تحدي خارجي يحول دون مجد روما، كانت استجابة قوية وسريعة باذلين من أجل ذلك كل ما أتيح لهم، غير خائفين أو مترددين، بل سعداء منتشين؛ فالسعادة إذن لدى الفرد الروماني تركزت في تحقيق مجد روما، هي فضيلة كان يمتاز بها الرومان وحدهم، وهذا ما انتبه له الأباطرة إذ كانوا حريصين على أن يكون الجنود من داخل روما لا من خارجها، فترلكوس على سبيل المثال لا الحصر "عندما ارتقى (...) أريكة الملك ولم يجد في مملكته رجلا كان قد خاض حربا من قبل، ومع ذلك، فعندما وضع خططه لخوض الحروب لم يفكر في الافادة من السمنيين أو التوسكان أو من غيرهم (...) بل قدر كرجل عاقل الاستفادة من شعبه هو لا من الآخرين"[3]، فالروماني وحده من يستطيع أن يستشعر بنقاء حقيقة الانتماء لوطنه، ترتب على ذلك إدراكه اليقيني أن الوصول لعظمة روما ومجدها ليس بالأمر الهيّن، بل هي مراحل عمرية يجب أن تمر بها دولته، وبدايتها الحتمية لن تكون بالصدفة والحظ بل بفرش بنية تحتية أساسها "حب الحرية".

نتساءل هنا لماذا الحرية بالذات دونا عن سائر القيم؟

يجيب ميكيافيلي عن ذلك في دراسته للحضارة الرومانية بقوله :"جميع المدن والبلاد التي تتمتع من جميع نواحيها(...) تنتفع من ذلك انتفاعا عظيما، وحيثما توجد الشعوب المتزايدة في عدد سكانها فان ذلك يرجع

[1] نيقولو ميكيافيلي: مطارحات، تعريب: خيري حمّاد، دار الآفاق لجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص 697.

[2] جيبون إدوارد: إضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تر: محمد علي أبو درة، مر:أحمد نجيب الهامش، المؤسسة المصرية العامة، مصر، دط، 1969مج1، ص 129.

[3] المرجع السابق، ص298.

إلى الحرية التي تعقد فيها عقود الزواج، وإلا أن هذه الحرية المشتهاة للغاية من الناس، ويحدث هذا عندما يكون كل إنسان على استعداد لإنجاب أطفال، لطالما يؤمن أن باستطاعته تنشئتهم ويشعر بالطمأنينة إلى أن أرثه لن يسلب منه ويعرف بأن أولاده (...) سينشأون أحرارا، لاعبيدا فحسب، بل إنهم إذا ماتوا فضلاء أتيحت لهم الفرصة لكي يصبحوا حكاما، ويلاحظ المرأ أيضا كيف أن الثروات تتضاعف هنالك وتكثر سواء ما تنتجه الزراعة، أو ما تنتجه الفنون والحرب، فكل إنسان تواق إلى اكتساب أشياء كهذه، وإلى الحصول على الممتلكات، شريطة أن يكون مقتنع من أنه سينعم بها إذا ما أصبحت في حوزته، وهذا ما يحدث بعد ذلك أن يتطلع الناس في ميدان المنافسة الواحد منهم الآخر إلى منافعهم وإلى منافع الجمهورية في وقت واحد"[1]، هذا ما يعجز العبد عن تحقيقه أو حتى التفكير فيه، فالعبد لا يستطيع أن يبني نفسه فكيف يبني امبراطورية؟، ومن أجل أن يحقق الفرد وجوده وما يلزم عنه من تحقيق وجود وطنه طفق يبحث عن حلول وسبل ناجعة ومضمونه فلم يجدوا حسب فرجيل أسرع من الموت.

شهدت منظومة القيم في المرحلة الأولى من تاريخ روما تغيرات جذرية، فالجسد الذي كان مصدر الشهوات الآنية لدى اليونان، صارت التضحية به هي الشهوة لدى الرومان، والموت هو فضيلة، لهذا نجدهم وقد "اكتفوا بالقليل من الثورة ولكنهم لم يشبعوا من المجد، الذي أحبوه حبا فائقا فآثروا أن يحيوا من أجله، وما ترددوا عن الموت في سبيله، فخنقت هذه الشهوة في قلوبهم سائر الشهوات، وكانوا يخجلون من أن يكون وطنهم في عبودية، كما أن المجد يتوق لديهم إلى السيطرة والتسلط، كانوا يطمحون قبل كل شيء إلى أن يجعلوا وطنهم حرا"[2]. حب المجد وحب الوطن والتضحية من أجله، التوق للحرية، إحترام القانون، طاعة الرئيس، النظام، الالتزام، الشجاعة وغيرها من الفضائل هو ما تميز بيه الفرد الروماني، فالجانب الأخلاقي لديهم كان منتعشا ومحوريا في الحياة الرومانية، وذلك شاهده المؤرخون أنفسهم إذ يوعزون الأمر للفلسفات اليونانية التي انتقلت إليهم أهمها: "المدارس الأربع المشهورة (...) الرواقيون والأفلاطونيون (...) الأكاديميون والأبيقوريون"[3]، إضافة إلى الفلسفة الكلبية، ومع التنوع الفلسفي الذي انتقل إلى الرومان كانت الرواقية في صدارة المشهد الثقافي آنذاك، والتي شغلت تفكير طبقات المجتمع جميعها: البرجوازية، العبيد والجنود على حد سواء.

يعود سبب انجذاب الرومان الأوائل للرواقية دون بقية الفلسفات الأخرى على الرغم من وجود من درسها ودرّسها إلى أنهم لم يكونوا شغوفين "بالعلوم النظرية، بل كانت عقليتهم عقلية عملية تميل إلى النظام

[1] ميكيافيلي، مرجع سابق، ص ص 239-240.
[2] أوغسطين، مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 240.
[3] جيبون، مرجع سابق، ص 78.

والحكومة والقانون. ولذلك رأينا فلسفة الرواق حيث دخلت بلاد الرومان قد تجددت من أحراشها، كما قال شيشرون، وتأثرت في ذلك بالطابع الروماني وبملابسات الحياة في رومة، فتركت ما كان المنطق الرواقي القديم من لباقة ودقة، ولم تقف عند علم الطبيعة إلا وقفات صغيرة موجهة أقصى عنايتها إلى مبادئ الأخلاق وتطبيقاتها، وعلى هذا النحو أصبحت النزعة السائدة في الفلسفة عند الرومان نزعة أخلاقية، ويتجلى ذلك في مؤلفات الرواقيين في ذلك العصر، إذ نراها لا تذكر عن المنطق ولا عن الطبيعيات إلا النزر اليسير*"[1]، نجد أن الأباطرة الرومان كانوا يتخذون من الرواقيين معلمين لهم، نيرون مثلا جعل الفيلسوف الرواقي: أنايوس سينكا**، معلمه ومؤدبه ووزيرا له، هذا الأخير الذي شدد على الجانب العملي من الفلسفة أي الأخلاق واهتم داخل دائرة الأخلاق، بممارسة الفضيلة أكثر من البحث النظري في طبيعتها، فهو لم يبحث عن المعرفة العقلية، لكنه سعى إلى الفلسفة بوصفها وسيلة لاكتساب الفضيلة فإذا كانت الفلسفة ضرورية فلا بد من السعي إليها وفي ذهننا الغاية العملية.

لم يقتصر الأمر على اتخاذهم كمعلمين للأباطرة، بل كان بعض الأباطرة في ذاتهم رواقيين نجد مثلا: ماركوس أوريليوس*** الذي قام بإسقاط الأخلاقيات الرواقية على القانون الروماني وشرّع مراسيم الامبراطورية "التي خففت من حدة القانون القديم، وكان في مزج الرواقية بالتشريع (...) إيثار لفكرة الانصاف على صرامة القانون، وجمع بين فكرة العدالة وفعل الخير والإحسان (...) فأحسن أورروليوس معاملة الأرقاء (وألغى) ما كان في نظام الرق من شناعات، فأصبح للرقيق شخصية أخلاقية وأصبح عضوا من أعضاء المدينة وأصبح قتله جريمة تستحق العقاب (...) وعلى أساس تعاليم الرواقية) فإن ألبيانوس المشرع قد صرح بالفكرة التي سبق بها

*نأخذ على سبيل المثال مؤلفات شيشرون "في الحدود القصوى للخيرات والشرور، التسكلانيات، تقسم الفن الخطابي، في الخطيب، الأكاديميات، في طبيعة الآلهة، في القوانين، في القدر، في الصداقة، في الشيخوخة، في الكهانة والتنبؤ بالغيب، في الفضائل، في الجمهورية، حلم شيبون، في الواجبات كتابه في الواجبات والذي يبدوا كتابا في السياسة لكنه لا يفصل أبدا الجانب الأخلاقي ونجده يدري فضائل مختلفة كالشجاعة والصداقة، والاحتشام وحب الوطن، والتعامل مع المعضلات الأخلاقية للتوسع.

[1] عثمان أمين، مرجع سابق، ص176.

** سينكا ولد في قرطبة باسبانيا عام 5 ق.م وتوفي سنة 65 بعد الميلاد بناء على أوامر نيرون بقطع شرايينه فنزف منها الدم حتى الموت، تعلم المحاماة في روما، وأكب على دراسة الفلسفة والخطابة وصار عضوا في مجلس الشيوخ، ننظر: فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، تر: إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2002، ج1، ص568.

*** ماركوس أوريليوس: إمبراطور روما (161م –180م) قام بتأليف تأملاته باليونانية في إثني عشر كتاب على شكل حكم، ركز فيها على الكثير من الفضائل العملية هدفها تربية المواطن الروماني أهمها حب الآخر يقول: "عندما يفعل أي إنسان تجاهك شيئا خطأ، عليك أن تبدأ فورا في النظر في الزاوية –خيرة أم شريرة– التي قادته إلى هذا الخطأ وبمجرد ما تدركها فإنك لن تندهش ولن تغضب، وإنما سوف تأسف له، لأنه إما أن تكون وجهة نظرك إلى الخير هي نفسها وجهة نظره، أو شيئا يشبهها في النوع، وسوف تلتمس له الأعذار، أو أن وجهة نظرك عن الخير أو الشر قد تغيرت فسرعان ما تتلطف في الحكم عليه"، ننظر: المرجع نفسه، ص 578.

روسو بقرون ":يولد الناس جميعا بقانون الفطرة أحرار متساوين"[1]، كنتيجة لتفعيل أخلاق الرواقية على قوانين دولة يسيّرها مواطنون رومان مخلصون للوطن دون سواه.

زرع الرواقيون الرومان في نفوس مواطنيهم –إضافة لما تقدم من فضائل– فكرة الحرية التي يراها الرواقي إيكيتيتوس* "أجّل الخيرات وأوفر النعم التي نصيبها في هذه الدنيا، والحرية عنده هي أن يتصرف الانسان في أفكاره وإرادته بحيث لا يمكن قهره على غير ما يريد (...) سأل الفيلسوف تلميذه: أهناك شيء هو ملك لك؟ قال التلميذ: لا أدري؟ قال الفيلسوف أيستطيع أحد أن يكرهك على تصديق ما ليس بصدق؟ قال: لا، أيستطيع أحد أن يكرهك على إرادة ما لا تريدها؟ قال: يستطيع ذلك إذا هددني بالموت أو الحبس. قال: فإذا لم تبال أنت بالموت أو بالحبس أيستطيع إكراهك بمثل ذلك الوعيد؟ قال: لا، قال: أوليس في قدرتك أن تحتقر الموت؟ قال: بلى، فأنتم حر حينئذ"[2]، هكذا يزهد الرواقي في الحياة مقابل حريته، وحريته من حرية وطنه وهذا ما تؤكده المحاورة التاريخية التالية :"أرسل الامبراطور تيتوس قسباسيانوس (69-79) إلى هلقديوس برسكوس الرواقي يأمره أن يتخلف عن الذهاب إلى مجلس الشيوخ:

- فقال الرواقي: في مقدورك أن تحول دون انتخابي عضوا في مجلس الشيوخ، ولكن لا بد لي من الذهاب إلى مجلس الشيوخ ما دمت عضوا فيه.
- فأجاب الامبراطور: ليكن ذلك، فاذهب ولكن لا تتكلم.
- قال الرواقي: أنا ساكت ما دمت لا تسألني عن شيء.
- فقال الامبراطور: لكن لا بد أن أوجه إليك بعض الأسئلة.
- فأجاب الرواقي: إذن لا بد لي أن أقول ما أراه مناسبا.
- قال الامبراطور: إذا تكلمت بما تريد أمرت بقتلك أو نفيك.
- فأجاب الرواقي: ومتى قلت لك أني من الخالدين؟ أنت تؤدي مهمتك، وأنا أؤدي مهمتي: مهمتك قتل الناس أو نفيهم، ومهمتي أن أموت دون وجل، وأن أذهب إلى المنفى من غير جزع ولا ابتئاس"[3]، كانت

---

[1] عثمان أمين، مرجع سابق، ص ص 192-194.

* إيكتيتوس: ولد حوالي 50 م في هيرا بوليس من أعمال آسيا الصغرى، أرسل إلى روما عاش حياته عبدا ثم أعتق، حينما تفرغ للفلسفة الرواقية بنشرها بين الرومان، هاجر بعدها إلى اليونان وهناك فتح مدرسة لتعليم الفلسفة، كان كغيره من الرواقيين الرومان معرضا عن الكلام في الطبعيات لأن النظريات الطبيعية لا فائدة منها، وليست غاية الفلسفة عند ابكتيتوس في البحث عن العلل الأولى، بل غايتها اصلاح الأخلاق وتزكية الأرواح، جمع تلميذه أريانوس أعماله في كتب ثلاث: "محادثات ابكتيتوس. " حياه ابكتيتوس وموته، "المختصر" أنظر عثمان أمين، مرجع سابق، فصل رواقية إيكتبتوس.

[2] المرجع نفسه، ص 200.

[3] المرجع نفسه، ص 181.

تلك نظرتهم للحياة، والتي لم تكن تعني لهم شيئا وهم مقيدون بسلاسل العبودية بكل أشكالها، وأولها عبودية الفكر، فتشبعوا بالحرية ولقنوها لكل مريديهم.

تاريخ روما يعج بالنماذج الحية عن أخلاق الرواقية المقدسة للحرية ولآداب الواجب تجاه الفرد والوطن والتضحية من أجله ما تعلمه الرومان عنهم وورثوه، إستطاعت الفلسفة بمعية عوامل أخرى عديدة إقتصادية، عسكرية، الأبطال وغيرها أن تصنع فردا فعالا بنى حضارة قوية على أسس أخلاقية متينة، والأمر هنا لا يعود إلى امبراطور ما تبنى فلسفة وحسب، لأنه وحسب ميكيافيلي فإن "أعمار الأمراء قصيرة فقد يحدث كثيرا عندما تفقد المملكة أميرها، أن تفقد أيضا الفضيلة التي كان يتحلى بها، وهكذا فإن الممالك التي ترتكز إلى فضيلة رجل واحد، لا يقدر لها أن تعمر طويلا، وإذن هذه الفضيلة تزول بموت هدا الرجل، ومن النادر أن تبعث من خلفه"[1]، بل إلى تربية أخلاقية لا تزول بزوال متبنيها، وإنما تستمر بعده، فالأمر لا يعود لأشخاص وإنما إلى فكرة "التربية" التي نشأ عليها فكر المواطن الروماني.

ميكافيلي الفيلسوف الإيطالي وجه النظر لزاوية مختلفة عما سبق، إذ يرى أن الفلسفات على الرغم من أهميتها في الرفع من وعي الفرد الأخلاقي وبالتالي الحضاري، إلا أنها ليست من الأسباب الأساسية، لأنها لم توحد كل الشعب الروماني فلا تجدهم جميعا رواقيين أو أفلاطونيين، كما وأن المجموعة الواحدة التي قد تكون رواقية تستحيل إلى أبيقورية لاحقا وهو حال الفلسفة إذ يحدث أن يغير الفرد توجهه الفلسفي مرات عدة في حياته، وبالتالي فهي ليست عاملا قارا وثابتا، في حين أن هناك شيئا أساسيا خضعت له روما بأسرها، يقول :"إن الدين الذي أوجده نوما كان من الأسباب الأولية في إسعاد رومة فقد عنى هذا الدين إقامة عدد من التنظيمات التي أدت بدورها إلى الكثير من حسن الطالع (...) وكما أن احترام العبادة السماوية يجلب العظمة في الجمهوريات فإن إهمال هذه العبادة يؤدي إلى خرابها"[2]، وأدرج العديد من الشواهد التاريخية ليؤكد أحقية أطروحته وأن الدين كان معلم الرومان الأول على حمل السلاح والدفاع عن الوطن والإخلاص له، وكان حليف القادة الجيوش والشعب.

يقول متعمدا على كتاب التاريخ لتيتوس ليفي :" يلاحظ المرء في حصار مدينة "Veii" كيف أن قادة الجيش استخدموا الدين لحمل جنودهم على مواصلة الهجوم، وكانت مياه بحيرة ألبا في ذلك العام قد ارتفعت عن مستواها العادي، وكان الجنود الرومان، وقد أنهكهم طول الحصار، راغبين في العودة إلى رومة، عندما اكتشف بأن الإله "أبولو" وعددا من العرافين كانوا قد قالوا بأن مدينة فيي ستحتل في العام الذي ترتفع

[1] ميكيافيلي، مرجع سابق، ص 263.
[2] المرجع نفسه، ص 263.

فيه مياه بحيرة ألبا، وقد دفع هذا النبأ الجنود إلى احتمال متابعة الحصار، وذلك لأنهم غدوا واثقين من احتلالهم للمدينة، وهكذا مضوا في هجومهم في إصرار وعزم، (...) وهكذا عمل الدين، عندما أحسن استعماله، على المساعدة في احتلال المدينة"[1]، وهو أمر كان من المستحيل تحقيقه لولا الدين الذي أعاد إحياء الجيش بعد أن علمه سلفا كيف يقاتل ويضحي بنفسه من أجل حرية الوطن، إذ حرص أن يربيه على تقديم القرابين بطريقة تختلف عن باقي الديانات، اكتسب من خلالها صفات القوة والشجاعة.

يقول "فطقوس تقديمنا للقرابين رقيقة وناعمة، بدل أن تكون آمرة وقوية، وليس فيها من عرض للشجاعة أو الشراسة، أما طقوسهم، فلم تكن تفتقر إلى الفخفخة ولا إلى الروعة، وكانت هناك بالإضافة إليها مراسيم قربانية يكثر فيها سفك الدماء وتتميز بالقسوة والشراسة، إذ تذبح فيه أعداد كبيرة من الحيوانات وكانت هذه المناظر بالنسبة إلى فظاعتها تحمل الانسان على اكتساب صفة الفظاعة أيضا"[2]، لم يقتصر الأمر على الشعب والجنود فالقادة أيضا حملتهم الآلهة إلى مصافها كما هو حال الإمبراطور نيرون الذي كان "وقتئذ إلها من أولئك الالهة، ذلك أن أحد القناصل المنتخبين، اقترح (...) أن يقام هيكل "لنيرون المأله". وبما أن ولدت له بوبيا، في عام 63 ابنته توفيت بعد مولدها بقليل أعلن المجلس ربوبية هذه الطفلة، ولما أقبل تريداتس Tiridates ليتلقى من نيرون تاج أرمينية خر راكعا أمام الامبراطور وعبده بوصفه الإله متراس Mithras، ولما أشاد نيرون بيته الذهبي أقام أمامه تمثالا ضخما ارتفاعه مئة وعشرون قدما في أعلاه رأس شبيه برأسه. تحيط به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه هو فيبس أيلو Phobus Apollo"[3]، فتاليه الملوك كان أمرا شائعا لدى الرومان.

لكن مونيسكو يرى خلاف ذلك فالقسوة التي ورثوها لم تكن من قتل حيوان، بقدر ما تعود رأسا لقتل الانسان في حد ذاته وهذا راجع لتعودهم "من الشباب على رؤية الدم يتدفق من الجراح بمشاهده المصارعين في الملاعب وهو تقليد ورثوه عن الشعب الطروسك"[4]، فكانت المجالدة التي تتم على مسارح روما وتجذب أكبر عدد من المشاهدين عبارة عن معارك دموية لا تنتهي إلا بموت أحد المقاتلين وسط هتافات وحماس وشغف الرومان. وأيا كان السبب في قيام روما فإنها كانت عظيمة بعظمة فردها الذي تربى تربية أخلاقية فاضلة جعلت منه مواطنا صالحا واثقا أنه ولد ليسود العالم.

[1] نقلا عن ميكيافيلي، مرجع سابق، ص 270.
[2] المرجع نفسه، ص 437.
[3] ديورانت، مرجع سابق، ص 135.
[4] مونتسيكيو: تأملات في تاريخ الرومان، تر: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2011، ص35.

ثالثا: أخلاق السقوط

القيم الرومانية التي كانت تحجم طبيعة الفرد الفاسدة، وتقزم الخطيئة الكامنة فيه لم تصمد طويلا، فمع تقادم الحضارة –وأي حضارة قديمة هي حضارة عظيمة بالضرورة وإلا لما بقيت على قيد القيام وأسقطتها حضارة أخرى– تضخمت عائدات الحرب وغنائمها، فصارت روما فاحشة الثراء فاستثمرت ذلك المال في إعلاء أسوارها وتدعيم جيشها بالأسلحة وإنعاش الزراعة، الصناعة والتجارة، وتنظيم أنظمة الري والصرف الصحي وتوزيع المياه العذبة والاهتمام بالنشاطات الثقافية والرياضية، وتخليد يوميات مواطنيها بالرسومات الفسيفسائية على جدران منازلها وشوارعها الفخمة، وإرسال بعثات علمية لليونان ومصر للاستزادة من معارفها، ومع هذا الترف والتثاقف مع الحضارات الأخرى بدأت التعاليم الأبيقورية تجد مناخا مناسبا للتعشيش والانتشار، فتحول المال بعدها من وسيلة للدفع بروما قدما إلى وسيلة لتخنيث الفرد وبالتالي تخنيث روما، صار الفرد يستخدمها لتلبية ملذاته الذاتية بعد أن كان يمنحها راضيا لوطنه، هنا وقفت روما أمام "الترف أشد الأعداء خطورة، ويقال أن الناس رأوا للمرة الأولى أسرة من نحاس وسجادا ثمينا"[1]، وسرعان ما انتشر البذخ الشخصي ليشمل الملابس المطرزة بأغلى أنواع الزمرد واللؤلؤ، والقصور التي كانت أرضها مصنوعة بـ"الرخام والفسيفساء، وأعمدتها المقامة من الرخام والمرمر والجزع المختلف الألوان، وجدرانها المزدانة بالصور الزاهية أو المطعمة بالحجارة الغالية الثمن، وسقفها المصفحة بالذهب، أو المغطاة بأنواع الزجاج السميك، ونضدها المصنوعة من خشب الليمون وأرجلها من العاج، وأرائكها المنقوشة بأصداف السلاحف أو العاج أو الفضة أو الذهب، والاستبرق الاسكندري أو الأغطية البابلية"[2]، بلغ البذخ مبلغا لم تشهده الامبراطورية من قبل .

الروماني الذي كان يعتبر الفقر ذو مكانة رفيعة يتباهى بها لما تعكسه من ثقة وقناعة صار ينفق مبالغ باهضة يوميا لإقامة الولائم وحشد كل وسائل الفجور وتوفير الملذات لطالبيها، استعملوا فيها العبيد بأعداد هائلة فيذكر ديورانت أن استخدام العبيد كان بشكل مفرط وصل لما يزيد عن أربعمئة عبد في البيت الواحد، وكلما كثرت الولائم والاحتفالات كثرت الحاجة للعبيد مما أدى لاستيرادهم فاتسعت رقعة هذه الطبقة في الدولة. لم يهتم القناصل والأباطرة بهذه الطبقة، بل لم يهتموا بالتغيرات الجذرية الطارئة على الفرد والمجتمع، وبات شغلهم الشاغل "أن تكثر الخليلات لمن أراد التمتع، (...)في كل مكان قصور فخمة وفي كل مكان يمكن للإنسان وحيثما شاء أن يلعب ويأكل ويستفيد من مكان يتقيأ فيه ما أكله، كما في بيت الدعارة، في كل مكان ضجيج الرقص، في كل مكان وعلى مسارح هتافات تتصاعد في أجواء الفرح والمرح والاستهتار

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص 151.

[2] ديورانت، مرجع سابق، ص 326.

الخلقي واللذة الشائنة، وكل من لا يرضى بهذا النمط من الحياة يعتبر عدوا للشعب، حتى إذا ما قام مواطن بتعكير صفو العيش تنبذه الجماعة عنها، دون أن تستمع إليه، فتطرده وتجعله خارجا عنها"[1]، البذخ كان له بالغ الأثر في تحويل الطبيعة البشرية من فرد زاهد في الحياة إلى فرد متشبث فيها، فما إن تذوق المواطن الروماني حلاوة المادة وملذاتها حتى فشل في أن يفارقها، تماما كالخطيئة التي تجذب النفس لشهوات الجسد حتى يسيطر عليها، فتنسى حينها حياة الزهد، كما نسي المواطن الروماني حياة الفخر حب روما ونشذ عظمتها.

كما شهدت روما ظهور وظيفة جديدة وهي مهنة "البغاء" التي وضع لها المشرع الروماني سجلا ينظم المسجلات فيه ويضمن عدم سجنهم بتهمة الزنا، كان عددهم ضخما "لم يكن أقل من نجوم السماء"[2]، دخلت المغنيات إلى المجتمع الروماني وأدخلت معهن كل أنواع المجون والفجور الذي صار جهارا نهارا أمام الملأ "فأصبح الناس يتنافسون على أكبر عدد منهن في احتفالاتهم ومآدبهم فكان المجون في والولائم والفجور في المسرحيات تكريما للآلهة، أي في احتفالاتهم الدينية واحتفالاتهم الشخصية مجون على السواء"[3]، لم يقتصر الأمر على البغايا، بل حتى اللواط أخذ نصيبه في الشرعية الاجتماعية لا القانونية، "كان مباحا بحكم العادة، واسع الانتشار لا يرى فيه مسبة ولا عار، أنظر إلى قول هوراس: "لقد أصاب قلبي سهم الحب"، فهل يعرف القارئ من الذي رمى الشاعر بهذا السهم؟ إنه "ليسيكوس الذي لا تضارعه أية امرأة في رقته"[4]. فإذا كان هذا حال الشعب فكيف هم الأباطرة؟ كيف استحال سنسيناتوس* مثال الفقر والشجاعة؟

يقول تاستس :"لم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحيوا حياة التقشف وكبح الشهوات في الوقت الذي كانت فيه الرذيلة تستهوي جميع طبقات الناس"[5]، وهذا ما نجده عند نيرون الذي "كان يتخفى ويزور المواخير، ويطوف بالشوارع، ويتردد على الحانات بالليل في صحبة أمثاله من رفاق السوء يسطون على

---

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص ص89-90.

[2] ديورانت، مرجع سابق، ص 315.

[3] المصدر السابق، ص 82.

[4] المرجع السابق، ص 316.

* سنسيناتوس: عندما كان مونوكيوس قنصلا،وكان الإيكيوي قد أحاطوا بجيشه من جميع أطرافه، ساد الفزع مدينة روما خشية على الجيش من أن يضيع، فلجأت إلى تعيين دكتاتور لها، وهو الاجراء الأخير الذي كانت تلجأ في أوقات الشدة، واسند المنصب إلى لوشيوس كوينتيوس سيسيناتوس، الذي عثر عليه عندما مضى الرسل لاستدعائه وهو يحرث أرضه بيديه في مزرعته الصغيرة التي لا تتجاوز مساحتها أربعة دونمات، والتي كانت حسبه تفي بحاجات الانسان الى موارد العيش، وكانت هذه الحالة من الفقر لا تزال تسود رومة في عهد ماركوس ريغولوس. إذ أنه عندما كان على رأس جيشه في افريقيا بعث إلى مجلس الشيوخ يطلب منه إجازة السماح له بالعودة إلى إيطاليا ليعتني بمزرعته التي كان العمال قد أهملوها، ننظر ميكيافيلي،مرجع سابق، ص 696.

[5] ديورانت، مرجع سابق، ص 28.

الحوانيت ويسيؤون إلى النساء، ويفسقون بالغلمان، ويجردون من يقابلون مما معهم، ويضربونهم ويقتلونهم"[1]، يرى منتسيكيو أن الانحطاط الأخلاقي الذي بلغته روما بدأ مع انتشار فلسفة أبيقور أواخر العهد الجمهوري، كانت هذه هي أخلاق أتباع أبيقور وهذا ما تعلمه عنهم الرومان شعبا وملوكا حتى أن روتين حياتهم بات معروفا، كأن يقضي الفرد "أيامه في النوم ولياليه في المرح واللهو، وكان الخمول شهوته وطريقه إلى الشهرة، وكان ينجز يحب اللذات والراحة المترفة ما ينجزه غيره بالقوة والجد، ولم يكن كغيره من الناس الذين يجهرون بأنهم يعرفون كيف تكون المتعة الإجتماعية، ثم يبددون في ذلك أموالهم، (...) فكان أبيقوريا"[2]، الخمول صار هو فضيلة الروماني الجديد بعد أن كانت البسالة والقتال حتى الموت أو النصر.

تغير حال الفرد الروماني وانساق وراء خطيئته يلبي طلباتها، بعد أن تغيرت المنظومة القيمية وصار الثراء الفاحش مفخرة والفقر ذلا، صارت الأسرة عبئا والغواني متنفسا بمرسوم جمهوري، صار المال الذي يجنى من مغانم ثورات روما ينفق لخدمة الخطيئة. أما الجندي الذي كان لا يعود من معركة وإلا وبلده منتصرا أو يعودوا بجثته، صار يحتمي خلف هياكل آلهة يقدم لها غانيات قربانا ليبعد عنه الخطر العسكري، حتى الآلهة التي كانت تسيطر على الشعب وتنظم الجيش وتحشد همم القادة، صارت محصورة في مسرح ترقص على ظلالها الغواني ويسكر على شرفها الحضور، وتزني خلف تماثيلها المتزوجات ويأتي الجنود الغلمان.

صارت روما غير روما، والمواطن الروماني غير المواطن الروماني، روما التي كانت تعتبر جيشها أهم عوامل صمودها وتوسعها، والحرب الدائمة أسلوب حياة، صارت تواجه عدوها بالاحتفال، يخبرنا شيشرون عن ذلك قائلا :"يوم كانت المدينة تعيش خطرها الداهم كان الاحتفال بالألعاب استمر عشرة أيام من دون إغفال أي شيء إرضاء وتهدئة لغضب الآلهة"[3]، هكذا كانت بداية النهاية كما وصفها أوغسطين في قول "الزني والدعارة والفجور وعبادة الأوثان والسحر والعداوة والشقاق والغيرة والغضب والدنس والخصام والتخرب والحسد والسكر والعربدة (...)والمخاصمات والعداوات والمنازعات والمشاقات والبدع والمحاسدات قبل أي شيء آخر"[4]، هذا حال الفرد الروماني عندما تغلبت عليه نزواته وتخارجت الخطيئة التي كان حب الوطن يلجمها، تغير حال الفرد عندها تغير حبه من حب الوطن إلى حب الذات. أي عندما انتصرت نزواته على عقله، فانتقل من مرحلة السعادة الروحانية إلى السعادة الشهوانية الجسدية، صار إنسانا يعيش حسب جسده وهي

[1] ديورانت، مرجع سابق، ص 129.
[2] المرجع نفسه، ص 128.
[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص 105.
[4] المصدر نفسه، ص ص 158-159.

صفة سكان مدينة الأرض التي تحمل في ذاتها بذور فنائها، وعليه فلن تصمد روما طويلا أمام هذا الانسان الجديد.

أفق أوغسطين السياسي لم يكن ضيقا على الاطلاق حتى يغفل مختلف الأسباب العسكرية، الاقتصادية، السياسية، بل أعطاها حجمها من الدراسة، فتكاتف هذه العوامل سرع من لحظة السقوط، لكنها لم تخلق اللحظة، فالسقوط متوقع منذ زمن بشر به "ترتليان حوالي عام 200، بما سماه ipsa claausula saeculi أي "نهاية العهد" معتقد أنه في أغلب الظن مقدمة لدمار العالم الوثني"[1]، الانسان هو من خلق اللحظة، فروما لم يسقطها القوط روما أسقطها شعبها، ولم يقضي عليها الكلت بل قضي عليها الانسان الروماني الغريزي، وحدة دراسة أوغسطين الحضارية.

مثلما طمع آدم في السلطة الأبدية ومن هناك بدأت بوادر مدينة الأرض الساقطة بالظهور، كذلك تحول الفرد الروماني الجديد إلى مواطن طامع في السلطة من أجله هو لا من أجل روما، يقوم بالانقلابات ويقود الحروب الداخلية، فسرعان ما يجلس على كرسي السلطة حتى يقتل من طرف مشروع حاكم مقتول هو الآخر. وكما قتل هابيل أخاه هابيل حسدا كذلك فعل ريموس بروميلوس، وكما أسس هابيل مدينته على القتل ودم الأخ، كذلك ريموس أسس إمبراطوريته على القتل والدم بقتل أخيه، وكما أن مدينة الأرض هي مدينة منتهية دون شك، كذلك ستنهي إمبراطورية روما مهما بلغت عظمتها. طالما أن الانسان عاجز عن التغلب على جسده ونزواته، وعلى الخطيئة التي لن تتغلب عليها سوى الأخلاق المسيحية.

رابعا– أخلاق القيام (البديل المسيحي)

عالج أوغسطين فكرة السقوط الأخلاقي للفرد الروماني، وفقا لمنهجه النسقي. فنجده يعود رأسا للسقوط الأخلاقي للإنسان الأول. فأخلاق الانسان الأول (آدم +حواء) تغيرت بتغير هدفها فعندما كان هدفها منحصرا في الرب كانت أخلاقها خالدة كصاحبها –الانسان الخالد–، إلى أن تغير هدفها واكتشفت ذلك الوجود الموازي للوجود الخالد، ذلك العرض المحاكي للجوهر الكامل، فسقطت فيه واجترحت منه صفاته وتلبستها، صارت أخلاق ناقصة، متغيرة، فانية، تحمل في ذاتها فسادا مخبوء بين نفس شهوانية وجسد ثائر، سرعان ما يتخارج مهما حاول الانسان تمثل الفضيلة، أو مهما توهم أنه فاضل، فالأمر خارج عن نطاق إرادته، فطالما أن الهدف بعيد عن الله فسيسقط الانسان لا محالة. ومهما كان الهدف في ظاهره فاضلا كحب الوطن مثلا، فهو لن يصمد طويلا والخطيئة تتربص به في كل لحظة من لحظات وجوده وإن فسد

[1] ويل ديورانت، مرجع سابق، ص 404.

الانسان فسد المجتمع وفسدت الدولة، مهما طال عمرها، فهي تحتوي داخلها بذور فنائها، والحالة الوحيدة التي تكون فيها الدولة خالدة هي العودة بالإنسان إلى حالته الأولى وهو الانتقال من الأخلاق الأفقية – الاخلاق التي يحكمها البشر– إلى الأخلاق العمودية. الأخلاق التي يحكمها حب الله ونبذ الشهوات، وهي وحدها الأخلاق الخالدة التي تضمن دولة خالدة وتتحقق فيها سعادة الفرد.

السعادة عند أوغسطين مرت في تعريفها بمراحل عدة يستطيع المتتبع لمسار حياته أن يستنتجها، ففلسفته الحسية هي أوغسطين عندما كان مولعا بالشهوات، وفلسفته العقلية هي أوغسطين عندما كان شكيا، والصوفية هي أوغسطين عندما رسى على شاطئ النجاة واهتدى إلى المسيحية، لم تتجسد فلسفة في هيأة شخص مثلما حدث مع صاحبنا، كذلك السعادة إذ مرت في تشكل مفهومها بمراحل هي عينها مراحل حياته.

أ– السعادة الحسية: هي اللذة التي يخبرها الانسان من جراء تحقيق رغبته تجاه "جزء ما" في هذا "الوجود"، هذا ما نستشفه من قول أوغسطين واصفا فعل السرقة الذي كان يقوم به مع رفاقه "لقد كانت ثمار الإجاص التي اعتدنا سرقتها جميلة بالله. لأنها جزء من خليقته"[1]، فالإنسان الناقص يستمتع بالجمال الناقص وفق إرادة حرة اختارت الجزء دون الكل، فكيف للجزء أن يحقق السعادة؟

عمليا فان السعادة الحسية تتحقق لكن بصورة آنية سرعان ما تزول، وبزوالها يحل الألم، فالإنسان لا يتماهى معها بقدر ما تستمتع حواسه بها كل على حدى أو كلها معا، عرفها أوغسطين بقوله :"من الثابت أن السعادة تقوم على امتلاك كل ما يبتغيه الانسان"[2]، وما يبغيه الانسان هنا هو تحقيق منافعه الذاتية ومسايرة الجسد بين سكر وعربدة، وزنا وسرقة وكل ما يدخل في حقل الخطيئة أو كما يحلو للبعض تسميتها برغبات الجسد المشروعة، –شرعتها البيولوجيا–، كما يسود فيها ما يسميها الفيلسوف بأمراض النفس من طمع وحسد وغيرة وكبرياء وحقد وغش وبخل ومؤامرات وخيانة وفساد وهي صفات كفيلة بالإطاحة بأي مجتمع، أليست هي التي أطاحت بالمجتمع السماوي؟ يشبه أوغسطين أصحابها بالملاحين الذي "خدعهم مظهر البحر فآثروا خوض غماره وسافروا بعيدا عن وطنهم فنسوه، وإذا ما استمرت الرياح المواتية لهم، بشكل يمكن تعيينه، انطلقوا مزهويين، فرحين، يستمتعون بلا انقطاع، بصفو اللذات، والأمجاد الكاذبة، ويندفعون في سفرهم فوق لجج عميقة من التعاسة والشقاء"[3]، ونهاية هذه الرحلة البحرية غير معروفة قد تكون بتحطيم السفينة والغرق

[1] أوغسطينوس: الاعترافات، مصدر سابق، ص 31.
[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص 219.
[3] أوغسطينوس: في الحياة السعيدة، مصدر سابق، ص 90.

من جراء الاصطدام بصخور الشهوة التي منّتهم بمجد زائل وحياة سعيدة وهمية، كما وقد تكون نهايتهم بالعودة إلى الديار أي إلى أخلاقهم الأصلية الفاضلة؛ أخلاق الانسان الأول.

ب– السعادة العقلية: هي تلك المرحلة التي تنقل فيها صاحبنا بين أكاديمية وأفلاطونية محدثة. إنها المرحلة التي ظن أنه وصل فيها إلى الحقيقة بعقله الذي خلصه من معاناته الشكية، إنها اللحظة التي تجاوز فيها فكرة الجزء وتوصل للقول بالكامل الذي تحقق منه استدلاليا لكنه عجز عن الوصول لحقيقة طبيعته وصفاته، ومع ذلك فإن القول بوجود الكمال ومحاولة التماهي معه هي راحة نشدها صاحبنا كثيرا هو والملاحين الذين تاهوا في البحر حتى "خرجوا مما هم فيه، بمعين ولو بسيط، كهبوب عاصفة شديدة تضادهم، وتعيدهم، باكين شاكين إلى الأفراح الثابتة والأكيدة"[1]، إنه العقل الذي أدرك أن السعادة ليست في الجسد على الرغم من أنه لم ينكر رغباته شرط أن يبقى سيدا عليها، عارفا ومميزا بين السعادات الآنية والكاملة، بعد أن توصل عقله للفرش لمدركات كلية وثابتة جعل صاحبنا من الوصول إليها وتحقيقها في الواقع عين السعادة من خلال قانون أخلاقي "والمبدأ الأساسي للقانون الخلقي هو إخضاع الحواس للعقل"[2]، وعلى هذا فالعقل وحده القادر على التمييز بين الفضائل والرذائل ومعرفة الخير الأسمى هذا الأخير الذي "ترتبط به كل أفعالنا وإليه نسعى، حتى إذا حصلنا عليه سعدنا، ولن نعود بحاجة إلى شيء، وهو الهدف المنشود، وفي سبيله نعمل جاهدين، دون سواه، على أن الخير أصل كل سعادة"[3]، هو الهدف التي تكون السعادات الآنية مجرد وسائل للوصول إليه لا غايات نعيش لتحقيقها، السعادة العقلية التي ربطها أوغسطين بالمفاهيم الكلية المجردة، ربطها بوجود الكامل الذي بقى في ذهنه كماهية لا تفاصيل فيها، بحث عنها ولم يجد في العقل إجابات، لكنها كانت نقطة الانطلاق في البحث، فهو تعقل ثم آمن، ولم يؤمن ثم تعقل، عقله هو وحده الذي أوصله للإيمان.

سرعان ما تجاوز أوغسطين هذه المرحلة بتجاوزه للمدرسة الشكلية، فالعقل عند الشكاك لا مفاهيم له، بل هم في بحث دائم عنها وعن الحقيقة التي تليها، هم لا يملكون إذن ما يرودونه –الحقيقة– وما توصل إليه أوغسطين ورفاقه* "أن الانسان الذي ليس له ما يريد لا يكون سعيدا، (...) فصحيح أيضا أن لا أحد يبحث عما لا يريد أن يجده، وإن كان الأكاديميون يبحثون دوما عن الحقيقة فهذا يعني أنهم يريدون أن

[1] أوغسطينوس: في الحياة السعيدة، ، ص90.

[2] محمد عويضة كامل محمد: أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص 61.

[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص 377.

* جمع أوغسطين في بادرة جديدة من نوعها، لم تكن معروفة من قبل. جمع رفاقه في منتج به حمامات على نفقته الخاصة للاحتفال بعيد ميلاده الثاني والثلاثين الموافق ل الثالث عشر من شهر نوفمبر لعام 386 م وقدم لهم أكلا وحلويات وأمن لهم مبيتا، وتخلل هذا الاحتفال مناقشة أفكار فلسفية وكان موضوع هذا اللقاء محاولة لضبط مفهوم السعادة، وتكلل اللقاء بإجابات مختلفة تدور حول ناظم واحد وهو "الله" جمعها صاحبنا في كتاب عنونه ب "في الحياة السعيدة. ننظر أوغسطينوس: في الحياة السعيدة، مصدر سابق، مقدمة.

يجدوها، على أنهم لا يجدونها. فينتج عن ذلك أن ليس لهم ما يريدون وتاليا، هم ليسوا سعداء"[1]، فلا يختلف إثنان على أن الانسان إن أراد أمرا ولم يحققه فلن يكون سعيدا فما بالك لمن هو مدرك أن ما يريده لن يتحقق أبدا، فهو يعيش في توتر دائم عنوانه "مالحقيقة؟" صحيح أن الشكاك وصلوا لحقيقة أن لا حقيقة لكن هذا لا يمنع أنهم ينشدونها ويريدونها وإلا لما بحثوا عنها ووصلوا لعبثية البحث عنها.

ج– السعادة المسيحية: لم تنته رحلة أوغسطين في البحث عن الحقيقة، كيف يتوقف وهو لم يصل إليها بعد، فالإجابات التي قدمها له العقل لم تكن كافية مثلا: ما هو الخير الأسمى؟ وكيف نصل إليه؟ ما هو هذا الكامل؟ كيف نسعد به؟ هنا انتقل صاحبنا للمرحلة الأخيرة التي وصل فيها أخيرا إلى بر الأمان، إلى الأرض الصلبة التي لن تزعزعهما أسئلة أو شك فكل الإجابات موجودة وكل الإجابات مقنعة، إنها السعادة متحققة فما هي مظاهرها؟

يرى الرجل أن الانسان السعيد هو الذي يملك ما يريده، وتختلف الأمور التي يريدها الانسان من شخص إلى آخر فهناك المتعلق بالعالم وملذاته وله منها ما شاء ويريد، فهل نقول إذن أن سعادته تحققت؟ جواب أوغسطين كان التالي:" هل تعتبر أن الانسان الذي يعيش في الخوف سعيد؟ –كلا– وعليه إن كان ما نحبه عرضة للفقدان. فهل نقدر ألا نخاف؟ –كلا– إذا فالخيور المرتبطة بالحظ تتعرض للفقدان، وكل ما يحبها ويمتلكها لا يستطيع أن يكون سعيدا في أي حال من الأحوال"[2]، هو قانون أزلي يخضع له كل من كان تحت سلطة الزمان والمكان، يتغير وينقص ويفنى، وبالتالي فإن أي سعادة ترتبط به هي سعادة آنية منتهية بالضرورة يتبعها ألم، ألم الفقد.

يصل الانسان أخيرا إلى السعادة الحقة فيريد ما هو دائم لا يفنى ولا يزول، وأن يسعى للكامل ويبتعد عن الناقص "وعلى هذا النحو فالله وحده جدير بأن يعبده الانسان، وهو وحده يستطيع أن يجعله سعيدا"[3]، فالله هو الوجود الذي لا يطرأه نقص أو تغيير، هو الذي إن أردناه ضمّنا أنه لن ينفد، هو الذي إن اقتربنا منه لن ينقص، هو الذي إن احتفظنا به لن نخاف، بل هو الأمان الذي يعدم الفقد، وهنا يصل لتعريف صريح عن السعادة يقول :"والنتيجة هي أن السعادة تكمن في أن يكون الله لنا"[4]، فكيف يكون الله لنا؟

[1] أوغسطينوس: في الحياة السعيدة، مصدر سابق، ص102.
[2] المصدر نفسه، ص 100.
[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 1، مصدر سابق، ص 219.
[4] المصدر السابق، ص 100.

أجاب الجمع إجابات مختلفة قال ليشنسيوس* "من يملك الله هو من يعيش عيشة حسنة"[1] ويضيف تريخنسيوس قائلا: "... يملك الله كل ما يريده الله أن يعمل". قبل لاستيديانس بذلك الجواب، بيد أن ابني، وهو أن أصغرهم جميعا قال: "... يملك الله هو من كان نقي الفكر (...) وصادقت أمي على كل تلك الأجوبة، وبخاصة على هذا الجواب الأخير"[2]. لنا أن نتخيل المواطن الذي يملك الله. المواطن النقي. النقي من الدنس والشرور من المعاصي ونزوات الحياة الفانية، فالحسد نزوة والجسم نزوة والطمع والمؤامرة والحقد والقتل نزوات يحب أن يتنقى منها الانسان بالعودة إلى الأصل؛ وهو حب الله تمكننا الديانة إعادة صنع إنسان جديد أو بالأحرى تمكننا من بعث الانسان الأول أخلاق بديلة.

حاولت الديانة المسيحية صنع إنسان جديد، أو بالأحرى حاولت إعادة بعث الانسان الأول من جديد بتمكين أخلاق بديلة تقوم على مبدأ التربية أي تربية مواطن صالح يضمن تشكيل دولة من طرازه، خالية من الخيانات والشقاقات، خالية من الحروب والنزاعات، خالية من الظلم والاستغلال خالية من الطمع والبخل، خالية من الغش والفساد، خالية من الحسد الذي تسبب في كل ذلك. بمواطنها المسيحي الصالح الذي امتلأت روحه بالله فنفر من الأخلاق المادية التي تحرض معتنقها على الإطاحة بنفسه ومجتمعه وحضارته، فالمجتمع البديل هو المجتمع المسيحي الصالح الدائم، هو الذي استطاع مواطنوه أن يعدموا بذرة الخطيئة فيهم من خلال الحب، تخلص مواطنوه من الفساد الكامن فيهم عن طريق ملأ الروح بالله وإخضاع العقل لها فالعقل هو العنصر الأساسي للوصول إلى هذا المستوى من السلام الداخلي، يقول: "أما وقد ألقينا مرساتنا على جوانب الأرض الصلبة للحياة السعيدة، بفضل العقل والإرادة"[3]، إنها الحياة السعيدة التي يسعد بها الفرد أولا والمجتمع، إنها الحياة التي تبني فيها دولة لا تزول. دولة لا يسعى مواطنوها للسلطة إلا إن كان فيها خدمة للشعب لا المصلحة الذاتية للفرد، لأن النزوات تم السيطرة عليها وتقنينها، هنا فقط يمكن القول أنه تم بعث الانسان الأول صانع الحضارة.

* لشيسنيوس، تريجينسيوس، لاستيديانس هم مسيحيون ورفاق أوغسطين الذين دعاهم لحفل ميلاده، جمع أوغسطين الحوار الذي جرى بينهم في كتابه "في الحياة السعيدة".

[2] المصدر نفسه، ص 101.

[3] المصدر نفسه، ص89.

المبحث الثاني : من دولة المجد إلى مدينة الرب

مسافرون نحن على هذه الأرض مقر منفانا، بعد مأزق روحاني-أنطولوجي أوقعتنا فيه الإرادة الحرة للإنسان الأول (آدم-حواء)، لم نشف بعد منه حتى فسدت أرواحنا مجددا وتوسعت الهوة أكثر مع أجسادنا، وشرّعت لتمردها بتاريخ: لحظه السقطة الثانية التي تورط فيها الإنسان؛ لحظه الانعطاف الكلي التي ظن(آدم-حواء) أنه نجى منها بتوبته وعاد إلى الطبيعة الأصل-الأولى، لكن الإرادة الحرة خيبت ظنه وهوت مجددا، واختارت طبيعته التي أكلت من الشجرة لتكون هي طبيعة الأرض، فكان الدخول التاريخي للإنسان إليها دخولا إجراميا بلحظة "القتل"؛ قتل الخير المطلق، إنها اللحظة الفعلية التي تمركز فيها الشر على الأرض، وصار جزءا منها، قسم البشرية إلى قسمين: قسم شرير وقسم صالح، قسم خضع له وقسم انتصر عليه، قسم سيطر على الجسد وقسم خضع له، قسم عادت فيه الإرادة الحرة إلى الأصل، وقسم خلقت فيه الإرادة الحرة لنفسها أصلا جديدا.

مسافرون نحن على هذه الأرض المنفى ولا أحد يعلم حقيقة الآخر، ولا إلى أي قسم ينتمي أهو الخيّر أم أن إرادته أسقطته، لا أحد يستطيع أن يحكم على الآخر ولا يحق له فعل ذلك، إذا كان أوغسطين رجل الدين المسيحي، يقر بوجود رجال فاسدين يلبسون زي القساوسه، ويسكنون الكنائس ويلقون المواعظ ويرتلون المزامير، لهذا رفض أوغسطين أن يكون المظهر أو الأفعال أو حتى الأقوال مصدر حكم على الأفراد، حقيقتنا في دواخلنا ودواخلنا جواهر لا يعلمها إلا الله، نعيش على اختلافنا معا في جماعات تحكمها قوانين وضعية في إطار دولة واحدة نعيشها وأخرى نطمح لها.

أولا: الدولة

تناول أوغسطين هذه التجمعات من مناظير مختلفة كان المنظر السياسي أحدها في كتابه مدينه الله، والذي تمعن في تحليله حتى يلم بحيثيات السقوط الحضاري لروما، فيكون بذلك قد أسس لفلسفة سياسية متكاملة الأطراف*، هنا نطرح التساؤل التالي: فيم تتمثل فلسفة القديس أوغسطين السياسية؟.

* لم يفرد أوغسطين لها كتابا مستقلا بل نجدها موزعه بشكل متفرق في مدينه الله، ودارس الفكر السياسي الاوغسطيني يجب أن يطلع على كل المجلدات حتى تتضح له الصورة، يعود سبب الشتات السياسي عند الفيلسوف ربما لانه لم يكن هو المقصود من الدراسه وعلى الرغم من هذا الشتات الان أنه ألمّ بكل جوانب السياسه بإتقان، كما نجد له دراسه في كتابه ضد الدوناتيه وفيه عالج علاقه الدين بالفلسفه.

أ. المجتمع والعدالة

العودة بالعقل إلى تشكل أولى المجموعات البشرية على هذه الأرض في العصور السابقة للتاريخ ليست بالإشكالية المغلقة لدى رجال الدين عموما بما فيهم رجال الدين المسيحيين، ذلك أن الكتب المقدسة تكفلت بقص ما حدث حينها بالتفصيل فالسؤال حول كيف تشكل المجتمع سؤال نجد في الكتاب المقدس واجتهادات الفلاسفة إجابات صريحة عنه، فبعد أن طرد آدم–حواء من المجتمع الملائكي الذي تربطه محبة الله لحد امتهان الذات، تحكمه السلطة الالهية صارمة القوانين في انسجام تام، فحدث أن عكر (آدم–حواء) هذا الانسجام والتوافق في المجتمع فكان الرد الإلهي صارما: النفي إلى الأرض.

عندما استقر آدم وزوجه على الأرض كان الجسد قد كشف عن رغباته هو الآخر، حينها "عرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين وقالت: "اقتنيت رجلا من عند الرب" ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا في الأرض"[1]، شكل آدم وحواء أسرة مكونه من الأب رب الأسرة (آدم)، الأم(حواء)، والأبناء(هابيل، قايين)، وهذا هو المستوى الأول من مستويات المجتمع البشري حسب أوغسطينوس، يقول"البيت أولا"[2] والشروط المتضمنه للمجتمع السماوي هي عينها شروط الأسرة أو البيت لكن داخل إطار زماني ومكاني، إذ السيادة، الانسجام والتناغم أهم شروط قيام الأسرة واستمراريتها، ولا يتحقق هذا الانسجام إلا بخضوع جميع أفراد البيت لسلطة شخص واحد وهو رب الأسرة والمتمثل في آدم، الذي ساد على حواء ويسود على أبنائه، هذا التناغم الجديد الذي فرضته الخطيئة على الأرض وسكانها، إضافة لانخراط الجميع في الحياة الاجتماعية والتشارك في المصالح وتبادل المنافع بين الأبناء بمهنهم المختلفة، المتكاملة، المتناسقة والمتحدة.

بعد مقتل هابيل انقسمت الوحدة وحلت الفوضى محل الانسجام، إذ انفصلت الأسرة ونُفي قابيل إلى مكان بعيد عن مكان آدم، فشكّل أسرة جديدة مستقله بعد أن " 17عَرَفَ قَايِينُ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ حَنُوكَ. وَكَانَ يَبْنِي مَدِينَةً، فَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ كَاسْمِ ابْنِهِ حَنُوكَ 18.وَوُلِدَ لِحَنُوكَ عِيرَادُ. وَعِيرَادُ وَلَدَ مَحُويَائِيلَ .وَمَحُويَائِيلُ وَلَدَ مَتُوشَائِيلَ. وَمَتُوشَائِيلُ وَلَدَ لاَمَكَ. 19وَاتَّخَذَ لاَمَكُ لِنَفْسِهِ امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ الْوَاحِدَةِ عَادَةُ، وَاسْمُ الأخرى صِلَّةُ. 20 فَوَلَدَتْ عَادَةُ يَابَالَ الَّذِي كَانَ أَبًا لِسَاكِنِي الْخِيَامِ وَرُعَاةِ الْمَوَاشِي. 21وَاسْمُ أَخِيهِ يُوبَالُ الَّذِي كَانَ أَبًا لِكُلِّ ضَارِبٍ بِالْعُودِ وَالْمِزْمَارِ. 22وَصِلَّةُ أَيْضًا وَلَدَتْ تُوبَالَ قَايِينَ الضَّارِبَ كُلَّ آلَةٍ مِنْ نُحَاسٍ وَحَدِيدٍ"[3]، وفي المقابل " 25 وَعَرَفَ آدَمُ امْرَأَتَهُ أَيْضًا، فَوَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ شِيثًا، قَائِلَةً: «لأَنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ لِي نَسْلًا آخَرَ عِوَضًا عَنْ

[1] سفر التكوين، الاصحاح (4: 1-2).

[2] أوغسطينوس: مدينه الله، مج3، مصدر سابق، ص 124.

[3] سفر التكوين، الاصحاح (4: 17-22).

هَابِيلَ». لأَنَّ قَايِينَ كَانَ قَدْ قَتَلَهُ. 26وَلِشِيثَ أَيْضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ"[1]، يخبرنا الكتاب المقدس أن عدد الأسر والبيوت زاد بشكل كبير، وهذا ما قصده أوغسطين في حديثه عن المستوى الثاني من المجتمع البشري الذي أسماه "مدينة" شرط أن تتوفر فيه الشروط التي تحددت في التوراة سلفا والمتمثلة في التجمع في مكان واحد وفق نظام واحد ومصالح مشتركة، وخصائص تميزها عن غيرها، كان يجتمع سكان الخيام ورعاة المواشي على حب الخيام والمواشي في مكان واحد، بعيدا عن السكان الضاربين للنحاس والحديد المجتمعين على حب هذا النمط من الحياة، والإثنان بعيدان عن السكان العازفين للعود والمزمار المجتمعين على الرقي، كما ويشترط أن يكون لكل مجتمع زعيم أو رئيس ينظمه ما أسماه الكتاب المقدس بـ"الأب" أو الوصي أو المنظم، فهو يابال عند المجتمع الزراعي، توبال عند المجتمع الصناعي، وبهذا تشكلت مجموعات مختلفة ومتنوعة.

يعرف أوغسطينوس المجتمع بقوله :"جماعة عديدة تستند على حق معترف به وعلى مصالح مشتركة"[2]، وبقوله في موضع آخر :"ليس جمعا طارئا أو وليد الصدفة بل جماعة تقوم على احترام الحق والمصلحة المشتركة"[3]، الشروط المؤلفة للمجتمع البشري في درجته الثانية هي التي تجعل من وجود المدينة ممكنة وإلا فإنها ستنهار مع أول منعطف يصادفها، لأن التناسق الذي جعله أوغسطين أهم شروط فلسفته ككل لم يتحقق، فتستحيل إلى جماعة عادية ستتفرق لا محالة، يضيف أوغسطين شرطا آخر يراه أساسيا لتسمية جماعة ما بالمجتمع أو الشعب والمتمثل في شرط "اللغة" يقول: "اختلاف الألسنة يجعل الإنسان فيه غريبا عن الإنسان، وفي الواقع أن اثنان يجهل أحدهما الآخر(...)، ينتج مجتمعا من حيوانات خرساء ومن أجناس مختلفة، لأن ذلك الحاجز بسبب تباين اللغات يجعل من تبادل الأفكار فيما بينهما مستحيلا، فيبقى التجانس في الطبيعة عاجزا عن الربط فيما بينهما كبشر، ويبدوا أن الإنسان هو أكثر إنسجاما مع كلبه منه مع الإنسان الغريب"[4]، يقصد أوغسطين هنا بضرورة تطبيق مبدأ التواصل بين الأفراد لتعمق روابط المحبة بين بعضها البعض، وإيجاد مواضيع مشتركة يسهل تبادلها، فالتواصل هو أهم عامل لتماسك الأفراد وتنظيم السلوكات، من خلال تبادل المنافع والأفكار وأسلوب العيش، فالتواصل هو آلية المجتمع لبناء أساس تشاركي صلب بين الافراد، ويكون ذلك من خلال اللغة المشتركة، والتي تكون على مستويين؛ المستوى الأول: لغة الأفراد الأصلية، والمستوى الثاني: لغة المجتمع المسيطر لأن المجتمع الخاضع مولع بتقليد المجتمع الغالب، وكنتيجة فاللغة السائدة هي لغة المجتمع القوي المسيطر.

[1] سفر التكوين، الاصحاح (4: 25-26).
[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص15.
[3] المصدر نفسه، مج1، ص91.
[4] المصدر نفسه، ص ص124-125.

ينتقل أوغسطين إلى المستوى الثالث من المجتمع البشري، وهو الذي يضم جملة المجتمعات البشرية المتفرقة على الأرض، إنه المجتمع الكبير الذي يتألف من كل ما حملته الأرض من مجتمعات وما ستحمله إنه الكون، أما المجتمع الرابع فهو "مجتمع الملائكة القديسين"، إنه المجتمع المثالي الذي نطمح له، حيث السلام الأبدي والحب الخالص والأخلاق الكاملة، المجتمع الذي يضم سكان مدينة الله، المجتمعين على حب الله، والذي لن يتحقق في التاريخ إلا بمجيء السيد المسيح في نهاية العالم ويترأسه.

لطالما كان الحب هو الجامع بين أفراد المجتمع الواحد، حب نمط حياة ما والنفور من باقي الأنماط التي تحبها المجتمعات الأخرى، وعليه فالمجتمع أو الشعب هو "مجموع الناس الذين يعيشون في مدينة ما، إنه تجمع وتشارك عدد من الكائنات العاقلة، مجتمعين بفعل إرادة ورغبة في امتلاك مشترك لما يحبون"[1]، وكلما كان الأفراد متمسكين بما يحبون كلما تماسك مجتمعهم والعكس. ويمكن أن نعرف المجتمع المتماسك بسهولة وهو ذاك المجتمع الذي يجتمع على حب خالص بعيدا عن الماديات والآنيات والمتغيرات وكل ما فيه نقص، إنه الحب المفارق لكل ناقص؛ حب الله، الذي يجعل مواطنيه بعيدون كل البعد عن التنافس على السلطة، هذا لا يعني أنهم ينبذونها بل ليست مركز تفكيرهم، المتركز أساسا على حب الله والتمسك بفضائله.

جعل القديس أوغسطين للمجتمع ناظما وعمدة يميزه عن أي تجمع بشري آخر ويعرف به، المتمثل في مقولة "العدالة"، وهنا يظهر تأثره بأفلاطون والذي ضبط على أساس جمهوريته مفهومه للعدالة بقوله "العدالة هي إعطاء كل ذي حق حقه"[2]، ويعرفها أوغسطين بقوله: "العدالة هي هذه الفضيلة التي تعطي كل واحد حقه"[3]، واعتبر العدالة هي الحق المشترك الذي ضبط به مفهوم المجتمع، بل لا يقوم مجتمع إلا به، يقول :"الدولة لا يمكن أن تكون بلا عدالة، ومن ثم، حيث لا عدالة صحيحة لا يمكن للحق أن يكون، لأن ما يعمل بحق، يعمل بعدل، وما يعمل بلا عدالة لا يعمل بحق (...)، وعليه حيث لا عدالة حقيقية لا مشاكل بين الناس في حق معترف به، وانطلاقا من ذلك لا شعب"[4]، إذا انتفت العدالة حل محلها الظلم، ومصدره الإنسان الأرضي الذي لا يزال أسير خطيئته، لأن العلاقة القائمة بين العدل والظلم لا تخرج عن إطار التوافق بين قوى الإنسان الخيّرة والشريرة، بمعنى أنها تخرج عن إطار "علاقة الإنسان بالله، فالعدالة داخل الفرد بين قوتي الخير والشر لن تتحقق بتلبية مطالب

[1] علي زيعور: أوغسطينوس، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1983، ص228.
[2] أفلاطون: الجمهورية، تر: حنا الخباز، دار القلم، لبنان، ط6، 2000، ص 16.
[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص151.
[4] المصدر نفسه، ص ص151-152.

النفس خاصة الشهوانية منها، بل ستحقق في حالة الصلة الطيبة بين الإنسان والله، أي أن العدالة الإنسانية أساسها العودة إلى الله و الالتزام بكل جوانب العقيدة الدينية إذ إن جوهر العدالة يكمن في العلاقة بين المرء والرب و تنبثق عنها بالتأكيد العلاقات السليمة بين الإنسان و الإنسان "[1]، هذا إذا ما أراد الإنسان أن يعيش حياة سوية متناغمة فطريقها واضح، يكون بإحياء تعاليم السيد المسيح التي ستحيي بالضرورة علاقتنا بالآخر وتوطدها، مادامت علاقات قائمة على المحبة الخالصة لا غيرة فيها ولا حسد، وهي الصفات القاتلة التي متى ما حلت في الانسان دمرت إنسانيته، أليست هي الصفات التي جعلت إبليس يتمرد وآدم ينفى إلى الأرض.

التناغم مقولة وظّفها أوغسطين في فكره بشكل مركّز، نجدها في كل مبحث من مباحث فلسفته، ويقصد بها هنا في الجانب السياسي محاولة خلق التوازن بين قوى النفس، التي تخضع جميعها لأوامر الرب، فتخمد النفس الشهوانية وتحكم النفس العاقلة، هنا فقط يضيء السيد المسيح في داخل الفرد ويشرق فيكون الإنسان عادلا، أو يقتبسها من الكتاب المقدس التي تحدد تعاليمه قيمة العدالة وتحث عليها، أما إن تغلبت النفس الشهوانية يخبو السيد المسيح في القلوب وتنتصر الخطيئة الكامنة فيها فيستحيل إنسانا ظالما.

الظلم في تعريفه هو تحطيم تدريجي للمجتمع، فكلما سادت الشهوة على الإنسان سادت على المجتمع واستحال مجتمعا شهوانيا، فتسود طبقة على حساب طبقة أخرى كما تسود النفس الشهوانية على النفس العاقلة، حينها لا يأخذ كل ذي حق حقه، بل ينتزع منه انتزاعا، ويصير ذاك الانتزاع حقا، يقول أوغسطين متأثرا بشيبون :"الظلم استعباد إنسان لإنسان آخر، وهو ظلم تقوم به مدينة مستبدة، واسعة النطاق، إن أرادت السيطرة على مقاطعاتها ويكون الجواب باسم العدالة أن ذلك حق، لأن الاستعباد مفيد للناس المستعبدين"[2]، فبعد أن ينهار التوافق تتغير منظومة القيم ويستمد الظلم مشروعيته ومكانته ضمن المجتمع الجديد.

يأخذ الظلم في هذه المرحلة مسميات عدة كالفتوحات والتوسعات وتنشأ على أساسها مملكات وإمبراطوريات، يقول في حقهم أوغسطين :"هم جماعة من البشر تأتمر بأمر إنسان واحد وتعترف بعهد إجتماعي ينظم تقاسم المغانم فيما بينها فكبرت واحتلت بلادا، وأقامت لها مراكز هامة، واتخذت مدنا وأخضعت شعوبا، تتخذ علنا آنذاك لقب مملكة لا يضمن لها الزهد بل عدم العقاب"[3]، وهو عينه ما أكده الحوار الذي دار بين الاسكندر الأكبر والقرصان على لسان أوغسطين :"بماذا تفكر أنت؟ بما أن مركبي سريع العطب سموني قرصانا

[1] مصطفى النشار: تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون، الدار المصرية السعودية، القاهرة، دط، 1982، ص 129.

[2] نقلا عن أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص152.

[3] المصدر نفسه، مج2، ص173.

وأنت بما أن لك أسطولا عظيما سموك فاتحا"[1]، هذه هي العدالة السياسية مهما حاولت الدولة أن تخفيها بشعار السلام والمحبة والحوار، عدالة باطنها هو الظلم، ومهما حاولنا البحث في التاريخ فإننا لن نجد إمبراطورية قامت على العدل، لأن مفهوم العدل السياسي هو عينه الظلم، ثم تحاول تلك الامبراطورية جاهدة في مرحلة تطورها أن تعود للعدالة الحقة لعل حضارتها تستمر، لكنها ستفشل لا محالة لأن الإنسان مصدر عدالتها، والإنسان بما هو كائن ناقص يحمل في ذاته بذور الخطيئة والفساد وبالتالي فإن عدالته مثله ناقصة فاسدة.

العدالة الكاملة الضامن الوحيد لاستمرار الحضارات وازدهارها، مصدرها من اسمها مصدرها الكامل؛ مصدرها "الله"، هي عدالة الدين المسيحي "ما من دولة بعد ظهور المسيحية تستطيع أن ترتقي إلى مرتبة الدولة إذا لم تكن هي نفسها مسيحية، وإنه لا يتسنى قط لحكومة لا تكون على صلة بالكنيسة أن تكون عادلة، وهكذا اقترن طابع الدولة المسيحية بقدرتها على أقامة العدالة وإحقاق الحق"[2]، إنها العدالة المتحققة في المدينة السماوية، ومع ذلك لم ينفي القديس وجود عدالة على الاطلاق، بمعنى عدالة غير مسيحية، لكنه اعتبرها عدالة آنية لا تكفي الدولة لتستمر، ولا تضمن بقاءها، عدالة تستحق الثناء والتشجيع، حتى أن السيد المسيح يجازي الشعوب غير المسيحية على عدلهم، كالوثنية الرومانية مثلا :" ألم يكرمهم عدد كبير من الأمم؟ ألم يخضعوا لهم عددا كبيرا من الشعوب؟ ألم يكرس المجد أسماءهم في كتب تاريخ العالم؟ وهل لهم أن يشكوا عدل الإله الحق؟ ألم ينالوا جزاءهم؟"[3] ، شعب كان العدل فضيلتهم الأصلية، شعب استحق العالمية، وحضارة استحقت أن تكون روما.

ب. **تعريف الدولة**

ينطلق أوغسطين في تعريفه للدولة من المعطيات التي فرشها في بحثه حين عرّف الشعب والمجتمع، وبعد أن وصل إلى أن الشعب لا يكون شعبا إلا إذا حكمته العدالة، هنا تظهر الدولة؛ هي شعب مضاف إليه عدالة، دولة = شعب + عدالة، وذلك لأنه حددها على أنه "جماعة عديدة تستند على حق معترف به وعلى مصالح مشتركة، أما ما يعنيه بحق معترف به، هذا ما يشرحه شيبون عندما يبين أن الدولة لا يمكن أن تساس بلا عدالة، ومن حيث لا عدالة صحيحة لا يمكن للحق أن يكون، لأن ما يعمل بحق يعمل بعدل، وما يعمل بلا عدالة لا يعمل بحق (...)، وعليه حيث لا عدالة حقيقية لا مشاركة بين الناس في حق معترف به، وانطلاقا من ذلك لا شعب، استنادا إلى تحديد شيبون أو شيشرون ، وإن لم يكن هناك شعب فلا شيئ يسمى دولة"[4]، ويعرفها في

[1] عن أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص173.
[2] المصدر نفسه، مج1، ص174.
[3] المصدر نفسه، ص250.
[4] المصدر نفسه، مج3، ص ص151-152.

موضع آخر بقوله :"الدولة هي مجموعة عاقلة تتوحد حول تملك مشترك وهادىء لما تحب، وأراد إنسان أن يعرف شعب ما، عليه بكل تأكيد أن يتأمل في ما يحب، ولكن؛ أيا يكن موضوع حبه واجتمعت مخلوقات عاقلة دون حيوانات، وارتبطت فيما بينها في تملك مشترك وهادىء لما تحب، حق لها شرعا اسم دولة"[1]، وحتى يميّز الدولة عن غيرها من التجمعات يركز النظر على اشتراك المجموعة البشرية العاقلة التي يحكمها العدل، اشتراكها في حب موضوع ما، كما اشترك الرومان الأوائل في حب المجد والعظمة، وكلما كان الحب نقيا خالصا من أي شهوة ذاتية مادية كلما كانت الدولة أقوى وأصلب، وهنا كان مدخل المسيحية للقول أن الدولة القوية ليست سوى دولة السيد المسيح الخالية من جميع مخلفات الخطيئة.

عندما يقول أوغسطين أن اجتماع مجموعه بشريه على حق مشترك به تربطهم العدالة، فهو ينفي الفكرة القائله بأن "البشر كانوا يعيشون حياة خالية من أي سيطرة من الإنسان على أخيه الإنسان ولكن ثمن الخطيئة هو ولادة تلك السيطرة وهذا أمر شرعي"[2]؛ بمعنى أنه يرفض كون الدولة ضرورة حتمية لفساد الأفراد وخطيئتهم بل هي ضرورة حتمية لتجمع الأفراد على حب ما وعلى عدالة أيضا، وبذلك "فالدولة تقوم على استعداد نفسي بثه الله في الإنسان، كان من شأنه أن يحمّله على التجمع مع كائنات من بني جنسه، وهذا يعني أن الله هو في الأساس خالق الدول"[3] وليست الخطيئة، وهذا الطرح هو الأقرب للطرح الأوغسطيني عكس الطرح الأول القائل بأن الخطيئة هي الأصل، وذلك أن أوغسطين كان دائما في ضبط مفهومه للدولة يركز على الحب لا الخطيئة.

لم يكن المسيحيون متقبلين للدولة في بداية عهدهم بها، إذ رفض المواطن المسيحي أن يخضع لدولة وثنية ويمارس طقوسها ولا حتى أن يشارك في حروبها أو يساهم في حماية الوثنيين بالانخراط في صفوف جيوشها، منغلقين على أنفسهم في كنيستهم رافضين الانخراط في الحياة الاجتماعية الرومانية، على الرغم من أنهم يستفيدون من الحماية باعتبارهم مواطنين رومانيين، إلا أنهم يعتبرون السياسة جانب حرّم عليهم المشاركة فيه، لكن أوغسطين أعطى للجانب السياسي بعدا آخر، وفتح للديانة المسيحية أبوابا على الامبراطورية الرومانية ليحافظ عليها ويبشر من خلالها، وهذا ما دفعه لدراسة السياسة والتعمق فيها، والحقيقة أن هذا الأمر لم يكن من ابتكار القديس أوغسطين، بل سبقه إلى ذلك أساقفة بلغوا من العبقرية درجة جعلتهم يجعلون من دينهم المقزم دين امبراطورية

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص161.

[2] المصدر نفسه، ص162.

[3] كيرلس سليم بسترس وآخرون: تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، المكتبه البوليسية، بيروت، ط1، 2001، ص 757.

عظمى كروما، وأوغسطين لم يكن أقل منهم ذكاء بل واصل التوسع من خلال الدولة عكس دونات الذي رفض العلاقة بين الدولة والدين.

اعتبر أوغسطين الدولة ضرورة طبيعية حتمية بعد أن تمرد الكل على الكل، على الرغم من أنه يقر في أكثر من موضع أن الدوله ليست مستقرة بل هو دائم الاحساس بالاغتراب فيها هو وكل المسحيين، يقول :

"إلهي متى ألتقي بك في ملكوتك،

متى أراك وجها لوجه،

(...)لأمت يا سيدي لأراك ... وأراك وأموت،

لا أريد الحياة ... أريد الموت

"لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح" (في 1-23)

ليتني أموت لأراه ... لن يطيب لي العيش إلا مع المسيح"[1]

ومع ذلك فان الدوله كالمدينة الأرضية نعيش فيها ومعها، مجبرون على الانخراط فيها لتستمر المسيحية.

ثانيا: القـــــانون

لما كان الإنسان هذا الكائن الناقص الحامل في ذاته بذور فنائه وهي أحد السنن الكونية الثابتة، يعيش مع الآخر في بيئة واحد أو مجاورة، ولما كانت الإرادة الحرة هي ميزة كل المخلوقات العاقلة، كان لزاما أن تقنّن تلك الحريات حتى لا تتعدى فئة مجتمعية على فئة أخرى، بل حتى لا يتعدى أفراد البيئة الواحدة على بعضهم البعض، بل حتى تقنّن سلوكات الفرد ذاته وتحافظ على حياته من بطش نزواته ونزوات الآخر تجاهه. فالإنسان الذي كان متحررا من أي سلطة خارجية هو الآن خاضع لسلطة الجسد وسلطة المجتمع والآن سلطة الدولة وقوانينها، هنا وبغية ضمان التنظيم وتحقيق مقولة الأمان كشرط أساسي لقيام الدول والسلطات يظهر القانون.

أوغسطين كأي باحث مسيحي؛ فإن القانون الذي سيدرسه وسينادي به آليا ومنطقيا هو القانون المتضمن في تعاليم المسيحية، لأن الدين ذاك الثابت الكامل هو الحامل للقانون الذي سيأخذ منه الثبات والكمال، والذي ينطبق على جميع الأمم وعبر كل الأزمنة، الصالح للمسيحي وغير المسيحي، الضامن الوحيد لأبدية الدول والحضارات، لكن الخطيئة الدائمة الظهور في ثنايا البحث الأوغسطيني كونها دائمة الظهور في ثنايا الحياة، تمنع

[1] أوغسطينوس: من تأملات أوغسطينوس، تر:بانوب عوض، كنيسه الشهيد مارجرجس بيروت، دط ، دت، ص ص 18-19.

الإنسان من تبصر القانون المسيحي فيلجأ لإبداع قانون يوازي القانون الإلهي، فيكون ناقصا غير ثابت كصاحبه وهو أمر منطقي لحد بعيد إذ "في هذه المؤسسه نحن مدعوون لصناعة بشر لا ملائكه"[1]؛ صناعه بشر بما فيهم من نزوات وأخطاء يحاول القانون تصحيحها وتقويمها لكنه لا ينفي وجودها، وهنا يظهر لنا نوعين من القوانين: قانون صادر من الله متجلي في تعاليم السيد المسيح وهو القانون الالهي، وقانون من وضع الإنسان وإبداعه يسمى بالقانون الوضعي.

أ. ***القانون الالهي***:

خلق الله الموجودات وفق أوامر إلهية كانت أفكارا في ذهنه ثم تحولت لفعل متجسد، موجودات بالقوة تحولت لموجوات بالفعل، تسير في إطار نظام صارم لا يختل أبدا، أزلي أبدي في تناسقه وتناغمه، مطبق على كل الموجودات وهي ماهيات قبل أن تستحيل موجودات، يحيط الكون بعنايته المستمرة في الزمان والمكان، هذا النظام المتناسق الصارم هو ما يسميه رجال الدين المسيح بالقانون الالهي، والذي يعرفه القديس أوغسطين بقوله: "القانون الأبدي هو العقل الإلهي، أو هو إرادة الله، الذي يطلب منا أن نحافظ على نظام الطبيعه ويمنع اضطرابها، (...)فاذا كان القانون الأبدي هو نفسه الإرادة الإلهية أو العقل الإلهي، فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالعقل أو الأفكار الإلهية، والواقع أن كل فكرة من هذه الأفكار هي قانون أبدي ثابت لا يتغير، يستقر في أعماق الحكمة الإلهية، (...)والقانون الإلهي هو الفن الإلهي الذي يحكم الأشياء والذي بواسطته خلقت الأشياء"[2]، القول بأن القانون الإلهي هو عينه العقل الإالهي وعينه الأفعال الإلهية، فإنه بالتعدي عين الله، فلا صفه تضاف على الله وإنما هي عينه، فالله خلقنا وخلق كل الموجودات وفق هذا النظام الصارم والذي يسهل على العقل الوصول إليه واستكشافه، لكن فقط بالعقل السوي الذي يسير وفق فطرته السليمة، الذي يفكر وفق النظام الذي بثه الله في الوجود، العقل الذي عرف الله وآمن به، العقل الذي عرف الحقيقه، الذي عرف أن القانون " شامل، أي أنه يعم الناس جميعا، لأننا استنبطناه من الطبيعة الانسانية منظور إليها من طابعها الكلي الشامل"[3]. ندركه بالعقل أو بالاشراق المباشر من المعلم.

[1] حنه أرندت: ما السياسة، تر وتح: زهير الخويلدي، سلمى بالحاج مبروك، منشورات ضفاف-منشورات الاختلاف، الرياض-الجزائر، ط1، 2014، ص 34.

[2] نقلا عن إيتين جلسون: روح الفلسفة المسيحيه في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبه مدبولي، مصر، ط3، 1996، ص 387.

[3] اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مر:فؤاد زكريا، المطبعة الثقافية، مصر، دط، 1971، ص195.

فالقانون الأزلي هو قانون مبثوث في الطبيعة في نظامها وتناسقها وصرامتها، هو عنصر أساسي في صناعة الكون وخلقه، بمعنى أنه موجود داخل كل فرد منا نستطيع أن نعرفه ونصل لحقيقته، ممزوج بفطرته وضميره، وعليه يكون الوصول إليه هو وصول للحقيقه؛ وصول للسعادة والخير، لأن السعادة هي ذلك الاستقرار الذي ينتج عن التناسق والتناغم الداخلي الذي كان عليه الإنسان قبل خروجه من الجنه عندما كان الجسد تحت إمرة النفس العاقلة، والنفس العاقله تحت إمرة الله، وعموما فالقانون الأزلي هو "القانون الذي بفضله تنظم كل الأشكال تنظيما كاملا، وتتوحد مع إرادة أو حكمه الله التي توجه كل الاشياء إلى غايتها الصحيحه. إنها تكوّن الينبوع الكلي للعدالة والعدل، ويصدر عنها كل ما هو عادل أو خيّر في القوانين الأخرى، (...)والقانون الأزلي الدائم واحد في النهاية، وهو نفسه باستمرار وفي كل مكان، ولا يعترف بالاستثناءات"[1]، فالثبات والصرامة هي صفات القانون الأزلي والذي خط الله ماهيته منذ بداية الخلق فلا تغيير يطرأ عليه ولا تطور خارجي يعتريه.

وبمعية العناية الإلهية وبصرامة القانون الأزلي الذي يمثل إرادة الله، كان أن خلق الله الموجودات وجعل لكل مخلوق منها قانون يحكمه، فالطبيعه بما رحبت جعل الله لكل جزء منها قانونا يحيط بها ويحميها ويضمن سيرورتها، سواء كانت الموجودات غير عاقلة كمجتمع الحيوانات والذي يسير القانون فيه وفق غريزتهم، فلكل حيوان وظيفته التي تلقنها له غريزته، أو كانت مخلوقات عاقلة كالبشر فيصلون للقانون من خلال العقل، وهو ما أسماه أوغسطينوس بالقانون الطبيعي، والقانون الطبيعي ليس هو القانون الأزلي بل هو جزء منه كالقوانين البيولوجية التي تحكم جسم الإنسان، قانون الأفلاك والمواسم والفصول وغيرها.

والقانون الطبيعي أيضا هو تلك القيم التي تحكم الإنسانية وسلوكاتها: من عدل ومحبه وسلام وتسامح ومختلف المفاهيم الكلية التي يتفق على خيريتها كل البشر، والتي تعتبر محاكاة للصفات الإلهية ومحاولة للتماهي معها، كما يتفق على أن الخيانة والحقد والكذب والفجور هي آثام يجب إجتنابها، ، وفيها هي الأخرى –أي القوانين الطبيعية– من التناغم والنسقية والصرامة ما في القانون الأبدي، مع فرق جوهري وهو أنه قانون تجزيء وليس كلي مثل الأبدي، بمعنى أن لكل موجود من الموجودات قانونه الخاص به، والذي يميزه عن باقي الموجودات يقول أوغسطينوس:"إن الله خلق مع القانون الطبيعي وجميع الاشياء التي وهبها الله الوجود، أعني أنه خلق قانونها الطبيعي معها في وقت واحد. وكما أنها من حيث وجودها تشارك في الوجود الالهي، فكذلك بسبب أن قانون نشاطها مسجل في ماهيتها، أو في بنيه وجوده نفسه، فإنها تشارك كذلك في القانون الأبدي لله، (...)إن القانون

[1] ليوشتراوس جوزيف كروبسكي: تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتى سبينوزا، تر: محمود سيد أحمد، مر وتق: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، دط، 2005، ص 273.

الطبيعي هو بالنسبة للقانون الأبدي مثل الوجود بالنسبة للوجود الإلهي"[1]، بمعنى أن القانون الطبيعي مخلوق والقانون الأبدي هو فكرة الله وعقله، هو الله عينه. بعبارة أخرى إذا كان القانون الأزلي هو حكمه الله فإن القانون الطبيعي هو تجسيده وتجليه في الكون ومخلوقاته.

قد يكون القانون الأزلي أيضا محددا ومذكورا في شكل أوامر إلهية مذكورة في كتابه المقدس تهذب الأفراد وتخط لهم طريق الفضيلة وهي موجودة في كل الإنجيل من تصرفات كان يقوم بها السيد المسيح أو وصايا كان يلقنها لتلاميذه ومثاله "مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخر أَيْضًا، وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أَيْضًا"[2]. كما تتواجد أيضا في التوراة ولعل من أشهرها الوصايا العشر يقول الرب " 1 ثُمَّ تَكَلَّمَ اللهُ بِجَمِيعِ هذِهِ الْكَلِمَاتِ قَائِلًا: 2أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. 3لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. 4لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. 5لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلهَكَ إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، 6وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ. 7لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلًا، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا 8اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ. 9سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ، 10وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخِلَ أَبْوَابِكَ. 11لأَنْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ .لِذلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ. 12أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. 13لاَ تَقْتُلْ. 14لاَ تَزْنِ. 15لاَ تَسْرِقْ. 16لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ. 17لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ"[3]

القانون الأزلي والقانون الطبيعي هي تلك القوانين الثابتة التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يغيّرها البشر أو يطوعوها، لكن الله يستطيع، إذ فعل ذلك أكثر من مرة في التاريخ، ويظهر ذلك في المعجزات التي منحها لأنبيائه والتي تعتبر خرق للقوانين الطبيعية لا القوانين الأزلية، ومثاله "25وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ. 26فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلاَمِيذُ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ خَيَالٌ». وَمِنَ

[1] إيتين جلسون، مرجع سابق، ص388.
[2] إنجيل لوقا، الاصحاح (6:29).
[3] سفر الخروج، الاصحاح (20: 1-17).

الْخَوْفِ صَرَخُوا! 27فَلِلْوَقْتِ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ قَائِلاً: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا.« 28فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ.« 29فَقَالَ: «تَعَالَ». فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ. 30وَلكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ. وَإِذِ ابْتَدَأَ يَغْرَقُ، صَرَخَ قَائِلاً: «يَا رَبُّ، نَجِّنِي 31.«!فَفِي الْحَالِ مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟« 32وَلَمَّا دَخَلاَ السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ. 33وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللهِ"[1]، القانون الطبيعي ثابت صارم في الكون، فوقوف الإنسان على الماء يؤدي إلى الغرق وهو أمر حتمي مقضي، لكن أن يقف إنسان على الماء ولا يغرق هو أمر خارق للطبيعة، وضعها الله في التاريخ أمام الشهود حتى يزدادوا إيمانا وحسب وهي من الطرق التبشيرية في الأديان الثلاثة، وعليه فالمعجزات هي خرق للنظام الطبيعي بإرادة إليهة وليس خرقا للقانون الأزلي.

ب. القانون الوضعي:

يحدث العكس عندما نبتعد عن القانون الأزلي وبالتالي نبتعد عن حالتنا الأولى السويّة، ونتوغل أكثر في شهوات العالم الحسي فنغترب عن ذواتنا وعن الله ونعيش مع الألم. وما الألم هنا سوى الشر الذي ينتج عن غياب التناغم وخيريته. عندها يتمرد الكل على الكل، ويختل سلم الرتب، فتسيطر المادة على الروح، ويخضع ما هو أعلى لما هو أدنى، جراء الخطيئة التي كانت السبب الأول للتمرد ولا تزال. حدثت الخطيئة بفعل الأكل؛ فعل التحدي، فاختُرق التناغم والتناسق الكوني، اخترق القانون الأبدي، وانحرفت الفطرة السوية، هو اتباع مسار جديد بشري، هو انقلاب على سنن الله الكونية، الإنقلاب عليها هنا لا يعني تغييرها أو تطويعها أو خرقها، بل هو سير عكس مقولاتها الثابتة، أي عكس النواميس الإلهية.

الابتعاد عن الكلية والثبات هو اقتراب من النسبيه والتغير، وهو حال القانون الجديد الذي حل محل القانون الأزلي والمتمثل في القانون الوضعي، وهو قانون وضعي لأنه من وضع الانسان، ولأن الإنسان ليس واحدا فإن القانون يتغير بتغيره من مكان لآخر ومن زمن لآخر ومن مجتمع لآخر ومن ظروف لآخرى، والتي يتقبلها مجتمع هنا يرفضها مجتمع هناك بل حتى أن القانون الذي يتقبله مجتمع الآن هو عينه القانون الذي كان محرما في ما مضى، لهذا يمكن أن نطلق عليه أيضا القانون المؤقت. وعلى الرغم من ذلك فمهما حاول الإنسان أن يتوهم أن القانون الوضعي بشري خالص فهو مخطيء، لأن القانون الطبيعي موجود داخل كل فرد منا لكنه مدفون في باطنه

[1] إنجيل متى، الاصحاح(14، 24-33).

يتخارج من حين لآخر على حسب مد الشهوات وجزرها، فهي كالأفكار القبلية الكامنة في عقل الإنسان؛ مقولاته، فالقاضي العادل والأستاذ العادل والمواطن العادل هو محاكاه للعدل الالهي وهكذا، بمعنى أن القانون الوضعي هو قانون طبيعي محرّف والذي يكون سوّيا عند أشخاص بعينهم.

يعرفه القديس أوغسطين بقوله: "الأحكام التي يصدرها بشر ضد بشر، إنها أحكام تبقى ضرورية على مستوى المدن أيا كان السلام الذي به يتمتعون"[1]، وهي أحكام تخضع لعقلانيه الأفراد كما يمكن أن تخضع لشهواتهم وحبهم للسلطة بمعنى أنها أحكام خاضعة لأهواء الأفراد التي يغفل دور العقل فيها، مما قد يسبب كوارث وحروب وانقلابات كثيرة تؤثر على الدول وعلى الأفراد، وهي حال كل القوانين الزمنية التي لا تُستمد من النص المقدس، ومع ذلك فوجود القانون أمر ضروري ضرورة وجود الدولة ذاتها "لردع(...) الطبيعة الإنسانية وإصلاحها وتوفير الطمأنينة للخيّرين، هذه المهمة هي التي كما يقول القديس أوغسطين تجعلنا نقر بالسلطة الدنيوية ونقبل تطبيق القوة حفاظا على الحق والنظام"[(2)] ما أمكن، لأن الحق والنظام الكامل من الإستحالة أن يتحقق بعيدا عن القانون الأزلي، وهو قانون يخضع له سكان مدينة الأرض وسكان مدينه الله سواء بسواء، مع فرق أن سكان مدينه السماء يعرفون تمام المعرفه القوانين الأخلاقية الإلهية ويطبقونها فيما بينهم، أما قانون الدوله فليس لهم أي دخل فيه. إلى حين.

والقانون الروماني وحدة البحث الأوغسطينية هو "رباط دائم ومباشر بعد المعاهدة، في القانون العام كما في القانون الخاص، القانون إذن هو شيء يوحد البشر ويطبق ليس بفعل عنيف أو ديكتاتوري، وإنما بفضل الاتفاق والتوافق (...)ليست عمل إنسان واحد وإنما عقد بين فصيلين إثنين من الأعداء، النبلاء والعوام، الذي يدعى اتفاق الشعب كله، هذا هو الاتفاق الكلي الذي دائما ما نسب إليه التأريخ الروماني دورا خارقا للعادة في صياغة القوانين"[3]، بمعنى أن القانون الروماني صادر نتيجة للوضع الذي يفرضه الواقع، بمعية جميع الأطراف حتى تتوحد المصالح، بعبارة أخرى "القانون (...)شيئ يخلق علاقات جديدة بين البشر والذي يربطهم، ليس بمعنى الحق الطبيعي حيث كل البشر يتعرفون طبيعيا إلى الخير والشر بواسطة صوت وعي الطبيعة، ولا بمعنى الأوامر المفروضة من الخارج على كل الناس بطريقه عادلة، ولكن بمعنى الاتفاق بين المتعاقدين. بما أن اتفاقا ما لا يمكن أن يحصل

[1] القديس أوغسطين: مدينه الله، مج3، مصدر سابق، ص 122.

[2] إسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، ط1، 2001، ص: 171.

[3] حنه أرندت، مرجع سابق، ص 106.

إلا إذا كانت مصالح الطرفين مضمونه"[1]، فالقانون ليس نتاج إبداع فردي بل هو نتاج جماعي متفق عليه، يطبق بعدها بين الناس الذين حدث بينهم الاتفاق.

لا يخفى تأثر أوغسطينوس بالسياسة اليونانية والسياسة الأفلاطونية خاصة، وبالأخص كتاب القوانين الذي يعتبر دراسة سياسية معمقة ورصينة والتي أخذ عنها أوغسطين الكثير من المفاهيم والاشكالات*، والذي أثر على الفكر الروماني بأكمله ليس على أوغسطين فقط، نظرا للباع الذي أحرزته سياسة البوليس اليونانية،مع مراعاة أن التأصيل الفلسفي للقانون الأوغسطيني هو تأصيل مفارق، وهو القانون الذي ظهر بعد أن تناول آدم من ثمر الشجرة، هناك كانت البوادر الأولى لهذا الوضع الجديد المتغير بتغير إرادة الإنسان الجديد.

يخضع هذا القانون الوضعي لنفس قوانين المدينه الأرضية الأزلية الصارمة من تغير ونقص ونسبية وحدود ونهاية وسقوط وقيام، فالقوانين تسقط هي الأخرى لتقوم مقامها قوانين أخرى وهكذا، لأنه قانون عاجز وفاشل في مرات كثيرة بنفس عجز وفشل العقل البشري على استيعاب ذاته، إنه قانون المدينة الأرضية التي أبدعت منظومة قيمية جديدة تحاول محاكاة المنظومة القيمية الأصل، تقترب أحيانا وتتسع الهوة بينها أحيانا أخرى، وفي هذه المنظومة الجديدة ظهرت الكثير من القيم في التاريخ لم تكن موجودة قبل، بل إن لهذه القيم الجديدة ما يشرّع لها في الدين المسيحي، فانعكاسات الخطيئه لم تنتهي بعد وهي مستمرة في التاريخ بكل جوانبه والسياسة واحدة منها، ومن بين هذه القيم نجد قيمة الرق، قيمة الحرب، قيمة الملكية، والتي كانت بمثابة مخلفات القانون الأرضي.

ب.1. الرق:

يذكر الانجيل في أكثر من موضع فكرة الرق ويصطلح عليه بالعبوديه كقول الرسول بطرس:"أَيُّهَا الْخُدَّامُ، كُونُوا خَاضِعِينَ بِكُلِّ هَيْبَةٍ لِلسَّادَةِ، لَيْسَ لِلصَّالِحِينَ الْمُتَرَفِّقِينَ فَقَطْ، بَلْ لِلْعُنَفَاءِ أَيْضًا"[2]، وخطاب المزارع لعبيده "24قَدَّمَ لَهُمْ مَثَلاً آخَرَ قَائِلاً: «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ . 25وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ

[1] حنة أرنت، مرجع سابق، ص 108.

* يشبه المنهج الأوغسطيني في دراسته للسياسة منهج أفلاطون في ذات الدراسة من كتابه القوانين، حيث لاحظ المتخصصون أن المنهجيه ذاتها يقول: "وندخل إلى المناقشه المباشرة للمسألة الرئيسية الخاصة بالسياسي وما هي المدينه وكيف تقوم، وما يعمله أفلاطون في هذا الكتاب هو تطبيق المنهج التقليدي في شرح التاريخ اليوناني من أول نشأته الخرافية إلى عصر أفلاطون نفسه، ونستطيع بدراسته لكيفية قيام القانون والنظام الدستوري في المجتمع أن تكتشف ما لهما من وظائف والشروط اللازمة لتصريف شؤونهما تصريفا دائما وناجحا وهذه هي فلسفه التاريخ في فجر ظهورها، ونحن لا نستطيع أن نلتقي في الأدب الموجود للعالم القديم بمثال آخر من نفس النوع والكيف حتى بجيء سانت أوجستين بكتابه Dai Civitare" أفلاطون، القوانين، تر: تيلور، نقله إلى العربيه: محمد حسن ظاظا، من مقدمه الاستاذ تيلور، الهيئة المصريه العامه للكتاب، مصر، دط، 1986، مقدمة.

[2] رسالة بطرس الرسول الأولى، (2: 18).

جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ زَوَانًا فِي وَسْطِ الْحِنْطَةِ وَمَضَى 26 .فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ وَصَنَعَ ثَمَرًا، حِينَئِذٍ ظَهَرَ الزَّوَانُ أَيْضًا 27 . فَجَاءَ عَبِيدُ رَبِّ الْبَيْتِ وَقَالُوا لَهُ:يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعًا جَيِّدًا زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟ 28 .فَقَالَ لَهُمْ: إِنْسَانٌ عَدُوٌّ فَعَلَ هذَا. فَقَالَ لَهُ الْعَبِيدُ: أَتُرِيدُ أَنْ نَذْهَبَ وَنَجْمَعَهُ؟ 29فَقَالَ: لاَ! لِئَلاَّ تَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ 30 .دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ كِلاَهُمَا مَعًا إِلى الْحَصَادِ، وَفِي وَقْتِ الْحَصَادِ أَقُولُ لِلْحَصَّادِينَ: اجْمَعُوا أَوَّلاً الزَّوَانَ وَاحْزِمُوهُ حُزَمًا لِيُحْرَقَ، وَأَمَّا الْحِنْطَةَ فَاجْمَعُوهَا إِلى مَخْزَنِي"[1] ، وكذلك ورد في إنجيل مرقص تحت تسميه الخدم يقول: " 34كَأَنَّمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ تَرَكَ بَيْتَهُ، وَأَعْطَى عَبِيدَهُ السُّلْطَانَ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ، وَأَوْصَى الْبَوَّابَ أَنْ يَسْهَرَ. 35اِسْهَرُوا إِذًا، لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَتَى يَأْتِي رَبُّ الْبَيْتِ، أَمَسَاءً، أَمْ نِصْفَ اللَّيْلِ، أَمْ صِيَاحَ الدِّيكِ، أَمْ صَبَاحًا، 36 لِئَلاَّ يَأْتِيَ بَغْتَةً فَيَجِدَكُمْ نِيَامًا 37 !وَمَا أَقُولُهُ لَكُمْ أَقُولُهُ لِلْجَمِيعِ: اسْهَرُوا"[2]

كما نجد قول الرسول بولس:" [5] أَيُّها العَبيدُ، أطِيعُوا سادَتَكُمُ الأرْضِيِّينَ باحتِرامٍ وَهَيْبَةٍ، وَاخدِمُوهُمْ بِإخلاصٍ منْ قُلُوبِكُمْ، كَأَنَّكُمْ تَخدِمُونَ المسِيح [6]وَلا تَعمَلُوا فَقَطْ حِينَ تَكُونُونَ تَحتَ مُراقَبَةِ أسيادِكُمْ لِكَيْ تُرضُوهُمْ، بَلِ كَما يَلِيقُ بِخُدّامِ المسِيحِ الَّذِينَ يَعمَلُونَ مَشِيئَةَ اللهِ مِنْ كُلِّ قُلُوبِهِمْ [7] .فَاعمَلُوا بِفَرَحٍ حاسِبِينَ أَنَّكُمْ تَخدِمُونَ الرَّبَّ، لا النّاسَ [8] .وَتَذَكَّرُوا أنَّ الرَّبَّ سَيُجازِي كُلَّ واحِدٍ مِنكُمْ عَلَى الخَيرِ الَّذِي يَصنَعُهُ، سَواءٌ أكانَ عَبداً أمْ حُرّاً [9]أمّا أنتُمْ أيُّها الأسيادُ، فَعامِلُوا عَبِيدَكُمْ بِالطَّرِيقَةِ نَفسِها، فَلا تَلجَأُوا إلى تَهْدِيدِهِمْ، مُتَذَكِّرِينَ أنَّ سَيِّدَكُمْ وَسَيِّدَهُمْ واحِدٌ، وَهُوَ مَوجُودٌ فِي السَّماءِ، وَلا يَتَحَيَّزُ لِأحَد"[3]. هو نص صريح لبولس الرسول وجهه للعبيد موصيا إياهم أن يعملوا بتفاني وأن يخلصوا لسادتهم، لم يوصهم أن يثوروا عليهم أو يرفضوا الطبقيه في المجتمع، لم يوصهم أن يطلبوا الحرية بل أوصاهم أن يعملوا ويستمتعوا بهذا العمل وأن يطيعوا أسيادهم كما يطيعون الرب.

وزاد على ذلك أن وجه الخطاب للأسياد وحثهم على المعامله الطيبه لعبيدهم، لم يطالبهم بعتقهم، ولم يرفض الرسول فكرة العبودية والرق في المجتمع المسيحي وحتى غير المسيحي، فأما الرق المسيحي فسيجازيه الرب على تفانيه في العمل كما سيجازي الأسياد على معاملتهم الطيبة للعبيد، وكأنه يريد أن يقول أن العبودية أمر طبيعي يجب أن يتقبله العبد والسيد على حد سواء، شريطه أن تتحسن ظروف معيشتهم، وأن يعوا جيدا أنهم متساوون عند الرب فكلاهما عنده واحد بل قد يصطفي الرب العبد عن السيد لاخلاصه يقول: "أَيُّهَا السَّادَةُ،

[1] إنجيل متى، (13: 24-30).
[2] إنجيل مرقس، (13: 34-37).
[3] رسالة أفسس، (5:6-9).

قَدِّمُوا لِلْعَبِيدِ الْعَدْلَ وَالْمُسَاوَاةَ، عَالِمِينَ أَنَّ لَكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا سَيِّدًا فِي السَّمَاوَاتِ."[1]،ونجد صورة المساواة أكثر وضوحا في رسالة بولس إلى فليمون:"10أَطْلُبُ إِلَيْكَ لأَجْلِ ابْنِي أُنِسِيمُسَ، الَّذِي وَلَدْتُهُ فِي قُيُودِي، 11الَّذِي كَانَ قَبْلاً غَيْرَ نَافِعٍ لَكَ، وَلكِنَّهُ الآنَ نَافِعٌ لَكَ وَلِي، 12الَّذِي رَدَدْتُهُ. فَاقْبَلْهُ، الَّذِي هُوَ أَحْشَائِي 13.الَّذِي كُنْتُ أَشَاءُ أَنْ أُمْسِكَهُ عِنْدِي لِكَيْ يَخْدِمَنِي عِوَضًا عَنْكَ فِي قُيُودِ الإِنْجِيلِ، 14وَلكِنْ بِدُونِ رَأْيِكَ لَمْ أُرِدْ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا، لِكَيْ لاَ يَكُونَ خَيْرُكَ كَأَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الاضْطِرَارِ بَلْ عَلَى سَبِيلِ الاخْتِيَارِ 15.لأَنَّهُ رُبَّمَا لأَجْلِ هذَا افْتَرَقَ عَنْكَ إِلَى سَاعَةٍ، لِكَيْ يَكُونَ لَكَ إِلَى الأَبَدِ، 16لاَ كَعَبْدٍ فِي مَا بَعْدُ، بَلْ أَفْضَلَ مِنْ عَبْدٍ: أَخًا مَحْبُوبًا، وَلاَ سِيَّمَا إِلَيَّ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ إِلَيْكَ فِي الْجَسَدِ وَالرَّبِّ جَمِيعًا 17!فَإِنْ كُنْتَ تَحْسِبُنِي شَرِيكًا، فَاقْبَلْهُ نَظِيرِي"[2]، بولس الرسول خاصة والدين المسيحي عامه لم يرفض الرق؛ وإنما جاء بجمله قوانين أخلاقية تنظم حياتهم وتضبط طريقة التعامل معهم، إذ رفض تهديدهم وتعنيفهم وشدد على معاملتهم بالرحمة والمحبة، "لاَ تَتَسَلَّطْ عَلَيْهِ بِعُنْفٍ، بَلِ اخْشَ إِلهَكَ"[3].

الإنجيل "لا يذكر جملة احتجاج واحدة على الرق: إن العبد المذكور سابقا والذي يتمنطق ينظر إلى سيده وهو يأكل، هذا العبد ليس بإنسان حر، بل إنه عبد"[4]، للعبد الآن سيدان السيد الرب والسيد الإنسان، مهما كان العبد مصطفى عند خالقه وعند الجماعة المسيحية، يبق رغم هذا خادما ومواطنا من الدرجه الثانية، وطبقة دنيا في المجتمع، الأمر الذي تقبله أوغسطينوس بل وجد له مخرجا فلسفيا بعد أن ربطه بصورة نسقية بالخطيئة، فمدينه الأرض مدينه النقص والفساد التي اختارها بمحض إرادته، هي مدينه ترسخ لمقولة الطبقية وسلطة فئة على فئة أخرى، كما ترسخ لمقولات النقص الأخرى من ألم وفقد ومرض وآفات مختلفة.

نظام الرق هو أحد المآزق التي يجب أن يتعايش معها الانسان، ويستفيد منها نظرا لما تحققه هذه الطبقة من انتعاش اقتصادي وخاصة في المجال الزراعي وهذا ما يفسر عدم خلو أية حضارة من هذه الطبقه المهمة، لكنه في المقابل أكد على فضيلة المساواة حتى لا يخرج العبد عن إنسانيته، ويتحول إلى آلة في يد السيد يسخرها فيم يشاء، ويحرمه من فترات راحة وأيام أعياد وأوقات عبادة وتقرب من الله، فإن تحقق الأمر لم تعد هناك حجة لرفض وجود هذه الطبقة ومخالفة ما قبله قبلنا الرسولان بولس وبطرس، كما لا يمكن أن يحارب أوغسطين وجود طبقه تساهم بشكل كبير في الرقي بالحضارة الرومانيه وبالتالي يحارب روما بأكملها ويكسب عداوة الهيئة التي تحميه

[1] بولس، (4: 1).

[2] رسالة بولس إلى فليمون، (10: 17).

[3] سفر اللاويين، (25: 43).

[4] ألبير بايه: أخلاق الانجيل دراسة سوسيولوجية، تر: عادل العوا، دار كنعان-دار الحصاد، دمشق، دط، دت، ص109.

والدولة التي يحب. طبقه الرق عند أوغسطين مثلها مثل أي طبقه في المجتمع لديها حقوق وعليها واجبات كلما أخلصت في عملها كلما إقتربت من الله أكثر، وليست منقصة في حقهم أو ظلما إلهي لهم، بل هي حتمية طبيعية لاختيار الإنسان المدينه الأرضية وقانونها على مدينه السماء التي لا طبقات ولا تعددية سيادية فيها.

ب.2. الملكية

لطالما كان أوغسطينوس جريئا في طرحه، لا يخيفه إجماع رجال الدين على قضيه ما تخص المعاملات إذ كثيرا ما كان يخالفها، ويأتي ببديل ودليل من الكتاب المقدس ليؤمّن موقفه، رجال الدين الأوائل كانوا زاهدين في الحياة إذ رفضوا حيازة أي ممتلك قد يصرفهم عن العبادة ويشاركهم في حب الله، إذ لم يسمحوا لأي حب غير حب الله أن يدخل قلوبهم، تيمنا بالسيد المسيح الذي لم يمتلك أي شيء مادي في هذا العالم، ولم تكن لديه أي أوقاف، معلما إيانا أن أي مجد يطلبه الإنسان غير مجد الله هو مطلب باطل، يقول على لسان يوحنا:" أنا لا أطلب مجدا من عند الناس"[1] ، ولو أراد مجدا ماديا لمنح لنفسه كل الدنيا لكنه يريد أن يعلم حواريه أن العالم بما رحب لا يساوي شيئا أمام الرب وقلوب مليئة بحبه فوحدها الناجية.

الممتلكات الماديه تزيغ القلوب وتقلبها وهو ما كان يخافه الحواريون ورجال الدين الأوائل؛ يقول الرب يسوع :"24 لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أو يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ. 25 لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟"[2]، فبطرس الرسول مثلا كان وهو الإنسان الأمي يبهر الناس بسلاسه خطاباته وفصاحة لسانه وقوة حججه وبراهينه، فكان لا يلقي في جماعه قولا إلا وآمن به الجميع وهو ما أخبرنا به الكتاب المقدس في أعمال الرسل "13 فَلَمَّا رَأَوْا مُجَاهَرَةَ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا، وَوَجَدُوا أَنَّهُمَا إِنْسَانَانِ عَدِيمَا الْعِلْمِ وَعَامِّيَّانِ، تَعَجَّبُوا. فَعَرَفُوهُمَا أَنَّهُمَا كَانَا مَعَ يَسُوعَ"[3]، وكان قبل أن يخطب يمتلئ بروح القدس وما كان لروح القدس أن يملأ قلب إنسان أراد امتلاك مادة، أو حب ملذة، فالروح القدس يملأ القلب الزاهد المحب لله حبا خالصا، لا تشوبه مادة.

[1] يوحنا، (5،41).
[2] إنجيل متى، (6: 24-25).
[3] أعمال الرسل، (4: 13).

أوغسطين الفيلسوف كان لديه طرح مختلف، فالوضع العام الذي كان يعايشه الآباء الأوائل والحواريون مختلف عن الوضع الذي تعيشه المسيحيه في المرحلة الأوغسطينية، فالمسيحية الآن صارت تشارك في الحكم ولها نفوذ في السلطة وهو ما غيّر الكثير من القيم التي كانت سائدة ومنها الملكية، كما أنه لم يكتفي بتغير المعطيات الحياتية بل عاد إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ليدلل على كلامه، فاستخرج أدلة ونصوص تثبت كلامه، ومنها امتلاك الكثير الانبياء كأب البشرية إبراهيم ونبي الله يعقوب، دون أن نغفل النبي سليمان الذي حكم الأرض من نيلها إلى فراتها لثروات مختلفة ولم يتعارض الأمر مع زهدهم. أو أن تلك الثروات قد نالت منهم وشاركتهم حب الله.

استخرج أوغسطين من تعاليم السيد المسيح ما يدعم كلامه في قوله على لسان رسول الله يوحنا "مَن كانَت لَه خَيراتُ العالَمِ ورأى أخاهُ مُحتاجًا فأغلَقَ قلبَهُ عَنهُ، فكيفَ تَثبُتُ مَحَبَّةُ اللهِ فيهِ. يا أبنائي، لا تكُنْ مَحَبَّتُنا بِالكلامِ أو بِاللِّسانِ بَلْ بِالعَمَلِ والحَقِّ"[1]، وماهي خيرات العالم غير ممتلكات، إذ لم يثبت امتلاكها وحسب بل واستخدامها من خلال الحث على التصدق بها للفقراء، كما وأن قوانين المدينة الأرضية تفرض الملكية على الناس وتفرض أيضا التفاوت في امتلاكها بين الأفراد، لأن المساواة في توزيع الممتلكات من القيم العادلة التي لا توجد في مدينه النقص، وتبقى على هذا الأساس المطالب الشيوعية محض خيالات أرضية، وكل من ينادي بها لا يريد من خلالها إلا الانقلاب على الدولة المسؤولة على توزيع الممتلكات بهذا التفاوت، وهي التي تحرص على حماية الملكية ومحاربة التملك الذي رفضه أوغسطينوس لأنه دائما ما يرتبط بالعنف والتعسف والاغتصاب، لذا وضعت الدولة قوانين لتحافظ على حقوق الملكية من التملك.

ثالثا: الدولة الدينية

مرت المسيحيه منذ نشأتها بتجاذبات عديدة ومنعطفات حرجة، كحال باقي الديانات السماوية التي تحاول أن تفرض نفسها وتنشر دينها ذو الحقيقة الكاملة، نشر دين جديد هو بالضرورة انقلاب على الدين الذي كان سائدا وبالتالي هو صراع مع معتنقيه، المسيحيه كذلك كانت بداياتها صعبه جدا وقاسية انتهت بصلب الرب ومعلمهم يسوع المسيح.

[1] يوحنا، (3: 17-18).

أ. الأقلية المسيحية

كانت المسيحيه في بداياتها أقليه مستضعفة خاصة بعد صلب معلمهم السيد المسيح[1]، من قبل الجماعات اليهودية بدعم من الدولة الرومانية الوثنية، ولم يبق لهم من حليف غير اجتهادات الرسل والحواريين في التبشير

[1] صلب السيد المسيح : عانى السيد المسيح من اضطهادات اليهود بمعية الدولة الرومانية التي أمرت بصلبه بعد تهم لفقها له اليهود وأحسنوا التلفيق إذ اختاروا التهمة التي تعاقب عليها روما بالموت وهي التجذيف فحكمت روما عليه بالاعدام، لكن دهاء اليهود جعلهم يختارون أحقر نوع من أنواع الاعدام وهو الصلب، والذي كان عقاب أصحاب التهم الوضيعة كالاغتصاب، حتى تبقى إهانة له على مر التاريخ ودرس لكل من يتجرأ على انتقاد الدين اليهودي، ويروي لنا متى ولوقا وكل الأناجيل الأربعة تفاصيل الصلب، وهنا نموذج روايه متى يقول "47.«وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، إِذَا يَهُوذَا أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ قَدْ جَاءَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ 48.وَالَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلاً: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوه 49.«فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: «السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ 50.فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟» حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ 51.وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ 52.فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ 53!أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ 54فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟ 55.«فِي تِلْكَ السَّاعَةِ قَالَ يَسُوعُ لِلْجُمُوعِ: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ أَجْلِسُ مَعَكُمْ أُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ وَلَمْ تُمْسِكُونِي 56.وَأَمَّا هذَا كُلُّهُ فَقَدْ كَانَ لِكَيْ تُكَمَّلَ كُتُبُ الأَنْبِيَاءِ». حِينَئِذٍ تَرَكَهُ التَّلاَمِيذُ كُلُّهُمْ وَهَرَبُوا 57.وَالَّذِينَ أَمْسَكُوا يَسُوعَ مَضَوْا بِهِ إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، حَيْثُ اجْتَمَعَ الْكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ 58.وَأَمَّا بُطْرُسُ فَتَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَدَخَلَ إِلَى دَاخِلٍ وَجَلَسَ بَيْنَ الْخُدَّامِ لِيَنْظُرَ النِّهَايَةَ 59.وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةَ زُورٍ عَلَى يَسُوعَ لِكَيْ يَقْتُلُوهُ، 60فَلَمْ يَجِدُوا. وَمَعَ أَنَّهُ جَاءَ شُهُودُ زُورٍ كَثِيرُونَ، لَمْ يَجِدُوا. وَلكِنْ أَخِيرًا تَقَدَّمَ شَاهِدَا زُورٍ 61وَقَالاَ: «هذَا قَالَ: إِنِّي أَقْدِرُ أَنْ أَنْقُضَ هَيْكَلَ اللهِ، وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِيهِ 62.«فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هذَانِ عَلَيْكَ؟ 63«وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتًا. فَأَجَابَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟ 64«قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنسان جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ 65.«فَمَزَّقَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ حِينَئِذٍ ثِيَابَهُ قَائِلاً: «قَدْ جَدَّفَ! مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ هَا قَدْ سَمِعْتُمْ تَجْدِيفَهُ! 66مَاذَا تَرَوْنَ؟» فَأَجَابُوا وَقَالُوا : «إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ 67.«حِينَئِذٍ بَصَقُوا فِي وَجْهِهِ وَلَكَمُوهُ، وَآخَرُونَ لَطَمُوهُ 68 قَائِلِينَ: «تَنَبَّأْ لَنَا أَيُّهَا الْمَسِيحُ، مَنْ ضَرَبَكَ؟"، كان السيد لمسيح عالما بكل ما سيحدث وانتظر حدوثه، ليتم الوظيفه التي دخل للتاريخ من أجل إتمامها، وكان مستسلما لكل الاهانات والآلام من أجل تخليص البشريه من خطيئته، فحمل عذابات كل البشريه على ظهره ليبرأهم من خطيئتهم، يكمل لوقا قصه العذاب يقول :"13فَدَعَا بِيلاَطُسُ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَالْعُظَمَاءَ وَالشَّعْبَ، 14وَقَالَ لَهُمْ: «قَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ هذَا الإِنسان كَمَنْ يُفْسِدُ الشَّعْبَ. وَهَا أَنَا قَدْ فَحَصْتُ قُدَّامَكُمْ وَلَمْ أَجِدْ فِي هذَا الإِنسان عِلَّةً مِمَّا تَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ 15.وَلاَ هِيرُودُسُ أَيْضًا، لأَنِّي أَرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِ. وَهَا لاَ شَيْءَ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ صُنِعَ مِنْهُ 16.فَأَنَا أُؤَدِّبُهُ وَأُطْلِقُهُ 17.«وَكَانَ مُضْطَرًّا أَنْ يُطْلِقَ لَهُمْ كُلَّ عِيدٍ وَاحِدًا، 18فَصَرَخُوا بِجُمْلَتِهِمْ قَائِلِينَ: «خُذْ هذَا! وَأَطْلِقْ لَنَا بَارَابَاسَ 19«! وَذَاكَ كَانَ قَدْ طُرِحَ فِي السِّجْنِ لأَجْلِ فِتْنَةٍ حَدَثَتْ فِي الْمَدِينَةِ وَقَتْلٍ 20.فَنَادَاهُمْ أَيْضًا بِيلاَطُسُ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُطْلِقَ يَسُوعَ، 21فَصَرَخُوا قَائِلِينَ: «اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ 22«!فَقَالَ لَهُمْ ثَالِثَةً: «فَأَيَّ شَرّ عَمِلَ هذَا؟ إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهِ عِلَّةً لِلْمَوْتِ، فَأَنَا أُؤَدِّبُهُ وَأُطْلِقُهُ 23.«فَكَانُوا يَلِحُّونَ بِأَصْوَاتٍ عَظِيمَةٍ طَالِبِينَ أَنْ يُصْلَبَ .فَقَوِيَتْ أَصْوَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ 24.فَحَكَمَ بِيلاَطُسُ أَنْ تَكُونَ طِلْبَتُهُمْ 25.فَأَطْلَقَ لَهُمُ الَّذِي طُرِحَ فِي السِّجْنِ لأَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَتْلٍ، الَّذِي طَلَبُوهُ، وَأَسْلَمَ يَسُوعَ لِمَشِيئَتِهِمْ 26.وَلَمَّا مَضَوْا بِهِ أَمْسَكُوا سِمْعَانَ، رَجُلاً قَيْرَوَانِيًّا كَانَ آتِيًا مِنَ الْحَقْلِ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ الصَّلِيبَ لِيَحْمِلَهُ خَلْفَ يَسُوعَ 27.وَتَبِعَهُ جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعْبِ، وَالنِّسَاءِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَلْطِمْنَ أَيْضًا وَيَنُحْنَ عَلَيْهِ 28.فَالْتَفَتَ إِلَيْهِنَّ يَسُوعُ وَقَالَ: «يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، لاَ تَبْكِينَ عَلَيَّ بَلِ ابْكِينَ عَلَى أَنْفُسِكُنَّ وَعَلَى أَوْلاَدِكُنَّ، 29لأَنَّهُ هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُونَ فِيهَا: طُوبَى لِلْعَوَاقِرِ وَالْبُطُونِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ وَالثُّدِيِّ الَّتِي لَمْ تُرْضِعْ 30!حِينَئِذٍ يَبْتَدِئُونَ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا! وَلِلآكَامِ: غَطِّينَا 31!لأَنَّهُ إِنْ كَانُوا بِالْعُودِ الرَّطْبِ يَفْعَلُونَ هذَا، فَمَاذَا يَكُونُ بِالْيَابِسِ؟ 32.«وَجَاءُوا أَيْضًا بِاثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مُذْنِبَيْنِ لِيُقْتَلاَ مَعَهُ 33.وَلَمَّا مَضَوْا بِهِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُدْعَى «جُمْجُمَةَ «صَلَبُوهُ هُنَاكَ مَعَ الْمُذْنِبَيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخر عَنْ يَسَارِهِ 34.فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ». وَإِذِ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ اقْتَرَعُوا عَلَيْهَا 35.وَكَانَ الشَّعْبُ وَاقِفِينَ يَنْظُرُونَ، وَالرُّؤَسَاءُ أَيْضًا مَعَهُمْ يَسْخَرُونَ بِهِ قَائِلِينَ: «خَلَّصَ آخَرِينَ، فَلْيُخَلِّصْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ هُوَ الْمَسِيحَ مُخْتَارَ اللهِ 36.«!وَالْجُنْدُ أَيْضًا اسْتَهْزَأُوا بِهِ وَهُمْ يَأْتُونَ

بتعاليم الرب يسوع، تجنبوا حياة العزله والعبادة لأنهم لو فعلوها لقتلوا دينهم بأيديهم واندمجوا في الجماعات والأمم، كل همهم إيصال ما أراد الرب يسوع إيصاله بتبليغ الدين الحق للناس كافه من خلال رسائلهم التي نشروها بعد أن امتلأوا بروح القدس ومحاولتهم جمع أكبر عدد من الأتباع، وهو ما حققه فعلا الرسل بعد أن انتشروا في بقاع الأرض بدءا من كنائسهم التي بدأت في استقطاب الكثير من المريدين إنطلاقا من أورشليم، وانتشار تلاميذهم من بعدهم، وبرغم العذابات التي لاقوها تمكنوا من نشر الدين المسيحي في كل أنحاء العالم وعرفوا العالم بالمسيحية وأتموا الدور الذي أسنده السيد المسيح لهم، ثلة من الرجال المخلصين نشروا المسيحية وهي ليومنا هذا موجودة بفضلهم، برغم المصير المأساوي الذي لاقاه الرب يسوع وحوارييه*.

لم يختلف وضع المسيحيين عن اليسوع ورسله إذ شهدوا أشد أنواع العذاب الذي عرفته البشرية، وذلك بسبب أن الامبراطورية الرومانية المعتنقة للديانة الوثنية كدين رسمي للدولة، كانت تنص في قوانينها على حرية المعتقد وضرورة الانفتاح على كل الديانات لكن بشرط أن تحترم الدين الوثني وتشارك في قرابينه التي تحتفل بها الدوله سنويا وأحيانا شهريا، ورفض القيام بهذه الشعائر تعتبر خيانه عظمى؛ يقول ترتليان :"نتهم بأننا كفار وبما هو أكثر وهذه نظرة الأباطرة لنا إن رفضنا الخضوع لأسرارهم الموقرة(...) كما نتهم بجريمة الخيانة العظمى التي هي مناهضة للدين الروماني، إنها جريمة الكفر لأنه ينظر إليها من منطلق أنها تسبب الأذية والألم للإله، واعتبر المسيحيون أعداء الدولة. وضد سعادة وخير ورفاهية الشعب وبما يختص بالاحترام الديني فنحن كمسيحيين متهمون بتدنيس المقدسات لأننا لا نقيم احتفالات الكرنفال التي يقررها القياصرة. وندخل في المعركة عندما نتحدى لنواجه المحاكم القضائية. وهناك نخاطر بالحياة بينما نشهد بالحق ويستجلب علينا المخبرون والحراس اتهامات مسيحيتنا بأننا جانحون جنسيا أو قتلة أو مجدفون أو خونه أو أعداء الحياة والمجتمع، أو مندسون للهياكل

وَيُقَدِّمُونَ لَهُ خَلاً، 37قَائِلِينَ: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ مَلِكَ الْيَهُودِ فَخَلِّصْ نَفْسَكَ 38.«!وَكَانَ عُنْوَانٌ مَكْتُوبٌ فَوْقَهُ بِأَحْرُفٍ يُونَانِيَّةٍ وَرُومَانِيَّةٍ وَعِبْرَانِيَّةٍ: «هذَا هُوَ مَلِكُ الْيَهُودِ 39.«وَكَانَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُذْنِبَيْنِ الْمُعَلَّقَيْنِ يُجَدِّفُ عَلَيْهِ قَائِلاً: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ، فَخَلِّصْ نَفْسَكَ وَإِيَّانَا 40«!فَأَجَابَ الآخر وَانْتَهَرَهُ قَائِلاً: «أَوَلاَ أَنْتَ تَخَافُ اللهَ، إِذْ أَنْتَ تَحْتَ هذَا الْحُكْمِ بِعَيْنِهِ؟ 41أَمَّا نَحْنُ فَبِعَدْل، لأَنَّنَا نَنَالُ اسْتِحْقَاقَ مَا فَعَلْنَا، وَأَمَّا هذَا فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ 42.«ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ: «اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ 43.«فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ 44.« وَكَانَ نَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ، فَكَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ 45.وَأَظْلَمَتِ الشَّمْسُ، وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ مِنْ وَسْطِهِ 46.وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ.

*لم تكن نهاية الرسل الحوارين أكثر رحمة من نهاية رسولهم، إذ نالوا من العذاب الكثير وانتهت حياة أغلبهم بالاستشهاد في سبيل الحق والكلمة، وهناك نماذج كثيرة كالقديس بطرس الذي استشهد مصلوبا ورأسه إلى الأسفل، القديس بولس الذي استشهد بقطع رأسه، –وكان هذا في عهد الامبراطور نيرون الذي أحرق إمبراطوريته لينشئ على أنقاضها النيروبوليس–، وهي نفس طريقة استشهاد القديس توما، وصلب فيلبس الرسول كما صلب القديس أندروس، وهو حال كل رسل السيد المسيح، ولم يمت ميتة طبيعية غير القديس يوحنا الانجيلي.

أو مناهضون للديانه الرومانية"[1]، منطلق إتهام المسيحين مسألتين مركزيتين أولاهما عدم الايمان بالآلهة الرسمية الرومانيه، أما الثانية والأهم هي عدم احترام تلك الآلهة وتقديم قرابين لها بل ونشر دين مغاير مهاجم لها.

أدى ذلك الاضطهاد إلى نشأت جماعات مسيحيه كأقليات في الدولة، منغلقة على ذاتها تشبه في انغلاقها الجماعات الفيثاغورية قديما، كما كانوا يرفضون المشاركة في الحروب الرومانية أو حتى الإنخراط في صفوف جيشهم، لاحظ الشعب الروماني انعزال المسيحيين وانسحابهم من الحياة الاجتماعية للدولة التي توفر لهم الأكل والشرب والحياة الكريمة، والأكثر من هذا توفر لهم الأمان، فرفضوا هذا التواجد السلبي في الدولة هذا من جهة الشعب، أما من جهة الدولة فكانت لها زاوية نظر مختلفة إذ ترى أنهم جماعة منغلقة على ذاتها ترفض احترام دين الدولة الرسمي، وتجمع حولها أناس يرفضون ذات الدين، ترفض المشاركة في الدولة بكل كياناتها فهي إذن جماعة متمردة تسعى للانقلاب على الدولة في أي لحظة.

جماعة يجب قمعها بطرق مختلفه وحدث القمع بالفعل، مثاله "الاضطهاد الكبير الذي افتتح به دقلديانوس عهده سنه 303م فالمصادر المتعلقة بالشرق كثيرة عنه، فأول منشور صدر قضى بهدم الكنائس وإتلاف الكتب المقدسة وتجريد المسيحيين من ذوي الطبقات الرفيعة من كل منصب شرفي"[2]، أو بصلبهم وسلخ جلودهم أحياء أو سحلهم، كما تم وضعهم قبالة أسود جائعة، وتم تقطيع أجسادهم وفرقوها بين الأقاليم كما حدث مع القديس مرقس، قاموا بإلصاق أجساد المسيحيين النحيلة بإطارات مسننة ورميها من جبال عالية، كما ألصقوا ذات الأجساد بغصنين لشجرتين ربطوهما ببعض بحبل ثم قاموا بقطع الحبل لينشطر جسم الشهيد إلى قسمين، فيرمى ذلك الجسد الطاهر في العراء تأكله الوحوش والطيور ولا يتاح لها حتى فرصة تكريمه بالدفن، وغيرها من الأساليب التي تعكس بشاعة الجنس البشري.

جمع المؤرخون أقسى الإضطهادات التي تعرضت لها الأقليات المسيحية في وأطلقوا عليها الاضطهادات العشر وهي على التوالي: "1نيرون، 2دومتيان، 3تراجان، 4مرقس أوريليوس، 5سبتميوس ساويرس، 6 مكسيمينيوس، 7ديسيوس، 8 فاليريان، 9 أوريليان، 10دقلديانوس، لكن هذا التقسيم عرفي اصطلح عليه، وليس معناهأ الاضطهادات حدثت عشر مرات فقط (... بل) لم تتوقف أبدا. ما تكاد تتوقف من جهة، حتى تندلع من

[1] نقلا عن إبرهارد أرنولد: المسيحيون الوائل، تر: هناء عزيز حبيب، مر: عزيز حبيب، مكتبة المنار، القاهرة، دط، 2000، ص ص 75-76.
[2] حبيب بدر: المسيحيه عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، لبنان، ط1، 2001، ص76.

جديد في جهة أخرى. وحتى أكثر الفترات هدوءا كان لها شهداؤها"[1]. فهذه الاضطهادات هي أقسى ما مر على المسيحيين، بلغ فيها التعذيب أشده حتى تضاءل عددهم بشكل كبير، لكن في المقابل لم تزدهم سوى تشبثا بالحقيقة ورغبة في الإرتقاء واللحاق بالرب يسوع.

في هذه المرحلة المسيحية الأولى وإلى غاية النصف الأول من القرن الثالث كانت الجماعات المسيحية تمثل أقليات مضطهدة بشتى أنواع الاضطهاد لكن بشكل متقطع؛ بمعنى أنها تمر بفترات تعذيب تتخللها مراحل هدنة وسلام مؤقت من بعض الأباطرة كالإمبراطور غاليريوس والإمبراطور جالينوس، أما غالب الوقت فكان العذاب هو ما ينتظرهم، إذ متى ما شك أحد الرومان في مسيحية أي فرد قاموا بتبليغ القضاة خوفا من غضب الآلهة، إذ ربطوا كل الكوارث الطبيعية التي حلت بالإمبراطورية بهم، ولأن الآلهة غاضبة منهم فالتبليغ عنهم هو وسيلتهم لإرضائها، يستجوبهم القضاة للتحقق من الأمر ثم تهديدهم بالموت إذا ما تأكدوا ثم إعدامهم فعلا إذا ما أصروا على التمسح.

كان الرومان شديدوا التطلع لهذا الحكم العادل إذ كانوا يحسون بالأمان لأن الآلهة الوثنية راضية عنهم، فكان إعدام هذه الفئة الضالة وسيلة للتقرب من الآلهة واستعطافها، وهو ما تثبته رسالة جالينوس إلى الإمبراطور تراجان والتي جاء فيها التالي: "سيدي إنه من عادتي أن أخبرك بكل شيء بخصوص ما أنا في شك منه، ومن يستطيع أن يرشدني ويمحو جهلي سواك؟ أنا لم أحضر أبدا عذابات المسيحيين، ومن ثم لا أعرف إلى أي حد يكون عقابهم وكيفيه التحري عنهم، أيضا غير متيقن إن كان الزمن قد صنع فيهم اختلافا أو عوملوا بالشدة واللّين أو هددوا بأكثر قوة أو الذين تابوا وتأسفوا أو تجاه من كان مرة مسيحيا وارتد عن مسيحيته، أو من لم يعرف كمسيحي وهو منهم لذا فأنني اعتقد أنه يجدر أن نعاقب كل من سمي مسيحيا حتى وإن لم يرتكب أي جريمة، ويجب أن نعاقب كل الجرائم المرتبطة بهذا الاسم. وبينما اتبعت هذا الاجراء مع هؤلاء الذين بدوا لي كمسيحيين كنت أسألهم إن كانوا مسيحيين أم لا. وإن كنت أكرر عليهم السؤال ثانيه وثالثه وأحيانا كان ذلك يحدث تحت التهديد بعقوبه الموت. وإن قاموا بإصرار كنت أقودهم إلى الموت لأنه وقتئذ لن يكون لدي أي بادرة شك بعد أن يعترفوا على الأقل بعنادهم وتشبثهم الجامد الذي يستحق العقاب.

وقد وجد آخرون كثيرون من مواطني روما جنحوا إلى نفس ذلك الجنون. وقد عملت على أن يرسلوا إلى المدينه وبينما يحدث التحري عن هذه الجريمة انتشر هذا الجنون بأكثر سرعة وظهرت حالات خاصة كثيرة وهنا

[1] يؤانس: الاستشهاد في المسيحية، مطبعة الأنبا رويس العباسية، الإسكندرية، ط4، 1969، ص76.

ظهر شخص ما ليعلن عن عدد كبير من الأسماء الهامة، لذا فقد شعرت أنه يجب عليّ أن ألزم هؤلاء أن ينكروا مسيحيتهم وأن يتبنوا خطواتي ويعبدوا آلهتي وأن يقفوا أمام تمثالك بالبخور والخمر التي آمر أن يجلبوها من أجل هذا الغرض مع تماثيل الآلهة وأن يتركوا المسيح جانبا. لقد قيل أن هؤلاء المسيحيين لا يمكنهم أن يفعلوا أيا من هذه الأشياء تحت أي ظرف. وآخرون مما وصلتنا أسماؤهم أنكروا سريعا مسيحيتهم إنهم كانوا مسيحيين. وفي الحقيقة كانوا قد عاشوا في مسيحيتهم سرا لمدة ثلاثة أعوام أو أطول أو حتى عشرين عاما. هؤلاء سجدوا لتمثالك ولتماثيل الآلهة ولعنوا المسيح. أما من استمروا في تمسكهم بهذا الأمر ليزيدوا من جرمهم وخطأهم فقد كانت لهم عادة أن يتقابلوا في يوم محدد في اجتماع ليرتلوا للمسيح كإله. ولقد أقسموا أن لا يرتكبوا أي جريمة بل لكي يتعهدوا بعدم السرقة أو السطو أو الزنى أو الحنث بالوعد أو خيانة من يثق بهم. وبعد أن يفعلوا ذلك يسلم كل منهم على الآخر ثم يتقابلون من جديد لكي يتشاركوا معا في تناول وجبة ما. وحتى إن قالوا إنهم كفوا عن القيام بذلك فمنذ أن توليت منعت من باب الاحتياط أي تجمعات سريه منغلقه. وقد اعتقدت أن كل هذا ضروري لأكتشف في النهاية ما كان حقيقيا من خلال تعذيب جاريتين لكنني لم أجد إلا بعض الخرافات الكثيرة، لذا أرجأت التحري والآن اتجه إليك طالبا النصح. الأمر بالنسبة لي يستحق النظر فيه خاصة لأن عددا كبيرا من هؤلاء عرضة للخطر وكذلك كل العصور القادمة بما تحمل من طبقات بشرية، الأجناس برتبها في خطر، سوف يزداد عدد من هم في خطر. لقد انتشرت عدوى هذه الخرافة ليس فقط من المدن بل أيضا في القرى والأقاليم. لكنني لازلت أشعر أنه يمكن إيقاف ذلك وإرجاع كل شيئ إلى سابق عهده. وسوف يعود الناس ثانيه إلى معابدهم الجميله التي هجروها والطقوس التي أهملوها ويبدأون من جديد في علف الحيوانات ليقدموها كذبائح والتي صارت لا تباع ولا تشترى. وتعود نفس الجموع الغفيرة من الناس إلى الطرق الفضلى وذلك أن منحت لهم الفرصة أن يتوبوا"[1]

وجاء رد تراجان كالتالي:

" لقد اتبعت الإجراء الصحيح في اختبار هؤلاء المتهمين أمامك بأنهم مسيحيون. فانه لا يوجد حاكم يمكنه أن يلقي سلاحه ويستسلم. لذا لا يجب أن يغض الطرف عن هؤلاء الذين وجدوا أمامك مذنبين بالبرهان بل يعاقبون. إنه من الممكن أن يترك المجال لأي منهم أن ينكر أنه مسيحي. وهنا بالطبع سوف يبرهن على ذلك من خلال عبادته وسجوده للالهة. آلهتنا التي سامحته وقبلت توبته ولن تكون هناك شبهة على ماضيه. أما

[1] نقلا عن إبرهارد أرنولد، مرجع سابق، ص ص 79-81.

بخصوص اتهام هؤلاء المجهولي الاسم فلا يجب التسليم به في أي آلة إجرامية لأن هذه قد تعطي سابقه سيئة وشكلا أقل من المستوى في عهدنا"[1]؛ كانت المسيحيه في هذه المرحلة تعتبر تهمه حاول الكثير من المسيحيين التنصل منها ومن بقي مصرا عليها فقد تم إعدامه في الساحات العامة، فروما هنا لم تكن قابلة لهذا الدين الجديد الذي كان يشكل تحديا حقيقيا لدين روما وتهديدا لأمن الامبراطورية ولسلامها الداخلي.

ب. دولة داخل دولة

عذابات المسيحية لم تزدهم إلا تشبثا بالدين وتمسكا بعهد السيد المسيح، ورغبة في نشر الحق للعالم أجمع، ما جعلهم يلتفون حول كنيستهم وحول رجال الدين، مكرسين حياتهم لخدمتها والتضحية من أجلها والإخلاص لها، وكلما كان تشبثهم بالمسيحية أكثر كلما زاد نفورهم من الوثنية ومن طقوسها، وبالتالي من التعامل معهم في كافة نواحي الحياة، ليس فقط الدينية بل الاقتصادية والسياسية وحتى الابداعية، الثقافية والأدبية، فاضطرت "إلى الإنزواء والمواربة خوفا من البطش؛ ولتجنب مصائب جديدة"[2]، وتجنبا لعبادة الإمبراطور ورفض حرق البخور أمام تمثاله*.

تخلل هذه العذابات مراحل ساند فيها الأباطرة الوجود المسيحي في الدولة ودعموا حرية اعتناق الدين المسيحي وغيره، أدى إلى انتعاش المسيحية نوعا ما وازداد عدد المسيحين بشكل ملحوظ، فاستغل الآباء التسامح الإمبراطوري لبناء أكبر عدد من الكنائس كرمزيه عميقة عن جسد المسيح وعن مصير الإنسان المأمول المتمثل في الفناء في جسد السيد المسيح، وانتظار عودته من جديد ليحكموا العالم.

التمركز حول جسد المسيح زاد من قوة المسيحيين ودعم وجوده معهم رمزيا، فبدأ المسيحيون في تشكيل جماعات متفرقة متكاتفة فيما بينها، لا يزيدهم الاضطهاد إلا تمسكا بالدين، فلم يكن أكل الأسد للأم المسيحية غير شحنة من الطاقة والشجاعة لبقية المسيحيين، ولم ينتج عن صلب العجوز القسيس غير عدد كبير من المتعاطفين المنخرطين لهذا الدين الذي انتشرت صدى معجزاته لجميع أنحاء العالم، فلن ينس الحضور ما قام به الرسول بطرس: "8وَكَانَ يَجْلِسُ فِي لِسْتْرَةَ رَجُلٌ عَاجِزُ الرِّجْلَيْنِ مُقْعَدٌ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، وَلَمْ يَمْشِ قَطُّ، 9هذَا كَانَ

[1] نقلا عن أبرهارد أرنولد، مرجع سابق، ص: 81.

[2] عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقيه، تر: إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافه، مصر، ط1، 2005، ص 38.

* إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور هو رمز الولاء للامبراطورية وتأكيد لهذا الولاء، فهو من ناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التي تطلب إلى من ينالون حق المواطنية، لكن الكنيسة كانت ترى في عبادة الامبراطور نوعا من الشرك وعبادة الاصنام، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينالهم من الأذى بسبب هذا الرفض، ننظر ويل ديورانت، مج 3، ج3، مرجع سابق، ص 370.

يَسْمَعُ بُولُسَ يَتَكَلَّمُ، فَشَخَصَ إِلَيْهِ، وَإِذْ رَأَى أَنَّ لَهُ إِيمَانًا لِيُشْفَى، 10 قَالَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «قُمْ عَلَى رِجْلَيْكَ مُنْتَصِبًا!». فَوَثَبَ وَصَارَ يَمْشِي."[1] أو ما فعله القديس بطرس: "ورَآهُ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ فِي لُدَّةَ وَسَارُونَ، الَّذِينَ رَجَعُوا إِلَى الرَّبِّ. 36وَكَانَ فِي يَافَا تِلْمِيذَةٌ اسْمُهَا طَابِيثَا، الَّذِي تَرْجَمَتُهُ غَزَالَةُ. هذِهِ كَانَتْ مُمْتَلِئَةً أَعْمَالاً صَالِحَةً وَإِحْسَانَاتٍ كَانَتْ تَعْمَلُهَا 37وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَنَّهَا مَرِضَتْ وَمَاتَتْ، فَغَسَّلُوهَا وَوَضَعُوهَا فِي عِلِّيَّةٍ 38.وَإِذْ كَانَتْ لُدَّةُ قَرِيبَةً مِنْ يَافَا، وَسَمِعَ التَّلاَمِيذُ أَنَّ بُطْرُسَ فِيهَا، أَرْسَلُوا رَجُلَيْنِ يَطْلُبَانِ إِلَيْهِ أَنْ لاَ يَتَوَانَى عَنْ أَنْ يَجْتَازَ إِلَيْهِمْ 39.فَقَامَ بُطْرُسُ وَجَاءَ مَعَهُمَا. فَلَمَّا وَصَلَ صَعِدُوا بِهِ إِلَى الْعِلِّيَّةِ، فَوَقَفَتْ لَدَيْهِ جَمِيعُ الأَرَامِلِ يَبْكِينَ وَيُرِينَ أَقْمِصَةً وَثِيَابًا مِمَّا كَانَتْ تَعْمَلُ غَزَالَةُ وَهِيَ مَعَهُنَّ40فَأَخْرَجَ بُطْرُسُ الْجَمِيعَ خَارِجًا، وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْجَسَدِ وَقَالَ: «يَا طَابِيثَا، قُومِي!» فَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا. وَلَمَّا أَبْصَرَتْ بُطْرُسَ جَلَسَتْ، 41فَنَاوَلَهَا يَدَهُ وَأَقَامَهَا. ثُمَّ نَادَى الْقِدِّيسِينَ وَالأَرَامِلَ وَأَحْضَرَهَا حَيَّةً 42.فَصَارَ ذلِكَ مَعْلُومًا فِي يَافَا كُلِّهَا، فَآمَنَ كَثِيرُونَ بِالرَّبِّ"[2]، وغيرها الكثير من المعجزات التي جمعت حول جسد المسيح العديد من الأتباع وتلاميذ التلاميذ، ولم تكن معجزات هؤلاء أكثر شأنا من معجزات السيد المسيح، كل تلك المعجزات والعذابات ساهمت في توسع دائرة الأسرة المسيحية عبر العالم.

ربى القساوسة مواطنيهم تربية صالحة قائمة على تعاليم السيد المسيح بما فيها من تسامح ومحبة وإخلاص وأخلاق فاضلة، جماعات فاضلة منظمة خاضعة لأوامر الباباوات أيا كان الأمر وكأنهم جيش مدرب تدريبا جيدا، ومنظم أحسن تنظيم، جيش رفض الإنظمام للخدمة العسكرية ومشاركة قتلة المسيح في حروبهم؛ أليس جنود الرومان هم من نفذوا حكم الصلب على يسوع المسيح؟، كما ربوا أتباعهم على أن الملك الحقيقي للرب يسوع المسيح وما الإمبراطور إلا ملك على المدينة الأرضية الزائفة.

هناك إذن ملكان متقابلان فكيف يتبعون الزيف ويتركون الحق؟ رغم معرفتهم بزيف الحق لدى الأباطرة؛ إلا أن الأمر لم يمنعهم من طاعتهم شرط ألا يكون هناك أي تعاون بينهم، تعاون يفقد أهلية رجال الدين ويبعدهم عن وظيفتهم التي وجدوا من أجلها: تطعيم الحياة الروحية لا الدنيوية.

في البداية تم الفصل بين سلطة الإمبراطور وبين سلطة رجل الدين المسيحي وهذا الفصل مردّه لمؤامرة دبروها للسيد المسيح أين " 13أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْمًا مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ 14.فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ. أَيَجُوزُ

[1] سفر أعمال الرسل، (14: 8-10).

[2] أعمال الرسل، (9: 8-42).

أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ نُعْطِي أَمْ لاَ نُعْطِي؟ 15«فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ اِئْتُونِي بِدِينَارٍ لأَنْظُرَهُ 16«.فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» فَقَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ 17.«فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ». فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ."[1]، طائفتان مختلفتان بل وغير متفقتين كالفريسيين* والهيروديسيين**، أحدهما ضد ما تطلبه الدولة من ضرائب والأخرى تدفعها وهي راضية، أرسلهم اليهود ليوقعوا يسوع في الفخ، فان هو اختار دفع الضريبة لروما سيثير غضب الفريسيين وكل الطبقة الفقيرة من روما والتي تمثل أكبر نسبة من المسيحيين وقتها، وسيعتبرونه محابيا للسلطة مداهنا لها، وإن هو اختار رفض دفع الجزية خسر الهروديسيين واتهم بالتحريض على الانقلاب وخلق الفوضى في المجتمع الذي يرفض الدفع وينتظر أي حركة ثورية تمردية تنقذه.

وقع يسوع بين اختيارين كلاهما يهدد مشروعه المسيحي فهو إما سيخسر الدولة أو يخسر الشعب، بل أقحموه لمناقشة مسألة في غاية الخطورة وهي علاقة رجل الدين بالسياسي أي العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحيه خاصة وأن لروما طابع خاص في هذا الجانب، إذ لا يمكن للإمبراطور أن ينفصل عن إله الشمس الذي يضمن له الفوز في الحروب كما لا يمكن أن يتنازل الإمبراطور عن رتبة الألوهية التي حظي بها، فالعلاقة بين الدين والسلطة عند الرومان ،لزومية ولم يشهد عصر من عصورها أي انشقاق بينهما بل بالعكس كانت بداية إمبراطورية لاهوتية، ألم يكن رومولوس ابن اله.

---

[1] إنجيل مرقس، (12: 13-17). كما ذكرت في إنجيل متى:" 15حِينَئِذٍ ذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ 16فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ تَلاَمِيذَهُمْ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ بِالْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ 17.فَقُلْ لَنَا: مَاذَا تَظُنُّ؟ أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ 18«فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟ 19أَرُونِي مُعَامَلَةَ الْجِزْيَةِ». فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَارًا 20.فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟ 21«قَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ 22.«فَلَمَّا سَمِعُوا تَعَجَّبُوا وَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا." وذكر في إنجيل لوقا: " 20.فَرَاقَبُوهُ وَأَرْسَلُوا جَوَاسِيسَ يَتَرَاءَوْنَ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ لِكَيْ يُمْسِكُوهُ بِكَلِمَةٍ، حَتَّى يُسَلِّمُوهُ إِلَى حُكْمِ الْوَالِي وَسُلْطَانِهِ 21.فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ بِالاسْتِقَامَةِ تَتَكَلَّمُ وَتُعَلِّمُ، وَلاَ تَقْبَلُ الْوُجُوهَ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ 22.أَيَجُوزُ لَنَا أَنْ نُعْطِيَ جِزْيَةً لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ 23«فَشَعَرَ بِمَكْرِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ 24أَرُونِي دِينَارًا. لِمَنِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» فَأَجَابُوا وَقَالُوا: «لِقَيْصَرَ 25.«فَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ 26.«فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ بِكَلِمَةٍ قُدَّامَ الشَّعْبِ، وَتَعَجَّبُوا مِنْ جَوَابِهِ وَسَكَتُوا."

* الفريسيون: هي فرقة يهودية منشقة عن فرقة الحاسيديم كانوا على علاقة سيئة بالسيد المسيح وهو أيضا كان يصفهم في أكثر من موضع بالنفاق، لم تقتصر عداوتهم مع اليسوع بل مع باقي فرق اليهود، والأكثر من ذلك كانوا على خلاف دائم مع السلطة السياسية لأن الفريسيون يعتبرون أنفسهم أمناء تجاه الله وعلى هذا الأساس رفضوا أن يتلوا قسم الولاء لقيصر، ففرضت روما عليهم غرامة وهو ما أغضب هذه الجماعه وزاد من هوّة الخلاف بينهما. ننظر: راندال إيه. زكري: الطوائف اليهودية في زمن كتابة العهد الجديد، تر: عادل زكري، مدرسة الاسكندرية، الاسكندرية، ط1، 2016.

** الهيروديسيون: هم أتباع هيرودوس الحاكم الروماني بمعنى هم أتباع الدولة ومتملقوها، الراضين بكل أوامرها الدافعين لكل ضرائبها لكسب رضاها، ننظر المرجع نفسه.

وضع اليهود بدهائهم يسوع في ورطة حقيقية وترقبوا إجابته التي سيتورط بها لا محالة، إجابة قد تدلل على رغبة السيد المسيح في أخذ الملك لنفسه وتشييد المملكة المنشودة في روما، بدأ الفريسيون والهيروديسيون سؤالهم بمدح اليسوع وتذكيره بصدقه حتى يستدرجوه للفخ " يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ، لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ"[1] وهم لا يعلمون أنهم يتحدثون مع رب السموات والأرض رب العقول ورب الأنفس، علم بفخهم الخبيث "فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ"[2]، "فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ: لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ"[3]، "فَشَعَرَ بِمَكْرِهِمْ"[4]، وجاء رد الرب مخيبا لظن المنافقين شاملا لفلسفة عميقة قائلا: أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ؛ إذ لم يستأثر الملك لنفسه بل بنص صريح يؤكد على وجود سلطيتين وعالمين عالم زمني يحكمه القيصر وعالم مفارق روحاني يحكمه الله ويحكم العالم الزمني أيضا، ويجب على المواطنين أن يخضعوا للسلطان الزمني خضوعهم للسلطان الروحي.

يجب أن يؤدوا الواجبات التي تفرضها الدولة على كل الافراد ويحترموا القوانين، فيعطوا لقيصر ما يأمر به القيصر، حتى تسير الدولة نحو التقدم والتوسع، مادام الأفراد يشاركون الدولة جغرافيتها وأمنها واقتصادها فعليهم أن يخضعوا لقوانينها ولقيصرها، وهنا تكمن رمزية صورة القيصر على الدينار "ذلك أن ما لقيصر ليس بالبداهة الدينار وحده، بل إن الدينار ليس لقيصر إلا من حيث أن قيصر سكه على صورته، إنه ليس ملكه بالمعنى المألوف للكلمة، وأنما هو رمز سيادته. وعلى هذا فإن تصريح يسوع يدل بجلاء على أن للحكام حقوق سيادة وأن من الواجب احترام هذه الحقوق.(...) هي سلطة قائمة، ولذا فان من الواجب إطاعة السلطة القائمة، أي سلطة، بل ليس بذي شأن أن يكون قيصر وثنيا"[5]، أما عن السلطة الثانية سلطة الله فله الحكم كله لأن الله لم يسبقه فعل العطاء، فالعطاء اقتصر على القيصر أما الله فهو ملك الجميع، ومع ذلك يبق الفصل الذي أحدثه الرب واضحا.

كما تجدر ملاحظة أن المتآمرين سألوه عن الجزية وهي أمر سياسي متعلق بالدولة، وكانت إجابة اليسوع متضمنة في شقها الثاني "الله" رغم أن الله غير مطروح في السؤال، يريد أن يقول أن العالم الأرضي لا ينفي العالم السماوي، ولا يعني الرغبة في الارتقاء إليه تجنب العالم الأرضي، كما لا يعني أن رجل الدين باعتباره المفوض باسم

[1] انجيل مرقس، (12: 13).
[2] انجيل مرقس: (12: 15).
[3] انجيل متى، (22: 18).
[4] انجيل لوقا، (20: 23).
[5] ألبير باية، مرجع سابق، ص ص100-101.

الرب ليخدم الكنيسة هو البديل الأرضي عن الله للتدخل في العالم السياسي، لأن رجل السياسة هو الآخر مفوض من الله ليخدم الدولة ولهذا الكلام الكثير من الأدلة في الإنجيل نجد منها :"1لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، 2حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً 3.فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ، 4لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ، لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثًا، إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ، مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ 5.لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ، لَيْسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ الضَّمِيرِ 6.فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هذَا تُوفُونَ الْجِزْيَةَ أَيْضًا، إِذْ هُمْ خُدَّامُ اللهِ مُواظِبُونَ عَلَى ذلِكَ بِعَيْنِهِ"[1]، نص صريح يقضي بالخضوع للسلطان ودفع الجزية أيضا، أيا كان نوع الحكم وثنيا أو سماويا وهذا ما يؤكده أوغسطينوس من جانب أن المدينه الارضية هي مدينه الفساد والحكم الوثني جزء منها، فهو في دراسته للحكم الوثني لا يركز على نوع الدين بقدر ما يركز على العدالة في الدولة بين المواطنين.

أما الكاهن أو رجل الدين فهو "رب أسرة جسدية أفرادها كلهم مواطنون للدولة يعولهم من عرق جبينه، لذلك فله لدى الدولة حقوق المواطن الكادح، وله أيضا أن يعلن عن رأيه كمواطن مسؤول ويعطي صوته في حينه. كما أن الكاهن أيضا راع للشعب، ولكن بسبب أن الكنيسة لا الدولة هي التي أقامته على الشعب، فانه يصبح مسؤولا عن رعيته أمام الكنيسة وليس أمام الدولة، كما يصبح عليه أن يعلّم رعيته بما تأمر به الكنيسة التي أقامته،(...) ولا يتسلط الكاهن على شعبه كحاكم ولكن كخادم وبخوف من الله"[2]، فرجل الدين في هذه المرحلة هو صاحب وعي روحي لا علاقة له بالقوانين ودساتير الدولة، بل يحذر رجال الدين من اعتلاء أباء الكنيسة لمناصب عليا في الدولة لأن الدولة ومناصبها ستزيد من شهوات الجسد وحبه للدنيا وتفجر فيه حب السلطة التي أخرجت آدم من الجنة، فوظيفة رجل الدين التي وجد من أجلها هي انعاش الجانب الروحي للإنسان وفق تعاليم السيد المسيح لا غير، نشأت إذن داخل روما جماعه مواطنين ينتمون للكنيسة تحت السلطة الرومانية لكنهم في حقيقتهم تحت سلطة الكنيسة-جسد المسيح-، عدد كبير من المسيحيين بأخلاق راقية غير طامحين في سلطة زمنية كل حلمهم هو الالتحاق بالسيد المسيح في ملكوته، مطيعين للكنيسة مستعدين لتلبية أوامرها لحد القتال من أجل إعلاء كلمة الرب.

[1] رومية، (13: 1-6).

[2] متى المسكين: الكنيسة والدولة، دير القديس أنبا مقار برية شيهيت، لبنان، ط7، 2009، ص ص41-42.

المبحث الثالث: من أغسطس إلى أوغسطين.

بعد أن كان المسيحيون قلة مضطهدة شعبا وأنبياء وحواريين، حتى شارفت ديانتهم على الزوال، فقاموا خوفا من ذلك بالالتفاف حول بعضهم البعض وتشكل جماعات منظمة زاهدة في كنف الكنيسة خاضعة لأوامر رجل الدين، ملجأهم الوحيد للنجاة من التهديدات الوثنية لهم.

أولا: الدولة المسيحية

وجد الإمبراطور قسطنطين* العظيم ذو الحنكة السياسية نفسه الطرف الأضعف في مواجهة الإمبراطور مكسنتيوس، ولكي يهزمه في معركته المصيرية؛ معركة جسر ميلفيو(28 أكتوبر 312م) التي ستحدد أيهما سيحكم روما كلها؛ كان لزاما أن يدعم جيشه قليل العدد بجيش آخر يكون أكثر عددا وتنظيما، كما يجب أن يكون جيشا مخلصا لقسطنطين يضمن أنه لن يتخلى عنه مهما كانت المغريات أو المخاوف، عبقرية الرجل وجّهته للجماعات المسيحية المنظمة والتي تمتاز عن باقي الشعب الروماني بأخلاقها الفاضلة والتفافها حول كنيستها والإرتباط الشديد بعضهم ببعض، والأهم من كل ذلك كانوا جماعات زاهدة، كل همهم الخلاص الروحي فلا دوافع تملكيه لأي مركز أو سلطه دنيوية، بمعنى لا خطر من قبلهم يهدد مركزه.

لم يبق أمام القسطنطين غير إيجاد طريقة لضم الجماعات المسيحية إلى صفوف جيشه، في هذه الأثناء انتشر بين المسيحيين خبر رواه يوسابيوس في كتابه حياة قسطنطين "أن الإمبراطور صلّى إلى الله لأجل الإرشاد فأجابه الرب بعلامة الصليب المضيء الذي كان يلمع فوق الشمس الغاربة وقد كتب عليها " EN TO YTO NIKA" أي "بهذه العلامة تغلب"(...) وفي ذات الليلة ظهر المسيح لقسطنطين ومعه صليب النور في يده"[1]، استبشر القساوسة والمسيحيون بهذه الرؤيا وسعدوا أيما سعادة، خاصة وأن تفسيرها بدا واضحا؛ فالمسيح اختار قسطنطين ليكمل نشر رسالته السماوية ويوحد صفوف المسيحيين في العالم، فسارعوا لتحقيق رؤياه بالانضمام لجيشه وكلهم عزم وحزم لتنصيب المختار إمبراطورا لروما.

* قسطنطين: الإبن غير الشرعي للقيصر قنسطنطيوس من محضيته هلينا خادمة إحدى الحانات ولد حوالي 280م، لم يتلق من العلم الكثير، وانخرط مباشرة في سلك الجند أظهر فيها بسالة وشجاعه جعلته ذائع الصيت، بعد وفاة والده أخذ عنه لقب القيصر، انتقسمت روما بفعل الحروب الأهلية الى ثلاث أقسام قسم شرقي بزعامة الامبراطور فلافيوس ليسنيوس، ومكسنتيوس إمبراطورا على إيطاليا، أما قسطنطين فكان أغسطسا على بريطانيا الأفقر اقتصاديا وبشريا، ثم صار بفعل حنكته وقوته إمبراطورا على كل روما بعد أن أزاح كل منافسيه، شهدت روما أسمى مراحل تطورها وتوسعها على كل الاصعدة ،توفي سنه 337م. ننظر ويل ديورانت، مج3، ج3، مرجع سابق، فصل قسطنطين.

[1] نقلا عن جون لوريمر: تاريخ الكنيسة، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1972، ج2، ص 118.

كانت خطة قسطنطين عظيمة إذ كسب جيشا لا نظير له في البسالة والتضحية بالنفس فداء للسيد المسيح، وسواء كان قسطنطين مقتنعا بالمسيحية محبا لها، أو كان مدعيا لكسب الحرب وكسب روما، فإن المسيحيين في كل روما تجندوا لتلبية دعوة الرب يسوع بالإنضمام لهذا الإمبراطور المفوّض المحروس، بل حتى المسيحيين الذين كانوا في جيش مكسنتيوس انسحبوا والتحقوا بالجيش المحروس من قبل الرب، هناك ضمن الأغسطس بدهائه ولاء المسيحيين بأعدادهم الكبيرة فكسب جيشا منظما مستعدا للموت في سبيل تحقيق نبوءة الإمبراطور التي أوحاها له يسوع. وفاز قسطنطين ووحد روما تحت رايته.

كان الأغسطس قسطنطين حريصا بشكل كبير على استمرار الوحدة وتجنب أي شقاق قد يهدم حلمه في قسطنطينية جامعة، وعلى أساسها ارتأى أن ينشر التسامح الديني كعقيدة راسخة في الامبراطورية فكان أن وضع مرسوم ميلانو*، مرسوم منح المسيحية مساحة واسعة للانتعاش والحرية، لكن ما حدث من طرف هذه الجماعات الفاضلة لم يتوقعه الأغسطس، إذ انتشرت خلافات بالجملة وصلت حد الانشقاق بين الجماعات المسيحية، الأمر الذي هدد وحدة روما، مما دفع بالقسطنطين للتدخل شخصيا وحل النزاع.

بداية شرارة الإنشقاق كانت مع القديس آريوس**، الذي رفض فكرة التثليث، ورفض أن يكون الرب يسوع وجودا منذ الأزل مشاركا الآب في أزليته، وعلى هذا الأساس أصدر مبدءا مسيحيا ونشره بين الناس فوجد صدا كبيرا ومعتنقين كثر ينص على ما يلي:"الله لم يكن منذ الأزل أبا، فقد كان زمن كان فيه الله وحده ولم يكن بعد أبا، ولكنه صار أبا فيما بعد، والإبن لم يكن من الأزل، فبما أن كل شيء خرج من العدم، وبما أن الخلائق كلها مصنوعة، فكلمة logos الله أيضا صنع من لا شيء، وقد كان زمن لم يكن فيه موجودا، لم يكن قبل أن صنع، هو أيضا بدأ وجوده في الزمن، الله كان وحده في البدء ولم يكن بعد في الوجود الكلمة والحكمة، وعندما أراد الله في ما بعد أن يخلق خلق كائنا دعاه الكلمة والحكمة والابن، ليخلقنا بواسطته"[1]، ما

* مرسوم ميلان: وهكذا عندما تقابلنا معا أنا قسطنطين أغسطس، وليسينيوس أغسطس، في ميلان وتدارسنا كل هذه الأمور... اقتنعنا بأنه يجب أولا وقبل كل شيء أن تلك القواعد التي وضعت لاحترام الالهة. يجب أن تنظم بكيفية تعطي للمسيحية ولكل الناس الحق في أن يعتنقوا أي دين يرغبونه. نعم لقد انتهينا إلى هذه النتيجة: وهي أن نتبنى هذه السياسة التي تحتم أن نعطي كل فرد حريته في أن نعتنق المسيحية أو أي ديانة أخرى. ومن الآن نريد أن يعلم أن إرادتنا تقتضي إلغاء كل القوانين التي تضمنتها خطاباتنا السابقة بخصوص المسيحيين نعم يجب أن تلغى ومن الآن يمكن لمن يرغبون في اعتناق الديانة السالفة الذكر-المسيحية- أن يبادروا الى ذلك بكل حرية وبدون موانع أو عقبات أو تدخل أو مضايقات" وذلك يوم 12 يونيو 313م. ننظر جون لوريمر، ج2، مرجع سابق، ص119.

** آريوس: كاهن الكنيسة الاسكندرية من أصل ليبي ولد سنة 256م ،كان ناسكا وقورا، اشتهر بعلمه ومهارته في المنطق، اتبع مذهب أوريجانس في مسألة التثليث، ننظر ميشال أبرص، أنطوان عرب: المجمع المسكوني الأول، المكتبة البوليسية، لبنان، ط1، 1997، ص119.

[1] نقلا عن كيرلس سليم بسترس وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، منشورات المكتبة البوليسية، لبنان، ط1، 2001، ص447.

جاء به آريوس خطير للغاية بل لم تشهد الكنيسة إدعاء أخطر منه، إدعاء من شأنه أن يضرب العقيدة المسيحية في صميمها، فهو رفض لألوهية يسوع المسيح والروح القدس.

الله واحد واليسوع هو ابنه والذي يتميز بصفات أعلى من صفات البشر لأننا خلقنا منه، وأدنى من صفات الرب لأن الرب هو الذي خلقه من عدم، وبالتالي فإن يسوع جوهر لكنه جوهر صادر من الله. انتفض أسقف الاسكندرية وجمع حوله أساقفة باقي المقاطعات لمساندته في عزل آريوس وتقويض فكره حتى لا يشوه دين الحق، بدأ الخلاف يتوسع والتكتلات تظهر والشرخ يزيد، الأمر الذي دفع بقسطنطين إلى الإسراع في جمع جميع القساوسة ورجال الدين في ملتقى يكون هو رئيسه* ليحاول مجددا لم شمل المسيحيين، فانعقد مجمع نيقية سنه 325م، وبعد أيام مغلقة تم إصدار الخلاصة التالية: "لا يمكن أن يكون هناك فارق أو مسافة أو زمن بين الآب والابن، لأن الكتاب المقدس يقول "به كون كل شيء" فالابن ليس مخلوقا، ولا من مصاف المخلوقات ولا جزءا منها، بل هو الخالق، والقوة الخالقة بطبيعتها إلهية(...) الابن مساو للآب في الجوهر"[1]؛ الآب والإبن يشتركان في الأزلية، فالإبن هو الرب الخالق ذو جوهر واحد وطبيعة واحدة غير موجود من العدم. وهو ما دعمه أوغسطين لاحقا برسائله التي انتقد بها الفكر الأريوسي.

تم إدانة القديس آريوس ونفيه هو وكل من ناصره؛ مسيحي ينفي مسيحي مثله خالفه الرأي ،كان هذا أول استعمال تعسفي للسلطة السياسية من طرف رجال الدين الكاثوليك، والتي ازدادت حدة وغلّوا بعد اعتماد المسيحية كدين رسمي للدولة، إذ صار رجال الدين يشاركون الإمبراطور في صناعة القرار، تحول على أساسه النفي إلى هجوم مباشر على المسيحي المنشق وحتى غير المسيحي وخاصة أصحاب الديانة الوثنية، يهاجمون معابدهم يحرقونها يهدمونها ويبنون بدلا منها كنائس، يصف أحد الوثنيين المشهد لقسطنطين في شكوى قدمها له بقوله :"أنت لم تأمر بغلق المعابد، لكن الرجال ذوي الثياب السود (الرهبان) يأكلون كالأفيال ويشعلون العبيد بمشروباتهم يهاجمون المعابد بالحجارة والفؤوس، والعتّلات، وحتى بأيديهم وأقدامهم،

* يقول يوسابيوس القيصري في كتابه حياة قسطنطين في وصفه لجلسة الافتتاح في نيقية يوم 20 مايو سنة 325م في القاعة الكبرى للقصر، جلس الأساقفة عن اليمين وعن اليسار. ودخل الامبراطور مصحوبا فقط بمجموعة ضباط مسيحيين وكان يرتدي عباءة أرجوانية فاخرة مرصعة بالذهب والجواهر متألقا براقا كأحد ملائكة الله في السماء. ووقف أمام كرسيه ولم يجلس حتى أشار إليه الأساقفة بالجلوس، وبعد كلمة ترحيب من يوسابيوس أسقف نيقوميدية أجاب الامبراطور بكلمة باللغة اللاتينية وقال أنه يرغب في شيء أفضل من أن يوجد في وسطهم وأنه يتألم إذ يرى إنقساما وخصاما داخل الكنيسة، فهذا شر أردأ من الحرب، وتمنى أن النجاح الذي تم بالنصر الحربي على الطغاة، يتبعه الآن النصر للكنيسة، وأن تبلغ الكنيسة الوحدة وتصبح قلبا واحدا وروحا واحدا وتهب العالم كله السلام والوئام والانسجام، ثم أخذ قسطنطين حزمة من الخطابات التي كتبها له كثيرون من الأساقفة وأحرقها أمام أعينهم" نقلا عن جون لومير، مج 2، مرجع سابق، ص ص 46-47.

[1] نقلا عن ميشال الأبرص وآخرون، مرجع سابق، ص ص 173-174.

ثم يدقون السقف ويسوون الحوائط بالأرض، ويحطمون التماثيل ويهدمون المذابح فلا بد أن يتعذب كهنة المعبد في صمت أو يموتون، هذه الانتهاكات تحدث في المدن وأسوأ منها في الريف"[1]، لا ينكر المؤرخون المسيحيون التجاوزات التي شهدتها الكنيسة، والترف الذي أفسد أخلاق العديد منهم وشوّه الكنيسة الحقّة، صار لهم امتيازات في المحاكم ونفوذا في الحكم، فصار الإمبراطور لا يصدر أي قرار حتى يستشير القس ويوافق عليه.

إنتقل الأمر من مشاركة في الحكم إلى تحكم في الحكم، صار القس يفرضٍ رأيه على الامبراطور ويغضب عليه ويعاقبه، ولنا في رسائل أمبروز دليل على ذلك وبيّنة، في خلافه مع الأغسطس ثيودوسيوس بعد مجزرة سالونيك أين رفض مقابلته وأعلن حرمان الإمبراطور من رحمة الكنيسة ومن ضمن ما جاء فيها: "لست إلا رجلا استولت عليه الضلاله، فأمحها، فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبه"[2] وجاء رد الامبراطور مخالفا لتوقعات التاريخ المسيحي المتخم بالاضطهادات إذ "خلع عن جسده رداءه الامبراطوري، نعني العباءة الأرجوانية وترك أشعرته، وسار وسط الجموع المحتشدة على طول الطريق في ميلانو من القصر الامبراطوري إلى مقر الكنيسة، حافي القدمين، عاري الرأس مطأطئها، يردد صرخات داود بالتوبة، ومع ذلك لم يسمح له أمبروز بدخول القاعة المخصصة للإكليروس ساعة التناول، وأمره أن يقف وسط الجموع، وخاطبه قائلا "إن العباءة الإمبراطورية يمكن أن تصنع الأباطرة، لكنها لا ترسم الكهنة، وقد تقبّل الإمبراطور ذلك بنفس راضية، وأعلن أمبروز الصفح عن ثيودورسيوس، ورفع عنه قرار الحرم الكنسي، وقبل توبته"[3]، هذه هي النقطة الفاصلة والمنعرج الذي أعلنت فيه المسيحية كإمبراطورية بعد أن جاءها الأغسطس ماشيا بأقدام حافية ورأس عاري.

ثانيا: أوغسطين والدوناتية

اللغط الذي حدث حول شخص أوغسطين لم يكن حول الجماعات الآريوسية، أو البيلاجية لأن المسائل العقدية المسيحية كثيرا ما ندرك سلفا الإتجاه والتوجه الذي سينحوه صاحبها، كذلك أوغسطين إذ لم يخرج عن الإطار العام لمجمع نيقيا وباقي المجامع المسكونية، وحتى ترسانة الحجج التي أدرجها وإن اختلفت في الأسلوب فهي لم تخرج عن الطابع العالم لحجج الآباء الأوائل من الحواريين وإلى غاية أمبروزيوس، أما موقف أوغسطين من الجماعة المسيحية الدوناتية هو الموقف الذي أحدث سوء الفهم التاريخي الذي تعرض له

[1] جون لومير، مج 3، مرجع سابق، ص134.
[2] نقلا عن رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة، ، دار قباء، مصر،دط، دت، ج1، ص202.
[3] المرجع نفسه، ص 208.

الفيلسوف، إذ نتج عنه توجيه أصابع الإتهام للرجل، فصار يعرف في صفوف أبناء وطنه بالمجرم الخائن، خائن الأمازيغ السكان الأصليين، خائن الأرض وخائن الوطن، كما أبرز موقفه من خصمه دوناتوس رأيه الصريح من علاقة الدين بالدولة، وعلاقة القيصر بالكنيسة.

اختلف المؤرخون في الفصل بين مسيحية أوغسطينوس الكاثوليكية ومسيحية دوناتوس الدوناتية ومن المحق في حركته، أهو أوغسطين الذي حارب الدوناتية بمعية الجيش الروماني الذي احتّل بلاده، أم الدوناتية التي تمردت على روما وكل من يدعمها ويشرع لاستعمارها، إذ كانت أفريقيا بشمالها تحت الحكم الروماني الذي كان دخيلا مستعمرا لأراضي السكان الاصليين البربر كما تطلق عليهم روما للمنطقة. فبدأت بالتغلغل في الأراضي الإفريقية جزءا جزءا حتى أتت عليها كلها، ويكون التوسع في بدايته عسكريا حتى إن استعصى على روما اخضاع النوميديين وغيرهم لجأوا للخيانات والمؤامرات والخديعة كما حدث على سبيل المثال لا الحصر مع البطل يوغرطة*.

أ.الحركة الدوارية:

لم يتقبل البربر استعمار الرومان لهم فكانوا يقومون في كل مرة بحركات ثورية غير منظمة ومتباعدة فيما بينها جغرافيا وزمنيا، أبرز هذه الحركات المستميتة نجد الحركة الدوارية Circumcelliones والتي حدث حولها لغط كبير إذا ما كانت جماعة من اللصوص وقطاع الطرق أم جماعة رهبانية متعصبة، وبرغم الإختلافات اتفقت أغلب الكتب التاريخية بمعية النصوص المسيحية على "أنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية مكونة من رجال أحرار يعيشون في البوادي، وينتمون –في معظمهم على الأقل– إلى أصل إفريقي غير مرومن أو قليل الترومن، ويتضح أن مكانتهم الاجتماعية كانت وضيعة، بالرغم من احتفاظهم بحريتهم في التنقل وتكوين أسرهم وامتلاك ثرواتهم، (...)ومن جهة ثانية، فإن الإشتقاق اللغوي الراجح لكلمة دوارين Circumcelliones هو أنهم أولئك الذين يدورون حول مخازن المؤن الموجودة في الضيع"[1]، كانوا يدورون بحثا عن العمل.

*ننظر جمال مسرحي: المقاومة النوميدية للاحتلال الروماني من سيفاقس إلى تاكفاريناسئس، موفم للنشر، الجزائر،دط، 2015، ص131.

[1] محمد المبكر: شمال افريقيا القديم حركة الدوناتيين وعلاقتها بالدوارية، منشورات كلية الاداب، الرباط، ط1، 2001، ص117.

جاء عنهم في رسالة أحد القساوسة الكاثوليك للدوناتيين المدعو أبطاتوس* يقول:" لم يكن أحد يأمن على ممتلكاته عندما كان أولئك البشر يتسكعون في أماكن مختلفة، (...)فلم تعد للاعترافات بالديون أي قيمة، ولم يصبح باستطاعة أية دائن أن يرغم مديونه على الآداء، أصبح الكل يعيش في رعب خوفا من رسائل أولئك الذين يتبجحون بصفتهم زعماء، وإذا ما تباطأ أحد في تنفيذ مطالبهم، فإنه كان يعرض نفسه لعصابة مجنونة تصل فجأة، ويسبقها رعب رهيب، فتحيط الدائنين بالمخاطر. وهكذا، فبدل أن يتلقى الدائنون الشكر على عملهم، أرغموا تحت التهديد على التصاغر، وأصبح كل واحد منهم يسرع في التخلي عن الديون التي منحها مهما كانت كبيرة"[1]؛ قبل الانجراف خلف الحكم الذي أطلقه القساوسة على الزعماء كان لزاما إلقاء الضوء على الديون وكيف كانت تعطى وما المقابل لها.

إستوطنت روما في الأراضي الإفريقية واستولت على ممتلكات مواطنيها، وصار الملاك الأصليين عبيدا لدى الملاك الجدد المغتصبين، يعملون في ظروف سيئة جدا لا منصف لهم ولا قانون يحميهم، خسروا أراضيهم وحريتهم وحقوقهم وفوق هذا صاروا عبيدا دون أجر "إنتزع الرومان من البربر جل أراضيهم، وأثقلوا كاهلهم بالضرائب وأدخلوهم في الجندية ولم يحفلوا بحقوقهم الطبيعية (...) وأما الضرائب فإنها من أهم مقاصد الاستعمار الروماني، وهي وإن كانت مختلفة المقادير متحدة في كونها فادحة. وتنقسم إلى أربعة أقسام: 1- الآداء الشخصي: وهو واجب على الرجل والمرأة، ومقداره مختلف. 2- الآداء على العقار (...)، 3- الآداء على التجارة الخارجية (...)، 4-سخرة إدارية: منها تموين الجند وإسكانهم(...)، وكانت الدولة لرومانية لا تتولى استخلاص الضرائب، وإنما تسندها إلى أعيان يتولونها، هؤلاء المستخلصون كانوا يسمون "العشارين" تتفق معهم الدولة على مقدار يؤدونه لها من أموالهم، ويجبون من الأهالي ما يشاؤون. ولهم جنود يستعينون بهم على قبض الضرائب حتى أنهم في خروجهم لاستخلاص أشبه شيئ بالخارج للغزو"[2]، وبقدر قساوة الظروف التي فرضها العشارون كانت قساوة الظروف التي عاشها الأسياد الذين استحالوا عبيدا.

*أبطاتوس أسقف ميلة عاصر أوغسطين وتحالف معه ضد المسيحيين المتهتكين ويقصد بهم الدوانتيين، ترك الكثير من الكتب المهمة منها كتب في تاريخ مذهب دوناتوس. وتعتبر مؤلفاته ومؤلفات أوغسطين حول الدوناتية المرجع الوحيد والأساسي الذي يعتمد عليه المؤرخون لدراسة الدوناتية نظرا لإحراق كتبهم ومطاردتهم . ننظر محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي،ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1989، ص 306.

[1] نقلا عن محمد المبكر، مرجع سابق، ص 271.

[2] المرجع السابق، ص ص 278-279.

كان العشارون يفرضون تسعيرات على أصحاب الحق والملك، مبالغ غير متفق عليها مع الدولة بل كانت تابعة لشهوتهم للمال التي لا تشبع فكلما فرضوا مبلغا مرة طلبوا ضعفه في المرة التي تليه، ومن يعجز عن السداد تسلب منه ممتلكاته تباعا حتى يستولوا على كل شيء فينتقلوا للديون، بأن يكتبوا أسماءهم في سجلات كنوع من تقييد الدين بل تقييد للحرية؛ يخبرنا عنها المؤرخ مرسيي :"صار يقيد أسماءهم ذكرانهم وإناثهم وصغارهم وكبارهم، وتضبط أموالهم، واتخذ لذلك جواسيس حتى صارت المرأة تسعى بزوجها والولد يسعى بوالده"[1]، هنا زاد حنق وحقد البربر على الرومان وكان هذا الأمر من أهم أسباب الثورات الشعبية، أبرزها كانت الحركة الدوارية التي صار حربها على العشارين مبررا بل وبطوليا، إذ كانوا يحاربون المغتصب الظالم الذي أفقر الشعب واستعبدهم، فمثلما كان جمع الضرائب والديون يشبه الحرب في رعبها كذلك طبق الدوارون نفس الرعب لإعادة الحق لأصحابه، ولم يجدوا في ذلك سبيلا قانونيا أو حواريا فلجأوا إلى العنف المتبادل؛ العنف الذي استخدمه العشارون بمعية الجنود الرومان ابتداء، النص صريح جدا خاصة وأن أعداء الدوارية هم من أرّخوا للحوادث؛ فالعنف لم يكن يطال كل الناس بل فئة بعينها، فئة العشارين أو الدائنين، فكل دائن تخلى عن دينه فهو آمن لن يتعرض له أحد من المناضلين بإسرائيلياتهم، وبالتالي لم يكن القتل هدفهم ولا حتى سلب ممتلكاتهم، بل تحرير الفقراء من ديونهم ومن العقوبات التي تطالهم جراء عدم الدفع.

كانت النصوص التي أدرجها الكاثوليك في رسائلهم لذكر عيوب الدوارين وجرائمهم دليلا على براءتهم وشهامتهم وشجاعتهم يقول أبطاتوس :"والطرق نفسها لم تكن آمنه: فقد حدث لبعض الأسياد أن أنزلوا من عرباتهم وأرغموا على الهرولة أمام خدمهم الذين تبوءوا مقاعد الأسياد. هكذا قرر أولئك الناس قلب وضعية الأسياد والعبيد رأسا على عقب"[2]، يرى الرومان أعمالهم جرما عظيما في حق الأسياد البرجوازيين ويراه الضعفاء المستضعفون بطولة، وتطبيبا لجرح عبد كان يوما ما سيدا حرا في بلده، لم يجد من يحميه أو يعيد له كرامته بعد أن يأس من أن يعود حقه. كانوا أبطالا في نظر المظلومين.

يقول أوغسطينوس :" 91 أنا لا أتكلم عن الذنوب التي يمكن أن تنكروها. 92 ولكن عن الضربات والحرائق وجرائم القتل التي يقترفها ذووكم في وضح النهار"[3]، ويقول في نص آخر :" 156 ضربات وحرائق وأعمال خرقاء تقترف بدون قانون.

[1] مبارك الميلي، مرجع سابق، ص 279.

[2] نقلا عن محمد المبكر، مرجع سابق، ص 271.

[3] أوغسطينوس: مزمور ضد الدوناتية، تر: محمد المبكر، منشورات كلية الاداب، الرباط، ط1، 2001، ص 272.

157 وقد قيل في الكتاب المقدس: "رد سيفك إلى مكانه". أما هم فلا يتورعون عن الضرب بالعصا.

158 لا ليقتلوا ضحيتهم ولكن ليشبعوها تكسيرا.

159 فتموت من جراء ذلك الضرب، بعد أن ينهك التعذيب قواها.

160 ولو أخذتهم الشفقة من ضحيتهم لكانت ضربة واحدة كافية لقتلها.

161 يسمون هرواتهم إسرائيل وهو اسم قاله الله للتشريف.

162 فيلطخون الاسم نفسه أكثر مما يهينون الجسم بضرباتهم.

163 يا من تحبون السلام، احكموا الان وقولوا أين الحق؟."[1]

-من النص يتضح نوع الأسلحة التي كان الدواورن يستخدمونها والمتمثلة في الهراوات وحسب ما تذكره كتب التاريخ فاستخدامهم للهروات راجع لنوع العمل الذي كانوا يسترزقون منه وهو جني الزيتون-

هذه النصوص التي عبر من خلالها أوغسطين عن فضاعة جرائمهم وبشاعة أساليب التعذيب التي كانوا يمارسونها على المستعمر الذي اغتصب حقوقهم واستلب حرياتهم، أليس هذا أبسط ما يمكن فعله تجاه المستعمر؟ أليست هذه هي وسيلة التواصل الوحيدة مع مستعمر؟ أليس هذا ما يجب أن يقوم به كل مواطن حقيقي يرفض الترومن؟ وهل كان المستعمر من يبادل الحب للبربر؟ أم كانوا محترمين لخصوصيتهم وومتلكاتهم وهوياتهم وحرياتهم؟ هل يجب أن نعدد جرائم الرومان في حق الأراضي الإفريقية قبل أن تستوطن فيها ظلما وجورا؟

نحن الآن أمام جماعة يمكن وبسهولة بعد هذه النصوص وغيرها الكثير اعتبارها جماعة ثورية ريفية ضد الاستعمار الأجنبي، ثورة قام بها جماعة من المناضلين الأبطال لحماية مواطنيهم ومحاولة استرداد أرضهم "ثورة ريفية لها مبادئها وأهدافها، وهي أهداف تتلخص في القضاء على النظام الاجتماعي القائم، كما يرمز إلى ذلك قلب الأوضاع بين العبيد والأسياد، وبين المديونين والدائنين. وربما كانت تلك المبادئ مستقاة من مبادئ المسيحية البكر (في أصولها الأولى) وانعكاسا لتأثير ديني يقول بالمساواة بين المؤمنين في يوم آخر تنقل فيه الأدوار بين الأقوياء والضعفاء، وبين المضطهدين والمضطهدين، بين الأمراء (الوثنيين الذين يمثلون الشيطان) والمؤمنين المعذبين"[2]، كانت رمزية قلب المناصب التي كان يقوم بها الدواورن قوية جدا، تعطي دفعا قويا

[1] أوغسطينوس: مزمور ضد الدوناتية، مصدر سابق، ص 278.

[2] محمد المبكر، مرجع سابق، ص122.

للسكان الأصليين العبيد لمواصلة العيش أملا في حياة عادلة في وطن مستقل، يعود فيه الحق لأصحابه بالعودة إلى مناصبهم وممتلكاتهم، فكان البربر محبين للدوارين ملتفين حولهم داعمين لهم.

الجدير بالذكر أن الحركة الدوارية لم تكن شرذمة من الرجال الثائرين بل كانت حركة شعبية قوية تركزت في الشرق الجزائري وبالأخص تاموغادي (تيمغاد)، وباغاي (مقاطعة جنوب خنشلة) ومصكولة (خنشلة) وشملت الجزائر كلها عموما، حسب المعارك التي سجلتها كتب التاريخ آنذاك والتي استدعت لخطورتها وعددها الكبير أعلى هيئة عسكرية رومانية للتدخل وهي "كونت إفريقيا"، وكانت من بين تلك المعارك ما حدث سنة 372م ثار فرموس (إبن رجل بربري يدعى نوبال والذي كان زعيم القبائل الخمس) على الرومان بجبال جرجرة، وأعانه أهل الموريطانيين وأتباع دوناتوس، فجمع من الجنود نحو عشرين ألف ذهب بها إلى القيصرية حاصرها ثم افتححها وأحرقها، وامتدت الثورة بنوميديا"[1] ، كلها كانت رافضة للاستعمار الروماني. أليست البشاعة الحقيقية في الاستكانة للمستعمر وتقبله في أرضنا والتعايش معه؟.

هنا مربط القضية فهل أصبح أوغسطين خائنا بعد أن رفض الثورات الشعبية المدافعة عن استقلال الوطن؟ ألم يكون أوغسطين وطنيا؟ هل باع وطنه للرومان؟

ب. الحركة الدوناتية:

بداية القصة تعود لزمن الاضطهاد الروماني للمسيحية والتي كانت بالأشكال البشعة التي سبق ذكرها، وكان من ضمن أشكال الاضطهاد ما تأجل الحديث عنه للآن لأنه مرتبط أشد الارتباط بالحركة الانفصالية الدوناتية المسيحية، والمتمثل في الاستيلاء على الكتاب المقدس، سنة 304م "كان الاستيلاء على الكتب المقدسة هو إحدى الوسائل التي استخدمها الأباطرة في اضطهاد الكنيسة، وكانت الكتب تنسخ باليد ولذلك كانت نادرة، وكانت تحفظ بعناية بالغة في الكنائس، وكان الجنود يذهبون الى الكنائس ويطلبون من الكهنة تسليم كل نسخ الكتاب المقدس، فإذا رفضوا هذا الطلب قبضوا عليهم وعذبوهم عذابا بالغا وكثيرا ما كانوا يعدمونهم"[2]، واعتبروا رجال الدين الذين تخلوا عن الكتاب المقدس خونة، إذ كان حريّ بهم أن يسلموا أرواحهم على أن يسلموا كتاب السيد المسيح إلى حتفه، لكنهم اشتروا أرواحهم بحرق الكتاب المقدس، فقام القساوسة الشرفاء بتوثيق الخيانة وتسجيل أساميهم في سجل حتى لا ينسى التاريخ جرمهم وحتى يعرفهم جميع القساوسة الذين لم يشهدوا خيانتهم، فيتصدوا لهم ويمنعوهم من تولي أي منصب في الكنيسة، إذ صاروا خطرا

[1] مبارك الميلي، مرجع سابق، ص 308.

[2] جون لورير، ج2، مرجع سابق، ص 122.

عليها غير مؤهلين لخدمتها أو تمثيل السيد المسيح بين رعاياها، فهم يوم فضلوا حماية أرواحهم على حماية الكتاب المقدس، يومها أعلنوا امتناعهم عن حماية كلمة الرب وتعاليمه، وهو الأمر الذي سيتكرر إن تعرضوا لنفس الضغوطات التي تعرضوا لها من قبل.

وهنا طرحت أكثر القضايا التي أثارت جدلا في الشمال الإفريقي بين أوساط المسيحين،

فكان أن طرحت قضية أثارت جدلا في الشمال الافريقي في أوساط المسيحيين، وفي الوقت الذي كانت قضية الأريوسية منتشرة في الجزء الشرقي من الامبراطورية، والمتمثلة في المشكلة التالية: هل تتجاوز الكنيسة عن غلطات هؤلاء القساوسة وتحتضنهم من جديد رغم معصيتهم، أم تعفوا عنهم لكن تحرمهم من خدمتها لأن معصيتهم لا تؤهلهم لخدمتها مجددا؟ هنا انقسمت الكنيسة إلى مؤيد لعودتهم إلى الخدمة الكهنوتية وبين معارض لها؟

الذي حدث أن "منصوريوس Mensurius ناظر كنيسة قرطاجة، قد توفّاه الله قبل سنتين من تسلّم قسطنطين عرش الامبراطورية، فاختير أحد المدبرين في الكنيسة، ويدعى كايكيليان Caecilien ليحل محله، لم يرض العديدون في الكنيسة بهذا الاختيار. على اعتبار أن سلوك كايكيليان وتصرفاته خلال الاضطهاد، أظهرت أنه لا يستحق أبدا أن يتبوأ مثل هذا المركز. لقد عارضوا هذا التعيين، تماما كما حدث قبل ستين سنة، عندما قاوم نوفاتوس ومناصروه اختيار كبريانوس لمثل هذا المنصب. لقد قالوا إن هذا التنصيب هو باطل في نظر الله، ذلك لأن كايكيليان هو خائن، كما أن أحد أولئك الذي أقروا تنصيبه، وهو الناظر فليكس، كان أيضا مذنبا لأنه سلّم كتبا مقدسة إلى السلطة الوثنية"[1]، في نفس المنطقة وهي قرطاجة كان هناك جماعة مسيحية نزيهة تصدت لتنصيب كايكيليان لأنه خائن، ورفضت أن يتولى أي منصب في الكنيسة فما بالك بأن يترأسها. وهي جماعة القديس دوناتوس ورفاقه.

هنا تدخل الإمبراطور قسطنطين –كما تدخل سابقا– لحل هذا الخلاف الذي أدى هو الآخر إلى انقسام الكنيسة الامر الذي أزعج الامبراطور، فأمر بحل الخلاف سريعا والعودة إلى المحبة والسلام والتآخي قيم المسيحية الأولى، لأنه لن يقبل بأي انشقاق جديد قد يحطم ما بناه على مر سنين، واعتبر أن هذه المشكلة سهلة، ويكون تجاوزها بالصفح عن المخطئين وإعادتهم إلى صفوف الكنيسة لأن الدين المسيحي هو دين تسامح قبل كل شيء، ويجب أن لا تضخم الأمور حتى لا تتجاوز عواقبها الخط الذي لا رجعة منه، وحتى لا تشهد الدولة حروبا دينية تكون أشد فتكا من الحروب الشعبية أو الوطنية.

[1] روبين دانيال: التراث المسيحي في شمال إفريقيا، تر: سمير مالك وآخرون، دار منهل الحياة، بيروت، دط، 1999، ص 234.

كان الأغسطس عارفا بتفاهة المشكلة وخطورة عواقبها لهذا أسرع إلى وضع قوانين تنص على ضرورة التآخي وتقبل المخطئين ومسامحتهم، وتجاوز ما قاموا به فيما مضى، توصل إلى هذا القرار بعد أن كلف لجنة "قوامها خمسة عشر ناظرا إيطاليا وثلاثة نظار غاليين، وذلك برئاسة ناظر كنيسة روما، ودعاها إلى الاجتماع في العام 313م في روما في آرل. كان على المجتمعين أن يستمعوا إلى كل من الجانبين المتناحرين. وأن يتأكدوا من حقائق هذه القضية، ويحاولوا التوّصل إلى تسوية، فكانت النتيجة أنهم رسخوا براءة كايكيليان. وهكذا تم إرسال مبعوثين إلى إفريقيا لإعلام الكنائس هناك بأن الكنيسة الكاثوليكية العالمية تدعم كايكيليان"[1]، الأمر لم يرضي دوناتوس ورفاقه بل أصروا على رفض الخونة وبقوا يراسلون الأغسطس لإعادة النظر في القرار الذي اتخذه، لأن قرار كهذا يعني أن الامبراطورية الرومانية تتبنى كنيسة الخونة وتدعمها بجيشها وتمويلها المادي وحمايتها المعنوية.

استجاب قسطنطين لطلب دوناتوس وأمر بإرسال لجنة ثانية أكبر، فيها ضعف اللجنة الأولى من النظار فاجتمعت "في العام 314م (...) مالا يقل عن ثلاثة وثلاثين ناظرا، فتمت للمرة الثانية تبرئة ساحة كايكيليان، واعترفوا به ناظرا لكنيسة قرطاجة (...و) في عام 316م (اتخذ قسطنطين وبحزم) خطوات قانونية لوضع قرار آرل موضع التنفيذ"[2]، بعد أن أعلن الامبراطور تبنيه لكنيسة الخونة، لم يقبل دوناتوس القرارات الصادرة وأعلن هو الآخر انشقاقه عن الكنيسة العالمية وبالتالي عصيانه لقسطنطين، وبالتالي عداؤه للدولة وأي عداء؟ جماعة بربرية تعادي إمبراطورية رومانية.

أعلن دوناتوس رفضه للحكم الذي صدر عن الدولة، واعتبر أن تدخل الدولة في أمور عقدية أصلا غير مقبول، لأنها ومهما بلغت من المعرفة والحكم الرشيد فلن تفهم حقيقة الخلاف، ولن تستوعب معنى خيانة الكتاب المقدس، لأن رجل الدولة يهتم أولا وأخيرا بالسير الحسن لشؤون الدولة على حساب أي سلطة أخرى وإن كانت الدين، ولهذا فان القضية يجب أن تخرج من حكم السياسي وتبق في حدود الكنيسة ورجالها، فهي غير مؤهلة لفض أمور الدين.

عند تنصيب كايكيليان بين الأساقفة سنة 311م، نصب المنشقون في المنطقة نفسها من قرطاجة جنوب نوميديا المدعو "مايورينوس Maiorinus الذي لم يلبث أن قضى نحبه، فخلفه دوناتوس Donatus الملقب بالاكبر، والذي أعطى إسمه للدوناتية (أكد الدوناتيون أن هناك شخصين يدعيان

[1] ج. ويلتر: الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع الدينية المسيحية، تر: جمال سالم، دار التنوير، بيروت، دط، 2007، ص 235.
[2] المرجع نفسه، ص 235.

دوناتوس: دوناتوس أسقف الديار السوداء بنوميديا، وهو الذي صدر في حقه أول حكم ضد الدوناتية، ودوناتوس الاكبر الزعيم الدوناتي المشهور الذي قاد كنيسته بعدئذ وإلى غاية حوال 355م، لكن المحدثين يتفقون على شخص واحد يحمل هذا الاسم"[1]، وكان لكلا الكنيستين أتباعهما، وهذا ماكانت الامبراطورية تخشاه أن ينقسم الشعب لأي سبب كان، فشددت على الدوناتية كونها دعمت بعد قرار آرل الكنيسة الكاثوليكة أن تعود تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية وإلا ستعتبر تمردها عصيانا، لم يكترث الدوناتيون للتهديد واعتبروه جهادا من أجل الحق ولم يبالوا بالتهديد الذي تحقق فعليا بالنفي ومصادرة الممتلكات وكذا مصادرة كنائسهم وضمها للكنائس الكاثوليكية، كما منعوا من أي تجمع قد يهدد أمن نوميديا، أحس حينها أبناء الأرض أنهم مضطهدون من قبل مسيحية مزورة وجماعة منحرفة عن الحق، ومن قبل إستعمار أجنبي، الاثنان لا حق لهما لا دينيا ولا سياسيا ولا جغرافيا، وبالتالي فان الثورة على الباطل هي الحل. فهم الآن بصدد مواجهة الإضطهاد مثلما واجهوه مع الوثنيين من قبل بالرغم من أنه لم يمر وقت طويل على توقفه.

لم يهب الدوناتيون من تهديدات السلطة الرومانية بل زادهم الأمر عزيمة وحضروا أنفسهم للتضحية من أجل الحق والاستشهاد من أجل الكلمة، إلتف الكثير من المواطنين البربر حول هذه الكنيسة المضطهدة، فمنهم من كان ضد الكاثوليك ولا نقصد بالكاثوليك هنا الفرقة الدينية المسيحية عموما بل نقصد بها هؤلاء الكاثوليك أتباع كايكيليان، ومنهم من كان ضد الرومان وضد ظلمهم المبالغ فيه تجاه الفقراء والأغنياء الذين أفقرو ظلما واغتصابا، ولم يقتصر الأمر على الطبقة الفقيرة من البربر النوميديين بل كان الأغنياء والطبقة البرجوازية أعضاء منها أيضا "من أمثال المدعو كريسبس من مدينة كالاما (قالمة حاليا)، الذي أعاد معمودية ثمانين من عماله الكاثوليك سابقا. وقد أدى دعم هؤلاء الرجال ذوي النفوذ الكبير إلى تشجيع الأعضاء الأقل شأنا على اتباع هذا النهج أيضا، كما أنه زودهم ببعض الحماية"[2]، هذا التعدد في الأعداء والتعدد في الأسباب، جعل شعبية الكنيسة المضطهدة تتوسع، وجعل مريديها يكثرون، ووحدوا معا خطاهم فكان لهم هدف واحد على الرغم من تعدد طرق التعبير عنه، هدفهم هو إعادة الحق لأصحابه.

لكن هل هذا يعني أن الدوناتية بزعامة دوناتوس الأكبر ذو الشخصية القوية الحازمة شكل جبهة لمحاربة الرومان؟ هل أعلن الحرب على الامبراطورية الرومانية؟ هل كانت تلك المعارك التي كانت تحدث في معقل الدوناتية (الشرق الجزائري على وجه الخصوص) كانت تحت تخطيط الجماعة المسيحية وبتنفيذ الدوارية؟ هل

[1] محمد المبكر، مرجع سابق، ص ص27-28.

[2] روبين دانيل، مرجع سابق، ص236.

كانت الحركة الدوارية سلاح الدوناتية؟ وفي المقابل هل استعانت الجماعة الكاثوليكية كسلطة روحية بالسلطة الزمنية للقضاء على الجماعة الدوناتية؟ كيف كانت حقيقة العلاقة بين الدين والدولة عند أوغسطين خاصة وأنه كان من أهم المشاركين وأحد أهم أطرافها؟

تعرض الدوناتيون إلى قمع شديد من طرف الدولة أدى بهم إلى طلب تطبيق قانون التسامح، قانون يضمن لهم العيش بسلام مع أتباعهم دون تعرض من أحد، فتوافق الدولة أحيانا لكن سرعان ما تلغيه بتحريض من الكنيسة الكاثوليكية التي ترغب في احتواء أعضاء الدوناتية وتوحيد الكلمة، كما حدث في بداية سنة 410م باقرار مرسم امبراطوري للتسامح مع الدوناتيين قام بتنفيذه هرقليانوس كونت افريقيا وفي 25 أوت 410م قانون جديد يبطل مرسوم التسامح"[1]، ومن أجل أن يحمي الدونانتيون أنفسهم ودينهم من ضربات الدولة المتتالية استعان بعض رجال الدين منهم بالدواريين، ولم يتفق كل الدوناتيون على التعاون مع الحركة الشعبية الدوارية، لكن هذا لا يمنع كون الدواريين قد اعتنقوا التوجه الدوناتي لأنهم كانوا ضد الدولة وضد كل ما يمت لها بصلة ومنها الكاثوليك الخونة، فما كان لهم سوى الالتفاف حول كنيستهم المضطهدة، وهنا تجدر الإشارة الى كون الحركة الدوارين وان اعتنقت الدوناتية فهذا لا يعني على الاطلاق تبني الدوناتية لكل عمليات الدوناتية التمردية، أو تكون هي بالضرورة من أمرهم بالقيام بذلك.

الدوارون هم دوناتيون، هي الفكرة التي ركز عليها زعماء الكاثوليك من أجل محاربة الدوناتية وتحريض الدولة على التدخل ومواجهتها، وكان رد الدوناتية بقولهم أن كون الدوارون دوناتيين لا يعني أن الدوناتيين هم دوارون بالضرورة، ويعود سبب هذا الربط إلى ما حدث سنة 347م بإقليم باغاي، أما قبل هذا التاريخ فإن أي ربط بين الحركتين هو من قبيل الإدعاء أو من قبيل تصرفات فردية صادرة عن رجال دين دوناتيين طلبوا المساعدة والحماية من المناضلين، ما يؤكده قول أوغسطين :"وعندما نحيط الدوناتين بأفعالهم الشائنة، فإنهم يتظاهرون بجهل تلك الشرذمة البغيضة، ويؤكدون بوقاحة عكس ما يعرفه الجميع حق المعرفة، أنه لا علاقة لهم بها."[2]، يصر أوغسطين على أن العلاقة وطيدة بين الدوابين والدوناتيين، إلا أن الدوناتيين يرفضون ذلك وينكرون أي صلة تربطهم به.

ما حدث في تاريخ 347م بباغاي هو الفاصل، ففي هذا التاريخ حدث تلاحم واتحاد في المطالب بين المضطهدين دينيا واجتماعيا فكانت الثورة. يخبرنا قس ميلة أبطاتوس عن ذلك بقوله :"لقد أتى بولس

[1] نقلا عن محمد المبكر، مرجع سابق، ص ص 252-253.

[2] أوغسطين: مزمور ضد دوناتوس، مصدر سابق، ص ص 285-286.

ومكاريوس لعد الفقراء وحثهم على الوحدة وعندما اقتربا من مدينة باغاي ، أراد دوناتوس أسقف المدينة إقامة العراقل للوحدة وإثارة المشاكل للوافدين على المدينة، لذا بعث المنادين إلى الأماكن القريبة وإلى كل الأسواق ليستنفر الدوارين المناضلين، ويطلب منهم التجمع في مكان عينه لهم وهكذا طلب العون من أولئك الذين كان الأساقفة أنفسهم يرون قبل قليل جنونهم اشتعل بطريقة مدنسة. (...)، برسالة إلى الكونت طورينوس يخبرونه فيها أن مثل هؤلاء الناس لا يمكن إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة، لذا طلبوا منه إرجاعهم إلى الطريق السوي. واستجابة لهذا الطلب، أرسل طورينوس جنودا مسلحين إلى الأسواق حيث اعتاد الدوارون القيام بأعمالهم الخرقاء وهكذا تم قتل العديد منهم أي الدوارين وجرح عدد كبير آخر (...) وقد تزايد عدد الدوارين بعد ذلك ، وهكذا تمكن دوناتوس الباغائي من حشد جمهرة ثائرة لمواجهة مكاريوس، (...) لقد كانت عندهم حشود لا تحصى استحضروها ومن الثابت أنهم جمعوا المؤن الكافية لإطعام تلك الحشود، هؤلاء الفرسان الذين أرسلهم أولئك الذين أثارت دعايتكم الحقد عليهم، تعرضوا للضرب والعنف الذي مورس عليهم وعانوا منه، (...) إلتحق الجنود الجرحى ببقية الفرقة العسكرية وتأثروا لما أصاب إثنين أو ثلاثة منهم ولم يتمكن قادة الجيش من ضبط جنودهم الغاضبين. وهكذا وقع ما وقع لمواجهة الحقد ولصالح الوحدة، فعانيتم من ذلك ماعانيتم"[1]، هذه كانت الرواية على لسان أبطاتوس.

أما أوغسطين فقال :"رفضتم تلك العطاءات، ومن ثم فلستم مني (أي من الكنيسة). واضطررتم مكاريوس إلى الانتقام للشرور التي أصابته (على يدكم)"[2]، كانت هذه وجهة نظر الكنيسة الخصم في القضية وعلى الرغم من كونهم يهاجمون الدوناتية ويحملونهم ذنب تلك المجزرة التي حدثت في باغاي إلا أنهما معا أبطاتوس وأوغسطين يقران أن ما حدث يومها كان فضيعا في حق البربر وعدد الجثث كانت كبيرة جدا، حتى أنهم منعوهم من دفن موتاهم القساوسة الدوناتيين في الكنائس كما جرت العادة، ويقران معا أن الجنود بالغوا في الانتقام بقتل الدوارين والدوناتيين لمجرد جرح زملائهم.

الطرح الكاثوليكي يزعم أن هناك فرقة عسكرية زارت نوميديا محمّلة بالمعونات للطبقة الفقيرة من المواطنين فقام الدوناتيون بجمع الدوارين وهاجموا تلك القافلة العسكرية، لكن للقضية وجهة نظر ثانية وهي وجهة نظر الدوناتيين، العام الذي حدثت فيه المعركة غير المتكافئة عام عقب وفاة كايكليانوس سنة 346م فخلفه كراتوس في ذات السنة، هنا توجه الجثليق دوناتوس الأكبر بطلب خلافته وحكم الكنيسة الكاثوليكية،

[1] نقلا عن محمد المبكر، مرجع سابق، ص ص 270-273.

[2] أوغسطين: مزمور ضد الدوناتية، مصدر سابق، ص 280.

لكن طلبه قوبل بالرفض مجددا وتلك البعثة كانت تأكيدا للأمر خاصة بعد أن توجهوا مباشرة لكنيسة كراتوس للقيام بالشعائر وتجاهلوا دوناتوس[1]، عرف دوناتوس أنه لا يزال في عين السلطة منشقا وأن كنيسته متمردة وأنه رافض للوحدة، جعله يخاف من حقيقة البعثة وهل فعلا جاءت لتوزع الهبات على الفقراء أم لتعيد المنشقين إلى الكنيسة الرومانية الجامعة.

في المقابل كانت الحركة الدوارية المعروف عنها كما سبق الذكر حربها المستمر المتوالي على الدولة المستعمرة وعلى الملاك وأصحاب الأراضي والدائنين متمركزة في نوميديا وبالضبط في باغاي -كما وتجدر الاشارة هنا أن رجال الدين الكاثوليك لم يسلموا من ضربات الدواريين وذلك لكونهم هم أيضا استفادوا من عطايا الدولة وصارت لهم أراضي وممتلكات وصاروا أصحاب أملاك وأي مالك لن يسلم من زيارات الدواريين العنيفة حتى يأخذوا منهم ما يكفي الفقراء-، فمن المنطقي أن لا تمر زيارة البعثة الرومانية مرور الكرام ومن الطبيعي أن يعترض طريقها هؤلاء الثوار، فالأمر هنا أن الدوناتية ليس هي المسؤولة بالضرورة عن تحريضهم على اعتراض البعثة، والأمر لا يمنع ترحيبهم بالأمر خاصة وأنه تم حمايتهم بطريقة غير مقصودة أو ربما مقصودة، هنا كان التحالف الأول التاريخي الموثق بين الدوناتية والدوارية، وبه اتحدت الثورة الدينية بالثورة الشعبية وصارت للدوناتية هيئة تحميها وتنصرها أيضا، خاصة بعد قمعها الأخير هذا والذي تسبب لها بخسائر فادحة خاصة بعد قتل ونفي كبار الدوناتيين وسحب الكنائس منهم وتسليمها للكاثوليك الذين فرحوا بهذا الانجاز الذي اعتبروه نصرا على المنشقين الذي كانوا على مشرف الهلاك.

هنا بدت ملامح التعاون السياسي-الديني بين الكاثوليك والرومان وبين الدوناتية والدوارية، مع التأكيد على أن الدوناتية لم يكن لديها أي علاقة سياسية مع الدوارية قبل هذا التاريخ، وما سبب هذا التعاون إلا اشتراك المصالح بينها، عكس الكاثوليك التي كانت الدولة تحميهم من البداية فصار القيصر يحمي ما لله، وصارت السلطة الروحية متحدة مع السلطة الزمنية ومستعينة بها، فبنصوص صريحة يقر أوغسطين أن أي تمرد خارج نظام الحكم هو جرم محرم يستحق العقاب، وكأنه يعطي الشرعية لكل ما تقوم به الدولة ويضفي على أوامرها القداسة عكس القاعدة التي علمها السيد المسيح لأتباعه: "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّهِ"[2].

"أتباع دوناتوس أنفسهم انشقوا طائفتين: طائفة متساهلة مع بقية المسيحيين والأغنياء، وأخرى متشددة مع المسيحيين ومتعمقة في الزهد تكره الأغنياء (...) وقد أخذت على نفسها العمل لتحقيق المساواة بين

[1] ننظر أوغسطين: مزمور ضد الدوناتية، مصدر سابق ، ص 214.

[2] إنجيل مرقس، الاصحاح (12:17).

الأفراد في الفقر، فصارت تجوب البلاد وتطوف الوادي لنهب الأغنياء وإفساد الأموال"[1]، لكن حتى يكون النص أضبط فان الدوناتيين هنا ممن يقومون بالهجمات ليسوا القساوسة أو رجال الدين، بل البرابرة الثائرين ممن اعتنقوا المسيحية الدوناتية

"وإذا ما لحقهم أي ضرر على يد السلطات الزمنية بأمر ناجع وعادل منها، وبالرغم من الأضرار الأكثر خطورة التي تقترفها عصاباتهم الشخصية المكونة من الحمقى والمسعورين، في كل يوم وفي كل مكان باسمهم وبدون أي تفويض لا من الامبراطور ولا من الكنيسة"[2]، كلام أوغسطين واضح يقول أن الضرر الذي يلحق الجماعات الدوناتية التي تدافع عن أصحاب الأرض من الفقراء والمضطهدين هو ضرر مشروع، صحيح أن أساليبهم الترويعية كانت قاسية لكنها ليست أقسى من اغتصاب حق وانتهاك حرية، دافع الدواريون عن أرضهم ورفض أوغسطين تصرفاتهم بل وصفهم بأبشع الأوصاف، هل هذا يعني أن أوغسطين اختار روما؟

أوغسطين وقف ضد البربر المتمردين على روما، هذه حقيقة، لكن ليس لأنه اختار روما، بل لأنه اختار المسيحية، بمعنى أنه اختار الدين على الوطن ودينه هو دين روما التي لولاها لاختفى من الوجود، ولولا قسطنطين لما وجدنا المسيحية بهذا الانتشار، وبالتالي فهذه الامبراطورية التي حمت المسيحية وولدتها من جديد هي الأحق بالإتباع والاحترام والامتنان، حال كل دين جديد يريد أصحابه أن يبق ويستمر عبر التاريخ وينخرط فيه أكبر قدر من الناس المخلصين، دين يريد أتباعه أن يعود المخلص وقد جمعوا أكبر قدر من المعتنقين، ألم يمر كل دين بالاعتماد على السيف ليدافع عن نفسه؟، أي دين هذا الذي لم يكن السيف أحد عناصره؟ وإن كان بدافع الدفاع؟ أليس أوغسطينوس هو الآخر يدافع عن دينه؟ أنلومه لأنه أراد للكاثوليكية أن تستمر؟

أوغسطين كأي مسيحي مخلص لمسيحيته وكأي متدين مخلص لدينه، وقع بين اختيارين يخاف أي إنسان عبر التاريخ أن يقع بينهما، أيختار دينه أم يختار وطنه؟ والحقيقة أن أوغسطينوس لم يأخذ وقتا طويلا ليقرر أيهما يختار، فمذ بداياته الاولى وهو يبحث عن الحقيقة "آه الحقيقة الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة"[3] التي تريح عقله وتجيب عن أسئلته التي أرّقته طويلا، وفي الأخير وجد في الدين الحقيقة، ونذر روحه لهذه الحقيقة، ونذر روحه لدين الحق أيا كان الطرف الآخر وإن كان الوطن، فلماذا نعتبره خائنا للوطن وهو مخلص للدين؟

[1] مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص320.

[2] أوغسطينوس: مزمور ضد دوناتوس، مصدر سابق، ص 282.

[3] أوغسطين: الاعترافات، مصدر سابق، ص 21.

وربما لتكون ورطة حقيقية إذا ما سأل كل فرد منا ماذا سيختار الدين أم الوطن؟. ولربما يتم مؤاخذة أوغسطين عندما نضع أنفسنا مكانه ولربما لن يدعوه الآخرون بالخائن عد هذا السؤال.

أما عن علاقته الطيبة بروما، فالأمر أن الامبراطورية العظيمة انتشلت الدين من لحظة فارقة كانت لتكون لحظة النهاية من النهاية، وكل مسيحي في هذا العالم مدين لروما بهذا الدين، وإن كنّا سلمنا بفرضية أن أوغسطين اختار دينه على وطنه في لحظة أجبر أن يختار بينهما، فهو بالضرورة سيختار الدولة التي تتبنى دينه ويحترمها على الدولة التي تحارب دينه. فأوغسطين تحرر هوويا من أي تبعية فكرية أو جغرافية أو ثقافية، ولم يبق متمسكت بغير الدين، على الرغم من أن هناك فكرة أساسية تجدر الاشارة إليها أو بالأحرى هو سؤال يجب أن يطرحه كل من يتهم أوغسطينوس بالخيانة، ترى لماذا بعد أن اعتنق أوغسطين المسيحية وهو الرجل الذائع الصيت لم يختر أي دولة أخرى أو أي منطقة أخرى واختار موطنه؟

يمكن القول أن أوغسطينوس عاد لوطنه ليفيده من علمه ولينقل خبرته وينشر دينه الحقيقي الصحيح، اختار أبناء جلدته ليهديهم، ليعود الى أصوله ويعطيهم خلاصة بحث السنين لكن بمعية الامبراطورية الرومانية، حسن أوغسطين هو عميل روماني؟ هذا ما يتهم به الرجل ، فلنطرح السؤال التالي هل تذكر كتب التاريخ أن أوغسطين امتلك أي عقار أو أي ملكية مهما كان نوعها؟ هل أمتلك مبالغ مالية مهما كانت قيمتها؟ هل عاش حياة رفاهية؟ هل استفاد من الهبات السخية التي يغدقها الأباطرة على رجال الدين الكاثوليك؟ لا يوجد كتاب واحد يقول بذلك بل على العكس الرجل عاش في كنيسة بونه ومات فيها، عاش حياة بسيطة زاهدة مكتفي بكتبه ومناظراته ودروسه الدينية التي يلقيها في كنيسته. إذن ما المقابل وما هو الثمن وما الدافع ليكون الرجل عميلا؟ ليس هناك أي مكسب من وراء روما غير دينه الذي تحميه هي وتتبناه فلماذا نقول أنه عميل ولا نقول أنه مخلص لدينه.

أوغسطين وكأنه تبنى الفلسفة الوجودية التي تقول بأن الانسان هو مشروع مفتوح تتحدد هويته بما يختاره ويحققه في حياته، وأوغسطين تحرر من كل الأفكار الجاهزة في عقله، رفضها وبدأ البحث من جديد عن الحقيقة ووجدها في المسيحية، فصارت المسيحية هويته التي اختارها بنفسه وليست المسيحية التي ولد ووجد نفسه منتميا له قصرا.

ماذا عن القديس دونات هل كان وطنيا أم مسيحيا؟ أم وطنيا مسيحيا؟

بداية فالقديس دوناتوس كما هو معروف هو رمز النضال والمقاومة والروح الوطنية، ورمز العرق الأمازيغي الأصيل الذي رفض الرومان ورفض الاستعمار فثار عليه، وجمع المواطنين وأصحاب الأرض لمحاربته

فكان بمثابة روح الأمازيغ الرافضة للرومان، كما نعلم الآن وكما تؤرخ لذلك كتب التاريخ أكان المصدر كاثوليكيا أم دوناتيا أم محايدا، فان الأغسطس استدعى طرفي الخلاف كاثوليك ودوناتيون على أساس أن تقام مناظرة ويحكم فيها للأقوى حجة، ويعطى له أولوية ترأس الكنيسة الافريقية بمعية الامبراطورية الرومانية، وبالفعل حضر الطرف الكاثوليكي والطرف الدوناتي أيضا، السؤال الذي يطرح نفسه هنا ماذا لو اختارت روما الكنيسة الدوناتية لتكون هي كنيسة إفريقيا؟، أما كانت لتكون هي كنيسة الدولة، وهي ممثلة السلطة في نوميديا؟ لماذا شارك الدوناتيون في المساجلة الكلامية وهم يعلمون أن فوزهم سيقود بالضرورة إلى الخضوع للدولة؟، ثم من الاساس لماذا وافق الدوناتيون على المساجلة وهم يعلمون أن المشاركة هي اعتراف بالدولة الرومانية رأسا؟ بمعنى المشاركة في ملتقى تنظمه الدولة هو اعتراف بتلك الدولة.

"الدوناتيون كانوا في أغلب الاحيان يرفضون المناظرة المباشرة مع من كانوا ينعتونهم بالمتخاذلين والمضطهدين، ولم يقبلوا الحضور في مناظرة قرطاج التي قرر الإمبراطور نفسه عقدها بينهم وين خصومهم إلا مرغمين وتحت التهديد"[1] وهم قبل ذلك كانوا قد رفضوا مبايعة كالكيليان الذي سلّم الكتاب المقدس تحت التهديد، فهل نستطيع القول أنه خضوع متماثل للتهديد، فلو كان التهديد هو سبب قبول الكاثوليك تسليم الكتاب المقدس فهو نفسه التهديد الذي أرغم الدوناتيون على حضور الملتقى، فلم الاستنكار من الأول؟ ثم كيف لجماعة ثورية أن تخضع للتهديد والثورة تقوم أساسا على التمرد على أي تهديد؟.

كما يذكر محمد المبكر وهو المتخصص في الحركة الدوناتية والدوارية أن الجثليق دوناتوس الاكبر وبعد وفاة كايكليانوس سنة 346م "راسل قنسطنس ليعترف به كأسقف قرطاج الحق، وزعيم الكنيسة الافريقية"[2]، لكن الإمبراطور رفض طلبه وعيّن كراتوس، أليس الأمر إن كان فعلا قد حدث ينفي أي شك حول رغبة الدوانتيين في خدمة الدولة ورغبة قوية منهم في ربط العلاقات والسلطة، وإلا فما الداعي لمثل هذا الطلب من الرومان الدولة المستعمرة، أليس الأمر نوع من الاتحاد والتضامن أو حتى التعاون؟ وهنا نستحضر المقولة التي اشتهر الدوناتيون بها "لا علاقة لقيصر بالحياة الدينية" أو "لا علاقة للمسيحية بالإمبراطور والإمبراطوية"، ومدى تطابقها مع ما أبدته الحركة الدوناتية من استعداد للتعاون مع روما.

لكن هناك في المقابل سؤال آخر يطرح نفسه هل أراد دوناتوس من خلال حضوره الملتقى واحتمال نجاحه فرض منهجه المسيحي في العقيدة وفي التعاملات مع الدولة؟ بمعنى يريد أن يفوز بسيامته للكنيسة الإفريقية ومن ثم يفرض منهجه الثوري الذي يفصل فيه بين الدولة والدين. لكن هل كانت الدوارية ستقبل بهذا التحالف؟ وهل كانت لتدعم الدواريين بعد ذلك؟

[1] محمد المبكر، مرجع سابق، ص29.

[2] المرجع نفسه، ص213.

موقف أوغسطين من علاقة الدين بالدولة يبدو الآن واضحا لامجال للتأويل فيه، فهو تحالف مع الرومان طيلة سيامته لكنيسة بونة، بل نجده يصف أحد الجنود الرومان بقوله "مواطننا مكاريوس"[1]، كما نجده يبرر للجنود الرومان هجوماتهم على أبناء جلدته، ويعتبر الأمر من صلاحيات السلطة الزمنية التي يجب أن تحترم، والتي اعتمدها الكاثوليك لنشر كنيستهم وتطويع الدوناتيين، لم يفصل صاحبنا بين الدين والدولة واعتبر أن الدين دون سلطة تحميه مهدد بالضياع وسط تعدد الأديان والمذاهب، وطالما أنه دين الحق فلا ضير في أن تظهره الدولة للعالم كله، فيعتنقه من أراد ويعتنقه من لا يريد أيضا تقربا من الرومان وامبراطوريتهم.

وفي الأخير نصل إلى القول أن التاريخ يحمل في داخله الكثير من الأسرار كون التاريخ يكتبه الاقوياء، والأقوياء آنذاك كانوا الكاثوليك، هم من كانت لهم اليد الطولى في إحراق كل كتب الدوناتيين بدليل أن الكتب الدوناتية لم يصل لنا منها من أصحابها شيء، بل كانت لهم اليد الطولى في كتاب التاريخ، التاريخ الذي يستطيع رواده أن يكيّفوه كيفما شاؤوا، خاصة وأن كان الكتاب المقدس هو ناظمه، فالكتاب المقدس يقول بفصل الدولة عن الدين كما يقول بضمهما أيضا، بالإعتماد على التأويل استطاع أوغسطين أن يستخرج العديد من الآيات التي تقول بمشاركة رجل الدين ورجل السياسة الحكم والملك، والهدف من كل ذاك هو المحافظة على الديانة المسيحية من الزوال، كونها الوحيدة القادرة على تجسيد فكرة الدولة الأبدية، لأنها تتضمن مقولات الكمال من عدالة إلهية وقانون أزلي صارم صادر من الله ضامن للبقاء، متمثلة في مدينة الرب.

فهل لهذه المدينة حقيقة واقعية تقابلها في التاريخ؟

[1] أوغسطين ، مزمور ضد الدوانتية، مصدر سابق، ص 121.

الفصل الثالث: السقوط االتاريخي للانسان

المــــــــــــبحث الأول: دخول الأبـــــــــدي في التاريخ.

المبـــحث الثاني: جدلية الله-الانــــسان في التاريخ.

المبحث الثالث: الـــكومونولث المسيحي.

تـــمهـــــــــيد

بعد استعراض المفصليات التي تشكل الدولة والحضارة تبعا للطرح الأوغسطيني؛ هنا نجد أنفسنا أمام إشكالية محورية هل توقف أوغسطين عند هذا الحد من الطرح أم أنه انتقل إلى مرحلة التجريد وتعميم تلك النتائج التي وصل إليها على مستوى الوحدة الواحدة على التاريخ البشري ككل؟ خاصة وأن الفيلسوف قام بتقسيم التاريخ إلى مراحل استخرج منها بدايته ونهايته، كما قام بتحديد مسار التاريخ ومحركه، بهذا تشكلت مقولات فلسفة التاريخ كما حددها فلاسفتها، لكن لا يعني الوصول إلى المقولات بالضرورة الوصول إلى الفلسفة، خاصة وأن الرجل يعود في كل زاوية إلى الكتاب المقدس.

وتعرض فكر أوغسطين للأحكام الجاهزة كأن يقال ان فكره هو مجرد إعادة صياغة لتفاسير الكتاب المقدس، فتكون بذلك مجرد نظرية دينية مكررة خالية من أي طرح فلسفي، فيوصف مرات بالمفسّر ومرات أخرى بالمؤرخ، رادّين ذلك لكون كتابه مدينة الله عبارة عن سرد تاريخي لمجموعة حوادث مضت أعاد إحياءها، وكل طرف يحاول ضم أوغسطين إلى مجاله.

وعليه كان لزاما الوقوف على طريقة تناوله للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، خاصة وأن أول تعارف أو بتعبير أدق أول اصطدام للقديس أوغسطين بالكتاب المقدس استهزأ به ونعته بالكتاب الذي يشبه قصص العجائز والذي يتميز أسلوبه بالسطحية وأفكاره بالتناقضات التي يصعب على العقل استساغتها، هذا كان رأي الرجل في الكتاب المقدس، قبل أن يهتدي ويدرك بعقله واستدلالته المنطقية أنه دين الحق، وأن الكتاب المقدس هو كتاب الحكمة التامة والمعرفة الكاملة فيه، هو عين اليقين، هنا يتساءل العقل كيف سيتعامل أوغسطين مع ما كان يعتقد أنه حكايات العجائز؟ وكيف سيحل مأزق التناقضات التي كان يراها بعيني عقله؟، وفي المقابل هل خلى سرده التاريخ من أي نظرية فلسفية أو حتى محاولة فلسفية؟

المبحث الاول: دخول الأبدي في التاريخ

يختلف تناول رجال الدين للكتاب المقدس، بين من يلتزم بحرفيته أيا كان المعنى الذي يصلنا منه، ومن يحاول أن يخترق الحروف للوصول إلى المسكوت عنه من الخطاب، وبالتالي الفرش لنص جديد يوفق بين تساؤلات العقل وإجابات النص المقدس، بالانطلاق من مبدأ أساسي يؤمن به أصحاب هذا الاتجاه التوفيقي، والمتمثل في أن الكتاب المقدس هو الحقيقة، وما العقل واستدلالاته، وما الفلسفة إلا وسيلة للوصول إلى الحقيقة والمتمثلة في الدين أصلا، هي وسيلة لتجاوز المعنى الظاهري أو ما يسميه فيلون بالجسد للوصول إلى المعنى الباطني أو الروح، وبالتالي فان عدم وصول العقل للدين يعني أن العقل انحرف عن الحقيقة، وابتعد عن جادة الصواب.

أولا: التأويل

تعامل أوغسطين مع الكتاب المقدس كان تعاملا حذرا جدا، لأنه حوار بين مستويين عقل أوغسطين والمسيح، إذن هو حوار بين ناقص، متناهي، متغيّر، قاصر، محدود وفاني، وبين عقل، كامل، خالد، لا متناهي، ثابت ومتعالي، عقلان مختلفان تماما، هنا مكمن المأزق إذ يتحاور الناقص مع الكامل والمتناهي مع اللامتناهي والمتغير مع الثابت، عقل أوغسطين يحاول أن يصل إلى المسكوت عنه من كلمات السيد المسيح، بمحاولة فك رموز خطابه ليسهّل نزول الخطاب الكامل الروحاني إلى الأرض: الجسد الفاني، هي علامات مكتوبة في نص إلهي أو علامات مرئية صامتة مبثوثة في نص واقعي طبيعي، تعبر عن الأشياء أو عن معاني الأشياء، وفي هذا الصدد كتب أوغسطين كتاب "المذهب المسيحي" "la Doctrine Chrétienne" وفيه عالج أوغسطين مقولتي العلامات " les signes" والأشياء " les choses".

يرى أوغسطين أن اقتحام عالم الكتاب المقدس هو أمر خطير للغاية، وخطورة العهد القديم لا تقل عن خطورة العهد الجديد، خاصة وأن أوغسطينوس رفض حرفية التوراة وقام بتأويلها على نور الإنجيل ووفق تعاليم السيد المسيح "تاريخ اليهود على أفول والتاريخ المسيحي على تقدم"[1]، وخطورته لا تكمن في ما هو صريح متفق عليه من نصوص، بمعنى هناك معنى واحد لها نقلته الكلمات التي كتب بها النص حرفيا، أو هو المعنى الحرفي الذي يصل إليه كل من يقرأ النص مباشرة، فالإشكال إذن يكمن في تلك الكلمات التي تحمل رمزيات

[1] القديس أوغسطين: مدينة الله، ج2، مصدر سابق، ص358.

عميقة، تحتاج تجاوز تلك الحروف والوصول لما ورائها وهو ما يسمى بالتأويل، وعلى الرغم من صعوبة الأمر وخطورته معا إلا أنه واجب وعمل مفروض على من آتاه الله الحكمة والموهبة لاختراق ظلمات الأحرف للوصول إلى نور الروح التي تخفيها الرموز.

هي موهبة ليست متاحة للجميع، وعلم منحه الرب لقلة من عباده الصالحين، بعيدة عن أولئك السطحيين الذي حسب ما يقول أوغسطينوس "يركزون نظرهم على أصبعي ولا يتخطونه ليروا النجوم التي يشير أصبعي إليها"[1]؛ وبغية تجاوز هذه الحرفية يقول أوغسطين: "يشمل تأويل الكتاب المقدس أمرين: طريقة اكتشاف ما يجب أن يفهمه المرء، وطريقة عرض ما فهمه. إنه عمل كبير وصعب"[2]، بمعنى أن التأويل فيه محورين أساسيين الأول هو فهم رمزيات النص، والمحور الثاني هو محاولة إيصال الفكرة التي تم الوصول إليها وشرحها للآخر، وتبرير سبب اختيار هذا الفهم دون بقية الفهوم، وتبيين الدلالات المقنعة في هذا الفعل الحساس؛ فعل التأويل.

والتأويل هنا يختص بالعلامات التي تدل على أشياء تختلف عن الأشياء التي تبدو عليها، فعندما نقول مثلا حجر، حيوان فهي لا تعني بالضرورة ولا تنطبق على الحجر الذي وضعه يعقوب النبي تحت رأسه*، أو الحيوان الذي افتدى به إبراهيم النبي إبنه، فالأولى مثلا حادثة حدثت ليعقوب بعد أن أخذ البركة الالهية من والده وهرب من غضب أخوه عيسو فاستلقى بعد تعب كبير وحيدا خائفا فاستلقى على حجر قاسي، ورغم قساوته رأى رؤية من الله مباشرة بنيله البركة، أما سكبه للزيت على الحجر، فهو حجر مبارك ممسوح كالمسيح يرمز لزاوية الكنيسة ووتدها، هو جسد المسيح وبركته، هو نعمة الله على يعقوب واصطفاؤه، أو عندما يتناول أوغسطينوس قصة سفينة النبي نوح فيقول "فذاك أيضا برهان أكثر وضوحا على أن حيوانات كثيرة من جميع الأجناس جانب السفينة، لا للتعويض عن الأجناس الهالكة بل لكي ترمز الى ما سوف يجتمع سريا من الأمم

[1] Saint Augustine: La Doctorine Chrétienne, traduction : *M. l'abbé HUSSENOT.*, Tome 4, éditions BAR-LE-DUC, France, 1866, p :chapitre 1.

[2] Ipid, p :chapitre 1.

*سفر التكوين، (28: 11) "وَصَادَفَ مَكَانًا وَبَاتَ هُنَاكَ لأَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ قَدْ غَابَتْ، وَأَخَذَ مِنْ حِجَارَةِ الْمَكَانِ وَوَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَاضْطَجَعَ فِي ذلِكَ الْمَكَانِ"، (28: 18)"وَبَكَّرَ يَعْقُوبُ فِي الصَّبَاحِ وَأَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي وَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ وَأَقَامَهُ عَمُودًا، وَصَبَّ زَيْتًا عَلَى رَأْسِه"، (28: 20-22) "20وَنَذَرَ يَعْقُوبُ نَذْرًا قَائِلًا: «إِنْ كَانَ اللهُ مَعِي، وَحَفِظَنِي فِي هذَا الطَّرِيقِ الَّذِي أَنَا سَائِرٌ فِيهِ، وَأَعْطَانِي خُبْزًا لآكُلَ وَثِيَابًا لأَلْبَسَ، 21وَرَجَعْتُ بِسَلاَمٍ إِلَى بَيْتِ أَبِي، يَكُونُ الرَّبُّ لِي إِلهًا، 22وَهذَا الْحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُودًا يَكُونُ بَيْتَ اللهِ، وَكُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ"

قاطبة في كنيسة المسيح"[1]، فالحيوانات هنا لا تعني أن الله استبدل البشر الهالكين بها، بل ترمز للإتحاد البشر في كنيسة واحدة كما اجتمعت الحيوانات في سفينة واحدة، بمعية السيد المسيح.

من له القدرة على الوصول إلى هذا التأويل سوى عالم بتفاصيل الكتاب المقدس قديمه وجديده، فالتأويل إذن يشترط فيه العلم بالكتاب المقدس، وهو ليس بالمشاع لأي شخص بمجرد أنه قرأ الكتاب المقدس، بل حتى القارئ المتعمق في التفاسير الإنجيلية فلا يقبل تأويله إن لم يدعم فعله بأدلة واستدلالات عقلية، يتم الإجماع عليها بعد إخضاعه لجملة من الدراسات والمراجعات والتحقيقات، لحماية الكتاب المقدس من الوقوع في التناقضات والفراغات المعرفية والعقدية، فراغات تتوسع من هفوات نخالها بسيطة لكن أثرها بالغ الخطورة على المنظومة العقدية بأكلمها؛ "عندما نتكلم عن سلطة الكتاب المقدس، يكفي أن نقبل كذبة واحدة بيضاء، حتى لا يبقى شيء من الكتاب. ففي كل مرة نواجه حكما يصعب تطبيقه، أو عقيدة تقبل الشك، نسعى إلى التهرب منها متسلحين بمقولة الكذبة البيضاء الخبيثة"[2]، هذا كان نقد أوغسطين لهيرونيمس* لمجرد أنه برر لفكرة ما عكس ما هو متعارف عليه، وحذره بأن أي تصرف مماثل سيقضي على الكتاب المقدس بأكمله، فمن يجد في الكتاب كذبة واحدة أو تناقض واحد فلن يأمن للكتاب مجددا وسيشكك فيه كله ويتهم كل ما جاء فيه بالكذب.

هي مهمة خطيرة وصعبة، لأن التعامل هو تعامل مع الكتاب المقدس أس الدين وعماده، هو تعامل مع عقيدة أمة مسيحية بأكملها، والتناقض الذي يقصده أوغسطينوس هو الذي قد يقع بين جماعة المؤولين وليس التناقض الذي قد يقع بين الحقيقة الدينية والحقيقة الواقعية، ففي هذه الحالة ومن منطلق أن الكتاب المقدس هو الحقيقة فان أي تناقض هو انحراف للعقل عن الحقيقة، وبالتالي إن عجز المتخصصون في إيجاد مخرج له فان التغليب يكون للكتاب المقدس على حساب العقل والواقع والخبرة والتجربة.

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص295.

[2] أوغسطينس، هيرونيمس: الرسائل المتبادلة بين القديسين هيرونيمس وأوغسطين، تر: سعد الله سميح جحا، دار المشرق، بيروت، ط1، 2011، ص 18.

*هيرونيمس: ولد بين 340م و341م في ستريدونيا (كرواتيا حاليا) من أسرة كاثوليكيا محافظة، تعمق في الآداب اللاتينية واليونانية، وأتقن قواعد البلاغة، فهو خطيب ونحوي وفيلسوف ومحاور ومتقن لليونانية واللاتينية والعبرية كما كان هجاء لاذعا، خاصة في محاوراته مع أوغسطينوس حيث خاطبه مرة قائلا : "استمع إلى نصيحتي، أيها الفتى، ولا تتحدّ الشيخ في عرين الكتاب المقدس، إنّك تعكر صمتي، وتتباها مختالا بعلمك"، لم يتقلد أي منصب في الكنيسة بسبب الدسائس التي حيكت ضده، توفي سنة 320م ودفن في أورشليم. ننظر رسائل هيرنيمس وأوغسطينوس، مصدر سابق.

يضيف أوغسطين إلى شرطية التخصص والبرهنة شرطيّة أسياسية والمتمثلة في مشكلة اللغة عموما والترجمة خصوصا، خاصة وأن المسيحيين الرومان انكبوا يترجمون الكتب المقدسة والتفاسير إلى اللاتينية من اليونانية والعبرية، ومن أجل نقل سليم للعلامات والرموز التي يريدها السيد المسيح في كلامه يشترط أن إتقان اللغة الاصلية التي كتب بها النص المراد دراسته، وأن أي خطأ في الترجمة يؤدي إلى انتفاض الشعب وانعدام الثقة مجددا في الكتاب ككل، وهو ما حدث بالفعل، يخبرنا أوغسطينوس عن ذلك بقوله: "واحد من رفاقنا الأساقفة أمر بقراءة ترجمتك (يقصد هيرونيمس) في الكنيسة التي يرأسها، وشرع القارئ يتلو النبي يونان، وللحال تبيّن في ترجمتك شيء مختلف عما اعتاد المؤمنون سماعه، وترسّخ في عقولهم وقلوبهم، وكانوا يرددونه أجيالا بعد أجيال، وقامت ضجة كبيرة في الشعب، وخاصة في اليونانيين الذين قالوا بالتزوير"[1]، حدثت ضجة كبيرة في الكنيسة بسبب كلمة واحدة تغيّرت في كتاب بأكمله.

جاء رد هيرونيمس سريعا لأوغسطين يقول فيه أن اللّبس الوحيد الذي حدث كان حول كلمة لبلاب واستبدالها بيقطين، حيث "وضع السبعون كلمة يقطينة، وأكيلا ومترجمون آخرون كلمة كيسُّس kissos التي تعني اللبلاب، نرى في النص العبراني سيسَيون Ciceion التي يلفظها السريان سيسيا ceceia. والسيسيا شجيرة أوراقها شبيهة بأوراق الكرمة، وما إن تزرع حتى تصبح شجيرة تقف على جذعها من غير حاجة إلى ما يسندها مثلما هي حالة اليقطين واللبلاب، فلو أني نقلت الكلمة بحرفيتها، وكتبت سيسيون، لما فهمها أحد، ولو قلت يقطينة لكنت أنقل ما ليس في العبرية، فوضعت كلمة لبلابة"[2]. هو مثال يبيّن قدر الدقة التي يتحلى بها كل متعامل مع الكتاب المقدس، كما يبين أن أي عملية تتعلق بالكتاب المقدس فستخضع للنقد من طرف متخصصين متقنين للغات*، ولحرية الرد والمناقشة حتى يرسوا جميع الأطراف على اتفاق فيما بينهم.

لم يكن توجه أوغسطين للتأويل بغرض إعادة هيكلة النص المقدس بل لتكييف النص البشري حتى يتناسب والنص الكامل، والذي لم يلجأ له حتى استنفذ كل الحلول الترقيعية الأخرى، إذ توجه الباحث في البداية إلى المعارف التاريخية التي تصله على الرغم من تدينه، فقام بإبداع منهج لدراسة التاريخ حتى لا يقع في

[1] أوغسطينوس، هيرونيمس، مصدر سابق، ص ص 38-39.

[2] المصدر نفسه، ص 77.

*وفي هذا الكتاب نجد إجابة حاسمة حول الاشكالية التي كان يتجاذبها الكتاب والمفكرون حول جهل أوغسطينوس لليونانية من إتقانه لها، وهنا يقول أوغسطين: "أمّا بالنسبة لنقلك (هيرونيمس) الانجيل عن اليونانية، فإننا نشكر الله شكرا عظيما على أننا لدى مقارنتها مع اليونانية، لم نجد ما يقال"، فنون الجماعة في كلمة إننا تعود على أوغسطين لأنه يعتمدها في كل الكتاب للحديث عن نفسه وأعماله، وبالتالي فأوغسطين يتقن اليونانية. ننظر المصدر نفسه، ص 39.

الأخطاء التاريخية، أول خطوة في منهجه ذاك هي سد الثغرات التاريخية الموجودة في الكتاب المقدس ولا يقصد بذلك وجود أخطاء فيه وإنما هناك بعض الأحداث التي لا يرى أهمية لسردها فيتجاوزها، مثلا ما ذكره العهد القديس حين عدد نسل آدم وحصره في أبنائه الثلاث: قايين، هابيل وشيث ولم يذكر حتى بناته اللائي تزوجن أبناءه، وكأن نسل آدم منحصر في ثلاثة أبناء فقط، لكن الحقيقة أن الكتاب المقدس اقتصر سرده على السلسلة التي تقودنا إلى السيد المسيح مرورا بأب البشرية إبراهيم النبي. فعدم ذكرهم لا يعني أنهم غير موجودين بل غير مهم ذكرهم.

ثاني خطوة من المنهج الأوغسطيني لدراسة المعرفة التاريخية هي "إعادة ترتيب الأحداث أو يمكن تسميته أيضا بإعادة كتابة التاريخ"[1]، بذل القديس أوغسطين في هذه الخطوة جهدا مضنيا ظهر في كتابه مدينة الله، بتتبع الحوادث التاريخية وضرورة توفيقها مع ما جاء في التوراة، خاصة وأن الكتاب المقدس لا يراعي كثيرا الترتيب الزمني التاريخي، في هذه الحالة يقوم أوغسطين بإعادة ترتيبها ومثاله ماجاء في الكتاب المقدس من قوله: "ومن سام والد عابر والإبن البكر ليافث ولد عابر"[2]، وكأن سام هو ولد عابر، لكن الحقيقة أن بين سام وعابر حقبة تاريخية كبيرة قدرت بخمسة أجيال، وضع القديس أوغسطين هذه الخطوة المنهجية حتى يعيد التسلسل المنطقي للتاريخ مع المحافضة على الفكرة التي أراد الكتاب المقدس إثباتها وهي "أن يعرفوا أن سام هو الأصل الجامع لجميع الذين خرجوا من وذريته"[3]، حافظ أوغسطين على الحكمة الإلهية في هذا السفر ودعمها بحقائق تاريخية متفق عليها حتى يزيد من مصداقيته ويبلغ هذه الزمني في ذكر السلسلة السماوية والأرضية.

ثالث خطوة في المنهج هي النقد التاريخي استطاع من خلالها القديس أوغسطين أن ينقد الكتاب المقدس كضرورة لإثبات مصداقيته وجلاله، والنقد هنا لا يعني أن هناك ثغرات في مبنى الكتاب المقدس أو نقائص في معناه، بل تعني أن المعنى الحرفي للآيات قد يعتريه سوء فهم من عقولنا القاصرة فبات حريّا على الفيلسوف أن يتدخل ويزيل اللّبس، فمثلا نقد القديس أوغسطين الاصحاح الذي يذكر أن قايين وابنه أخنوخ تمكّنا لوحدهما من بناء مدينة بأكملها وهذا ما يرفضه العقل، فالمدينة تشترط جماعة من الناس تربط بينهم مصالح مشتركة يضمن تحقيقها القانون الوضعي الذي يستمد مشروعيته من القانون الأزلي، أما ما يقصده الرب في قوله فقد وضحه أوغسطين بقوله أن قايين وابنه كانا مؤسسي هذه المدينة، وأخنوخ هو من أرسى قواعدها الأولى.

[1] زينب محمود الخضيري، مرجع سابق، ص:63.

[2] سفر التكوين، الاصحاح: 21/10.

[3] القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2،مصدر سابق، ص:287.

ثانيا: مسار التاريخ

فلسفة التاريخ كمبحث يقوم أساسا على التعالي –لا يقصد بالتعالي هنا الميتافيزيقا أو تجاوز الواقع ووضعه بين قوسين، بل يُعنى بها متابعة الحوادث التاريخية للحضارات عبر التاريخ البشري والبحث عن العامل المشترك الذي تتعالق فيه جميعها، والذي يعتبر أساس قيام الحضارات وسقوطها، يقوم فيلسوف التاريخ حينها برفع ذلك العامل وتعميمه على كل التاريخ، ولكل فيلسوف تاريخ عامله الذي يتوافق ومرجعيته- في دراسة الحوادث التاريخية، القائمة على مبدأ التعمق في حركة المجتمعات البشرية وتطورها وأسباب انهيارها فسقوطها في مرحلة معينة من تاريخها، ومشكلة القوانين التي تحكم حركة التاريخ وتطوره.

ففلاسفة التاريخ توصلوا لاكتشاف سر التاريخ مرة واحدة وإلى الأبد من خلال تجاوز الحوادث الجزئية المحدودة والمحصورة وصولا للمفارق، اللامحدود والنهائي من الأحكام التي عمموها على التاريخ الكلي العالمي Universel History. منذ بدايته الأولى مرورا بحاضر الفيلسوف وإلى غاية المستقبل البعيد فنهايته، إذ يستطيع فيلسوف التاريخ أن يتنبأ بمصير التاريخ على الرغم من عجز عظام القادة الحربيين على تحديد مصير المعركة الدائرة في تلك اللحظة؛ ففلسفة التاريخ تخص بالدراسة ذلك التاريخ الشامل ذو القانون الواحد المتحكم في الإنسانية جمعاء توصل إليه الفيلسوف بعد أن اختزل كل العلل الجزئية للحوادث التاريخية المنفردة في علة واحدة يفسر من خلالها التاريخ الكلي الشامل.

"فلسفة التاريخ في أبسط تعريف لها عبارة عن النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، ومحاولة معرفة العوامل الاساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والأجيال، كما أن هناك من يقول أن التاريخ يسير وفق مخطط معين وليس بطريقة عشوائية وأن فلسفة التاريخ هي رؤية المفكر للتاريخ أو حكمه عليه"[1]؛ قام فيلسوف التاريخ باختزال كل مسار التاريخ البشري في عامل واحد صارم لا يتغير وإن تغيرت المجتمعات، يستطيع على أساسه فيسلوف التاريخ تعميم المبدأ المتحكم في التاريخ على الرغم من كثرة العوامل وتشابكها وتشابهها أيضا، ظهر هذا الحراك الفلسفي وانتعش من أجل استحضار الماضي الضارب في القدم والذي لم يصلنا منه غير النزر اليسير بالاعتماد على سلسلة العلل التي تلزم بعضها عن بعض، ومن أجل التحضر للمستقبل البعيد بإعادة

[1] رأفت غنمي الشيخ: فلسفة التاريخ، دار الثقافة، القاهرة، دط، 1988، ص14.

طرح سؤال الغائية التاريخية الذي تكون إجابته النهائية هي الوحدة التاريخية المستمرة في المستقبل للوصول إلى الكومنوولث الحضاري، ويختلف لاحقا نوع هذه العالمية حسب نوع العلة وطبيعة الناظم.

أوغسطينوس قبل أن تعرف لفلسفة التاريخ تسمية كان لتاريخه فلسفة، مكتملة العناصر ومستوفية الشروط، ظهرت في مدينته الإلهية، التي لم يكن الغرض منها أن يفلسف التاريخ بقدر ما أراد أن يدافع عن مسيحيته، عن الدين البريء من إسقاط الإمبراطورية، فسقوط الحضارة وقيامها لا يتعلق بروما وحدها بل بتاريخ مليء بالحضارات الكبرى وما روما إلا حلقة من حلقات التاريخ البشري الضخم، وبالتالي رد السقوط إلى الدين أو الحرب أو الاخلاق أو سنن الطبيعة وغيرها من المسببات، رد السقوط إلى أحد هذه العوامل ابتداء هو فعل متسرع قاصر، لأن العملية تتطلب دراسة للتاريخ ولحضاراته بكل تمفصلاتها، من ثم معرفة السبب العميق الذي يمنع الحضارات من الصمود ويؤدي بها إلى الزوال، هو ما عزم أوغسطين على القيام به في مؤلفه الضخم مدينة الله.

بدأ أوغسطين البحث في التاريخ باعتراف مفاده أن معرفته بتاريخ الحضارات القديمة ليس بالعمق الذي درس به الحضارة الرومانية، لكنه حاول على الرغم من ذلك الاطلاع على ما أتيح له من كتب تاريخية، وكل هدفه من وراء ذلك هو محاولة وضع تأريخ محدد ودقيق للتواريخ التي ولد وعاش فيها الأنبياء، والفترة التي منحت فيها البركة الإلهية، من خلال تحديد الملوك الذين عاصروا الأنبياء، فمثلا ميلاد النبي أبرام أب البشرية كان في عهد الملك الآشوري الثاني نينوس، وولد النبي إسحاق من زوجته سارة في عهد الملك الثالث نينياس إبن نينوس وهو صاحب المئة عام، إلى غاية الملك الخامس للأشوريين أراليوس وهناك كان عمر أبرام مئة وستون سنة أما إسحاق فكان عمره ستون سنة، فيها أنجب من زوجته رفقا عيسو ويعقوب، وفي عهد الملك السابع بالاوس توفي النبي أبرام في عمر مئة وخمس وسبعين سنة، وفي عهد الملك الثامن أرمامتريوس جدد الله العهد مع النبي إسحاق ومنحه ما منح والده قبله، أرض كنعان له ولذريته وكل من تبارك باسمه وانضم إليه* والتزم بتعاليمه ووصاياه، فالله منح بركته الالهية للنبي أبرام وورثّه على هذه الأرض بأن أعطاه أرض كنعان، ومن بين أبناء إبراهيم منحت البركة الإلهية ليعقوب أو إسرائيل ومنحت معه أرض كنعان، عندما أنجب يعقوب إثنا عشر ابنا كان أن تشكلت إثنتا عشر قبيلة وهم بنوا إسرائيل وأرضهم هي أرض كنعان مكان انتقال البركة وانتقال التركة "ومن نسل إبراهيم كان يعقوب ومن يعقوب إثنا عشر ولدا هم أسباط إسرائيل، أو بنوا إسرائيل

*ننظر أوغسطينوس: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص الكتاب 18.

الذين آووا في أرض كنعان أرضهم وميراثهم"[1]، بنفس الطريقة تتبع أوغسطين كل الانبياء أصحاب البركة وتزامن وجودهم مع باقي الحضارات. فإذا كانت الكتب التاريخية لا تولي أهمية بذكر تواريخ الأنبياء فإن أوغسطين استطاع استخرجها من تواريخ ملوكهم التي لا تخلوا كتب التاريخ منها، خاصة وأن هناك كتب تاريخية بيبليوغرافية مخصصة للملوك.

أ. المرحلة الاولى:

حدد أوغسطين المسار التاريخي للمدينتين إنطلاقا من نزول آدم إلى الأرض والبداية الفعلية لفعل التأسيس، أما عن الحوادث المفارقة للزمان والمكان فهي حوادث خارج التاريخ وبالتالي لا يمكن ضمها ضمن سيرورة العقل البشري والتي يمكن التحقق فعليا من حدوثها، نزل آدم إلى الأرض وعرف زوجته حواء فأنجبا أولادهما، وبين أولاده ولدت الخطيئة مجددا وبدأ الانقسام مجددا، نزل آدم ونزل معه جسده النابض بالحياة الحر المريد المتمرد، وإن كان تمرد آدم قد تقزم بفعل توبته، فإن الأمر مختلف عند أولاده، فمعهم ولد الحسد من جديد، وولد حب السلطة الذي كان عند والدهما، وولدت الخيانة والحقد والشر، لكن الجديد الذي ظهر في التاريخ هو فعل القتل، الإحالة للعدم والرغبة في الإنفراد بكل السلطة وعدم مشاركتها أو تقاسمها مع أحد، حتى ولو كان الأخ، من البداية حددت العلاقة بين الأفراد بهذا الصراع الذي انتهى بقتل الأخ لأخيه، على الرغم من أن الأرض كلها كانت لشخصين إلا أن الأخ رفض المشاركة واستأثر بالكل لنفسه، هو صراع على السلطة والتملك، وصراع نفس حاسدة مع نفس تائبة قبل أن تكون صراع حضارات وصراع ثقافات، صراع بين أطراف لا تربط بينهما شيء غير البركة الالهية التي أرادها قايين لنفسه خالصة، فلعنه الله.

[1] حسين شريف: المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ من العهد القديم إلى مفاوضات السلام الشرق أوسطية (1900 ق م- 1995م)، ج1(من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل (1900 ق م- 1948م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1995، ص18.

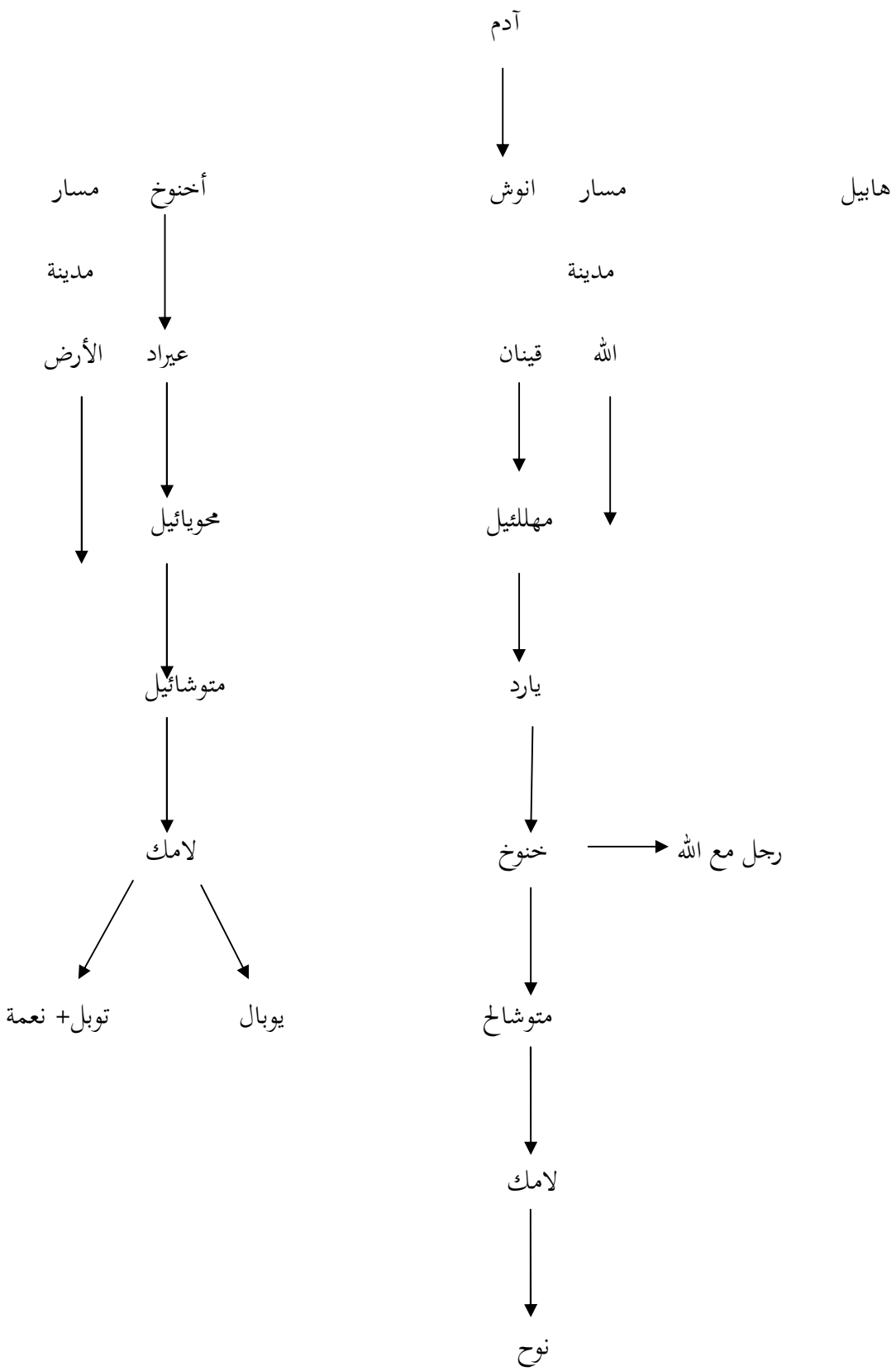
آدم
هابيل
مسار
انوش
مدينة
الله
قينان
مهللئيل
يارد
خنوخ
رجل مع الله
متوشالح
لامك
نوح
أخنوخ
مسار
مدينة
عيراد
الأرض
محويائيل
متوشائيل
لامك
يوبال
توبل+ نعمة

غادر قايين بعد تبنى الخطيئة وجعلها ناظم حياته الجديدة، التي صار الجسد فيها هو المتحكم في النفس، بل صارت النفس ذاتها متوافقة متصالحة مع الجسد، بعد أن استحالت النفس الصالحة نفسا ذات خطيئة، فظهرت نفس جديدة وإنسان جديد، أو بالأحرى أعيد إحياء الإنسان الذي حاول آدم أن يقزمه ما استطاع، لكنه ظهر مجددا في التاريخ ظهر في شخص ابنه قايين، بعد أن حاول آدم جاهدا أن ينتصر على الصراع الذي كان يعيشه في الجنة الصراع بين نفسه الصالحة ونفسه الطامحة؛ الطامحة في مكان الله ومكانته، ظن آدم أنه تخلص منها ونجى من نزوات الجسد التي كانت تتربص به، لكنها سرعان ما تجلّت مجددا في شخص ابنه قايين، في الإنسان الجديد، إنسان متمرد على الله وتعاليمه، إنسان بإرادة تتحدى إرادة الله، إنسان صنع لنفسه مسارا جديدا بعيدا عن المسار المفروض عليه، مسار خلقه هو لنفسه ومشى فيه.

بعد الصراع الذي عاشه مجددا الإنسان، تغلب حب الذات على حب الله، وكما يُمنع القلب المحب للذات أن يعيش مع القلب الشرير المحب لذاته، وكما خرج آدم من الجنة، خرج قايين من أرض والده الصالح، وعاش في شرق عدن وهناك بنى مدينته وأنشأ مجتمعه على أسس جديدة أسس جسده ونفسه الخاطئة المتمردة، أنشأ مدينة الأرض "المدينة المتمردة"، وأسماها على اسم ابنه أخنوخ الذي ورث عن والده الجسد، وتوالت الأجيال بمنظومة قيمية جديدة تختلف عن تلك التي يتميز بها مجتمع آدم، منظومة استبد فيها الظلم والقتل الذي صار أمرا طبيعيا يتباهى به نسل قايين، في ذلك نجد لامك بن متوشائيل بن محويائيل بن عيراد بن أخنوخ بن قايين يقول لزوجته: "23وَقَالَ لاَمَكُ لامْرَأَتَيْهِ عَادَةَ وَصِلَّةَ: «اسْمَعَا قَوْلِي يَا امْرَأَتَيْ لاَمَكَ، وَأَصْغِيَا لِكَلاَمِي. فَإِنِّي قَتَلْتُ رَجُلًا لِجُرْحِي، وَفَتىً لِشَدْخِي"[1]، تمادى سكان مدينة قايين الأرضية في طغيانهم فصار نسل آدم من قايين رمزا للإجرام والقتل بل كلما زاد النسل زاد التطرف في القتل وصار من أجل أمور لا تذكر كأن يقتل لامك شخصا لأنه جرحه وفتى صغيرا لأنه كسره.

كانت مآلات الجسد كما يسرد الكتاب المقدس فاسدة، ومنظومة القيم التي نتجت عن هذا الإنسان الجديد خلقت مجتمعا خطاءً، وفي المقابل وفي مكانين منفصلين أنجب آدم من حواء أبنهما شيت الإبن الصالح محاكيا للانسان الأصل، المتحكم في الجسد، المحب لله، المحتقر للذات وملذاتها، "25وَعَرَفَ آدَمُ امْرَأَتَهُ أَيْضًا، فَوَلَدَتِ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ شِيثًا، قَائِلَةً: «لأَنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ لِي نَسْلًا آخَرَ عِوَضًا عَنْ هَابِيلَ». لأَنَّ قَايِينَ كَانَ قَدْ

[1] سفر التكوين، (4: 3).

قَتَلَهُ. 26 وَلِشِيثَ أَيْضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ"[1]، فكانت المدينة السماوية مدينة الحب الالهي، مدينة "الخضوع" لله، مدينة المحبة والسلام والإيمان الحقيقي، واستمرت المنظومة القيمية لنسل شيت كما أمر بها الله، إلى غاية أن اختلطت الأنساب بين أبناء الله وبنات الأرض لجمالهن فبدأ أبناء الله يحدن عن مسار مدينتهم، بعد أن بدأت رغبات الجسد في الإنفجار مجددا متغلبة على النفس، هذا لا يعني أن الجسد في المدينة الأرضية كان خاملا عاطلا وإنما كان تحت إمرة النفس غير جامح نحو الشهوات المادية، ومع نزوح سكان مدينة الله نحو مدينة الأرض، نحو الجسد وشهواته، نحو الدنيا وملذاته، فتقزم النفس العاقلة المحبة لله أمام سيطرة الجسد؛ "5وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ"[2]، بدأ الشر يتزايد يوما بعد يوم والخير يتناقص إلى أن وصل التاريخ في مساره إلى مرحلة النبي نوح.

مرحلة النبي نوح كانت بداية نهاية المدينة السماوية وانتشار المدينة الأرضية وتوسعها، وكثر تعداد سكانها مقارنة بالسكان الصالحين، الذين لم يبق منهم غير نوح وأبنائه الثلاثة وزوجاتهم "8وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ. 9هذِهِ مَوَالِيدُ نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًّا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ. 10وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلاَثَةَ بَنِينَ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ. 11وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا. 12وَرَأَى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ. 13فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ."[3]، مدينة الأرض هنا على مشارف النهاية ورأى الله بحكمته أن تدخله سينقذها من الفناء، فهو العالم بأن الصالحين يسيرون قدما نحو الخطيئة، "لأن الصالحين وقد راحوا يميلون يوميا إلى الشر، وقعوا أخيرا في فساد أهلكهم في الطوفان ماعدا واحد منهم، نوح وزوجته وأبناءه الثلاثة مع نسائهم الثلاث ثمانية أشخاص استحقوا أن ينجوا من الطوفان الذي قضى على جميع الكائنات"[4]. تدخلت العناية الإلهية برحمتها لتحمي ما تبقى من قيم الإنسان الأصل، بعد أن كان على مشارف العدم، ولمعاقبة السكان الأشرار الذين قلبوا القيم الأصلية فظهرت قيم جديدة يسودها الطغيان والشر والإجرام فكان عقابهم هو الهلاك.

[1] سفر التكوين، (4: 25-26).
[2] سفر التكوين، (6: 5).
[3] سفر التكوين، (6: 8-13).
[4] القديس أوغسطين: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص: 230.

الطوفان هو تدخل إلهي غير مباشر في التاريخ لحماية بل لإنقاذ المدينة السماوية، وللقضاء على سكان المدينة الأرضية، ومع الطوفان انتهت المرحلة الأولى من المسار التاريخي، انتهت بفشل المدينة السماوية في الاستمرار وفشل الإنسان الأول في الحفاظ على طبيعته الأصلية، انتهت بانتصار الذات ونزواتها على حب الله في صراعهما الدائم داخل الانسان، انتصر الجسد على الروح، وكان السبب الذي ذكره الكتاب المقدس متمثلا في قول الرب "1وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْثُرُونَ عَلَى الأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، 2أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ .فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا."[1]، سبب هذا الانقلاب على المدينة الإلهية هو السقوط الأخلاقي الذي تمكن من النفس البشرية فابتعدت عن المقدس صوب المدنس، وحسمت نتيجة الصراع لصالح النزوات الجنسية التي تَشارك فيها أبناء مدينة الله وبنات مدينة الأرض، انتصر الانسان الجديد على الانسان الأصلي، فتدخل الله لينقذه بالطوفان، بأن قضى على جميع أبناء الأرض، تمهيدا لظهور أب البشرية.

ب. المرحلة الثانية:

يتابع أوغسطين مسار التاريخ ليصل إلى المرحلة الثانية مرحلة نوح وأبنائه الثلاثة حام، سام، يافث "19هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ. 20 وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاَّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. 21 وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. 22فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. 23فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. 24فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، 25فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ 26«وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ 27. لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ"[2]، بعد أن خرج حام من رحمة الله وغضب والده عليه النبي نوح، وبهذا بدأت سريعا معالم مدينة الارض تظهر من جديد، في شخص حام الذي عوقب بأن يحرم من البركة الالهية ويعيش هو ونسله خدما لسام ويافث ونسليهما.

حافظ سام ويافث على طهارتهما وبقيا مخلصين لمدينة والدهما الإلهية، بقي معهما حام على الرغم من خطيئته في اندماج بين المدينتين لأول مرة في التاريخ، وعلى الرغم من انتماء يافث للمدينة الالهية إلا أن البركة

[1] سفر التكوين، (6: 1-2).
[2] سفر التكوين، (8: 19- 26).

الالهية منحت لسام، لان البركة الالهية تمنح لشخص واحد فقط وهو الأصل الذي سيكون السيد المسيح من نسله، والأصل واحد غير متعدد، وعلى هذا الأساس بقي أوغسطين متتبعا لسلسلة سام دونا عن بقية أبناء نوح:

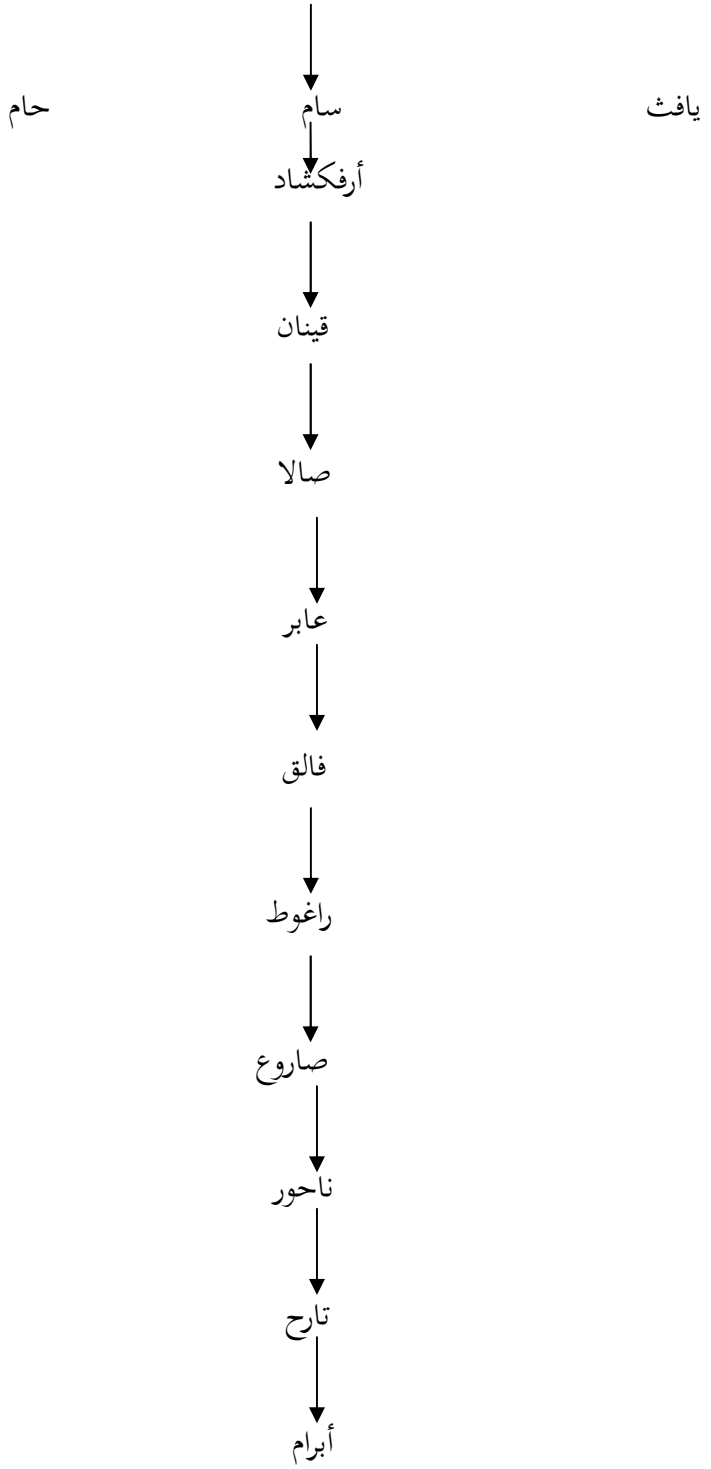

ج. المرحلة الثالثة:

ولد تارح إبراهيم ومنحه بركته الإلهية، كما ظهر له الرب ومنحه كل أرض كنعان يعمّرها، ومن سارة زوجته الحرة أنجب إبنه إسحاق، ومن هاجر زوجته الأمة أنجب إبنه إسماعيل

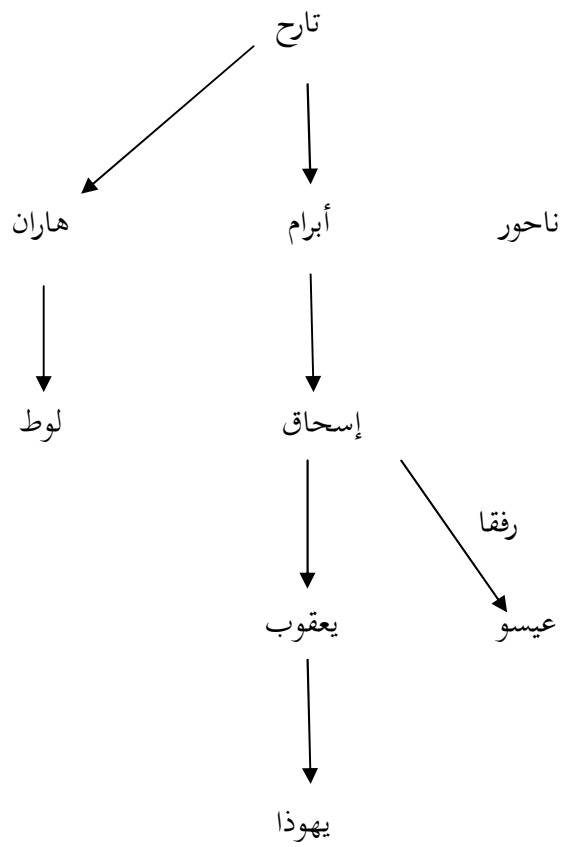

من السلسلة التي رسمها أوغسطين والتي استقاها من الكتاب المقدس في عهده القديم، فقد منح أب البشرية أبرام بركته الإلهية لإبنه إسحاق من زوجته سارة "19فَقَالَ اللهُ: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ."[1]، كان سبب هذا الاختيار هو عدة معجزات خصت الإبن اسحاق كحمل أمه به وهي في سن التسعين ووالده في المائة من عمره، والأهم من ذلك ما حدث في "جبل الرب يرى"* يحكيها لنا الكتاب المقدس: "وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ،

[1] سفر التكوين، (17: 19).

* جبل الله يرى: تعني أن الله يرى من فوق معاناة عباده الصالحين، وأنه سيتدخل ليحميهم وينقذهم، وهنا الله افتدى إبن أبرام بكبش كما افتدى البشرية بابنه، ففعل الفداء مكرر هنا مع اختلاف الشخصيات، حتى أن أبرام قام بصلب ابنه فوق المحرقة كما صلب من قبل السيد المسيح وكلها دلالات وإشارات على أن من إسحاق يكون النسل المقدس الذي منه يخرج السيد الرب. فكما تؤول قصة حياة إسحاق إلى السيد المسيح كذلك تمثل أمه سارة أورشليم السماوية التي أنجبت إبنا من رحم ميت ببركة إلهيه، وكما طردت من البيت هي وابنها بعد إنحاه بوقت قصير، ننظر أوغسطينوس: مدينة الله، ج2، مصدر سابق، ص335.

فَقَالَ لَهُ: «1يَا إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هأَنَذَا 2.«فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ 3.«فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ 4.وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، 5فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: «اجْلِسَا أَنْتُمَا هٰهُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا 6.«فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا 7.وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي .«!فَقَالَ: «هأَنَذَا يَا ابْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟ 8« فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا 9.فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ 10.ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ 11.فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هأَنَذَا 12«فَقَالَ: «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي 13.«فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ."[1].

إختبر الله قلب أبرام إن كان حبه ل لله خالصا، أم أن ابنه الذي انتظره منذ قرن من الزمان قد شارك الله حبا، وهل تغيّر قلبه كما تغيّر قلب آدم وقايين وقوم نوح قبله وقوم لوط ابن أخيه في وقته، لم يحدث كل ذلك ولم يخيّب أب البشرية قلبه المحّب الذي بقي خالصا لله، فاستحق أن يبق مواطنا سماويا صالحا مخلصا، رغم كثرة النزوات والشهوات التي رميت في طريقه لاختباره، نجح أبرام فيما فشل فيه بقية المواطنين واستحق البركة الالهية واستحق أن يرث أرض الله، وأن يكون أب البشرية.

لابن أبرام من زوجته الحرة انتقلت البركة، ومن سارة يكون النسل الذي سينتمي له السيد المعلم. هل اختبر الله أبرام ليتأكد من حقيقة يجهلها؟ عظيم هو الرب عالم بما تخفيه أنفس عباده وما تظهره، عالم بما في قلب أبرام، "ومع ذلك، فقد امتُحن ابراهيم إذ أُمر بتقديم ابنه إسحق ذبيحة لكي ينكشف أمام الأجيال الطالعة، لا أمام الله، ما كان عليه من طاعة وتقوى"[2]؛ . فكافأه الرب على إخلاصه بأن جعل النسل المبارك

[1] سفر التكوين، (22: 1- 13).

[2] أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص ص335-336.

الذي تتكلل قدسيته بالسيد المسيح من نسله، كما منحه الأرض المباركة التي يولد فيها السيد المسيح ويبعث فيها في آخر الزمان "أرض كنعان" والتي فيها أورشليم.

انتقلت البركة الالهية من أبرام إلى إسحاق، ومنه إلى ابنه يعقوب والذي أسماه الرب إسرائيل، فصار يطلق على نسله بالإسرائليين، ومن إسرائيل انتقلت البركة إلى ابنه يهوذا وبهذا الترتيب تتبع أوغسطين السلسلة التي تقودنا مباشرة إلى السيد المسيح، وهذا لا يعني أن باقي أبناء الأنبياء أشرار بل على العكس فالكتاب المقدس يقر بخيريتهم كيافث واسماعيل وعيسو وغيرهم، وبالتالي فان المدينة السماوية وكذا الأرضية ماضيتان في التقدم والاستمرار لكن التتبع يكون لابن واحد من الأبناء لأن الأصل كما سبق الذكر واحد، وما يهم أوغسطين هنا هو أصل اليسوع وحسب؛ يقول أوغسطين: "إن كنا نبحث في نسل إبراهيم، بسبب الشعب المسيحي، الذي تنطلق بواسطته على هذه الأرض، مدينة الله، عن سلسلة المسيح، بالجسد، واضعين جانبا أبناء السراري نجد إسحق، وإن وضعنا جانبا، في ذرية إسحق، عيسو أو أدوم نجد يعقوب إسرائيل، وإن وضعنا جانبا في ذرية إسرائيل الأخوة الآخرين نجد يهوذا لأن المسيح مولود من ذرية يهوذا"[1]، ومن يهوذا ابن يعقوب كان اليسوع.

ثم يستمر الكتاب المقدس في قص سلسلة الصالحين والأنبياء، بعد أن استوطنوا في مصر عند أخيهم يوسف طوال المائة والأربعين سنة، وهناك في مصر كان الشعب اليهودي قدوة في الأخلاق والنجاح والرقي وفي التناسل حتى أن عددهم صار كبيرا بشكل أخاف المصريين، مما جعلهم يعانون الاضطهاد والعبودية والقتل الذي مسّ أطفالهم الذكور، وفي هذه الفترة بالذات ولد موسى وتبنته زوجة الفرعون، فترعرع وتربى هناك، لكن استمرار الاضطهاد حال دون بقاء الاسرائليين في مصر، فهربوا ومعهم موسى "6ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ». فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ. 7فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ، 8فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً، إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ. 9وَالآنَ هُوَذَا صُرَاخُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَتَى إِلَيَّ، وَرَأَيْتُ أَيْضًا الضِّيقَةَ الَّتِي يُضَايِقُهُمْ بِهَا الْمِصْرِيُّونَ، 10فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ."[2]، موسى النبي الذي اختاره الله مباشرة ومنحه بركته ومعجزاته.

[1] أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص350.

[2] سفر الخروج، (1: 6-10).

ومن موسى أمسك يشوع مسؤولية تنفيذ وعد الله بالدخول باليهود إلى أرض كنعان؛ أرض المعاد؛ الأرض المقدسة وهو ما تحقق بالفعل، تحقق بالفعل الوعد الالهي لإبراهيم بأن يجمع أمته أمة واحدة في أرض كنعان، وبعد وفاته حكم اليهود القضاة ثم الملوك وكان "أولهم شاوول، ولما رذل وانهزم في معركة وسقط فيها رذلت ذريّته أيضا ولم يعد يخرج منها ملوك، خلفه داوود الذي دعي المسيح ابنا له، وبه تبدأ فتوة شعب الله"[1]، أوغسطين لا ينكر أن البركة هنا مقتصرة على الشعب الإسرائيلي شعب واحد دونا عن بقية البشرية، لتستمر السلسلة مع داوود وتمضي قدما نحو يسوع المسيح، فمع النبي داوود ابتدأت مرحلة الشباب التي سبقتها المراهقة في المرحلة الممتدة من إبراهيم حتى داوود، وقبلها مرحلة طفولة من نوح حتى إبراهيم، من نوح الذي ابتلع بطوفانه الزمن الذي سبقه، وبدأ تاريخ جديد لتأسيس مدينته الالهية من جديد بعد أن كاد الفساد أن ينهيها إلى الابد.

د. المرحلة الرابعة:

وكأي مدينة سماوية تستحيل عقب أي نكسة جسدية إلى مدينة أرضية، وكأي حضارة لها مرحلة انتعاش وازدهار ومرحلة سقوط، كذلك كانت مملكات اسرائيل التي انقسمت على نفسها قسمين، قسم شمالي وقسم جنوبي عاصمته أورشليم، وحدهم داوود النبي ذو البركة فأسس مملكة إسرائيلية عظيمة لكنها لم تكن لتضاهي الحضارات التي كانت قائمة آنذاك مصر وآشور، خلفه ابنه سليمان ليزيدها تقدما، لتعود النكسة الجسدية من جديد بعد وفاة سليمان وتولي ابنه رجعام الحكم، في هذه الفترة انقسمت المملكة مجددا "إلى مملكتين جنوبية وكان ملكا عليها رجعام (...)، بينما استقل بالمملكة الشمالية قائد من الشعب وصارت عاصمتها فيها بعد مدينة السامرة، ونشبت حروب بين المملكتين فترة من الزمن، (...) مدّ الآشوريون سلطانهم من بين النهرين إلى الغرب،(...) فأخضعوا دمشق سنة 732ق.م، وواصلوا زحفهم جنوبا فأخذوا السامرة سنة 721ق.م، وساقوا سكانها مسبيين إلى نينوى عاصمتهم، لكنهم أخفقوا في حملتهم على أورشليم بعد أن حاصروها وهدّدوها"[2]، سقطت أورشليم الأخرى عاصمة المدينة السماوية بفعل الجسد والمادة، وسبوا سكانها الصالحين.

سقطت المملكة الشمالية أما الجنوبية فبقيت صامدة إلى غاية سنة 586ق.م أين قام نبوخذ نصر الملك البابلي بالسبي الثاني وفيه يخبرنا الكتاب المقدس "8 وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة

[1] أوغسطين: مدينة الله، ج 2، مصدر سابق، ص355.

[2] أطلس الكتاب المقدس، الخدمة العربية للكرازة بالانجيل، لبنان، دط، 2008، ص61.

التاسعة عشرة للملك نبوخذناصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم 9 وأحرق بيت الرب و بيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار 10 وجميع أسوار أورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط 11 وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل و بقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط"[1] ، سبى البابليون اليهود وهنا كانت نكسة اليهود الكبرى أين "خضعت مملكة اليهود للقوة الغالبة. وسيق اليهود أسرى الى بابل"[2]، بعد أن كانت لهم مملكة صاروا عبيدا للبابليين مشتتين في الأرض، مطرودين من أرضهم، هي المرحلة الرابعة التي مرت بها المدينة السماوية كعقاب لليهود على ما كانوا يرتكبون من آثام ومخازي، في أشد اختبار لهم ليبقوا على العهد الذي قطعوه للرب بمعية النبي موسى أو أنهم سيستمرون في الانقسام والخضوع للجسد.

هـ. المرحلة الخامسة:

في هذه المرحلة عاد اليهود إلى أورشليم بعد سقوط بابل على يد الفرس "22و في السنة الأولى لكورش ملك فارس لأجل تكميل كلام الرب بفم أرميا نبّه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء في كل مملكته وكذا بالكتابة قائلا، 23 هكذا قال كورش ملك فارس ان الرب اله السماء قد اعطاني جميع ممالك الارض و هو أوصاني ان أبني له بيتا في أورشليم التي في يهوذا من منكم من جميع شعبه الرب الهه معه و ليصعد"[3]، وهنا بدأ اليهود بالتحرر تدريجيا من الشتات إلى أن انقضت السبعين سنة التي تنبأ بها أرميا في سفره الاصحاح 39، وعاد اليهود إلى أرضهم وبنوا من جديد الهيكل وأقاموا مذبحا، منتظرين تبعا لنبوءات أنبيائهم المنقذ الذي سيعيد لهم مجدهم وينفض عنهم غبار الذل الذي عانوا منه سنوات الطرد والشتات والتفرق في الأرض، "13هُوَذَا عَبْدِي يَعْقِلُ، يَتَعَالَى وَيَرْتَفِعِ وَيَتَسَامَى جِدًّا. 14كَمَا انْدَهَشَ مِنْكَ كَثِيرُونَ. كَانَ مَنْظَرُهُ كَذَا مُفْسَدًا أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَصُورَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي آدَمَ. 15هكَذَا يَنْضِحُ أُمَمًا كَثِيرِينَ. مِنْ أَجْلِهِ يَسُدُّ مُلُوكٌ أَفْوَاهَهُمْ، لأَنَّهُمْ قَدْ أَبْصَرُوا مَا لَمْ يُخْبَرُوا بِهِ، وَمَا لَمْ يَسْمَعُوهُ فَهِمُوهُ"[4]؛ ويشرح أوغسطين هذا السفر بقوله: "من آمن بما سمع منا ولمن أعلنت ذراع الرب، فإنه ينبت كفرح أمامه وكجرثومة في أرض قاحلة لا صورة له ولا بهاء فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه. مزدرى مخذول من الناس، رجل أوجاع ومتمرس بالعاهات، (...) إنه لقد أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا (...)جرح لأجل معاصينا وسحق لأجل آثامنا (...) كلنا ظللنا كالغنم، كل واحد مال إلى

[1] سفر الملوك الثاني، (25: 8-11).

[2] هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ (العالم اشرقي)، تر وتقديم وتعليق: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط2، 2005، ج2، ص: 165.

[3] سفر أخبار الايام الثاني، (36: 22-23).

[4] سفر إشعيا، (52: 13-15).

طريقه، فألقى عليه الرب إثم كلنا، قُدّم وهو خاضع، ولم يفتح فاه"[1]، لم يذكر أشعيا إسم المشيح المنتظر، لكن أوغسطين يعرفه تمام المعرفة إنه اليسوع.

الرب اليسوع هو المقصود بكل نبوءات أشعيا وغيره من الأنبياء كميخا ويونان ويوئيل وناحوم وحبقوق*، وغيرها من الأسفار التي عدّها أوغسطينوس بالتفصيل ليثبت بالدليل من الكتاب المقدس اليهودي أن السيد المسيح موجود وحقيقي ومن نصوصهم، لكل من آمن وبالأخص لمن لم يؤمن به، فاليهود وكما يذكر التاريخ لم يؤمنوا بالرب الذي تجلى بشرا لأنه رفض أهم عقيدة يهودية وهي شعب الله المختار، فالسيد المسيح جاء للناس كافة ولم يخص شعبا دون غيره، وأي إنسان يؤمن بالرب يسوع يصير مسيحيا بالضرورة أيا كن عرقه أو جنسه أو أيا انتهت سلسلته وأصله، أي مؤمن به هو مسيحي بالضرورة، أكان كنعانيا أو ساميا أو اسماعيليا...إلخ، الأمر الذي رفضه بعض من اليهود في حين قبل به البعض الآخر وانضموا للمسيح، وكرسالة للرافضين أخذ أوغسطين يرص النصوص التوراتية التي تنبئ بالرب يسوع لتكون حجة عليهم من كتابهم المقدس، وليقول لهم أن المدينة السماوية ليست حكرا عليهم وعلى أبنائهم، بل هي موطن البشر كلهم، موطن الصالح حتى يكفر، والكافر إن تاب.

ولد السيد المسيح بين اليهود في أورشليم حاملا معه دين الحق، فاديا البشرية، مخلصا العالم من خطيئته، في هذه المرحلة الممتدة بين تخلص اليهود من الشتات وبعث السيد المسيح، هي المرحلة الخامسة التي تضم بين طياتها رسالة المخلص ومعجزاته وفداءه وقيامته، وتضم معاناته، وظلم اليهود له واتهامهم له بالتجديف ما استوجب تبعا للقانون الروماني بالحكم عليه بالموت، وهو ليس ظلما من اليهود ولا حكما من الرومان؛ بل هو تخطيط إلهي وحكم مقضي قبل أن يوجد العالم والزمان، هو تدخل إلهي في التاريخ ما تدخل بشكل غير مباشر في عصر نوح بعنايته الالهية، يتدخل الآن بشكل مباشر بعنايته أيضا، تكللت السلسلة التاريخية الممتدة من آدم عبر شيت، إلى نوح عبر سام إلى أبرام عبر إسحاق، إلى يعقوب عبر يهوذا، لدوواد عبر سليمان، هي ذي السلسلة تتكلل بالرب متجل، هي ذي البركة تتجسد بشرا ذو معجزات تبكت كل رافض لربوبيته، هي ذي الخطيئة تغفر وتمحى، هو ذا آدم الانسان الأصل يعود من جديد؛ من جديد بأن

[1] أوغسطين: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص48.

*نبوءة ميخا: "1وَيَكُونُ فِي آخِرِ الأَيَّامِ أَنَّ جَبَلَ بَيْتِ الرَّبِّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي رَأْسِ الْجِبَالِ، وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ التِّلاَلِ، وَتَجْرِي إِلَيْهِ شُعُوبٌ. 2 وَتَسِيرُ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ وَيَقُولُونَ: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، وَإِلَى بَيْتِ إِلهِ يَعْقُوبَ، فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ، وَنَسْلُكَ فِي سُبُلِهِ». لأَنَّهُ مِنْ صِهْيَوْنَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ، وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ 3.فَيَقْضِي بَيْنَ شُعُوبٍ كَثِيرِينَ. يُنْصِفُ لأُمَمٍ قَوِيَّةٍ بَعِيدَةٍ، فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكَكًا، وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ .لاَ تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلاَ يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ."(1:1-3). 28 نبوءة يوئيل: "وَيَكُونُ بَعْدَ ذلِكَ أَنِّي أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ، فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ، وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَمًا، وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى. 29وَعَلَى الْعَبِيدِ أَيْضًا وَعَلَى الإِمَاءِ أَسْكُبُ رُوحِي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ."(2: 28-29). ننظر أيضا سفر ناحوم ، سفر حبقوق، ننظر أيضا أوغسطينوس: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص ص49-63.

"تموت الخليقة القديمة لتقوم خليقة جديدة"[1]، هي ذي قابلية الكمال تظهر من جديد، هاهي إمكانية إنزال الجنة إلى الأرض تتجسد.

دخول الله في التاريخ الأرضي أحدث منعطفا مركزيا في مسار العقل عبر مراحله هو وعد قطعه الله لبني إسرائيل منذ أبرام النبي، وتحقق على يد ابنه اليسوع وعد بالخلاص والملك والأرض والنسل والحكم وعد بالعالمية، أمر لا يمكن للعقل إثباته بآلياته المنهجية العلمية، كما لا يمكن للفلسفة إثباتها باستدلالتها المنطقية، هي مسألة إيمانية بحتة، بنى على أساسها المسيحيون فلسفة قائمة بذاتها، تخص فقط المؤمنين بها لأنهم عجزوا بكل الطرق أن يثبتوها، فحصروها فيما يسمى بالأسرار المسيحية، والتي تعتبر "إمتدادا في الكنيسة لسر يسوع المسيح، هي حضوره في كنيسته كما كان أيام حياته الأرضية لكي يحي الانسان المؤمن كما عاش يسوع، متمما مشيئة الرب"[2]؛ هو فداءه وقيامته وصلبه التي دائما ما يستحضرها المؤمن في حياته.

و. المرحلة السادسة:

هي العصر الذي تلى قيامة السيد المسيح وصعوده إلى جوار الرب، بعد أن أدى مهمته التي تجلى من أجلها، ومن بعده تزاوج سكان المدينتين بشكل كبير صعب الفصل بينهما؛ "بظهور المسيح ينتهي التمايز بين الإثنين، فتختلطان من جديد وتعود كل منهما وحدة معنوية لها أعضاء في الإنسانية جمعاء. فالمدينة السماوية هي جماعة من الماضي والحاضر والمستقبل"[3]، وتمتد إلى وقتنا الراهن وسيمضي إلى الزمن الذي يلي نزول السيد المسيح من جديد لتحقيق المملكة الالهية التي يكون هو رئيسها، ويصنف القديس أوغسطين ذلك التقسيم الذي وضعه للتاريخ على النحو التالي "من أدم الى نوح يمثل مرحلة الطفولة في مهدها الاول"[4] فلما حدث الطوفان مسح أي معلم على الأرض ما عدا السفينة، فلم يعد العالم يذكر ما حدث من قبل تماما كما ينسى الناس طفولتهم الأولى ولا يذكر منها شيئا كذلك المرحلة الاولى، "ومن نوح إلى إبراهيم مرحلة الصبا، ثم مرحلة الشباب التي تمتد من إبراهيم إلى داوود، زمن داوود إلى الأسر البابلي لليهود مرحلة الرجولة، ومن الأسر البابلي (...إلى) المجئ الثاني (...) يمثل مرحلة الشيخوخة أي العصر الذي يشيخ فيه العالم"[5]، أليس من الغريب تشبيه العصر المسيحي بمرحلة الشيخوخة وفيه تكون المدينة السماوية مدينة متضحة المعالم؟، لن يكون غريبا إذا

[1] أنطونيوس فكري: الأسرار السبعة، مشروع الكنوز القبطية، لبنان، دط، دت، ص307.

[2] سيداروس اليسوعي: مدخل إلى الأسرار، منشورات الآباء اليسوعيين، مصر، دط، 1981، ص26.

[3] –عبد الله ابراهيم: المركزية الغربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2003، ص 363.

[4] بير سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قلسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1984، ص 39.

[5] المرجع نفسه، ص 39.

أخذنا الفكرة من وجهة نظر أخرى فنقول أن القديس أوغسطين شبه تلك المرحلة بالشيخوخة لأنها المرحلة التي تسبق ولادة جديدة لحياة جديدة يعمها السلام المسيحي.

ويمكن تلخيص مسار التاريخ عند أوغسطينوس في المخطط التالي:

ثالثا: حركة التاريخ

أسقط أوغسطين اللحظات الست التي خلق فيها الله الموجودات ثم استراح ف اللحظة السابعة بمراحل سيرورة التاريخ الست، والسابعة التي استراح الرب ويستريح الخلق بعد أن يصنف المسيح البشر الى تابعين له وظالين عنه وهكذا ينتهي التاريخ، بعد أن سار في خطه المستقيم، المسار الذي رسمه أوغسطينوس كغيره من رجال الدين الفلاسفة هو مسار مستقيم يسير نحو تحقيق هدف معين وواضح ومتفق عليه بين أصحاب التفسير الدين، وهو العالمية المسيحية أو اليهودية أو الاسلامية، بمعنى انتشار الدين الواحد بين كل البشر وفي كل العالم، ويكون هو الدين الحقيقي وهو الذي يسجل على أساسه التاريخ نهايته ومرحلته الأخيرة، ففي المسيحية ينتهي التاريخ بمجيء السيد المسيح وحكم العالم وتوحيد كل الناس على كلمة واحد، فالتاريخ

* ننظر القديس أوغسطين: مدينة الله ،ج3، مصدر سابق، الكتاب السابع عشر.

الزمكاني لا يسير نحو الأبدية وإنما يسير نحو نهايته كالإنسان الذي يسير نحو يوم وفاته، وبعدها ينطلق تاريخ جديد لا زمكاني؛ تنطلق حياة جديدة.

أما عن الخط المستقيم فهو مسار مقصود ولازم كنتيجة حتمية للنسق الفلسفي لأوغسطين، نسق يمنعه من السقوط في تناقضات أو مفارقات، بين عقيدته وفلسفته والتاريخ، عقيدة تقول بظهور الرب في التاريخ مرة واحدة ليموت ويقوم ويعيد للناس الحياة الثانية التي حرمتنا منها الخطيئة الأصلية، وتاريخ يخبرنا بحادثة الصلب في حقبة تاريخية من تاريخ أورشليم، لتجمع الفلسفة كل ذاك في مسار التاريخ ذو الخط المستقيم المنتهي وفق وعد الله، ويقول حينها في فلسفته التاريخية أن المسار مستقيم. ولا يسع الخلط حينها بين الخط المستقيم المتقدم رأسا نحو الأمام نحو تحقيق الوعد الالهي؛ نحو تحقق الملكوت السماوي، وبين الانتكاسات التي تشهدها الحضارات، فسقوط الحضارات أو قيام حضارات على أنقاض حضارات أخرى قد يحيلنا إلى مسار تراجعي أو حتى لولبي دوري.

قد تتشابك المفاهيم الفلسفية للتاريخ وتصل لحد يصعب حينه التمييز بين مسار حضارة واحدة ومسار التاريخ الكلي العام، على أساسه كان أوغسطين سيقع في مفارقة صعبة لكنه انتبه للأمر وميّز بين المسار الذي يقصده، فهو عندما يدرس دخول الرب المباشر في التاريخ فهو لا يقصد دخوله في مرحلة الحضارة الرومانية بعينها بل دخل لينقذ البشرية كلها من خطيئة لم تحدث في روما وإنما حدثت خارج الزمان وليشمل فداءه البشر جميعهم، وحتى دخوله غير المباشر في إغراق الفرعون وجيشه في اللحظة المصرية وغيرها من التدخلات غير المباشرة، كان الهدف منها حماية سكان المدينة السماوية التي تحمل في طياتها بذور اليسوع مسيح الذي سينقذ البشرية، ليس صدفة أن يطفو في كل مرة مفهوم البشرية في كل مرة، بل الأمر مقصود فأوغسطين يتتبع تاريخ البشرية جمعاء؛ التاريخ الكلي الذي تكون الحضارات المشكلة له مجرد لحظات تصنعه، تسير كلها قدما نحو الهدف الأكبر وهو الملكوت التي ستجمع البشرية جمعاء مجددا في المدينة الالهية بعد أن كانت مجتمعة في شخص الانسان الأول آدم.

مسار التاريخ هو أحد أهم المبادئ المؤسسة للمبحث الفلسفي المسمى بفلسفة التاريخ، وهو شرط أساسي لتتم دراسة هذا المبحث، إذ لكل فيلسوف تاريخ مساره الخاص به والذي يتوافق ومرجعيته وإيديولوجيته، كمسار " الخط المستقيم"، المسار الدائري ، المسار اللولبي...الخ.

"أبى أوغسطين قبول نظرية الدورات المتكررة في التاريخ، وذلك لأنه اعتبر أن التجسد مرة واحدة لا تتكرر"[1]، فالفداء السر المسيحي حدث مرة واحدة ولا يمكن أن يتكرر مجددا، ولهذا فالمسار التاريخي لا يمكن أن يكون دورات متكررة أو متشابهة لأن حوادثه تتسم بالخصوصية والفرادة، كظهور الله بشكل مباشر في التاريخ؛ الأمر الذي أدهش العقل البشري وأصابه بالعجز، عجز تجاه تقبل دخول الكامل في حيّز الناقص ومجاله، وعدم تقبل لمشاركة الأزلي الأبدي محيط الزمان والمكان، والتشارك بين الله والإنسان للتغلب على تبعات الخطيئة، فصار للخالق دورا في الوجود اتحد بدور الانسان الموجود، حدث أن تضافرت أهدافهما في التاريخ؛ تظافر بين الخالق والمخلوق في أرض الواقع المعيش.

أو ظهور غير مباشر كالطوفان الذي إبتلع البشرية كلها وابتلع الزمان الذي سبقها، ولم يبق منهم غير عباد الله الصالحين وحقبة سماوية جديدة أو ظهور الله في هيئة إنسان صارعه يعقوب النبي ذو البركة "لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي"[2]، أو معجزات تخص أشخاص معينين وغير متاحة للجميع كحادثة الذبح أو معجزات موسى والحواريين بعد أن امتلأوا بالروح القدوس، هي حوادث يصعب على العقل إدراكها أو إثباتها، لكن الكتاب المقدس يؤكد على حدوثها، لأن التاريخ لا يستطيع دائما قول الحقيقة لذا يجب الايمان بما وراء التاريخ أو ما فوق التاريخ وهو الكامن و المسكوت عنه في نص الوجود، وهو المصرح به في الكتاب المقدس، هنا في مرحلة الايمان به تأتي مرحلة الاقرار بتحققه في التاريخ.

[1] آلبان.ج.ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه من كونفشيوس إلى توينبي، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط2، 1996، ج1،ص182.

[2] سفر التكوين، (32: 30).

المبحث الثاني: الصراع والتاريخ:

وصف المراحل التي مر بها الانسان عبر تاريخه هو ما يسمى بالتاريخ باعتباره "كل شيئ حدث في الماضي، (...)، وإذا كان هناك تاريخ للنبات وتاريخ للحيوان وتاريخ للفن، فان التاريخ المصطلح عليه هو تاريخ الانسان الذي هو دراسة لأعمال الانسان في الماضي وأفكاره ومشاعره ومخلفاته، وبصفة عامة دراسة لتطور المجتمعات البشرية"[1]، هذا التعريف الكلاسيكي للتاريخ والذي لا يخرج عن تمحوره على البراديغم القائم على المقولة "الأساس والتي تؤكد أن التاريخ حقا هو تاريخ البشر للبشر وبالبشر"[2]، وسواء كان الانسان هو صانع التاريخ أو هو بطل التاريخ التي تدور كل الأحداث حوله، والذي أعطاه الرب شرف التمثل به، فان دوره لا يمكن إغفاله في صنع التاريخ، وما عالجه أوغسطين كان ليكون تاريخا لو أنه لم يوظف مقولات فلسفة التاريخ، هنا تماما تستحيل الدراسات التاريخية فلسفة، والمتمثلة في الكلية والعلية.

أما الكلية فهي تجاوز التجزيء الذي يقوم به المؤرخ في دراسته للماضي، وكذا تجاوز حوادث بعينها ودراسة ظواهر جاهزة ووقائع وكل ما يتعلق بحياة الفرد والحضارة، تجاوزها لما بعدها بالوصول إلى دراسة التاريخ كحادثة واحدة مترابطة ومتكاملة، لها قانون واحد يتحكم فيها ويسيّرها، وعنها يشبه "أوغسطين التاريخ بغناء جميل (باللاتينية Pulcherimum Carmen) ينبغي الاستماع إليه حتى نهايته لفهمه وتذوّقه (...ف) كلية التاريخ حيث معنى التاريخ والأحداث التاريخية لا يُدرك إلا بانتهاء التاريخ نفسه، عندما يخضع الآب كل شيئ للابن، ويخضع الابن للآب، فيصبح، "الله كل شيئ في كل شيئ"(قور 15: 20-28)"[3]، والفيلسوف الذي كتب عن التاريخ ولم يصل بعد إلى نهايته؛ استأنس بالمسار التاريخي الذي سيقود لنفس النتيجة دون أن نعايشها، ذلك أن قانون التاريخ واحد ولن يتناقض مع ما سيقود إليه، أو ما قاله الكتاب المقدس.

أولا: الله والتاريخ

فأوغسطين لم يقف عند الحضارة الرومانية بذاتها، أو تاريخ المدينة السماوية في رحلتها عبر الأنبياء ذوي البركة وحسب، بل ضم التاريخ البشري كله من بدايته إلى دينونته الأخيرة، فتلك الاحداث المتراكمة بعضها على بعض استحالت عند أوغسطين تاريخا موحدا، متناسقا ذو هدف، له محرك يسير على أساسه طيلة

[1] رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، دار عين، مصر، ط1، 2000، ص9.
[2] عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005، ص34.
[3] فاضل سيداروس: تاريخ اللاهوت البشري، دار المشرق، بيروت، ط2، 2012، ص71.

مراحله السبع، ذلك "أن فلسفة التاريخ يجب أن تبدأ من فكرة أن التاريخ يحكمه قانون ما"[1]، وهو ما درسه فعلا أوغسطينوس دون أن يدرك هذا المبحث الفلسفي ودون أن يعلم أن له مبادىء ومقولات، ودون حتى أن يعلم بوجود قانون لهذا المبحث من الأساس، اعتبره الدارسون العرب في دراساتهم لفلسفة التاريخ* أن القانون الذي فسر به أوغسطين حركة التاريخ هو "العناية الالهية".

تعتبر العناية الالهية من المقولات التي تشترك فيها جميع الديانات السماوية منها والوضعية، فكل ديانة تؤمن بإله واحد أو بمجموعة آلهة، تؤمن في الآن ذاته بوجود علاقة وطيدة تربطهم به، بل إن تلك العلاقة هي التي جعلتهم يصنعون فكرة الاله في مخيلاتهم ويؤمنون به ويجسدونها أحيانا، فكرة وجود إله يحيط بهم ويحميهم ويعتني بهم، يلجأون إليه بقرابين حتى يبقوا دوما على مقربة منهم ليحسوا بالأمان، وليؤّمنوا مستقبلهم الذي ترسم وحدها طريقه، ليست حياتهم فقط التي تسيّرها الالهة، بل إن الكون كله تحت سيطرتهم، فجعلوا لكل ظاهرة طبيعية آلهة تختص بها، تنظمها وتتحكم بها، وبالتالي تسيطر على الكون وتتحكم به، وتعتني بكل تفاصيله، فكان هذا النظام والترتيب الذي يشمل الكون، وهذا التناغم الذي يؤلف بين كل جزئياته، والانسجام الذي يوفق بين مختلف التضادات التي يزخم بها الوجود، هو التدبير الذي يحيط بالوجود في كليته، أي تدبير الانسان، المجتمع، الحضارة والتاريخ.

كل الحضارات القديمة التي كتبها التاريخ دون استثناء اعتبرت الدين ناظمها، حتى أن فلسفاتها تنطلق منه وتنتهي إليه، ثم أفاضوا من الاله الواحد العديد من الآلهة، لكل واحد منهم وظيفته التي لا تخرج عن نطاق العناية والاهتمام بأمر ما، أخذ اهتمام البشر بكسب رضى الآلهة الكثير من تفاصيل حياتهم اليومية، وهذا ما

[1] عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، تر: كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت، ط1، 1980، ص12.

* تناولت العديد من المراجع العربية فلسفة التاريخ في كتب متخصصة لمواكبة الحدث التاريخي ومحاولة الاستفادة منه في الحضارة الراهنة وفي المستقبل البعيد أيضا، والضرورة المنهجية والابستمولوجية في هذا المبحث الفلسفي تحتم على الباحث الإتيان على جميع الفلاسفة الذين فلسفوا التاريخ وكان أوغسطين من ضمنهم، فظهرت العديد من المحاولات منها كتاب المفصل في فلسفة التاريخ لصاحبه هاشم يحي الملاح، الذي درس فكر أوغسطين معتمدا على العديد من المراجع لم يكن لمصادر أوغسطين محل بينها، بل أعتمد على كتاب أحمد محمود صبحي المعنون ب في فلسفة التاريخ والذي درس فيه فكرة العناية الالهية كمحرك للتاريخ، معتمدا هو الآخر على كتاب عبد الرحمان بدوي ويوسف كرم وهي كتب غير متخصصة في فلسفة التاريخ، وإنما تدرس فلسفة العصور الوسطى عموما، حتى أن أحمد محمود صبحي لم يدرج ولو نص واحد للفيلسوف يبيّن أو يدل على أن العناية فعلا هي محركة التاريخ، أو نص يبيّن العلاقة الفعليه بين الحركة التاريخية وبين العناية، وهو الأمر نفسه وقع في بقية المراجع العربية التي لم تستشهد بنص لأوغسطين ككتاب فلسفة التاريخ جدل البداية والنهاية والعود الدائم، فيه شارك الباحث العراقي عامر عبد زيد بمقال عنوانه: التأويل اللاهوتي للتاريخ عند أوغسطين الذي اعتمد أيضا على يوسف كرم وزينب الخضيري. حقيقة أن هذه الدراسات العربية وغيرها كانت قاصرة في فهم كنه الفلسفة الاوغسطينية، التي تستوجب في أساسياتها العودة إلى النصوص الأصلية واجتراح حقيقة العلاقة ومن ثم طرحها، لكن الذي حدث هو انسياق خلف فكرة شائعة التمعن فيها يكشف أنها غير مؤسسة وغير مبرهنة، لذا قد تكون خاطئة.

تؤكده كثرة المعابد والرسومات التي تجسد الآلهة في كل مكان من تلك الحضارات، كما وأن منتجاتهم الفكرية والفلسفية والأدبية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأمر، نجده في كتاب الموتى المصري، ملحمة كلكامش العراقية، الأفستا الزرادشتية الايرانية، الريج فيدا الهندوسية، والكونفوشيوسية والطاوية في الصين، لم يقتصر الأمر على منتجاتهم الأدبية والفكرية، بل انسحب حتى على مخلفاتهم العمرانية وآثارهم التاريخية، كالأهرامات المصرية والحدائق البابلية، كون الدين كان في الحضارات القديمة الناظم والحماية المعنوية التي يحس البشر بها، فهي ترافقهم في الحروب، كما ترافقهم في الانتصار، كما تؤمن لهم الطعام والشراب، وتحفظ لهم الحياة وتسلبها، وبالتالي فإن وجود الآلهة أساس من أساسيات الحضارة.

العناية الالهية على ذلك هي صميم الفكر الديني قديما وحديثا أيضا؛ إيمان باله ينظم الكون ويسيّره، يعتني بمخلوقاته ويتدخل لحمايتهم متى احتاجوا لذلك، يرافقهم في الحرب والمرض، يحل في التاريخ ويبسط عليه قدرته ليمشي وفق إرادته، فيطمئن البشر جميعهم وخاصة الضعفاء منهم لوجود قوة أعظم من الجميع تحميهم وتعيد لهم حقوقهم التي عجزوا عن استعادتها.

فلاسفة الطبيعة الأوائل وعلى رأسهم طاليس ومدرسته الايلية، وعلى الرغم من أنهم أحدثوا ثورة على التفاسير الأسطورية أحيانا والميتافيزيقية أحيانا أخرى في تفسير أصل الوجود، واستبدلوها بالعناصر الطبيعية الملموسة لاعتقاد منها أنها القادرة على التصدي للأسئلة وتقديم إجابات مباشرة من هذه الخبرة الحسية ومن العالم المحيط بنا، نراه ونجربه ونستدل عليه عقليا، ونستطيع حينها الوصول لنتائج تجريبية مؤسسة، على الرغم من هذا البديل التجريبي للإجابة عن السؤال الأنطولوجي؛ إلا أنهم لم ينكروا وجود الآلهة في هذا الوجود، وبقوا محافظين على مساحة غير طبيعية في هذا الوجود، وحيّز لذلك الجانب المفارق موجود معنا محيط بنا، كمقولة طاليس الشهيرة: الكون مليء بالآلهة، وأيا كان التفسير الذي أعطي لهذه المقولة التاريخية، أكان آلهة أو نفسا أو أي جانب روحي كان في دواخلنا، فان الاقرار به موجود في فلسفة طاليس، ومن طاليس وغيره من فلاسفة الطبيعة نستشعر حاجة الانسان الدائمة لوجود إله أو مجموعة آلهة.

أما الاشارة الصريحة للعناية الالهية فنجدها في كتاب القوانين لأفلاطون والذي ردّ فيه على الملحدين من الفلاسفة والمفكرين، محاولا بقدرته الاستدلالية إثبات أن الله موجود، وأن عنايته الإلهية قانون سرمدي منذ وجودنا بالقوة وإلى غاية تحققنا كموجودات بالفعل، محيطة بنا معتنية بكل تفاصيل الوجود التي أوجدها الله، ــعلى الرغم من أن القانون اليوناني آنذاك يعاقب الملحد بعقوبات تصل للإعدام إلا أن أفلاطون الفيلسوف

المنفتح على الاختلاف المرحب بجميع العقول على اختلافها رفض أن يحيل الملحدين على الهيئة المحلفة وبادلهم الحجة بالحجة ناشرا مقولات التثاقف في فصل بأكمله من كتابه القوانين، هي أهم ميزة تميز بها الاغريق جعلت الفلسفة لديهم تنتعش الامر وتستمر في التاريخ-.

بدأ أفلاطون محاورته بتفنيد فكرة وجود دون آلهة، وجود مادي بحت لا روح فيه ولا نفس، ومن النفس التي أنكروها فرش أفلاطون لبناء عقلاني متين، تكون أولى لبناته نفي المقولة الأساس التي تتضمن كون الموجودات الأساسية الأولى المتمثلة في الماء النار الهواء والتراب تدين في وجودها للطبيعة، وأن موجودات المستوى الثاني من سماء وبحار وجبال وغيرها نتيجة حتمية للمستوى الأول ومنه من الطبيعة، وتكون الانطلاقة الافلاطونية إذن بإثبات أي وجود غير مادي، وحالما يثبت أفلاطون وجودها تنتفي المقولة رأسا.

انطلق من مبدأ الحركة الذي اخترق السكون الأول للموجودات، ليصل إلى أن كل المتحركات التي تحركت وحرّكت غيرها خضعت هي ذاتها لفعل الحركة، لينتهي أخيرا إلى المحرك الأول الذي نبعت منه الحركة فحرك الكل ولم يحركه أحد، يقول أفلاطون على لسان الأثيني: "عندما نجد هذه الحركة قد أظهرت نفسها في شيء مكون من التراب والماء والنار، سواء كان ذلك التكون منفصلا أو مختلطا فكيف ينبغي أن نصف الخاصة الكامنة في مثل ذلك الشيئ؟"[1]؛ إنها الحياة إنها النفس، وما ينتج عن النفس ابتداء من انفصال بينها وبين الجسد، وما ينتج لاحقا من تحديد لوظائف كل منها، وما ينتج أخيرا من إثبات لوجود الله، هذا الصعود في الإثبات والإستنتاج أو ما يطلق عليه أفلاطون الجدل الصاعد هي آليته في أثبات وجود الله ونفي المادية في تفسير أصل الوجود.

بعد أن أثبت أفلاطون وجود الله انتقل لفكرة العناية الالهية والتي اعتبرها صفة لازمة في الآلهة، تتضمن فعل الحراسة، يقول أفلاطون :"أليس الآلهة جميعا هم أعظم حراسنا، والصالح الذي يحرسونه، هو أهم مصالحنا"[2]، ويقول أيضا عن مفهوم العناية :"هي أن هناك آلهة وأنهم يكترثون بنا"[3]، وهم المهتمون بأبسط تفاصيلها وليس فقط القضايا الكلية، فالطبيب وهو الموجود الناقص لكي يعالج مرضا كان لزاما عليه أن يتفقد كل عوارض المرض بأدق تفاصيله حتى يصل للعلاج، والصانع وهو يهتم بالكل فهو لا يغفل أبسط التفاصيل

[1] أفلاطون: القوانين، تر: محمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1986، ص463.
[2] المصدر نفسه، ص482.
[3] المصدر نفسه، ص483.

المشكلة لهذا الكل، هذا وهو الإنسان القاصر فكيف بالرب خالف الكل، يعتني بنا ويحيط الموجودات بكلها وأجزائها، وإلا لما كان إلها ولما كان هو صانع الوجود، إذ كيف له أن يصنع الوجود ثم يتركه للفوضى أو يتركه دون تسيير وتدبير؟.

العناية الالهية "بمثابة فعل يمارسه الله على العالم بوصفه إرادة تقود كل الأحداث إلى غايات"[1]، وهي "علم الله بما ينبغي أن يكون عليه الوجود حتى يكون على أحسن نظام وأكمله"[2]، والعناية حاضرة دوما في ابتهالاتنا بجمل صريحة كقول الاكويني: "لكنك أيها الرب، تدبر كل شيء بالعناية"[3]، الله الذي أيّس الأيسات من اللّيس، أيّس العالم بفعل إلهي محض، أخرجه من أفكاره لتتجلى أمام الحواس فتدركها، ثم يصد عنه؟

اكتملت أبعاد نظرية العناية الالهية على يد المسيحيين، فهم أكثر من اهتم بهذه الفكرة والتفوا حولها، خاصة وهم أصحاب الدين التوحيدي؛ الله الواحد المعروف الذي يحيط بالكل، الذي جمع وظائف كل آلهة الحضارات السابقة، فصار من السهل التواصل معه وتقديم الصلوات والقرابين له بدلا عن الكثرة، "26أُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟ 27وَمَنْ مِنْكُمْ إِذَا اهْتَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ عَلَى قَامَتِهِ ذِرَاعًا وَاحِدَةً؟ 28وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ 29.وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا 30فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟"[4]، فيد الآب مبسوطة على الخلق، من أكبر الأجناس إلى أصغر الأنواع، الحية منها والجامدة، من أبسط الأمور إلى أعقدها، تصل لدرجة تدخله الشخصي والمباشر في التاريخ عندما لم يكن هناك من حل غير تدخله لمنح البشر حياة ثانية، هذا الظهور المباشر للرب في التاريخ ومشاركته الحياة البشرية الناقصة في جسد محسوس مرئي، جعل المسيحيون يتبنون فكرة العناية الالهية ويجعلونها مركز الدين المسيحي، فصار دين العناية الالهية، إذ لم يسبق أن ظهر رب في التاريخ وهي حادثة تفردت بها المسيحية دون غيرها، وعليه فإن أبرز ظهور للعناية الالهية هو ظهور السيد المسيح، وعنايته أيضا لم تمنح للجسد الفاني جوهر الخلود، بل "اتخذ اللوغوس أو الكلمة جسدا في الزمان، لكي يمكن أن يدخل في حياتنا

[1] أندريه لالاند: الموسوعة الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 2001، ط2، مج2، ص1064.
[2] جميل صليبا، مرجع سابق، ص110.
[3] توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، تر: بولس عواد، مج1، المطبعة الادبية، بيروت، دط، 1887، ص294.
[4] إنجيل متى، (6: 26-30).

الزمنية، فانه لم يتخل عن أزليته وهو في هذا الجسد، بل أعطى عدم الموت لهذا الجسد"[1]، بمعنى لم يكن السيد المسيح ناقصا وهو يتجلى في جسد بشري، اندماج الناسوت واللاهوت في التاريخ، لاهوت غير محدود ليمسح خطايا آدم والبشرية جمعاء، اندمج ليعيد الحياة التي خسرها آدم في بداية تمرده ومات موتا، لأنه إن لم تكن قيامة للسيد المسيح لن تكون هناك قيامة لأي إنسان.

والعناية الالهية أخذت مع رجال الدين الأوائل تفاسير مختلفة، تمحورت في معظمها حول قصص توبة ومواعظ تحاول كسب تعاطف الناس تارة، وتشحذ هممهم تارة أخرى، وقد كتبت الكثير من الكتب في هذا الصدد وحفظت في مكاتب المسيحيين الضخمة، ككتاب العناية الالهية ليوحنا الذهبي الفم الذي شرح باسهاب قصة إبراهيم أب الأمم الكثيرة وكيف أنقذت عناية الرب إبنه من الذبح، ويوسف الذي أنجته العناية من مكر إخوته وغدرهم، ونوح الذي انجته من الطوفان وموسى الذي فلق البحر لإنقاذه ورسالته وغيرهم[2]، وكتاب العناية الالهية للمرقص جرجس الذي أرخ لأهم قصة كانت دارجة آنذاك عن العناية الالهية، حتى لا تذهب أدراج التاريخ وحتى يتعظ بها الناس، قصة الملك الطاغي الذي شاءت العناية الالهية أن يتوب على يد فتى صغير[3]، بقيت العناية الإلهية حبيسة حكايات الورع والتقوى، حكايات كان يصفها أوغسطين المراهق بحكايات العجائز.

أوغسطين كرجل دين مسيحي فيلسوف، حاول أن يحدث تخريجا فلسفيا لهذه الفكرة المسيحية الأصيلة، فلم يجد في الأمر صعوبة خاصة وأن لفكرة العناية الالهية جذور ضاربة في كل الحضارات السابقة، وأن محاولة إثباتها أمر لا طائل منه، لكن تحديد الفرادة المسيحية في هذا الموضوع والتميز الذي يخصها دون غيرها كان لزاما على القديس تبيينه وإظهاره للعيان، كيف لا والعناية تجلت في التاريخ وظهرت للحواس؟ كيف لا والرب يسوع شارك الناس الحياة، واحتوى خطيئة البشر كلهم وحملها على ظهره بعنايته، ومنحهم الحياة التي سلبها منهم الانسان الجديد.

يقول أوغسطين :" لقد أرادت العناية الإلهية أن تفرض على مر الزمن نظاما معينا (...)وأعلنت هذه الشريعة التي تأمر بعبادة الله الواحد الحق بواسطة الملائكة، إنه لحدث رائع يظهر فيه الله فيراه شخصيا بشكل

[1] أوغسطين: لنفرح بميلاد المسيح، تر: نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أونطونيوس، القاهرة، دط، 2011، ص22.
[2] ننظر: يوحنا الذهبي الفم، العناية الالهية، تر: نشأت مرجان، مر: إبراهيم صموئيل، دار النشر الاسقفية، مصر،ط1، 2009.
[3] جرجس: العناية الالهية، مطبعة التوفيق، مصر،دط، 1919.

مرئي، إن لم يكن في جوهره غير المنظور بأعين الناس فأقله من خلال بعض علامات محسوسة تنقلها المخلوقات المؤمنة إلى خالقها، فيها يعبر اللسان البشري في تقطع متتابع من الكلمات ، في ذاك الذي كلمته روح وعقل وأبد ، كلمة لا بداية لها ولا نهاية ، كلمة تسمع بكل نقاوتها لا بالأذن بل بالفكر (...)كلمة تعطيهم بشكل لا يوصف الوصايا الواجب نقلها في النظام المحسوس والظواهر وينفذونها (...)من هو ذاك الإله؟ إنه ذاك الذي خلق السماء والأرض وكل نفس وكل روح متميز عنه، إنه الخالق الذي صنع بيديه جميع الكائنات التي تحتاج إلى الذي صنعها لتكون وتبقى"[1]، فالله يبقى حارسا للعالم فارضا عليه عنايته، ومنه فإن العناية الالهية ترافق مسار التاريخ منذ بدايته الروحية إلى بدايته الجسدية الحسية وحتى نهايته "فالله يتبدى في صميم التاريخ الانساني كعناية وسير التاريخ الأرضي يكون مسيرا ومحكوما من الله وفقا لما يحلوا له وإنه لغير ممكن أن نعتقد بأن الله يستطيع ترك الممالك الدنيوية خارج قوانين"[2]، فهل هذا يقودنا للتسليم بالمقولة المتعارف عليها بين الكتاب والمفكرين التي تقول :"التاريخ مسرحية ألفها الله ومثلها الإنسان" مقولة سالبة لأي إرادة حرة للانسان، مصادرة لأي حق تقرير للمصير ولأي فاعلية تميّز الانسان كعنصر فعّال في الكون، وبالتالي فان حضور الانسان في التاريخ حضور سلبي، ما جعل الكثير من الكتاب يحشرون أوغسطين مع هذه الرؤية للتاريخ وللانسان والله، إذ يرون "أنه جعل البشر كقطع الشطرنج في لعبة على رقعة الزمان بين الله والشيطان"[3]، الأمر الذي رفضه القديس أوغسطين كليا في أكثر من كتاب.

التاريخ ليس مسرحية يؤدي فيها الانسان دورا مكتوبا، فرض عليه، وقدر له، دون أي خيار أو قرار؛ بل الانسان صاحب القرار؛ أليس هو من اختار بإرادته الحرة أن يخرج من جنة الرب، اختار أن يقول لا كما قال الشيطان قبله، بل جعل أوغسطين من الارادة الحرة سبب هذه السقطة الأنطولوجية التي عايشها الانسان الأول، وبها خالف أوامر الله وأكل من الشجرة، وما كان لله أن يخلق البشر ويفرض عليهم مسار حياتهم ومن ثم يحاسبهم عليها، وبالتالي فان الانسان مخيّر في هذه الحياة، حر في اختيار المدينة الارضية أو اختيار أن يكون مواطنا سماويا، وهذا ما طرحه أوغسطين في فلسفته.

هنا نطرح التساؤل التالي: إذا كان الانسان مخيّرا وذو إرادة حرة فما دور العناية الالهية في التاريخ؟؟

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص ص481-482.
[2] ألبان.ج.ويدجري، مرجع سابق، ص: 148.
[3] رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص83.

العناية الالهية هي نواميس الكون الثابتة التي تقضي برفض كل مقولات الصدفة في التاريخ، وتقول بقوانين الرب الراسخة في الكون سواء ما تعلق منها بميكانيكا الكون أو بمنظومته القيمية، كثيرة هي مواطن استشعار العناية الالهية، في جمال الطبيعة وتناسق عناصرها وتنوعها، السماء بشمسها وقمرها التي تضبط الفصول وتتحكم في المحاصيل فتضمن اكتمال السلسلة الغذائية وبالتالي التحكم في المخلوقات، النجوم التي تزين السماء والتي تنير درب البحارة والسيارة على حد سواء، وتقسم ساعات الكون وأيامه، هل نستطيع أن نحصر أو نعدد تجليات العناية الالهية في الوجود؟ "إن كنت لا تسأم، فإنك تستطيع أن تتطلع إلى عناية الله في شهود كثيرين: في السحاب، فصول السنة، دورات النجوم، الرياح، البحر وكل أنواع الكائنات التي فيه، (...)، نباتات السهول، الوديان الضيقة، الجبال، النباتات التي تنمو من ذاتها، الثمار الناتجة عن الجهد والزراعة، الحيوانات المستأنسة وغير المستأنسة،(...)، الحياة، التعب الذي نتشارك ففيه جميعا، الحزن، الاستكانة، اللأكل والشرب المعطى لنا، الآداب، الفنون،(...)، المرض، الصحة، أعضاء جسدنا، تركيبة نفسنا، الفنون، المهارة التي تتطلبها هذه الفنون والتي قد أعطيت للبشر (...)"[1]، هي مجالات العناية الإلهية التي حددها رجال الدين بمعية الكتاب المقدس.

وقانون الكون أيضا بصرامته يخبرنا أن الله يعلم ما سيفعله عباده قبل أن يفعلوه لكن لا يتدخل في أفعالهم، وعنايته الالهية تضمن للأفراد حرية الفعل وحرية الاختيار، فعلمه المسبق لا يتعارض وحرية الافراد ولا إرادتهم؛ "لن تكون إرادتنا إرادة بالفعل ما لم تكن في نطاق قدرتنا. ونظرا لأنها في نطاق قدرتنا فمن البيّن أنها إرادة حرة ... ولا يمكن أن تسمى إرادة إذا لم تكن في نطاق قدرتنا. كذلك أيضا يكون من البيّن أن لله علما مسبقا بما كان وسيكون في نطاق قدرتنا. ومع ذلك فانه ليس من شأن علم الله المسبق أن يسلب مني القدرة، وإنما على الضد من ذلك سوف يتجلى من داخلي القدرة على الارادة بفضل من علمه المسبق"[2]، وعليه فعناية الله هي عينها التي تضمن للأفراد حرية الفعل والقول، كقانون إلهي صارم صرامة القوانين الطبيعية والأزلية.

ليس بلازم إذا، ألا يكون ثمة شيء في نطاق إرادتنا بحجة أن الله قد علم مسبقا بما كان موجودا في نطاق إرادتنا، ذلك لأنه إذا علم الله مسبقا بهذا الشيء، فمن المحال القول بأن ما علمه مسبقا لم يكن شيئا.

[1] يوحنا الذهبي الفم، مرجع سابق، ص37.
[2] جاريث،ب ماثيوز، مرجع سابق، ص157.

زد على هذا أنه إذا علم الله بمقتضى علمه المسبق بما سوف يكون في نطاق إرادتنا، بوجود شيئ ما، لا بعدم وجوده، فيلزم بالضرورة أن ثمة وجودا لشيء ما في نطاق إرادتنا، حتى وإن كان الله يعلمه علما مسبقا، ومن ثم فنحن لسنا بمجبرين البتّة على الإختيار بين بديلين: إما إثبات علم الله المسبق بإنكار حرية إرادتنا، وإما إثبات حرية إرادتنا بانكار العلم الالهي المسبق"[1]، وهنا نخلص إلى أن العناية الالهية لا تعني أننا أبطال مسرحية نمثل فيها أدوار كتبت سلفا، وليست هي محركة التاريخ.

حركة التاريخ هي تلك الآلية التي تقود التاريخ وتفعّل أحداثه، منحها الله للإنسان ليختار من خلالها المسار المناسب للتاريخ، هي يد الله التي أعطت للبشر عقلا باستطاعته تحويل التاريخ من تاريخ ساكن لتاريخ ديناميكي فعّال، هو ذاك الدافع لتلك العجلة الثابتة، أنها ميكانيزم حركة التاريخ التي منحها الله للإنسان بعد أن منحه الارادة الحرة، ومنحه عنايته التي تحيط به وتنظم الكون من حوله، وتحرسه فتتدخل لحظات في التاريخ لتنقذه من هلاكه الحتمي، فالعناية هنا هي حارسة التاريخ لا مسيّرته، الانسان هو مسيره ومحركه، وصانعه.

حركة التاريخ هي يد الانسان التي منحها الله الحرية والارادة لتفعل، الانسان الفاعل الفعّال، الذي يسيّر أحداث التاريخ بأمر إلهي، وتفويض سماوي، يسيّر التاريخ وفق إرادته الحرة التي مهما بلغ إبداعها من فرادة فالله يعلمها ويحيط بها، وعلى هذا الأساس يمكن أيضا أن نعرف التاريخ على أنه "علم صيرورة الانسان"[2]، الانسان الذي اختاره الرب ليتجسد من خلاله، ويظهر في التاريخ، لا ليكون ناقصا بالجسد، بل ليكون الجسد خالدا بالرب يسوع، هذا الانسان مركز المعجزات منحه الله الأرض ليقضي فيها عقوبته، فهي البيئة المناسبة التي يحاول فيها العودة إلى طبيعته الأولى، وكما سيّر حياته في الجنة وصنع تاريخه المفارق بإرادته الحرة ها هو يعيد الكرّة على الأرض، إرادته الحرة التي صنعت الانسان كمفهوم، فالإنسان دون إرادة ليس بانسان؛ هو الحرية وهو الارادة وهو صانع التاريخ.

هنا تطفو مجددا على السطح قضية العناية الالهية وعلاقتها بالانسان؛ مأزق معرفة الله لكل شيء قبل أن يوجد للكون أثر، وقبل أن تكون أيام الخلق الست، معرفة الله التي ربطها الكثير بالقدر وجعلوا من الانسان ذاك المخلوق السالب الذي جاء ليؤدي دوره ويغادر، دون أبسط عنصر إبداعي أو فعّال، وكل ما نتوهم أنه إبداع بشري هو في حقيقته إبداع إلهي، هو قدر كتبه الله، الأمر الذي رفضه أوغسطين وتبنته المدرسة الرواقية

[1] جاريث ماثيوز، مرجع سابق، ص 158.

[2] نقلا عن علي شريعتي: الانسان والتاريخ، تر: خليل علي، حققه ونشره: محمد حسين بزي، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007، ص19.

في اليونان وروما أيضا، وقد ركز أوغسطين في دراسته على الرواقية ليس إهمالا لباقي الفلسفات ولكن لأن الرواقية هي من الفلسفات التي عايشت العصر الهيليني والهلينستي معا*، إذ انتقلت من اليونان إلى الرومان الأوغسطيني وساهمت في صناعة إنسان روماني أخلاقي بنى حضارة عظيمة، الرواقية اذن كانت فلسفة الرومان الأساسية لها أتباعها ومريدوها، ومنهم شيشرون، الذي ورغم تبنيه لفلسفتهم إلا أنه اختلف معهم بشدة في هذه الجزئية المركزية، فكرة الانسان وعلاقته بالقدر؛ فكرة حرية الانسان.

الرواقية التي جعلت من "عش في وفاق مع الطبيعة" مبدأها الفلسفي وناظم إشكالاتها، فعلى الرغم من تنوع المباحث الفلسفية الرواقية من أخلاق وسياسة ودين وإنسان وغيرها، إلا أن الطبيعة هي مصب اهتمامها طيلة أطوارها الثلاث وخاصة الأول منها، بل هي أقدم مبحث فلسفي تناولته بالدراسة، فليس غريبا على هذا أن تتعلق باقي المباحث به، وأن يتعلق الانسان هو الآخر به باعتباره جزء من الطبيعة، بل وحتى الآلهة يخبرنا شيشرون عن معتقد الرواقية في شخص أخيه كونتوس الرواقي أنه "أنكر وجود الالهة إنكارا باتا"[1]، فلا شيء حقيقي في العالم إلا الطبيعة وكل ما كان محسوسا تلتقطه الحواس، وهو ما كان شائعا من تفاسير نشرتها المدارس الطبيعية الإيلية والأيونية التي بحثت في أصل الوجود ووجدته متجليا في المادة ماء أو هواء أو نار أو بيرون... إلخ، فالرواقية ابنة اليونان الطبيعية أخذت من هذه التفاسير وأسقطتها على كل مباحث فلسفتها وجسمت كل شيء تؤمن به، ولا يعني أنهم لا يؤمنون بالله أي أنه غير موجود، بل لا يؤمنون بالله المفارق، بل الله عندهم جسم، ينساب في الطبيعة ويحلّ فيها، ممتد في الأشياء جميعها.

إذا كل شيء مادي محسوس والله ممتد في الطبيعة فما الذي يحكم الكون؟ وما الذي يربط بين جزيئاته المادية؟؟ يجيب أوغسطين عن السؤال تبعا لتمعنه في الفلسفة الرواقية باعتبار المحرك مرتبط بعامل "الحتميّة" :"لأن الحتميّ هو ما يحدث بمعزل عن إرادة الله وإرادة البشر نتيجة نظام ضروري"[2]، هذا النظام الطبيعي الصارم تمثله العلاقة الحتمية الكامنة بين العلة والمعلول، كحتمية الحركة والعلة المحركة، فـ "ظواهر الكون تحكمها

* انقسمت أزمنة الرواقية إلى ثلاثة مراحل أساسية أولا الرواقية القديمة: ومدتها من سنة 322إلى سنة 204 قبل الميلاد. وأقطابها البارزون هم زينون وكليانتس وكروسبوس. ثانيا: الرواقية الوسطى: ومدتها القرنين الثاني والاول قبل الميلاد ومن أشهر أنصارها بوزيدونيوس وقد تسربت إلى رواقية ذلك العصر آراء مشتتة من مدارس أخرى، على أنها تكاد تقترب من مذهبي أفلاطون وأرسطو بوجه عام، ثالثا: الرواقية الحديثة وتمتد من القرن الأول بعد الميلاد وتظل قائمة حتى الوقت الذي أغلقت فيه المدارس اليونانية عام 529 بعد الميلاد، أقطابها سنكا وشيشرون الرومانيين. ننظر عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، دط، 1940، ص12.

[1] شيشرون: علم الغيب في العالم القدم، ترجمة شرح وتعليق: توفيق الطويل، مكتبة الآداب، مصر، دط، دت، ص45.

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص219.

العليّة عن طريق ترابط الأحداث بعضها ببعض، وهو ترابط حتمي بين العلّة والمعلول، ومن ثم فقد نظر الرواقيون إلى قانون العليّة على أنه القانون الطبيعي الساري بشكل حتمي وعام في الكون كله، بل اعتبروا العلل أجساما مادية مرتبطة –في سلسلة متصلة اتصالا قويا– كل الأشياء معا :"فكل الأحداث مترابطة ترابطا علّيا في سلسلة العلل التي تضم كل شيء بين جوانبها حتى لا يحدث شيء إلا وكان مقدرا ومحددا بعلل منظمة سلفا، فكان الرواقيون بذلك أول من ربط كل حدث بنوع من الضرورة (الاطراد) الدائم الأبدي الذي لا استثناء فيه. ولما كان كل حدث له في نظرهم علة لا محالة، فسوف يتكرر وقوع الحدث نفسه لا محالة كلما تكرر ظهور علته حتما"[1]؛ فيكون على أساس هذا الطرح ترابط العلل وصرامتها هي عينها القدر، وهذا القدر المسيّر للكون هو عينه القدر المسيّر للإنسان.

إرادة الانسان وحريته محكومة بحتمية الطبيعة الصارمة وعلى هذا كان القدر مسيّرا قسرا للإنسان قدما نحو مستقبله، لا يستطيع أمامه شيئا غير الانصياع والاستسلام للدور الذي يؤديه على مسرح الحياة الذي كتب سيناريو أحداثه سلفا.

العقل كما هو في صميم ماهيته يرفض البقاء على هيئة عنصر سلبي منفعل غير فعال، يرفض أن يكون نكوصي إرتكاسي، فمضى قدما لمعرفة هذا القدر الذي قضي أمره، هناك وجد العقل الرواقي الحل في التكهن*، الأمر الذي رفضه شيشرون الرواقي وهاجمه في أكثر من موضع**، كون التكهن هو ضرب للفلسفة ذاتها في الصميم، هو تلاعب بالعقل وقدراته وبالمنطق واستدلالاته، يقول :"إني لأقسم أيها الرواقيون أنكم

[1] وداد أبو النجا عجيزة: حرية الانسان عند الرواقيين، (فلسفة الحرية أعمال الندوة الفلسفية السابعة التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص275

* وجد الرواقيون في التكهن مادة دسمة للابداع العقلي، فتنوعت أساليبه وتعددت ومثاله على ذلك ما أخبرنا به شيشرون عن التكهن باستخدام أحشاء الحيوانات التي استخدمها القدماء في كشف الحجب ومعرفة المستقبل المستور يقول :"التكهن بالغيب عن طريق الاحشاء، (...ب) الاعتقاد بأن حالتها ولونها ينبئ بالكلأ والغلات، من حيث مدى وفرتها أو مبلغ قلتها، بل يذهب به الظن إلى أن الأحشاء تحمل الدلالة على الصحة أو المرض في مقبل الأيام" شيشرون: علم الغيب في العالم القديم، ص146. أو عن طريق تتبع الأفلاك والكواكب كما يخبرنا أوغسطين يقول :"عندما يسأل رأيه في القدر؟ بكلام عادي، القدر هو ما تجريه الكواكب من تأثير في الانسان حال ولادته، أو الحبل به. بعضهم يعتبر هذا التأثير سيئا مميزا وبعضهم الآخر يعتبره متعلقا بالارادة الالهية، ما أبعدنا عن أولئك الحمقى الذين ينسبون إلى الكواكب قدرة التصرف بأعمالنا وأفراحنا وأحزاننا بمعزل عن الارادة الالهية" أوغسطين: مدينة الله، مج 1، ص219. وغيرها الكثير من التفاسير للرؤى والأحلام، عواصف وأمطار، رياح وبرق، أو تأويل الخوارق التي شهدها الناس؛ كأن يفيض نهر أراتوس دما، أو أن تتصبب تماثيل الآلهة عرقا وغيرها.

** رد شيشرون في كتابه علم الغيب في العالم القديم على كل التكهنات الشائعة آنذاك بالاعتماد على الاستدلالات العقلية، كأن يرد بالمنطق على النهر الذي فاض دما إلى نوع من التراب، وعرق الآلهة هو محض قطرات ندى، وتغير الاحشاء أو اختفاؤها أيضا كان محل دراسته إذ كيف تتغير أحشاء الضحية في نفس اللحظة التي تقدم فيها قربانا، كيف يكون عدم بعد وجود ووجود بعد عدم، أليس العقل والمنطق يقول أن اختفاء العقل مردّه إلى مرض قد أصاب الحيوان أذى إلى ضموره قلبه وتلاشيه، ننظر شيشرون، مرجع سابق، ص149.

تسلمون حصن الفلسفة نفسه أثناء دفاعكم عن استحكاماتها الخارجية، لأنكم بإصراركم على صدق العرافة، تهدمون علم وظائف الأعضاء هدما كاملا، وعلى هذا يكون تكون الأشياء وفسادها جميعا لا يرجع إلى نواميس الطبيعة، فإن في الوجود أشياء تظهر من العدم، أو تصبح بعد كونها عدما، فجأة وعلى غير انتظار، فهل ذهب لهذا الرأي فيلسوف طبيعي...؟ أنك تقول إن العرافين قد قالوا به، فهل تظن أن العرافين أجدر بالثقة والتقدير من الفلاسفة الطبيعيين"[1]؛ هنا بالضبط كان المنعطف الابستمولوجي الذي عايشه شيشرون إذ لم يقبل بانسان مقيّد، وبارادة مسيّرة غير حرة.

على هذا الاساس وانطلاقا من براهين شيشرون العقلية –التي استهزأ بها أوغسطين– نادى شيشرون بإنسان حر، لا قدر يحكمه ولا مسرحية يمثلها، فمادام الله أو العلل قد سطّروا قدرا قوقع الانسان وحدّ من حريته، فلا سبيل لإثبات حرية الانسان إلا برفض القدر، الرجل وقف بين قضيتين لا يمكن أن تجتمعا معا أبدا :القدر وحرية الانسان، وكان لزاما عليه أن ينكر إحداهما ليثبت الأخرى، ولأن الرجل حر مناد بالحرية والدولة عنده يبنيها الرجل ذو الارادة الحرّة الفعّالة المنتجة المبدعة؛ اضطر لإنكار القدر والمستقبل المكتوب وعلم الله المسبق، يقول شيشرون :"إن كان من معرفة مسبقة للمستقبل فالاستنتاجات الحتمية المرتبطة بكل ما يتبعها تقودنا إلى الاعتراف بأنه لا شيء يتعلق بإرادتنا، وإن تعلق شيء ما بإرادتنا عدنا بالدرجات ذاتها إلى إنكار العلم المسبق. وفي الواقع إن كانت للإرادة حريّة الاختيار فلا عمل للقدر وإن لم يكن للقدر من عمل فنظام الأشياء ليس ثابتا وإن لم يكن ثابتا فلا مجال له في علم الله المسبق إذ لا حدث دون سبب فعّال. وإن لم يكن نظام الأشياء ثابتا في علم الله المسبق فلا يمكنها أن تكون وفق ما أقر لها من نظام ويستنتج في النهاية أن ليس في اللّه علم المستقبل"[2]، ويقول في موضع آخر :"إذن فهو أنت الذي رأيت أن أولئك الذين تجردوا عن كل علم إنساني، هم الذين قاموا بوضع علم إلهي"[3]، إذن لا علل تحكم حرية الانسان ولا علم مسبق يهدد إرادته، فالانسان عند شيشرون حر والعلم المسبق مرفوض.

استنكر أوغسطين موقف شيشرون وهو الفيلسوف الفذ، وكيف أن عقله الفذ لم يمكنه من الموازنة بين العلم المسبق والإرادة الحرة، وكيف أنه نجح في التخلص من الكهانة التي كانت سائدة منذ العصور الأولى للبشرية وبمباركة أغلب الفلاسفة اليونان، وفشل في معرفة حقيقة علم الله المسبق، فالعلم بالأحداث المستقبلية

[1] شيشرون، مرجع سابق، ص150.
[2] نقلا عن أوغسطين: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص233.
[3] المرجع السابق، ص ص177-178.

لا تعني بالضرورة التدخل في إحداثها أو التحكم فيها أو إلغائها، لا شك أن الفعل الالهي صدر وانتهى مرة واحدة لا يتكرر ولا يتبدل يقول الرب "مَرَّةً وَاحِدَةً تَكَلَّمَ الرَّبُّ"[1]؛ علم أن الشيطان سيعصيه، وآدم وزوجه سيزاحم حب الذات حب الله في قلوبهم، علم بذلك مسبقا لكنه لم يفرض هذا الاختيار على أحد منهم، بل منح الجميع الارادة الحرة فمنهم من اختار حب الرب ومنهم من اختار حب الذات، "الله خلق الانسان حرا لأنه تركه مسؤولا عن بلوغ غايته الأخيرة، فالأمر متروك له تماما في الاختيار بين الطريق الذي يؤدي به إلى السعادة أو الغبطة أو الطريقة الذي يؤدي إلى البؤس والشقاء (...ف) هو سيد نفسه، وهو يساهم مساهمة فعّالة في تحديد مصيره الخاص"[2]، فكما اختارت الملائكة الصالحة الاحتفاظ بحب الرب في قلوبهم، اختار إبليس والإنسان الأول أن يخطئوا ويعصوه، كل كما شاء وقرر واختار.

وكما قال الرواقيون بنظام العلل الصارم كذلك قال أوغسطين، لكن هذا الاخير ينهي سلسلة العلل بالله الخالق، كما ويجعل علّة أفعال البشر هي إرادة البشر أنفسهم، "وعمل الإرادة هو التالي: إن أردنا كان العمل وإلا فلا"[3]، إراداتنا ملك لنا وهي التي تضمن حرية اختياراتنا، حتى عندما يخطىء الانسان يكون مسؤولا بشكل كامل على خطئه ويتحمل تبعاته، فكل الامكانات متاحة أمام جميع الناس، واختياراتهم هي التي تصنفهم بين سكان للمدينة السماوية وسكان للمدينة الارضية، والله عالم بكل ماحدث وما سيحدث، ولن يغير علمه شيئا من الحرية المتاحة للبشر وإلا كان عقابه ظلما، وبالتالي فليس هناك من تناقض عندما يجمع أوغسطين بين علم الله المسبق وبين إرادة البشر الحرة وحتى إرادة الملائكة.

ثانيا: الانسان والتاريخ

صحيح أن التاريخ في الدراسات المسيحية ارتبط بالله، فحددت بدايته بالخلق الالهي للموجودات وللزمن، وارتبط مساره برحلة المدينيتن عبر الزمن، وبتتبع سلسلة ظهور الرب في التاريخ، لينتهي بترقب تحقق الملكوت الإلهي على الأرض الغاية الثابتة التي لا تتغير ولا تزول بعد تحققها، الغاية الأسمى الكمال الذي يسعى له الانسان بعد تخبطه في تاريخ من الغايات الزائلة، غاية العيش في مدينة الله التي ستتحقق لا محالة، وإلى أن تتحقق يأتي دور الانسان؛ وبالتالي فان هذا الارتباط الذي لا يمكن إنكاره بأي شكل من الأشكال

[1] سفر المزامير، (62-11).

[2] إيتين جلسون، مرجع سابق، ص ص357-358.

[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص237.

بين الله والتاريخ لا يمنع أن يكون للإنسان فعل، بمعنى أن الحس التاريخي للمسيحية يعطي للإنسان دورا فعالا في صناعة التاريخ من خلال اختيار المسار الذي سيوصلنا رأسا إلى نهاية التاريخ

إرادة الانسان الأول الحرة هي التي أخرجته من الجنة بعد أن رفض الانصياع واختار العالم الجديد؛ فاستحال إنسانا جديدا؛ استحال آدم قابيلا، وحتى تتوازن القيم في الوجود كان شيث، وبين قايين وشيت اختار الانسان الجديد طريقه في صنع التاريخ، وآلية لتحريكه، هذه الآلية صنعتها الذات الانسانية الجديدة، والتي كانت حوصلة جميع تلكم المنعطفات والتجارب الأنطولوجية التي مر بها، فعند تشكل الانسان الجديد تشكلت معه هذه الآلية التاريخية.

الانسان الأول لم يمت ولم تنعدم ماهيته وقيمه، بل هي مخبوءة داخل الانسان الجديد، تتخارج مرات وتُبكت مرات أخرى، بحث أوغسطين عن سبب هذا التخارج وهذا البكت وحاول اجتراح أسبابه من التاريخ، وقف على الانسان الذي أعطاه الرب حرية الارادة وصناعة التاريخ، وتأمل مسار عقله وقيمه وبحث في أسباب سقطاته الأنطولوجية الكبرى، والتي سقطت معها الدولة التي عمّرها والحضارة التي صنعها، ليصل في الأخير إلى الآلية التاريخية المنشودة.

"1وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ2.«ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَايِينُ عَامِلًا فِي الأَرْضِ 3.وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ، 4وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، 5وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ 6.فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «لِمَاذَا اغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ 7إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا 8.«وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ 9.فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟ 10«فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ 11.فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ 12.مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ 13.«فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ 14.إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، وَمِنْ وَجْهِكَ أَخْتَفِي وَأَكُونُ تَائِهًا وَهَارِبًا فِي الأَرْضِ، فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي 15.فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «لِذلِكَ كُلُّ

مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةَ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ». وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَايِينَ عَلاَمَةً لِكَيْ لاَ يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ 16.فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ، وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْن"[1].

ما حدث أن ابني آدم آرادا أن يتقدما للرب بقربان، قدم هابيل أجود مواشيه للرب، وكذلك فعل قايين؛ إذ قدم أجود ما أنتجت له الأرض من محاصيل زراعية، لكن بكمية قليلة واحتفظ لنفسه بالكثير منها، فقبل الرب تقدمة هابيل وأعرض عن قربان قايين، هذا الرفض أشعل الحسد في قلب الأخ تجاه أخيه، والخوف من أن تنتقل البركة الالهية لهابيل، فيكون هو أقل منه شأنا وخادما له، وعليه يحيلنا أوغسطين لمفهوم في غاية الدقة هو مفهوم "المشاركة" يقول:" ألا نستنتج أن الله رفض تقدمة قايين لأنه صنع مشاركة غير عادلة إذ قرّب القليل ممّا لديه إلى الله محتفظا لنفسه بالكثير"[2]، وهنا نستحضر أيضا المشاركة التي كانت في قلب آدم، بعد أن شارك حب الله حب الذات، والتي بسببها طرد من جنّة الخلد، إذ كان شرط الرب لمن يقيم معه أن يكون حبه خالصا لا يشاركه أحد، لأن حضور مفهوم المشاركة هو حضور لترسانة مفاهيمية لازمة عنها، وعلى رأسها حضور مفهوم السلطة، كما كان يطمح آدم لذلك، وكما خطط قايين بعده.

قايين لم يقبل أن يشاركه الله منتوجه كما لم يقبل أن يشاركه هابيل السلطة، لأن ذاته كانت الأحق بالسلطة والأولى بالثروات، ولم تكن لديه أية نيّة في أن يشارك أحد آخر السلطة، لأن مشاركة الآخر هو سلطة منحصرة، وفائدة أقل، بل ومن يشاركه هو مشروع عدّو يقول أوغسطين في هذا الصدد المجد :"لن يكون للاثنين كما لواحد فقط. الانسان التائق إلى التسلط، يكون سلطانه أخف، إن ترك منازعا له في السلطة. وهنا واحد فقط يريد أن يستأثر بالسلطة، فيقضي على الشريك، والجريمة تزيد من الإرث الذي كان على البراءة أن تبقيه ضمن حدود أكثر حصرا ونقاء"[3]، واضح المفهوم الذي يريد أوغسطين إرساءه هنا، إذ اختار الجريمة لتكون وسيلة التوسع، وهو طرح في غاية الواقعية والمنطقية، والذي توصل إليه بعد أن درس التاريخ ووقف على تفاصيله، فاختار الجريمة لا الحوار، ألم تكن أولى لبنات مدينة الأرض ملطخة بدم الأخ، وأولى القيم التي شيّدت بها مدينة أخنوخ هي الحسد، وأولى تجلي للحسد هو القتل.

[1] سفر التكوين، (4: 1-16).
[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص226.
[3] المصدر نفسه، ص ص221-222.

مردّه إلى ما أطلق عليه هيراقليدس أب الأشياء جميعها وملكها "الصراع"؛ هذا الاخير الذي لم يصلنا من فكرة سوى النزر اليسير، شذرات متفرقة، لم تكن تضاهي عظمة فلسفة المثلث اليوناني الذهبي (سقراط-أفلاطون-أرسطو) في أعين اليونانيين حتى يحتفظوا بها ويدّرسوها، إذ لم ينتبه اليونان لعظمة ما أبدعه هيراقليطس، بل هاجموه واتهموه بالوقوع في التناقضات العقلية بعد أن طرح مبدأ الصيرورة والتغير في الوجود، لكن الدراسات المعاصرة أعادت للرجل مكانته ولفلسفته قيمتها، فنجد على رأسها دراسة فريديريك نيتشة الذي جمع شذراته في كتابه الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، وأعطى لفكر الرجل أبعاده الحقيقية وألقى اللائمة على أرسطو يقول: "وهذا ما يقوم به في صيغ مثل: كل شيئ يحوي نقيضه، وفي كل الأوقات، وبوقاحة جعلت أرسطو يتهمه بارتكاب الجريمة العظمى أمام محكمة العقل، وبالأساس إلى مبدأ التناقض"[1]، لأن مقولة كل شيء يحوي نقيضه هي سابقة في الفلسفة اليونانية، وهي من المفاهيم الغامضة التي قد يؤدي تحليلها السطحي إلى الفهم الخاطىء لها، فعندما يقول هيراقليطس "إن الذين يتحممون في نفس النهر، تغمرهم دائما مياه جديدة"[2]، أو كما هو شائع أنت لا تضع قدمك في النهر مرتين، فهو يقصد أنك أنت كشخص موجود متحقق عندما تضع قدمك في نهر وتنقل لك حواسك مدركا أن الماء في لحظة سريعة بين (إدخال قدمك وإخراجها ومعاودة إدخالها)، عندها تعتقد أن الماء الذي لامسته في اللحظة الأولى هو عينه الماء الذي لامسته في اللحظة الثانية مهما كانت المدة الزمنية التي استغرقتها قصيرة، لكن الحقيقة أن النهر جاري وأن الماء الذي لامسته أولا "تحرك وتغيّر"، تلكم التغيرات السريعة التي طرأت على الماء لا يمكن للحواس إلتقاطها، لأن التغيّر حدث بسرعة متناهية وبدقة فائقة فاقت قدرة الحواس واستطاعتها، والقطرات التي لامستها في البداية ليست هي نفسها القطرات التي لامستها في الثانية لأنها تغيرت وتحركت وانتقلت، الماء يتغير ينهر يتغير.

الحقيقة أن التغير لم يمّس النهر وحده، لأنك أنت معني بالأمر، فعندما تضع قدمك في المرة الأولى فلا يكون النهر نفسه في المرة الثانية ولا أنت تكون نفسك في المرة الثانية؛ أنت في تلك اللحظتين كبرت بلحظتين، تغيّر جسمك مقدار لحظتين شكلا وجسما، وكما سبق الذكر فان التغيير سريع ودقيق لدرجة تعجز الحواس عن التقاطها، نحن نسير قدما نحو فنائنا، وقبل ذلك نمر بلحظات زمنية متعاقبة ومتسارعة تصنع

[1] فريديريك نيتشة، الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي، تقديم: ميشال فوكو، تعريب: سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1983، ص 55.

[2] هيراقليطس، جدل الحب والحرب، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة، مصر، دط، 1980، ص: 102.

الساعة اليوم السنة وتصنع الزمن، الذي يفرض على كل ما يقع في حيّزه التغيّر والتطور والحركة، فأنت قبل أن تكبر سنة كبرت لحظة عقبتها لحظة ومجموعة من اللحظات التي صنعتك بهذا الشكل، إذن مفهوم الزمن عند هيراقليطس مفهوم جوهري تقوم على أساسه فلسفته بأكملها، فلسفة التغير الذي يعتبر قانون الزمن الصارم وقاعدته.

أنت تتغيّر بين لحظة وأخرى، أنت في اللحظة الأولى غيرك في اللحظة الثانية، وأنت في اللحظة الثانية غيرك في اللحظة الثالثة، وبالتالي فأنت توجد في اللحظة الأولى بوضعية تختلف عنك في اللحظة الثانية، وأنت بانتقالك إلى اللحظة الثانية فقد غادرت اللحظة الاولى، إذن أنت لست موجود في الأولى وموجود في الثانية، ولن تكون موجودا في الثانية لتوجد في الثالثة، وهذا تفسير مقولته: "نحن موجودون وغير موجودين"[1]، ولم يكتفي بهذا الاستنتاج المحوري، بل وجه عقله إلى أبعد من هذا بكثير إذ قال على لسان لينين :"كان تحصيلا كبيرا الاعتراف بأن الكينونة واللاكينونة ما هما إلا تجريدان لا حقيقة لهما، وأن الحقيقة الأولى هي الصيرورة، الفهم يعزلهما ويعتبرهما حقيقيين وصالحين، بالمقابل العقل يتعرف على أحدهما في الآخر، يعترف بأن في أحدهما الآخر محتوي، ولهذا فان الكل المطلق يجب أن يحدد على أنه هو الصيرورة."[2]، نحن صائرون سائلون كتيار النهر، لاشيئ ثابت، لا موجود ستاتيكي؛ هنا ينتصب المفهوم الناظم في فلسفة هيراقليطس إنه: الصيرورة.

الصيرورة هي الحقيقة الثابتة الوحيدة في هذا الوجود، أما الموجودات فهي مشاريع خاضعة للتغير في كل لحظة؛ فتكون وجودا بالقوة لتستحيل موجودا بالفعل، وذاك الموجود بالفعل هو نفسه وجود بالقوة يهيئ لموجود آخر بالفعل وهكذا، وهنا نلاحظ أن هيراقليطس سحب المركزية عن مفهوم الوجود ووضع بدلا عنه مفهوم "الصيرورة"، فنحن موجودات خاضعة للصيرورة، نحن احتمالات تتحقق في لحظة وهي عينها اللحظة التي نرجع لنكون فيها احتمالات مستقبلية، إذن نحن متغيرون في منظومة وجودية متغيرة لا ثابت فيها، ولا استقرار أيضا، وما نظنه ثابتا هو مجرد وهم عجزت حواسي عن مواكبة السرعة الفائقة للديناميكية التي تحويه، يقول هيراقليطس على لسان نيتشة: "إني لا أرى شيئا سوى الصيرورة. لا تنخدعوا؟ إنه لتأثير نظركم القاصر، ولا علاقة لذلك بجوهر الأشياء، إذا كان يتراءى لكم في مكان ما أنكم ترون أرضا صلبة على بحر الصيرورة

[1] هيراقليطس، مرجع سابق، ص: 104.

[2] لينين: الدفاتر الفلسفية، تر وتعليق: إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1974، ج2، ص22.

والموجودات الزائلة، إنكم تستعملون أسماء الأشياء كما لو كان لها زمن ثابت، ولكن حتى النهر الذي تنزلون فيه للمرة الثانية، ليس هو نفسه كما كان لأول مرة"[1]، وهذا ما أخذته فيما بعد الفلسفة الوجودية واعتبرته النقطة التأسيسية لتيارهم الوجودي.

يقول في شذراته "إن الشمس تتجدد كل يوم، من المختلف يولد أجمل انسجام، كل شيئ يتحول بالتنافر، (...)، وحدات: كامل وغير كامل، تقارب وتباعد، اتفاق واختلاف الأصوات، وأخيرا من كل الأشياء واحد ومن شيء واحد كل الأشياء، (...)، نحن ننزل ولا ننزل في نفس النهر، نحن موجودون وغير موجودين، (...)، إنهم لا يعرفون كيف يتوافق المتنافر مع نفسه توافق توترات معكوسة، كما في القوس والقيثارة"[2]، في لحظة نكون موجودين لنكون غير موجودين، هنا تظهر لنا ثنائية (موجود، غيرموجود) ونستطيع أن نستخرج ما لانهاية من الثنائيات التي تصنع الوجود كله، والعلاقة التي تربط هذه الثنائيات هي علاقة تنتج عن عمق الرغبة في الظهور وعمق النفور من العدم، فكل طرف من الثنائية يظهر حين يختفي الآخر:"إنهما طريق واحد وهما نفس الطريق إنما يقصد بوضوح أن العمليتين المتناقضتين مستمرتان طول الوقت، وأن ميلهما المستمر والمتباين هو الذي يجعل الوجود والحياة ممكنتين"[3]، أو حتى يتوالف النقيضان ليتركب ويتحقق طرف ثالث، لكن كيف لنقيضين أن يتوالفا؟ يرى هيراقليطس أن الأمر يتم بأن يعدم أحدهما الآخر، فيزول من الوجود، فكرة الزوال على الرغم من قساوتها وصرامتها معا تحتاج لآلية بنفس الصرامة آلية تحيل طرفا إلى العدم وتبعث بالطرف الآخر إلى الوجود أنها آلية "الصراع" " conflit".

ومن غير الصراع باستطاعته مواكبة الوجود وهو يستحيل عدما، ومواكبة العدم وهو يستحيل وجودا، هو النقطة الفاصلة بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل، أنها لحظة المخاض التي تفصل بين أهم لحظتين كونيتين وجوديتين، لحظة الوجود ولحظة العدم، إنها تشبه كثيرا لحظة الخلق، لحظة محاولة كل طرف الحل محل الطرف الآخر، والتغلب على وجوده بفرض وجوده هو، يعرّف الصراع على أنه "نزاع بين شخصين يحاول كل منهما أن يتغلب على الآخر بقوته المادية، كالصراع بين الأبطال الرياضيين، أو الصراع بين الدول في الحرب. ويطلق الصراع مجازا على النزاع بين قوتين معنويتين تحاول كل منهما أن تحل محل الأخرى، كالصراع بين رغبتين، أو

---

[1] فريديريك نيتشة، مرجع سابق، ص54.

[2] المرجع نفسه، ص ص 101-105.

[3] ويلرايت فيليب: هيراقليطس فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي، تر: علي سامي النشار وآخرون، دار المعارف، مصر، ط1، 1969، ص ص127-128.

نزعتين أو مبدأين، أو وسيلتين، أو هدفين، أو الصراع بين القوانين، أو الصراع بين الحب والواجب، أو الصراع بين الشعور واللاشعور"[1]، فالصراع ينسحب على كل قيم الوجود بل وعلى كل الموجودات بمختلف هيئاتها أشخاص كانوا أو حضارات.

يجب أن لا يفهم الصراع بمعناه التقليدي الشعبوي على أنه تحطيم وحرب وخراب واقتتال وكراهية، تلك المفاهيم التي تشلّ العالم، على الرغم من أن هذه الحالات هي إحدى تجلياته فلا نستطيع بأي شكل من الأشكال إنكار وجودها، لكنها لست وحدها الصراع، فالصراع المقصود هنا يخلق التناغم لا الحطام، يشكل الوحدة لا الانفصال، فعلى الرغم من الصيرورة التي ينادي بها هيراقليطس القائمة أساسا على صراع المتناقضات إلا أنه يجمعها في وحدة متجانسة متناغمة تناغم النوتات الموسيقية الصادرة على القوس والقيثارة، فالصراع هو هذه الديناميكية التي تسيّر الكون، هو الضامن للصيرورة، والناظم للوجود، والمفسر لنشأة حركة الكون ومباشرته في الزمان والمكان، فهي ليست علاقة بين الأنا والآخر وحسب بل علاقة بين ذاتي الصائرة وذاتي الكائنة، علاقة بين الكائن وبين الذي سيكونه.

والصراع هو: "الطَّرْحُ بالأَرض، وخَصَّه في التهذيب بالإِنسان ، صارَعَه فصَرَعَه يَصْرَعُه صَرْعاً وصِرْعاً؛ فهو مصروعٌ وصرِيعٌ، والجمع صَرْعَى؛ والمصارَعةُ والصِّراعُ: مُعالَجَتُهما أَيُّهُما يَصْرَعُ صاحِبَه. وفي الحديث : مثَلُ المؤمِن كالخامةِ من الزَّرْعِ تَصْرَعُها الريحُ مرة وتَعْدِلُها أُخْرى أَي تُمِيلُها وتَرْمِيها من جانب إِلى جانب"[2]، ويعرف أيضا بقوله هو "تنازع وصراع هو علاقة قوتين أو مبدأين تستلزم تطبيقاتهما على شيء واحد تعيّنات متناقضة، هناك بوجه خاص صراع واجبات، عندما يظهر عمل واحد، في الاخلاق العملية، مشروعا وغير مشروع في آن بحسب القاعدة المعتمد عليها. يمكن وجود نزاع سلطة واحدة مع ذاتها، إذ كانت لا تستطيع الانطباق على موضوع معين دون أن تقع في تناقض"[3]، وهناك الكثير من المفاهيم في مجالات مختلفة وبتخصصات متنوعة.

على الرغم من أن الترجمة الانجليزية لمصطلح الصراع conflit واللاتيني conflitto تنطبق أيضا على مصطلح النزاع، إلا أن المساواة بين المصطلحين كما هو حادث في جل الدراسات العربية الفلسفية خاصة إجحاف في حق الصراع بمنظومته المفاهيمية الضخمة والتي يعد النزاع جزء منها، فالنزاع حسب المتخصصين

[1] جميل صليبا، مرجع سابق، ص725.
[2] ابن منظور: لسان العرب، مج8، دار صادر، بيروت، ط1، 1883، ص197.
[3] أندريه لالاند، مرجع سابق، ص ص204-205.

في الشأن اللغوي وكذا السياسي والحضاري فهو أقل حدة ميدانية من الصراع، وأقل شمولية مفاهيمية أيضا، فان كان الصراع في لسان العرب هو المطارحة والتي لا تكون إلا باللقاء المباشر والاصطدام الذي قد يكون حادا، فان النزاع هو المخاصمة والتي لا تشترط على الاطلاق الاحتكاك المباشر ولا تشترط حتى الاعلان إذ قد تكون حالة نفسية داخلية تجاه الآخر، وقد تكون أيضا مجرد تعارض واختلاف في الرأي أو الوجهة أو السياسة أو الثقافة فينتج عنه خصام ولكن ليس بالضرورة، إذ قد يكون هذا الخلاف في أحايين أخرى سببا في التثاقف وتبادل المنفعة، يقول ابن منظور "والتنازُع : التخاصُم. وتنازَعَ القومُ : اخْتَصَمُوا"[1]، كطرح مباشر لتعريف النزاع.

الكثير من المصطلحات الأخرى التي نجدها تتقاطع مع مصطلح الصراع لكنها لا تمثله كليا، نجد الأزمة، التوتر، النزاع، الحرب في شكل صراع مسلح، الصدام*، في هذه الجزئية التي قد نعتبرها مصطلحات وقد نعتبرها

[1] ابن منظور، مرجع سابق، ص 228.

* لأخذت هذه المصطلحات حيّز الكثير من الدراسات الحديثة والمعاصرة خاصة بعد الحربين العالمية الأولى والثانية ومن ثم الحرب الباردة، هناك ظهرت هذه المفاهيم متجسدة في الواقع وبادر المختصون في تفكيكها وتحليلها، حتى أن الصراع الذي يشمل تلك المفاهيم شهد تطورا هو الآخر في الدراسة فمنذ أن كان صراعا للدول صار صراعا للحضارات وهو الآن صراع ثقافات، ويعيد هنتغتن زمن الصراع إلى "زحف العرب المسلمين نحو الغرب الكبير بين الإسلام والمسيحية، بالهجوم المسيحي المضاد أثناء الحروب الصليبية وفشله، ثم بتقدم الأتراك نحو أوروبا، وصراعهم المرير من أجل البقاء فيها ثم تراجعهم، ومنذ قرن ونصف يرزخ الشرق الأوسط تحت هيمنة الغرب السياسية والاقتصادية والثقافية." لذا فان الحديث عن مصطلحات الصراع وآلياته في العصور القديمة هو مغالطة؛ كون الحضارات القديمة (مثال صراع الين واليانغ) واليونان(مثال هيراقليطس)، عرفت الحضارات القديمة والحضارة اليونانية الصراع واعتبرته آلية الآلهة في فرض سيطرتها وقوتها قبل الزمان والمكان، مذ انقلاب كرونوس على أبيه أورانوس بمعيّة جيا أمه في الجيل الأول، ثم مع الجيل الثاني من الآلهة أين صارع زيوس كرونوس بمساعدة أمه ريّا وترأس الآلهة*، وبعد أن انتصر قسم الكون على جميع مساندية وحلفاءه من الآلهة، لكنهم لم يتفقوا بينهم واستمروا في الصراع، وهي الفترة التي ظهر فيها البشر على الأرض، أين تأزم الصراع واحتدم بشكل أعقد، بعد أن صار البشر ينافسون الآلهة ويتحدونهم، وبين إله حاقد على البشر وآخر مساند لهم، تبلور مفهوم الصراع في شكله الحربي أي من خلال التصادم المباشر بينهم، والذي خلف كوارث لا قبل للكون عليها، فزلزلت الأرض، واشتعلت النار في الغابات وغلت مياه الأنهار وفارت، واحترقت السماء نفسها، وكان أقصاها قرار زيوس بالتخلص من البشر جميعهم ومن الآلهة الذي ساندوهم بطوفان عظيم أغرق الأرض ومن عليها، –سوى زوجين اشفق عليهما كبير الآلهة–، فمخلفات الصراع التصادمي المتسلسل لا يكون بأي شغل الشكل الذي ارتضاه زيوس (جوبيتر) للعالم (للتوسع في الموضوع ننظر أمين سلامة، الأساطير اليونانية والرومانية)، وحتى الوسيطيون(مثال أوغسطين)، تناولوا الصراع بشكل موسع لكن بطرح يختلف عن الطرح الذي تناوله المعاصرون السياسون خاصة، للتوسع في الموضوع ننظر محمد العربي بن زعرور صدام وزمن هنتغتن، مرجع سابق، ص15.

أيضا مرحلة تمر بها العلاقات الإنسانية لتصل لذروة المشكلة في مجملها حالة الصراع، هنا يفتح أوغسطين الباب لطرح جديد في عصره، إذ يعتبر أن هذه المراحل تسبقها مراحل أخرى لا يمكن لنا إطلاقا أن نعتبر الصراع صراعا دونها، فهي فواصله ومفاصله الأساسية في نشأته، المتمثلة في مقولة السلام وما يتمخض عنها بما يسمى الحوار.

المدينة الأرضية هي مدينة الشر (بالتعريف الأوغسطيني للشر)، مدينة حب الذات، فكل مواطن من مواطنيها يحب ذاته ومصلحته أكثر من بقية سكان مدينته، لا تهمه سعادة الآخر واستقراره بقدر ما تهمه سعادته هو، وبالتالي فإن السيطرة على المدينة والحكم هو أحد مسببات سعادته الفردية، فلا يقبل مشاركة أحد لأن المشاركة هي انحسار في الفائدة وهذا ما لا يقبله الإنسان الأرضي، يسعى للتملك والاستحواذ بكل الطرق المتاحة والتي تحقق نتائج سريعة كالقتل مثلا، يقول أوغسطين في مدينته "عراك ومناوشات دامية وانتصارات قتالة، أو على الأقل معدة للموت، أيا يكن الجزء منها الذي ينهض وبيده السيف ليحارب جزءا آخر منها فإنها تسعى إلى النصر، بينما لا تزال أسيرة رذائلها. إن انتصرت وتباهت في كبريائها يؤدي بها إلى الموت، أما إذا فكرت بوضعها وبما ينتظرها من سوء طالع، ولم تستسلم إلى نشوة الازدهار ولا إلى الخوف من ردات الفعل الممكنة التي يواجهها بها الحظ السيئ فإن ذلك النصر الأقل شؤما يبقى دوما طعام الموت"[1]. وهنا يحصر أوغسطين سبيل الوصول للسعادة الأرضية في الجريمة والقتل، ولم يذكر الحوار، ذكر الصراع ولم يذكر السلام.

إذن ما السلام في فكر أوغسطين؟ السلام عند أوغسطين أقصد هنا السلام الأرضي بالدرجة الأولى وهو مرحلة أولى للصراع مادام أنه مرتبط بالمدينة الأرضية، بعبارة أدق السلام عنده هو صراع كامن في النفس البشرية الأرضية، التائقة للسلطة، الرافضة للمشاركة، التي وجدت أن الجريمة هي الضامن الوحيد للبقاء والإستمرار والتوسع، والدم هو الطريق الوحيد للسيطرة والتفرد، وبدأ أول الدم مع أقوى رابطة إنسانية فقطعها؛ "الأخوة"، فلم تشفع هذه الرابطة الانسانية السامية للإنسان في حد ذاته من ذاته، لم تشفع له أمام جنون الشهوة الأرضية الجسدية، أمام النفس التي استولى عليها الجسد فخضعت له، حينها صارت كل جريمة تبرر لجريمة أخرى وكل سيطرة تنشد سيطرة أخرى، وكل توسع شرع لتوسع آخر، ونشأت الدول ومن ثم الحضارات على هذا الأساس.

[1] – القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 220.

بدأت ملامح الصراع تتبدى في فكر أوغسطين في شخص آدم وهو يستعد لولادة الإنسان الجديد، بين الإنسان الأول والإنسان الجديد، بعد أن تلطخت النفس بحب الذات، وشارك القلب حبا آخر غير الحب الأصلي، ظهر حب جديد لا يتناسب والقيم الأخلاقية التي تقودنا للخلود، الخلود البشري أو خلود الحضارات لاحقا، فحب الذات هو حب جسدي زائل متغيّر ناقص، فظهر إلى الوجود حسب الطرح الهيراقليطي حب جديد وانعدم الحب القديم، ظهر الحب الناقص وانعدم الحب الخالد الأزلي، من هنا تغيّر كل الوجود، فظهر وجود جديد وانعدم في الزمن الوجود الأزلي، بمعنى أنه موجود لكن ليس في إطار الزمان والمكان، فالحب هو الوجه المناقض للصراع، يتناسب معه عكسيا، كلما نقص الحب زاد الصراع وكلما زاد الحب نقص الصراع، فالصراع هو نقص في المحبة، وكأنه يشبه الشر في تعريفه؛ الشر نقص في المحبة.

الصراع الداخلي الذي يعصف بالإنسان بدايته صراع روح آدم وجسد قابيل –(نستخدم تعبير جسد قابيل للدلالة على الجسد الذي استولى على الروح وتحكم فيها، فاخضعها له ولنزواته الجسدية، وصار القلب خالصا للحواس ممتهنا للرب، إذ لا يمكن استخدام جسد آدم لأنه عاد سيرته الاولى بعد أن تاب وخضع للروح وللمحبة الألهية)– روح انتصر عليها الجسد بعد أن خسرت مصدر قوتها وهو الحب، فكان أن تغلب الناقص على الكامل، والمتغيّر على الثابت، والأهم من كل هذا انتصرت الحياة التي اختارها الإنسان على الحياة التي أرادها الرب.

أراد الإنسان حياة يكون الجسد فيها غير موارى بأوراق تين، عاريا من قيود الجنة والتزاماتها التي عدمت كل نزوة قد يرغبها الإنسان، فكانت المدينة الأرضية مقرا لكل رغبة مرفوضة، ولكل حب جسدي خالص، إنه الحب الناقص الذي استولى على جسد قابيين وقلبه فأودى بحياة أخيه، وأرّخ لتاريخ جديد هو تاريخ الجريمة، تاريخ الشرور في الزمان والمكان، فكانت المدينة الأرضية.

سار الصراع مع مسار المدينتين بين أشرار وأشرار، وبين أشرار وصالحين، وبين صالحين وصالحين لم يكتمل صلاحهم يقول السيد المسيح: "ألا يشعر الفرد في ذاته بشهوات الجسد ضد الروح والروح ضد الجسد؟"[1]، فالخطيئة الساكنة في كل فرد فينا، أو كما يسميها الفلاسفة النفس الشهوانية التي يشترك فيها كل البشر، تعيش في صراع دائم مع الروح، بل ويؤكد أوغسطين أن أي إنسان مهما كانت درجة صلاحه فإن بدايته كانت من آدم، بمعنى بداية جسدية ومن ثم يهتدي إلى الولادة الثانية والحقيقية؛ الولادة من السيد

[1] غلاطية، الاصحاح(5-17).

المسيح، يقول أوغسطين: "كلاّ منا بصفته مولودا من أصل محكوم عليه، يولد من آدم، شريرا وحيوانيا، ولا يصير روحانيا إلا إذا ولد من جديد ونما في المسيح، وهكذا فإن المدينتين عندما أخذتا تولدان، وتموتان فالولادة الأولى التي يقدمها لنا الجنس البشري هي ولادة مواطن هذا العالم، والثانية هي ولادة مواطن مدينة الله، (...) إذ إن العنصر الفاسد هو الذي يسبق في كل إنسان، وهذا الذي أكرره، وهذا لا يعني أن كل فاسد يصبح صالحا، بل لا صالح إلا وبدأ فاسدا"[1]، ويؤكد ذلك ما جاء في رسالة بولس إلى أهل كورنيثوس:"لم يكن الروحاني أولا بل الحيواني وبعد ذلك الرحاني"[2]، فالإنسان وذاته يعيش تجاذبات بين روح وجسد كل منهما يريد أن يعدم الآخر ليظهر هو وهكذا.

فالصراع الداخلي الذي يتعلق بالفرد في ذاته بمعزل عن الناس المحيطين به هي صراعات نفسية داخلية متعلقة بالفرد البار كما تتعلق بالشخص الشرير، هذا الأخير الذي استهوته الحياة بملذاتها وجذبته نحو الضلال، وأبعدته عن نور الله، لكنه يتذكر من لحظة إلى أخرى ذلك الجانب الروحي من نفسه، من خلال قبس يقذفه الله في قلبه أو استدلال عقلي، فيتخبط بين جسده وروحه حتى يهتدي أو يبقى على ضلاله. هو عينه الصراع الذي مر به القديس أوغسطين فبعد أن كان عبدا للشهوات الحسية بات عبدا بارا مخلصا لله، من جهة أخرى نجد ما حدث لأبناء الله وكيف عاقبهم الرب بطوفان أغرق الأرض ومن عليها، فبعد أن كانوا صالحين ومواطنين أبرار لمدينة الله لم يثبتوا على حب الله وشاركوه حب شيء آخر وهو "حب بنات البشر، ويقعون في خلقية مدينة الأرض، حصولا عليهن ويكفرون بالتقوى التي كانت لهم في المجتمع المقدس (...)وعلى هذا النحو في خرق نظام المحبة هذا، نظام الاختيار والحب ترك أبناء الله إلههم من أجل بنات الناس"[(3)]، هذا الصراع خاص بالبار الذي لم يثبت على حبه لله تصارع بداخله حبين حب الله وحب الشهوات من الأرض وانتهى الصراع بغلبة حب الشهوات على حب الله. كل انسان معرض لهذا النوع من الصراع الذي يحدث كنتيجة لمغريات روحية أو مادية تختبر مدى ثبات الانسان على معتقده.

الصراع الخارجي ويشمل أشكال عدة بين الأفراد، الدول، الحضارات والأفكار...إلخ، الصراع بين الأفراد لا يكون بين الأشرار وحسب مثل الأخوين روموس وروميلوس، بل بين الصالحين أيضا وما حدث بين يعقوب وأخيه الأكبر عيسو خير مثال على ذلك.

---

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، ص216.

[2] كو (15:46).

[3] المصدر السابق، ص ص: 264-265.

بعد أن منح إبراهيم البركة والنبوة وكل ممتلكاته لابنه إسحاق وصرف بقية إخوته عنه، تزوج برفقة :"١٩ وَهٰذَا تَارِيخُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ. ٢٠ وَكَانَ إِسْحَاقُ ٱبْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً حِينَ ٱتَّخَذَ زَوْجَةً لَهُ، رِفْقَةَ بِنْتَ بَتُوئِيلَ ٱلْأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانَ أَرَامَ، أُخْتَ لَابَانَ ٱلْأَرَامِيِّ. ٢١ وَتَوَسَّلَ إِسْحَاقُ إِلَى يَهْوَهَ خُصُوصًا مِنْ أَجْلِ زَوْجَتِهِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِرًا، فَٱسْتَجَابَ لَهُ يَهْوَهُ، وَحَمَلَتْ رِفْقَةُ زَوْجَتُهُ. ٢٢ وَتَصَارَعَ ٱلْوَلَدَانِ فِي دَاخِلِهَا، فَقَالَتْ: «إِنْ كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا، فَمَا لِي وَٱلْحَيَاةُ؟». فَذَهَبَتْ لِتَسْأَلَ يَهْوَهَ. ٢٣ فَقَالَ لَهَا يَهْوَهُ: «فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ، وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ، وَٱلْكَبِيرُ يَخْدُمُ ٱلصَّغِيرَ"1، " وَكَبُرَ ٱلصَّبِيَّانِ، فَصَارَ عِيسُو إِنْسَانًا يَعْرِفُ ٱلصَّيْدَ، إِنْسَانَ ٱلْحُقُولِ، وَيَعْقُوبُ إِنْسَانًا بِلَا لَوْمٍ يَسْكُنُ ٱلْخِيَامَ.٢٨ فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُو، لِأَنَّ ذٰلِكَ عَنَى صَيْدًا فِي فَمِهِ، أَمَّا رِفْقَةُ فَأَحَبَّتْ يَعْقُوبَ. ٢٩ وَذَاتَ مَرَّةٍ كَانَ يَعْقُوبُ يَطْبُخُ طَبِيخًا، فَأَتَى عِيسُو مِنَ ٱلْحَقْلِ مُتْعَبًا. ٣٠ فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَرْجُوكَ، أَسْرِعْ وَأَعْطِنِي شَيْئًا أَلْتَهِمُهُ مِنْ هٰذَا ٱلْأَحْمَرِ، هٰذَا ٱلْأَحْمَرِ هُنَاكَ، لِأَنِّي مُتْعَبٌ!». لِذٰلِكَ دُعِيَ ٱسْمُهُ أَدُومَ. ٣١ فَقَالَ يَعْقُوبُ: «بِعْنِي أَوَّلًا بَكُورِيَّتَكَ!». ٣٢ فَقَالَ عِيسُو: «هَا أَنَا مَاضٍ إِلَى ٱلْمَوْتِ، فَأَيُّ نَفْعٍ لِي مِنَ ٱلْبَكُورِيَّةِ؟». ٣٣ فَقَالَ يَعْقُوبُ: «ٱحْلِفْ لِي أَوَّلًا!». فَحَلَفَ لَهُ وَبَاعَ بَكُورِيَّتَهُ لِيَعْقُوبَ. ٣٤ فَأَعْطَى يَعْقُوبُ لِعِيسُو خُبْزًا وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ. ثُمَّ قَامَ وَمَضَى. وَهٰكَذَا ٱحْتَقَرَ عِيسُو ٱلْبَكُورِيَّةَ"2 " ذٰلِكَ ٱسْمُ ٱلْمَدِينَةِ بِئْرَ سَبْعَ إِلَى هٰذَا ٱلْيَوْمِ. ٣٤ وَصَارَ عِيسُو ٱبْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَخَذَ زَوْجَتَيْنِ: يَهُودِيتَ بِنْتَ بَئِيرِي ٱلْحِثِّيِّ، وَبَسْمَةَ بِنْتَ إِيلُونَ ٱلْحِثِّيِّ. ٣٥ فَكَانَتَا مَرَارَةَ رُوحٍ لِإِسْحَاقَ وَرِفْقَةَ."3، لأنهما ليستا على دين إبراهيم وإسحاق وعيسو، فوصية إبراهيم لأبنائه أن يتزوجوا من نسله لا من نسل إسماعيل أو نسل الكنعانيين، وهو ما خالفه عيسو فكان هذا الزواج سببا في تدنيس نسله الصافي من إبراهيم.

‹يَا ٱبْنِي!»، فَقَالَ

لَهُ: «هٰأَنَذَا!». ٢ فَقَالَ: «هَا أَنَا قَدْ شِخْتُ.+ وَلَا أَعْرِفُ يَوْمَ مَوْتِي.+ ٣ فَٱلْآنَ خُذْ عُدَّتَكَ، جَعْبَتَكَ وَقَوْسَكَ، وَٱخْرُجْ إِلَى ٱلْحَقْلِ وَتَصَيَّدْ لِي صَيْدًا.+ ٤ وَٱصْنَعْ لِي طَبَقًا لَذِيذًا كَمَا أُحِبُّ، وَجِئْنِي بِهِ فَآكُلَ، لِكَيْ تُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ».+ ٥ وَكَانَتْ رِفْقَةُ سَامِعَةً حِينَ كَلَّمَ إِسْحَاقُ عِيسُو ٱبْنَهُ. فَخَرَجَ عِيسُو إِلَى ٱلْحَقْلِ لِكَيْ يَصْطَادَ صَيْدًا وَيَجِيءَ بِهِ.+ ٦ فَقَالَتْ رِفْقَةُ لِيَعْقُوبَ ٱبْنِهَا:+ «هَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَبَاكَ يُكَلِّمُ عِيسُو أَخَاكَ، قَائِلًا: ٧ ‹جِئْنِي بِصَيْدٍ وَٱصْنَعْ لِي طَبَقًا لَذِيذًا فَآكُلَ، لِكَيْ أُبَارِكَكَ أَمَامَ يَهْوَهَ قَبْلَ مَوْتِي›.+ ٨ فَٱلْآنَ

[1] سفر التكوين، (25:19-23).
[2] سفر التكوين، (25: 27-34)
[3] سفر التكوين، (26: 34-35).

يَا ٱبْنِي، ٱسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَنَا آمُرُكَ بِهِ.+ ٩ اِذْهَبْ إِلَى ٱلْقَطِيعِ وَخُذْ لِي مِنْ هُنَاكَ جَدْيَيْنِ مِنَ ٱلْمِعْزَى جَيِّدَيْنِ لِكَيْ أُعِدَّهُمَا طَبَقًا لَذِيذًا لِأَبِيكَ كَمَا يُحِبُّ. ١٠ فَتَجِيءُ بِهِ إِلَى أَبِيكَ وَيَأْكُلُ، لِكَيْ يُبَارِكَكَ قَبْلَ مَوْتِهِ».
١١ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِرِفْقَةَ أُمِّهِ: «لٰكِنَّ عِيسُو أَخِي رَجُلٌ أَشْعَرُ وَأَنَا رَجُلٌ أَمْلَسُ.+ ١٢ فَمَاذَا لَوْ جَسَّنِي أَبِي؟+ أَصِيرُ فِي عَيْنَيْهِ كَٱلسَّاخِرِ،+ وَأَجْلُبُ عَلَى نَفْسِي لَعْنَةً لَا بَرَكَةً».+ ١٣ فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «عَلَيَّ لَعْنَتُكَ يَا ٱبْنِي.+ اِسْمَعْ لِقَوْلِي فَقَطْ وَٱذْهَبْ خُذْ لِي ذٰلِكَ».+ ١٤ فَذَهَبَ وَأَخَذَ وَأَحْضَرَ لِأُمِّهِ، فَصَنَعَتْ أُمُّهُ طَبَقًا لَذِيذًا كَمَا كَانَ أَبُوهُ يُحِبُّ. ١٥ ثُمَّ أَخَذَتْ رِفْقَةُ ثِيَابَ عِيسُو ٱبْنِهَا ٱلْأَكْبَرِ، أَنْفَسَ مَا عِنْدَهَا فِي ٱلْبَيْتِ،+ وَأَلْبَسَتْهَا يَعْقُوبَ ٱبْنَهَا ٱلْأَصْغَرَ. ١٦ وَجَعَلَتْ عَلَى يَدَيْهِ وَعَلَى ٱلْجُزْءِ ٱلْأَمْلَسِ مِنْ عُنُقِهِ جُلُودَ جَدْيَيِ ٱلْمِعْزَى.+ ١٧ وَجَعَلَتِ ٱلطَّبَقَ ٱللَّذِيذَ وَٱلْخُبْزَ ٱلَّذِي صَنَعَتْ فِي يَدِ يَعْقُوبَ ٱبْنِهَا. ١٨ فَدَخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ: «يَا أَبِي!»، فَقَالَ: «هٰأَنَذَا! مَنْ أَنْتَ يَا ٱبْنِي؟». ١٩ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِأَبِيهِ: «أَنَا عِيسُو بِكْرُكَ.+ قَدْ فَعَلْتُ كَمَا كَلَّمْتَنِي. أَرْجُوكَ، قُمِ ٱجْلِسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي، لِكَيْ تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٢٠ فَقَالَ إِسْحَاقُ لِٱبْنِهِ: «كَيْفَ وَجَدْتَ ذٰلِكَ بِهٰذِهِ ٱلسُّرْعَةِ، يَا ٱبْنِي؟». فَقَالَ: «لِأَنَّ يَهْوَهَ إِلٰهَكَ قَدْ يَسَّرَ لِي». ٢١ فَقَالَ إِسْحَاقُ لِيَعْقُوبَ: «اِقْتَرِبْ حَتَّى أَجُسَّكَ يَا ٱبْنِي، لِأَعْلَمَ هَلْ أَنْتَ هُوَ ٱبْنِي عِيسُو أَمْ لَا». ٢٢ فَٱقْتَرَبَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ، فَجَسَّهُ وَقَالَ: «اَلصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلٰكِنَّ ٱلْيَدَيْنِ يَدَا عِيسُو». ٢٣ وَلَمْ يَعْرِفْهُ، لِأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا شَعِرَتَيْنِ كَيَدَيْ عِيسُو أَخِيهِ، فَبَارَكَهُ. ٢٤ ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتَ هُوَ ٱبْنِي عِيسُو؟»، فَقَالَ: «أَنَا هُوَ». ٢٥ فَقَالَ: «قَرِّبْ لِي لِآكُلَ مِنْ صَيْدِ ٱبْنِي، حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي». فَقَرَّبَ لَهُ فَأَكَلَ، وَأَحْضَرَ لَهُ خَمْرًا فَشَرِبَ. ٢٦ ثُمَّ قَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «اِقْتَرِبْ وَقَبِّلْنِي يَا ٱبْنِي». ٢٧ فَٱقْتَرَبَ وَقَبَّلَهُ، فَشَمَّ رَائِحَةَ ثِيَابِهِ، وَبَارَكَهُ وَقَالَ: «أُنْظُرْ، رَائِحَةُ ٱبْنِي كَرَائِحَةِ حَقْلٍ قَدْ بَارَكَهُ يَهْوَهُ. ٢٨ فَلْيُعْطِكَ ٱللهُ نَدَى ٱلسَّمَاءِ وَتُرْبَةَ ٱلْأَرْضِ ٱلْخِصْبَةَ وَكَثْرَةَ قَمْحٍ وَمِسْطَارٍ. ٢٩ لِتَخْدُمْكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدْ لَكَ أُمَمٌ. كُنْ سَيِّدًا لِإِخْوَتِكَ، وَلْيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمِّكَ. لِيَكُنْ لَاعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ». ٣٠ وَحَدَثَ لَمَّا ٱنْتَهَى إِسْحَاقُ مِنْ مُبَارَكَةِ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ أَمَامِ وَجْهِ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، أَنَّ عِيسُو أَخَاهُ رَجَعَ مِنْ صَيْدِهِ. ٣١ فَصَنَعَ هُوَ أَيْضًا طَبَقًا لَذِيذًا. وَأَتَى بِهِ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لِأَبِيهِ: «لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ٱبْنِهِ، لِكَيْ تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٣٢ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟»، فَقَالَ: «أَنَا ٱبْنُكَ، بِكْرُكَ عِيسُو». ٣٣ فَٱرْتَعَدَ إِسْحَاقُ ٱرْتِعَادًا عَظِيمًا جِدًّا، وَقَالَ: «فَمَنْ هُوَ ٱلَّذِي ٱصْطَادَ صَيْدًا وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ، فَأَكَلْتُ مِنَ ٱلْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ؟ نَعَمْ، مُبَارَكًا يَكُونُ!». ٣٤ فَلَمَّا سَمِعَ عِيسُو كَلَامَ أَبِيهِ، صَرَخَ صُرَاخًا عَظِيمًا وَمُرًّا لِلْغَايَةِ وَقَالَ لِأَبِيهِ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي!». ٣٥ فَقَالَ: «جَاءَ أَخُوكَ بِخِدَاعٍ لِكَيْ يَأْخُذَ بَرَكَتَكَ». ٣٦ فَقَالَ: «أَلَيْسَ لِأَنَّ ٱسْمَهُ دُعِيَ يَعْقُوبَ، عَقَبَنِي هَاتَيْنِ ٱلْمَرَّتَيْنِ؟+ أَخَذَ

بَكُورِيَّتِي،+ وَهَا هُوَ ٱلْآنَ قَدْ أَخَذَ بَرَكَتِي!».+ وَقَالَ: «أَمَا أَبْقَيْتَ لِي بَرَكَةً؟». ٣٧ فَأَجَابَ إِسْحَاقُ وَقَالَ لِعِيسُو: «هٰأَنَذَا قَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّدًا لَكَ،+ وَأَعْطَيْتُهُ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ خُدَّامًا،+ وَبِٱلْقَمْحِ وَٱلْمِسْطَارِ أَمْدَدْتُهُ،+ فَمَاذَا أَفْعَلُ لَكَ يَا ٱبْنِي؟». ٣٨ فَقَالَ عِيسُو لِأَبِيهِ: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَا أَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضًا يَا أَبِي!».+ وَرَفَعَ عِيسُو صَوْتَهُ وَبَكَى.+ ٣٩ فَأَجَابَ إِسْحَاقُ أَبُوهُ وَقَالَ لَهُ: «هُوَذَا بَعِيدًا عَنْ تُرْبَةِ ٱلْأَرْضِ ٱلْخِصْبَةِ يَكُونُ مَسْكِنُكَ، وَعَنْ نَدَى ٱلسَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ.+ ٤٠ وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ،+ وَأَخَاكَ تَخْدُمُ.+ وَلٰكِنْ يَكُونُ حِينَ تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ».+ ٤١ فَحَقَدَ عِيسُو عَلَى يَعْقُوبَ بِسَبَبِ ٱلْبَرَكَةِ ٱلَّتِي بَارَكَهُ بِهَا أَبُوهُ،+ وَقَالَ عِيسُو فِي قَلْبِهِ:+ «قَدِ ٱقْتَرَبَتْ أَيَّامُ مَنَاحَةِ أَبِي،+ فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي»"[1]، يخبرنا الكتاب المقدس عن الصراع الذي نشب بين أبناء إسحاق بين عيسو البكر وإسحاق الأصغر، والحقيقة أن الصراع بينهما كان مذ كانا في بطن أمهما، كما يوضح الكتاب المقدس ما جعل الرب يخبر الأم الحزينة بحال توأمهما أن الابنان هما شعبان، يسود أحدهما على الآخر والصغير يحكم الكبير وكان الكبير هو عيسو وبعده ولد يعقوب وهو ممسك بعقبه فسمي يعقوب، فالله منذ البداية يعلم بعلمه الشامل أن يعقوب هو من سيأخذ البكورية والبركة، وموافق على ذلك بقدرته لكن الطريقة التي اختارها يعقوب ليكون النبي والحاكم بعد والده هي التي حددت آلية حركة التاريخ وحددت مساره، هي الفعل البشري الناقص الذي يصنع ديناميكية وحركة التاريخ، هو الصراع "وَحَمَلَتْ رِفْقَةُ زَوْجَتُهُ. ٢٢ -وَتَصَارَعَ ٱلْوَلَدَانِ فِي دَاخِلِهَا"، صراع وتزاحم وتدافع في بطن الأم هو حالهم أيضا بعد أن كبرا، عاد عيسو من الصيد يوما تعبا جائعا ووجد يعقوب قد حضّر طعاما من العدس، فطلب منه أن يطعمه لكن يعقوب رفض أن يعطيه طعاما بالمجان وساومه على بكوريته بطبق من عدس، والغريب أن عيسو قبل وسلّم بكوريته مقابل طعام، والمعروف أن البكر هو الذي يرث البركة من نبوة الأب وحكمه على بقية الأخوة، ويكون نسل أخوته خدما لنسله، كما أنه سيرث نصيبين من تركة الأب وممتلكاته، يأخذ الإبن البكر يأخذ البركة والبكورية وليست البركة هي البكورية.

رفقا التي أحزنها ابنها عيسو، مالت لابنها يعقوب المطيع وعزمت على أن تكون البركة لصالحه، فتآمرت معه على ابنها البكر وخدعا إسحاق الذي فقد بصره وأوهماه أن يعقوب هو عيسو وسلبو منه بركته، سلبها يعقوب بالكذب حين سأله إسحاق هل أنت عيسو فأجاب أن نعم أنا عيسو، وهو كاذب، وبمكر منه ومن أمه لبس ثياب أخيه ووضع على جسده شعر ماعز ليخدع والده، وسرق حق أخيه البكر، حتى وإن كان يعقوب غير راضي على رعونة أخيه البكر، وغير موافق على الخطايا التي قام بها فطمست حب الله في قلبه

[1] سفر التكوين، (27: 1-41).

وأحزنت والديه، ووجد أن البركة من حقه هو الفتى البار المحب للرب، فهذا لا يبرر الطريقة التي أخذ بها البركة التي كانت من حق أخيه لا من حقه هو. فكان عيسو على استعداد تام أن يكرر جريمة قابيل وهابيل، وعزم على قتل أخيه إلا أن رفقة أخبرت يعقوب بالأمر فهرب خوفا من بطش أخيه.

البركة كانت من نصيب يعقوب لا محالة، تبعا للنبوءة التي أخبر بها الرب رفقة والتوأم في رحمها بعلم الرب المسبق، فالرب كان عالما بما سيحدث لكنه لم يتدخل في الأمر ولم يملي على يعقوب الطريقة التي ينتزع بها البركة بل حتى أنه لم يخرج يعقوب من رحم أمه قبل عيسو وهو القادر على ذلك، هو قادر على أن تكون البركة من البداية لصالح يعقوب، لكنه بحكمته ترك البشر يتصرفون على طبيعتهم البشرية الناقصة ويصنعوا التاريخ وفقا لقدراته في إطار الزمان والمكان، فيعقوب استخدم آلية بشرية محضة تمثلت في الصراع، وكانت طبيعة الصراع هنا متجسدة في الخداع والكذب والسرقة والكيد والقتل "وسلب حق ليس ملكا له"، والصراع هنا كان موجها ضد أخيه التوأم، كما هو الحال بين قايين وهابيل سابقا، وكما هو الحال بين روموس وروميلوس لاحقا، فالتاريخ خطة متسلسلة متوازنة، حلقاتها متوازية لا خلل فيها، وإن كان هناك قانون يحكمها فهو قانون يسير على جميع جزيئات التاريخ منذ بدايته الأولى وإلى غاية نهايته في الدينونة الأخيرة، واختار البشر أن تكون آلية الحركة هنا هي الصراع.

هو عينه الصراع الذي انتقل إلى أبناءه من بعده، وبنفس الطريقة مكروا لأخيهم وخدعوا والدهم، رغبة في الحكم والبركة واستأثار حب والدهم لهم دون يوسف المميّز، استمّر الصراع بين الأخوة الصالحين رغبة في البركة والحكم، على الرغم من أن البركة سيحصل عليها الأخ الأكبر يهوذا، إلا أن الحسد تملك قلبه تجاه أخيه فمكر واحتال وكذب هو الآخر، فالحسد والمكر موجود في طبيعة الانسان البشرية مع ولادته بالجسد، تتناقص وتتزايد كل حسب محبته لله وولادته في المسيح مرة ثانية، وهو الصراع الذي عاشه يهوذا تجاه أخيه، عاش صراعا داخليا لم يستطع أن ينتصر عليه فتغلب جسده عليه، حينها تخارج الصراع وانتقل من يهوذا إلى أخيه، فحاولوا قتله من ثم رموه في البئر، وبمشورة من أخيهم يهوذا قاموا بإخراجه وبيعه لقافلة من الإسماعيليين.

الصراع هو حالة طبيعية في الانسان مثلها مثل الحسد الكامن في كل البشرية بسبب الخطيئة الممتزجة بنا، تبدأ من النفس الخاطئة إناء الهوان، وكل إنسان هو نفس خاطئة، أنا أخطيء إذن أنا موجود، يخطيء الانسان فيبدأ الصراع داخليا بين الجسد والروح، حتى إذا ما تغلب الجسد تخارج الصراع مع الآخر، ويأخذ أشكالا متعددة كلها من جراء هيمنة النفس الشهوانية على الإنسان، فتتحرك الحادثة على هذا الأساس،

ويتحرك التاريخ بدوره. الصراع لا يشمل الأفراد فقط، بل هو صراع بين دول وحضارات وبصورة أشمل هو صراع مدينتين حسب القديس أوغسطين، بنفس القوانين التي سيّرت الأفراد، فالذي يمنع فردا من مشاركة الآخر له في الحكم، هو نفس المانع الذي يمنعه من مشاركة المستعمرات أو الثروات مع الآخر، وهي محرك التاريخ.

المبحث الثالث: الكومنوولث المسيحي

ارتبطت فكرة المواطنة العالمية (الكوسموبوليتيك) الجامعة للبشرية، الموحدة لصفوف الناس، المتجاوزة للحدود بين البشر بالمدرسة الرواقية، فكانت أول مدرسة تحاول التعامل مع الآخر كإنسان بعيدا عن أي تمييز أو خصوصية، بعيدا عن أي حكم مسبق، وأي إنسان مختلف عني هو إنسان مثلي أحبه، هذا ما جعل أوريليوس ماركوس يصرخ قائلا :"أيها العالم، إنني أبادلك الحب"[1]، ويظهر لقارىء مدينة الله ورسالته في المحبة تأثر القديس أوغسطين الشديد بالرواقية معتبرا الحب هو الرابطة الوحيدة بين البشر التي تضمن العيش في سلام ومؤاخاة، بالحب وحده تختفي الأنانية وحب المصلحة الفردية لصالح المصلحة الجماعية، وفق القانون الرواقي القائل "ما لا يفيد السرب لا يفيد النحلة، (...) بهجة الانسان أن يؤدي العمل اللائق بالانسان، والعمل اللائق بالانسان هو الاحسان إلى جنسه الانساني"[2]، الانسان كانسان أيا كانت الفوارق والإختلافات العرقية والطبقية والاجتماعية والسياسية والعقدية والجندرية بيننا، أيا كانت فأنا أحبك.

الرواقي على هذا الأساس هو "مواطن العالم، الكون مدينته والبشر إخوانه، هذا الانتماء الكوزموبوليتاني لا يتعارض بحال مع انتماء المرء لجماعته الخاصة، (...)الانتماء أشبه بدوائر متراكزة متحدة المركز، فبصفتي أنطونيوس فإن مدينتي هي روما، وبصفتي إنسانا فمدينتي العالم، لذا فإن ماهو خير لهاتين المدينتين هو وحدة الخير بالنسبة لي، هنا أو هناك لافرق، مادمت حيثما عشت تتخذ العالم وطنا لك"[3]، فأي مكان قذفت فيه ذاك وطني وسكانه إخوتي. والحقيقة أن العلاقة التي تربط الأفراد بعضهم ببعض ليست رابطة دم ولا رابطة أرض ولا رابطة عرق وأصل، وإنما هي رابطة العقل الجامع الذي يربط بين كل الأفراد، العقل الذي صدرت عنه تلكم المفاهيم الكلية التي يشترك فيها الجميع، هذا الاشتراك سببه أن المفاهيم الجزئية قد سقطت وتم وضعها بين قوسين لاختلاف الأفراد بينها.

تستحيل المفاهيم الكلية التي توصل إليها الانسان من خلال تجريدات العقل، تستحيل قوانين موحدة تحكم البشرية جمعاء، وكأن البشرية كلها يحمها حاكم واحد صارم القونين هو العقل، فالعقل هو بديل رجل السياسة الحاكم وبديل السلطة، فمفاهيم العقل واحدة ومتفق عليها هي الحرية والمساواة والمآخاة والمحبة حتى

[1] ماركوس أوريليوس: التأملات، تر: عادل مصطفى، مراجعة وتقديم: أحمد عثمان، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2010، ص363.
[2] المرجع نفسه، ص363.
[3] المرجع نفسه، ص363.

نضمن بقاء البشرية، بدل هذا التطاحن والتقاتل الذي لن يتوقف حتى يقضي على آخر فرد فيها، فالعقل الجمعي يعلم كل هذا، ويعلم ما يجب أن يكون، وما هو كائن، وما مصيرنا مع هذا الكائن، لذا فان تفعيل دور العقل هو ما دعت إليه الرواقية، إنطلاقا من الطبيعة التي يجب أن نعيش في وفاق معها.

أولا: الوحدة البشرية

تأثر أوغسطين بالفلسفة الرواقية خاصة وأنها تقاطعت في كثير من مباحثها مع صميم الدين المسيحي، هذاما جعله يولي عناية كبيرة بتفاصيلها، ذلك أن فكرة العالمية أصيلة في الفلسفة المسيحية، والتي بحث أوغسطينوس في الكتاب المقدس عن تأسيس ديني وفلسفي لها فوجدها متجسدة في السفر التالي:

"20فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ، 21فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. 22وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. 23 فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي .هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ."[1]، على الرغم من كل الكمال الذي خلقه الله في الجنّة إلا أن آدم لم يكن سعيدا، وكان دائم الاحساس بالوحدة هناك خاصة وأن الحيونات كان أزواجا إلا هو لم يجد نظيرا له يشبهه، فعلم الرب ما بآدم فخلق من ضلعه حواء لتكون معه في الجنة وفي الحياة، السؤال الآن ماهي المكانة التي منحتها الكتب المقدسة من توراة وإنجيل لحواء بعد أن كان خلقها جزء من آدم وليس خلقا مستقلا؟ بمعنى أنه لم يتم خلق حواء بالطريقة ذاتها التي خلق بها آدم، "7وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً."[2]، فآدم خلق كهيئة مستقلة أما حواء فكانت تابعا في الخلق، جزء من جسم آدم، فهل هذا يعني أن حواء تبقى تابعة للرجل، خادمة له، أقل منه، جزء منه؟

يقول أوغسطين :"واستخرج عظمة من جنبه وصنع المرأة لتشاركه في عمل الإنسال؛ وفي كل ما عمله"[3]، هنا يظهر مجددا مفهوم المشاركة في فلسفة أوغسطين ، فهو لم يعتبر حواء (المرأة) تابعة للرجل بل مشاركة له، خاصة في عملية الإنسال، إذ لا تقل مكانة المرأة في هذه العملية البيولوجية عن مكانة الرجل، ولا

[1] سفر التكوين، الاصحاح (2: 20-23).
[2] سفر التكوين، الاصحح (2: 7).
[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص100.

تنقصه في شيء، لكن هناك حكمة إلهية من وراء جعل حواء ضلع من آدم، والمتمثلة في الحفاظ على الوحدة البشرية في الكون، فلن ينقص خلق حواء بشكل مستقل من القدرة الالهية، لكنها ستنسف فكرة الوحدة وما ينجم عنها من نسف لفكرة الاتحاد في الكنيسة لاحقا وفي المملكة المسيحية بزعامة السيد المسيح، لأنه سيكون هناك طرفان إثنان أي أصلان للبشرية، وسينتفي قول السيد المسيح في سفر يوحنا "21لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي 22 .وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ."[1]، فحواء شريكة لآدم لكن مستلة منه، تابعة له في الوحدة البشرية، مشاركة له في إنجاب البشرية؛ فالله بحكمته الأبدية استل حواء من ضلع آدم حتى يحافظ على مفهوم الوحدة البشرية وخلقها من الأساس ليؤكد على مفهوم الحياة الاجتماعية وضرورتها.

كما نجد قول بولس الرسول:"مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ."[2]، فبولس الرسول اعتمد هذا الاصحاح ليؤصل لمفهوم الوحدة البشرية، وهو نفس الأساس الذي إعتمده القديس أوغسطين في تبيان الوحدة الانسانية، فالله خلق آدم وجعله أصلا للبشرية كلها، فمخلوق واحد ولدت منه كل السلالات كرمز واضح للوحدة لبشرية في آدم، الذي "خلقه الله واحدا وحيدا لا لكي يعزله عن كل المجتمع البشري بل لكي يتعلق بشدة، وبكل قلبه، بالوحدة ومع إخوته في رباط إجتماعي، ولم يجمع البشر فقط بواسطة ما يتشابهون به طبيعيا بل باللحم والدم والعاطفة التي توجد فيها بينهم. المرأة ذاتها، شريكة الرجل، ما أرادها مخلوقة، على مثال الإنسان إنما خلقها من الانسان لكي يتفجر من إنسان واحد نهر الأجيال البشرية"[3]، فآدم هو الأصل والأصل واحد.

آدم هو أصل البشر جميعهم، والبشر بتنوعهم واختلاف توجهاتهم وإيديولجياتهم ومعتقداتهم وألوانهم أصلهم واحد؛ هو آدم، الانسان الأول، ومهما اختلفنا يجب أن ندرك يقينا أن هذه التفرعات اللامتناهية أصلها أب واحد، ومهما اختلفنا فان رابطة عميقة تربطنا جميعا؛ نحن من أب واحد، فأنا وبقية البشر تربطنا رابطة الأخوة والمحبة في الرب، فأبناء آدم الإخوة تقاسموا الأرض ليعمروها، وتشعبت القبائل ونشأت الأسر التي تربط بينها قرابة قريبة، وازداد التشعب حتى تباعدت القرابة، لكنها تبقى مهما تشعبت، "لأَنَّكُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ اللهِ

[1] إنجيل يوحنا، الاصحاح (17: 22-23).
[2] بولس، الإصحاح(12/5).
[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 99.

بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ .لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غلاطية 3: 26-28)؛ نبقى أخوة مهما اختلفنا، فنحن متعلقون ببعض مهما حاولنا التملص من بعض بتباياناتنا، إذن نحن من أصل واحد تفرقنا في شعوب ودول وحضارات مختلفة.

الوحدة البشرية هي مفهوم موجّه رأسا للجماعات البشرية دون سواها من الجماعات الحيّة الأخرى، يقول أوغسطين :"الحيوانات الأخرى سواء هذه التي خلقها وحشية ومحبة للوحدة كالنسر والحدأة والأسد والذئب، أو تلك التي نفحها بغريزة العيش في جماعة ففضلت العيش في أسراب وقطعان كالحمام والغزال والبطة والزرازير، إنه لم يخلقها من واحد، بل كونها من عدة مخلوقات في آن واحد"[1]؛ فالمخلوقات غير العاقلة لم تعنى بهذه الفكرة لكونها غير معنية لا بالمحبة الألهية ولا بجسد السيد المسيح وكنيسته، كما أنها ليست على صورة الرب وشبهه، وليست من سكان مدينته السماوية؛ فالوحدة فكرة حيوانية عاقلة.

تظهر الوحدة البشرية أيضا في الكتاب المقدس من خلال قصة اللغة التي كانت تجمع كل البشر، يفهمون بعض؛ إذ يذكر الكتاب المقدس في سفر التكوين أن البشر كلهم كانوا على لسان واحد تحكمهم نفس اللغة، وهذا دليل على توحدهم في مجتمع واحد وانبثاقهم من أصل واحد. لكن برج بابل أفسد الأمر وفكك هذه الوحدة، فبعد أن غضب الرب من جرأتهم بلبل ألسنتهم وشتت أممهم ومجتمعاتهم، فكلما كثرت اللغات واللهجات كلما زاد الانقسام أكثر فأكثر.

وسبق هذا التقسيم للوحدة تقسيم آخر كان قاسما قاصما لها؛ حين خلق الله الانسان الأول وجعل في داخله عاطفة روحية وهي "الحب" والتي وجهها بصورة أساسية لله لا لشيء آخر، لكن آدم احتاج لوجود شخص معه حتى يشاركه في الحياة فكان الحب هو القوة الروحية المحركة للإنسان والدافعة له للقيام بأمر دون الآخر، والحب هو العاطفة التي جمعت الأفراد للقيام بأعمال مشاركة، هذا الحب الذي جمع البشرية هو نفسه الحب الذي قسمها فبعد أن كان قلب آدم مليء بحب الله، بات ينازعه حب آخر تبلور بصورة أوضح في ولديه قايين وهابيل، فانقسمت البشرية وتغير حالها، فاختفت الوحدة التي كانت سائدة على الأرض. فالعودة إلى الوحدة الإنسانية تكون بإحياء السبب الذي أدى غيابه إلى إنقسامها وهو "الحب".

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص 98.

إعادة الوحدة البشرية عند القديس أوغسطين كانت بتأسيس كومنولث مسيحي أي مجموعة الأمم المسيحية، ويرجع سبب إصراره "على أن تكون مجموعة الأمم مسيحية على وجه الدقة إيمانه بعجز الدولة عن إقامة العدالة ما لم تكن مسيحية، وأنه من المغالطة الزعم بأن الدولة قادرة على أن تعطي كل ذي حق حقه إذا كانت هذه الدولة نفسها أي غير المسيحية، لا تعطي الله نفسه حقة في العبادة"[1]، إعتبر القديس أوغسطين المسيحية "ديانة كونية-عالمية شاملة"[2] ستتحقق في الكنيسة العالمية التي يترأسها السيد المسيح عند مجيئه.

ثانيا: السلام الآني/الأبدي

الدولة غير المسيحية عاجزة عن تحقيق العالمية ولن تتحقق مهما حاول البشر فعل ذلك، الأمر حسب النسقية الأوغسطينية متوقع، كون غير المسيحي هو مواطن المدينة الأرضية وبالتالي فان سلامها ناقص آني، سلام يمهد لصراع قادم لامحالة، وهي كدولة بحد ذاتها ذائلة لانها تحوي في داخلها بذور فنائها فكيف لسلامها أن يدوم، فالأنظمة السياسية في شكل الدولة ظهرت كنتيجة حتمية لتمرد الانسان على الله ومن ثم تمرده على كل أشكال النظام في الحياة بما فيها القانون الالهي وصوت الضمير، فكان لزاما ظهور القوانين الوضعية التي تجسدت في الجانب السياسي بكل ما يحويه من أنظمة حتى تضبط ذلك التمرد الموروث، ومن خلاله عاقب الله البشر بأن شرّع للكثير من الإكراهات كالرق والملكية والحرب. أقر القديس أوغسطين بأن الدولة لا تكون دولة إلا بمقدار ما حققته من عدل مسيحي بين الأفراد لأنه هو العدل الحق، وحتى يتجاوز القديس أوغسطين العنصرية في طرح رجال الدين فقد قبل بالعدل غير المسيحي لكن نتائجه تكون بالزوال الحتمي لتلك الحضارة نظرا لما تحويه في ذاتها من بذور فناءها نتيجة للطبيعة البشرية الخاطئة، وعليه فإن العدل المسيحي هو الوحيد القادر على ضبط النفس البشرية تبعا للمعادلة الأوغسطينية التالية:

حضارة زائلة = فرد + أخلاق

حضارة أبدية= فرد + أخلاق + دين مسيحي.

السلام الكامل المستمر الأبدي هو السلام الذي نحققه بالعودة إلى الانسان الأول، الذي يحب الله أكثر من ذاته، حينها يعود الجسد وضعه الأصيل، تحت إمرة النفس الصالحة فتنتفي الأنانية والحسد وحب الذات على حساب الآخر، ماجعل أوغسطين يمد يده للملك بطريقة براغماتية لحماية الكنيسة المسيحية

[1] جورج سباين، مرجع سابق، ص279.

[2] أليكسي جورافسكي، مرجع سابق، ص19.

ووجد أن الطريقة الوحيدة تكون من خلال توطيد العلاقة بين رجل الدين والإمبراطور بإدماج السلطتين وتحقيق التعايش السلمي؛ وُضف فكر القديس أوغسطين في هذه العلاقة بين السلطتين من بعده بشكل موّسع لدرجة أنهم نازعوا الإمبراطور على السلطة واعتمدوا في ذلك على أسس عدة من أهمها 'مدينة الله'، إذ "اعتمدت البابوية على كتاب مدينة الله لتدعيم موقفها في الصراع مع الإمبراطور، لقد وجدت في هذا الكتاب العديد من الأسانيد التي استندت إليها لإيضاح تفوق مدينة الله، أي الكنيسة وعلى رأسها البابا"[1]. وجد القديس أوغسطين في تنفيذ مهمته المتمثلة في الربط بين السلطتين يسرا نوعا ما وذلك راجع "لتمسك الأباطرة بإدماج الدين في القانون العام للدولة، وأجروا ذلك على مختلف وجوه الحياة"[2]، أملا منهم في تحقيق السلام المرتجى.

من جهة أخرى رُفضت العلاقة بين الدولة والكنيسة من قبل الكثير من مسيحي العصور الوسطى ورفض معها دستور الايمان المسيحي الذي فرض في مجمع نيقيا عام 325م*، مؤمنين أن العدل الحق لن يكون إلا بعودة السيد المسيح من جديد كما وعد شعبه، فهو الوحيد القادر على نشر المحبة الحقة، خاصة بعد دخول الكثير من القساوسة حروبا أودت بمئات الأبرياء من سكان المدينتين على حد سواء، فالرب صعد إلى السماء واعدا بعودته من جديد، يقول الرب يسوع: "لا تخافوا أنا معلمكم، ووبخ كثيرين من الذين اعتقدوا أنه مات وقام قائلا: أتحسبني أنا والله كاذبين؟ لأن الله وهبني، أن أعيش حتى قبيل انقضاء العالم، كما قد قلت لكم(...)ثم حملته الملائكة الأربعة إلى السماء"[3]، وهو ما يردده المسيحيون في قداسهم دوما

"نؤمن باله واحد

أب ضابط الكل

خالق السماء والأرض

كل ما يرى وما لا يرى

[1] تيسير عواد: محاضرات في النظم السياسية المقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1993، ص21.

[2] عزيز العظمة: العلمانية من منظور مختلف،مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط2، 1998، ص21.

* للإطلاع على تفاصيل مجمع نيقيا انظر: محمد عبد الله الشرقاوي: مقارنة الأديان،(دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 2000، ص231 وما يليها إلى 274.

[3] إنجيل برنابا، دراسات حول الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليه السلام، تحقيق: سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، ط2، 1983، ص297.

وبرب واحد يسوع المسيح

إبن الله الوحيد

المولود من الآب قبل كل إله

هو إله من إله نور من نور

إله حق من إله حق

مولود غير مخلوق

مساو للآب في الجوهر

الذي به من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا

نزل من السماء

وتجسد من الروح القدس

ومن مريم العذراء

وصار إنسانا

وصلب على عهد بيلاطس البنطي

تألم ومات وقبر

وقام في اليوم الثالث

كما في الكتب

وصعد إلى السماء

وجلس على يمين الاب

وأيضا سيأتي بمجد عظيم

ليدين الأحياء والأموات

الذي لا فناء لملكه"[1]

فالسيد المسيح يعرف بأنه رئيس السلام العالمي "ولأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَيُعْطَى لَنَا ابْنٌ يَحْمِلُ الرِّيَاسَةَ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيباً، مُشِيراً، إِلَهاً قَدِيراً، أَباً أَبَدِيّاً رَئِيسَ السَّلاَمِ"إش(9: 6)، والذي لن يتحقق إلا بدخوله الثاني في التاريخ، ليحقق المجد الإلهي والسلام الأبدي " وَإِلهُ السَّلاَمِ الَّذِي أَقَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ رَاعِيَ الْخِرَافِ الْعَظِيمَ، رَبَّنَا يَسُوعَ، بِدَمِ الْعَهْدِ الأَبَدِيِّ"[2]، وذكر السلام في الانجيل في مواضع كثير وبمعاني مختلفة لكنها تشترك في المحبة ونبذ الرذيلة النابعة عن الجسد كغيرها من الرسالات السماوية التي تنشد المثالية، منها أشعياء ٥٧:١٩خَالِقًا ثَمَرَ الشَّفَتَيْنِ. سَلاَمٌ سَلاَمٌ لِلْبَعِيدِ وَلِلْقَرِيبِ، قَالَ الرَّبُّ، وَسَأَشْفِيهِ.كولوسي ٣:١٥وَلْيَمْلِكْ فِي قُلُوبِكُمْ سَلاَمُ اللهِ الَّذِي إِلَيْهِ دُعِيتُمْ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ، وَكُونُوا شَاكِرِينَ. المزامير ٨٥: ٨إِنِّي أَسْمَعُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ اللهُ الرَّبُّ، لأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِالسَّلاَمِ لِشَعْبِهِ وَلأَتْقِيَائِهِ، فَلاَ يَرْجِعُنَّ إِلَى الْحَمَاقَةِ. فيليبي ٤: ٧وَسَلاَمُ اللهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْل، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. أشعياء ٣٢: ١٧وَيَكُونُ صُنْعُ الْعَدْلِ سَلاَمًا، وَعَمَلُ الْعَدْلِ سُكُونًا وَطُمَأْنِينَةً إِلَى الأَبَدِ. لوقا ٧: ٥٠فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ:«إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ، اذْهَبِي بِسَلاَمٍ. المزامير ٣٧: ٣٧لاَحِظِ الْكَامِلَ وَانْظُرِ الْمُسْتَقِيمَ، فَإِنَّ الْعَقِبَ لإِنْسَانِ السَّلاَمَةِ. 2تسالونيكي ٣: ١٦وَرَبُّ السَّلاَمِ نَفْسُهُ يُعْطِيكُمُ السَّلاَمَ دَائِمًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ. الرَّبُّ مَعَ جَمِيعِكُمْ. يوحنا ١٤: ٢٧ سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ. "أمَّا الآنَ، فَفي المسيحِ يَسوعَ صِرتُم قَريبينَ بِدَمِ المسيحِ بَعدَما كُنتُم بَعيدينَ. فالمسيحُ هوَ سلامُنا، جعَلَ اليَهودَ وغَيرَ اليَهودِ شَعبًا واحدًا وهدَمَ الحاجِزَ الّذي يَفصِلُ بَينَهُما، أيِ العَداوَةَ، وألغى بِجَسَدِهِ شَريعَةَ موسى بأحكامِها ووَصاياها لِيَخلُقَ في شَخصِهِ مِنْ هاتَينِ الجَماعتَينِ، بَعدَما أحَلَّ السَّلامَ بَينَهُما، إنسانًا واحدًا جَديدًا، ويُصْلِحَ بَينَهُما وبَينَ الله بِصَليبِهِ، فقَضى على العَداوةِ وجعَلَهُما جسَدًا واحدًا. جاءَ وبَشَّرَكُم بالسَّلامِ أنتُمُ الّذينَ كُنتُم بعيدينَ، كما بَشَّرَ بالسَّلامِ الّذينَ كانوا قَريبينَ، لأنَّ لنا بِه جميعًا سَبيلَ الوُصولِ إلى الآبِ في الرُّوحِ الواحِدِ"(أفسس 18-13 ☺2

[1] رتبة القداس الالهي، المركز الاسقفي، الجزائر، دط، دت، ص ص 20-21.

[2] عبرانيين، (13:20).

"وَإِلهُ السَّلاَمِ سَيَسْحَقُ الشَّيْطَانَ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ سَرِيعًا. نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ مَعَكُمْ. آمِينَ."[1]، سيخوض يسوع معركته الأخيرة ضد الشيطان ويسحقه ليتم وعده وعهده للبشر، البشر أجمعين، لا يفضل فئة على أخرى ولا جنسا على آخر، فكانت هذه الفكرة أهم اختلاف وخلاف بين المسيحية واليهودية، إذ يخالف القديس أوغسطين اليهود في فكرتهم حول شعب الله المختار لأنها لا تشتمل على الأمم كلها، رفض هذه الفكرة وعوضها بفكرة شاملة عن البشرية جمعاء وهي فكرة المسيح في حد ذاته؛ إذ أنه يرى أن الخطيئة انتقلت إلى كل البشر دون استثناء بعد أن ورثوها عن أبيهم آدم، أي أنهم توحدوا في الخطيئة من خلال اشتراكهم فيها، إضافة لكونهم وجدوا في "المسيح مخلصا للإنسانية كلها"[2]؛ هذه الفكرة وحدت الانسانية كلها أيضا على يده، فلم يخلص شعبا دون سواه وإنما خلص الانسانية جمعاء. لأن كل هذه الشعوب أصلها واحد صدرت منه وتؤول إليه، تؤول إليه من خلال التوحد مجددا في السيد المسيح.

انتقد القديس أوغسطين اليهودية في فكرة حصر شعب الله المختار في اليهودية معوضا إياها بالمسيحية العالمية التي تشمل برسالتها كل الشعوب دون استثناء، لكنه في المقابل قسم الحضارات الانسانية قبل ولادة المسيح إلى قسمين؛ القسم الأول الذي يضم كل حضارات العالم القديم على أنها ممثلة للنقص والشر، والقسم الثاني تصور بني إسرائيل على أنهم الشعب الخيّر الممثل للحق، قسم العالم إلى حضارة الحق وحضارة الشر، شعب مهتدي وشعب ضال، وهذا التقسيم نجده في كل الأديان دون استثناء، كل مجموعة دينية تعتبر دينها هو الأكمل والجامع لكل الحقيقة، وباقي الأديان إما ناقصة أو ضالة، وكل دين يعتبر أن نهاية التاريخ ستكون لصالحه بجمع شتات العالم، ومن لم ينضم سينال عقاب الآخرة الأبدي، حتى السيد المسيح وهو قادم ليقطع رأس الشيطان سيقطع معها رؤوس من اتبعوا الشيطان وتركوا تعاليمه، والكومنوولث الذي يدّعونه، هو جماعة المسيحيين.

يظهر الاختلاف الجوهري بين العالمية الرواقية والعالمية المسيحية، فالرواقية لا تنتظر من الآخر أن ينظم للرواقية أو يلتزم بتعاليمها، تقول للأخر أنا أحبك وأنت أخي وحسب، ولا تقول أنا أحبك أيها الرواقي، أو الرواقي هو أخي، أو أن في نهاية التاريخ سيأتي الرواقي المبشر ليضم باقي الرواقيين لمملكته ويدهس البقية، الرواقي يحب الآخر أيا كان، موجها نظره لانسانيته وفقط، فقد يكون البوذي خيّرا ويكون اليهودي فاضلا

[1] رومية، (16:20).

[2] زينب محمود الخضيري: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، (دار قباء، القاهرة، دط، 1997)،، ص142.

ويكون الشاذ محبا للآخر أكثر من الرواقي، لكن المسيحية لم تصل بعد لهذه الكونية الانسانية، ولم تنشدها من الأساس، لأنها تعتبر غير المسيحي شر مهما بلغت خيريته، ومهما بلغ حبه للآخر لن يشفع له عند السيد المسيح مادام أن الحب لم يكن موجها له وبعبارة أدق لم يؤمنوا به ربا ولا برسالته، يجيئ السيد المسيح ليحقق الملكوته "تَنتَظِرونَ وتَستَعجِلونَ مَجيءَ يَومِ اللهِ الَّذي فيه تَنحَلُّ السَّمَواتُ مُشتَعِلَة وتَذوبُ العَناصِرُ مُضطَرِمة" بطرس(12: 2-3)، "فيتحقق انتصار لله على جماح الشر "فنَزَلَت نارٌ مِنَ السَّماءِ فالتَهَمَتهم" (رؤيا 9: 20)، "إذ إنّه في يوم مجي الرب ستفنى الشعوب التي قادها جوج (حزقيال 38)، كما ستفنى الآلهة التي كانت توجَّههم .وسيسجل الله نصره على اعدائه ويعلن صاحب المزامير ان الله سيملك "الرَّبُّ مَلَكَ والجَلالَ لَبِس، لَبِسَ الرَّبُّ العِزَّةَ وتَمَنطَقَ بِها" (مزمور 1: 93).

سيخوض الرب آخر صراع في التاريخ بينه وبين الشيطان ثم سينتصر عليه بالضرورة كنهاية منطقية لعالم خلقه هو ولتاريخ حرسه بعنايته، حينها فقط يتحقق الكومنوولث المسيحي وكدلالة أخرى على حتمية الصراع في التاريخ، وبالتالي مهما حاول المسيحيون أو أصحاب أي دين أخر تأسيس عالمية جامعية فهي عالمية قاصرة لأن الكونية فيها ليست كونية إنسانية وأنما دينية مسيحية.

"إمدحي يا أورشليم الرب، سبحي إلهك يا صهيون؛ فإنه مكن مغاليق أبوابك وبارك بنيك في داخلك يجعل تخومك سلاما"[1]، أورشليم في معناها تعني رؤية السلام، فالسلام سيتحقق في أورشليم وهي دلالة على المرحلة النهائية التي تكون في أورشليم ولما كان معناها السلام، وأورشليم هي ما يتوق إليه البشر، كان بالضرورة السلام هو ما يتوق اليه البشر أيضا، ولكن أي سلام؟

إنه السلام النهائي الأبدي الدائم الذي سيتحقق في الحياة الابدية و"قد فضلنا إستعمال إسم الحياة الابدية على إسم السلام لتشير إلى الغاية، سعادة هذه المدينة الابدية وهي الغاية التي يريدها الرسول بقوله :وأما الآن وقد أعتقتم من الخطيئة واستعبدتم لله فإن لكم ثمركم للقداسة والعاقبة هي الحياة الأبدية (روم 22/6)"[2].

كل أفعال الانسان على الرغم من اختلافها وتراوحها بين خيرة وشريرة تتوق إلى السلام، فالسلام مطلب فطري يسعى إليه كل إنسان، يعرفه القديس أوغسطين قائلا: "السلام في كل شيء هو نظام هادئ؛

[1] مزمور، الإصحاح (146/12-14).

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص 130.

والنظام هو قبول الكل، بما يضع كل انسان في محله وإن تباينت الأمور أو توافقت"[1]، فالسلام نظام يقوم على الانسجام والتوافق بين الأطراف مهما كانت هته الأطراف، فحتى الحرب إذا أمعنا فيها النظر وجدنا أن الغاية من ورائها هو نشر السلام، فكل طرف من أطراف الحرب يبغي السلام لشعبه عن طريق النصر "وما من أحد يطلب السلام لا يسعى إلى الحرب"[2]، وهذه النقطة التي يذكرها القديس أوغسطين يعطي من خلالها المشروعية للحرب على الرغم من نتائجها الكارثية. فالأشخاص الذين يحاولون في رأينا تشويه السلام الذي صنعناه وبالتالي نشر الفوضى واللانظام، فهم ينشرون السلام لكن بمفهومهم الخاص تبعا لما يناسبهم ويكون على هواهم، فيبقى سلاما وإن اختلف مفهومه أو الطرق المؤدية اليه. فاللصوص الذين بلغوا بشرّهم مبلغا جعل كل الناس يتخوفون منهم يقومون بأعمال تهدد سلام باقي الافراد. في المقابل نجدهم حريصين كل الحرص على إبقاء السلام بين أفراد العصابة، وحتى وإن رفضوا مشاركة شركائهم السلام، فهم يشاركونه أشخاص آخرين كزوجاتهم أو أبنائهم أو أحد أفراد أسرهم.

انتشار السلام انحصاره بين الحضارات أو الأمم والمجتمعات، بل يشمل كل مجالات الحياة، إذ أن للسلام أطراف عدة حددها القديس أوغسطين بدقة بتصنيف تراتبي وجعل أولها وأساسها: سلام الجسد والذي يكون من خلال الانتظام بين أعضائه وأداء كل عضو دوره كما حددته الفطرة، "وسلامة النفس غير العاقلة راحة منتظمة بين شهواتها، وسلام النفس العاقلة توافق بين المعرفة والعمل، وسلام النفس والجسد يقوم على تنظيم الصحة والحياة في الكائن الحي تنظيما حسنا. ويعني سلام الانسان مع الله طاعته في الايمان تحت رعاية الشريعة الادبية. والسلام بين الناس يقوم على توافق منظم، والسلام البيتي يقوم ما بين أهل البيت على نوع من التعاقد وتنظيم الادارة والطاعة، والسلام في المجتمع يتحقق بواسطة التعاون والخضوع لسلطة منظمة، وسلام المدينة السماوية هو نظام وتوافق في جماعة الله وتبادل فرح مشترك بالله"[3].

يفرق القديس أوغسطين بين سلام المدينة الأرضية وسلام المدينة السماوية، فالسلام الأول هو سلام زائل تحقق من خلال نظام هش قابل للإنهيار في أية لحظة، يخضع له ابناء مدينة الأرض وأبناء مدينة السماء

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص136.
[2] المصدر نفسه، ص نفسها.
[3] المصدر نفسه، ص 136.

سواء بسواء، لأن أبناء الله الذين يخضعون "للقوانين الأرضية التي تهتم بالمصالح الزمنية فإنها تطيع دون تردد"[1]، أما السلام الحقيقي فهو السلام الدائم الذي لا يتحقق إلا بتحقق مدينة الله في نهاية الامر.

نخلص للقول أن السلام هو مطلب فطري لكل الافراد والأمم وهو السبب وراء كل تلك الحروب والنزاعات التي تشهدها البشرية، ومهما تعددت أشكاله فإنه ينحصر في شكلين: السلام الدائم وهو السلام الذي يتحقق في ذلك المجتمع المسيحي الذي يضم كل الشعوب التي اهتدت في نهاية الامر وخضعت لتعاليم المسيحية، خاصة وأن السلام الذي تسعى له الشعوب الأرضية هو سلام زائل سرعان ما يتلاشى أمام المتطلبات الجديدة التي تفرضها الحياة الحسية المعيشة، فلا ينعمون بالسلام إلا للحظات قصيرة يفاجئون بعدها بالحروب، وعليه فالسلام الأبدي والسعادة الحقيقية لا تحقق إلا بمجيء المسيح الذي يجمع كل الشعوب المسيحية ويوحدها.

تجدر الاشارة لنقطة في غاية الأهمية نستطيع استنتاجها من خلال الاستعمالات اللفظية في كل من الكتاب المقدس ومدينة الله والمتمثلة في مصطلح "الملكوت"، فعند التطرق للكنيسة العالمية وبمجيء المسيح يظهر استخدام لفظ "ملكوت الله" عوضا عن "مملكة الله". ويعرف المختصون المسيحيون ملكوت الله بقولهم "إن ملكوت الله الذي نادى به المسيح يقوم على خضوع القلوب لشريعته لا على إقامة حكم إلهي بوجه منظور"[2]، لا يقصد بملكوت الله إقامة مملكة ذات حدود وحكم وقوانين بل تتجاوز تلك الحدود الجغرافية للوصول إلى الجانب الروحي للأفراد؛ فهي خضوع القلوب لشريعة المسيح. وهذا دليل آخر على أن الملكوت الالهية تتسع لتضم كل الأفراد دون تحديد أو شرط سوى أن أرواحهم خاضعة للمسيح. فالعالمية المسيحية التي ستتحقق في نهاية الزمان مستعدة لتضم كل الافراد ولا يشترط فيها أن تكون من سلالة أبناء الله؛ بل تضم كل مواطني الحضارات الوثنية والمجوسية واللادينية...، بعد أن تكون قد اهتدت إلى الحب الحقيقي وهو حب الله وحب الرب

إستند القديس أوغسطين في دراسته لمسار التاريخ على مبدأ مفاده أن الزمن أحادي البعد مطرد يسير من آدم مرورا بأهم حدث تنتظره البشرية جمعاء وهو ولادة يسوع المسيح، الذي يعتبر محور الحوادث التاريخية والتي لن تتكرر مهما استمرت الصيرورة التاريخية. كان كل البشر يتوقون بقصد أو دون قصد لقدومه، وما إن

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص: 145.

[2] محمد العربين، مرجع سابق، ص: 481.

ولد حتى شارف مسار التاريخ على نهايته؛ فمعظم الأحداث التاريخية قد تمت في الماضي وما نعيشه الان هو آخر مرحلة في التاريخ ف"نهاية التاريخ وشيكة خصوصا أن العالم وصل مبتغاه"[1].

كان المصطلح قبل مجئ السيد المسيح المستخدم لانتظار الحياة الخالدة هو "غدا" أما وقد ولد السيد المسيح أصبح المصطلح المستخدم للتعبير عن المستقبل هو "الآن"؛ فمجئ المسيح هو النقطة الفاصلة في التاريخ، ففي أي لحظة من الآن قد يفاجئنا السيد المسيح بمجيئه الثاني، فولادة المسيح هي النقطة الفاصلة في التغير في مفهوم الزمن إذ كان الغد مثلا يعبر عن اليوم الذي يلي صعود المسيح الى السماء. أما عن اليوم الذي سيكون فيه تجسيد لنهاية التاريخ فهو محدد في العلم الالهي، لا يعلم البشر عنه شيئا لكنه سيتحقق لا محالة بعد أن يسود الانحطاط كل حضارات العالم خاصة من الانحطاط الاخلاقي "فالعالم في نظر القديس أوغسطين في اتجاه انهياره وانحطاطه"[2].

كما تدخل السيد المسيح وأنقذ البشرية كلها وخلصها من الخطيئة الموروثة من أبينا آدم، ليعطي أبناء مدينة الله الدافع دونما خطيئة لبناء مدينتهم وتعيين معالمها التي ستوضع لبناتها الأخيرة المرئية في نهاية التاريخ مع السيد المسيح، وكما تدخل الله في التاريخ بعد أن بلغ الانحلال مبلغا في العالم وذلك في المرحلة التاريخية الثانية مع طوفان نوح؛ أين قضت العناية الالهية على كل الأشرار في العالم ولم تترك فيه غير المواطنين البارين سكان مدينة الله نوح وزوجته وأبناءه الثلاث وزوجاتهم، فتجسدت بصورة مبدئية مدينة الله، وتمثل الملكوت على وجه الأرض. وبالتالي "أصبح اليوم الآخر هو يوم اكتمال مدينة الله أي هو نهاية التاريخ وبدأ الابدية"[3]، كذلك سيخلصنا في نهاية الزمان من الانهيار الأخلاقي والانحطاط الحضاري الذي يعاني منه العالم والإنسانية جمعاء، وهذا يعيدنا لفكرة القديس أوغسطين عن السبب الأساسي لإنهيار الحضارة والذي حدده بالاخلاق؛ إذ أنه "يربط فكرة المدينة بمبدأ أخلاقي له صلة بمبدأ الخير والشر"[4] فتنهار الحضارة نتيجة لذلك، فيأتي السيد المسيح أخيرا ويحرر العالم.

[1] مونيس بخضرة: تاريخ الوعي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص 167.
[2] المرجع نفسه، ص166.
[3] زينب محمود الخضيري، مرجع سابق، ص10.
[4] المرجع نفسه، ص 166.

القديس أوغسطين كغيره من أصحاب النظرية الدينية لديهم نظرة للتاريخ ولنهايته، فهم يتصورون "الفساد الخلقي طابع عصرهم وإن آبائهم وأجدادهم أشد منهم تدينا وربما أكثر صلاحا"[1]؛ أي كلما تقدمنا بالتاريخ كلما زاد الفساد في العالم وقد تميز المسيحيون وقبلهم اليهود بهذه النظرة معتمدين في تأصيلها على الكتاب المقدس "إذ جاء في نبوءة دانيال في تفسيره لحلم نبوحذنصر كما وردت في العهد القديم إلى مملكات متتابعة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والصلصال، والطين وهكذا فقد إعتقد اليهود أن العصر الذهبي للإنسان كان قبل خروج الانسان من الجنة"[2]. نبوءة دانيال جعلت أصحاب العقيدة ينظرون للتاريخ نظرة تشاؤمية يمثلون من خلالها إتجاه تدهور حركة التاريخ، وهذا يتفق مع دراسة القديس أوغسطين لوضعية أبناء الله في العالم، إذ أنهم يعيشون في ظلم واستبداد أبناء الأرض من خلال ما يفرضونه في هذا العالم من معاصي وفساد وإنحطاط خلقي، فهم يتوقون لحالة النقاء والطهر الكاملين التي لن يصل إليها النسل إلا في العالم الأخر أي لن يصل إليها إلا في آخر الزمان أين يحي المسيح وتتجسد مدينة الله على أرض الواقع قبل أن تنتقل مع المسيح وأبناء الله إلى أرض الخلود.

لم يخرج القديس أوغسطين عن الجانب اللاهوتي في تعريفه لنهاية التاريخ والتي يطلق عليها المسيحيون لفظ "الإسخاتولجيا وهي معنى مركب من كلمتين يونانيتين معناهما الكلام في الآخرة أي الأمور المختصة بمستقبل النفس ونهاية العالم، ومجئ المسيح الأخير في الدينونة ونصيب الأبرار السماوي وقصاص الأشرار الأبدي، ونلاحظ أن هذا الاطلاق يحدد الآخرة نهاية العالم ومجيء المسيح"[3]، ويعرفها القديس أوغسطين فيقول: "مجيء المسيح النازل من السماء، ليدين الاحياء والأموات، وهو المجيء الذي تعترف به، وبه تؤمن كنيسة الله الحق بأسرها، ذاك ما نسميه اليوم الأخير للدينونة الأخيرة"[4]، فمنذ أن عصى آدم وحواء الله بوسوسة من الشيطان وورث كل البشر الخطيئة، كان واجبا على الله تطبيقا لعدله الالهي أن يحاسبوا على كل أعمالهم الصغيرة والكبيرة فيجازي أبناء الله ويعاقب أبناء الأرض، فعدل الله الكامل هو من يستطيع التمييز بينهم بكل سهولة هذا ما يذكره الكتاب المقدس في قوله: "إن من يزرع الحب الجيد هو إبن الانسان والحقل هو العالم، والحب الجيد هم أبناء الملكوت، الزؤان يعني أبناء الهلاك والعدو الذي يزرعه هو الشيطان، والحصاد

[1] أحمد محمود صبحي، مرجع سابق، ص 196.

[2] هاشم يحي الملاح: المفصل في فلسفة التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص243.

[3] فرج الله عبد الباري: يوم القيامة بين الاسلام والمسيحية واليهودية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004، ص 53.

[4] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص 177.

هو نهاية الجيل والحاصدون هم الملائكة، وكما أن الزؤان يجمع ويلقى في النار ليحترق هكذا سيكون في نهاية الجيل يرسل إبن الانسان ملائكته فينتزعون من مملكته جميع الشوك وفاعلي الإثم ليلقى بهم في آتون حيث البكاء وصريف الاسنان حينذاك يضيئ الصديقون كالشمس في ملكوت أبيهم، من له أذنان سامعتان فليسمع"[1]، وفي موضع آخر يذكر "ومتى جاء إبن البشر في مجده وتجمعت لديه كل الأمم فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ويقيم الخراف من يمينه والجداء من عن شماله حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم لأني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريبا فآويتموني وعريانا فكسوتموني ومريضا فعدتموني، ومحبوسا فأتيتم إلي"[2].

قبل الوصول بمسار التاريخ إلى تمييز الصالحين والأشرار، كان لزاما المرور بالمرحلة التي مرت بها مدينة الله والتي كانت تسير مع أبنائها ببطئ، لكن الفساد وقد انتشر وبدأ أبناؤها يتناقصون، نتيجة لاضطهاد مدينة الأرض من جهة وإغراءاتهم من جهة أخرى فشارفت على نهايتها لولا إنقاذها من قبل السيد المسيح، ويصف يوحنا الصورة كما ستحدث في الكتاب المقدس "ورأيت ملاكا هابطا من السماء ومعه مفتاح الهاوية وبيده سلسلة عظيمة، وقبض على التنين والحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأقفل خاتما عليه لئلا يظل الأمم بعد إلى تمام الألف سنة"[3]، فالقديس أوغسطين يقول بالألف سنة الأخيرة التي يحيا فيها أبناء مدينة الله وحدهم على الأرض "ورأيت نفوس الذين قتلوا لأجل شهادة يسوع ولأجل كلام الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته، ولم يتسموا بالسمة على جباههم ولا في أيديهم، فحيوا وملكوا مع المسيح ألف سنة"[4]، وحكم السيد المسيح ومعه أبناء الله ولم يحي الضالون إلا بعد الألف سنة الأخيرة التي يحكم فيها القضاة، قضاة الكنيسة دون غيرهم فالحكم لهم والملك لهم، ولا وجود لتنظيمات سياسية ولا سلطة زمنية بل السلطة الدينية هي وحدها من يحكم العالم ويدافع عن أبناء الله، ولا يعني تقييد الشيطان أن المسيح متخوف على الكنيسة، على العكس فالكنيسة ظلت طوال الصيرورة التاريخية محافظة على بقائها، والدليل على ذلك الزمن الذي يسبق الألفية وكان الشيطان محررا من قيوده ولم يستطع أن يظل الكنيسة.

[1] متى، الاصحاح(43/13).

[2] متى، الاصحاح(31/25).

[3] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص164.

[4] المصدر نفسه، ص ص 184-185.

وحتى يمتحن الله أبناء مدينته وللمرة الأخيرة يحرر الشيطان من قيوده أين "يترك (...) ثلاث سنوات وستة أشهر للشيطان وزبانيته. ولكن المؤمنين الذين يواجهونه لن ينهزموا أمام أحابيله المتعددة وشراسة محازبيه، على أنه لو لم يكن حرا، لكانت قدرته الشريرة أخف وطأة، إن صبر المدينة المقدسة والأمينة، الأقل إمتحانا، وكل الخير الذي يمكن أن يجنيه العلي من شر هكذا كبير، قد يكون أكثر ضمانا"[1]، فالشيطان أعلن الحرب على المسيحيين وبصورة أشد عنفا من سابقتها لدرجة إتباع بعض ممن كانوا أبناء الله وعاشوا في ملكوت الألف الأخيرة الشيطان، هؤلاء يعتبرهم السيد المسيح من أبناء مدينة الأرض أو أبناء مدينة الشر.

في هذه المرحلة النهائية من التاريخ فقط وليس قبلها يصف القديس أوغسطين أبناء مدينة الأرض بالأشرار؛ أو مواطنوا مدينة الشر "وعلى هذا النحو فإن الملكوت الذي يجمع هذين الإنسانين هو الكنيسة كما ستكون بدون أشرار"[2] لأنهم في هته المرحلة لن يتراجعوا عن خضوعهم للشيطان، ولم ينضمّوا لمائدة السيد المسيح، فثبت تبعا للمسيح فسادهم وهلاكهم في النار الأبدية، أما قبل ذلك فلا نستطيع وصفهم بالشر، فكل مواطن أرضي قادر أن ينظم إلى مدينة الله في أية لحظة، أو يكون مواطنا صالحا من سكان المدينة السماوية لكنه متخفي في ثوب الفساد لذلك لا نستطيع وصفهم بالأشرار.

في هذه السنوات الثلاث الأخيرة والنصف التي عجز القديس أوغسطين بعد تحليل مستفيض من إعطاء حكم نهائي فيما إذا كانت تنتمي للألف سنة أم تأتي بعدها؟ خاصة وأن الكتاب المقدس لم يذكر ذلك نظرا لقصر المدة الزمنية "على أن ذلك الوقت مهما كان قصيرا فهل يختص بالألف سنة لأسر الشيطان وملك المسيح مع القديسين أم هو خارج عن تلك الحقبة الزمنية؟"[3]. في هته الفترة الزمنية تشهد مدينة الله أقصى أنواع الاضطهاد يقول القديس أوغسطين "بعد إكتمال الألف سنة سيتحرر الشيطان من سجنه فيخرج ليضلل الشعوب في أربعة أرجاء الأرض جوج ومأجوج ويسوقهم إلى هته الحرب ويكون عددهم كرمال البحر، يغويهم آنذاك ويسوقهم إلى هذه الحرب إذ أنهم كان يقودهم بكل الاغراءات الممكنة الى خطايا لا تعد ولا تحصى، إذ ذاك يخرج من ظلمات الكراهية ويرتمي في ثورات من الاضطهاد القريب من الدينونة الأخيرة وسيكون الاضطهاد النهائي، وسوف يضايق الكنيسة المقدسة في كل العالم، وتتعذب مدينة المسيح بأسرها بسبب

[1] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص 191.
[2] المصدر نفسه، ص 195.
[3] المصدر نفسه، ص 203.

مدينة الشيطان بكاملها"[1]، رغم كل هذا الاضطهاد سوف تبقى مدينة الله محافظة على حبها لله محافظة على ملكها السيد المسيح، إذ أن حكمه يبقى سائدا على الرغم من الاضطهاد، فالمسيح يملك طوال الألف سنة ويمتد ملكه حتى الثلاث سنوات ونصف، سواء كانت من الألف سنة أم لا، هذا ما ذكره الكتاب المقدس وأكده القديس أوغسطين بقوله "... التي قامت بواجبها وتحملت العذابات وقد تحررت من أعضائها الميتة وملكت وتملك مع المسيح حتى إكتمال الألف سنة لتملك في المستقبل(...)وعلى هذا النحو، خلال تلك السنوات الثلاث سوف تملك مع المسيح حتى نهاية الجيل، حتى مجيء الملكوت الذي لن يعود فيه مجال للموت(...)وعلى هذا النحو، فإن سنوات ملك القديسين تمتد إلى ما بعد تحرير الشيطان من قيوده طالما أنهم سيملكون مع إبن الله ملكهم، طوال الثلاث سنوات وست أشهر التي فيها سيتحرر الشيطان"[2].

إذن نهاية التاريخ عند القديس أوغسطين كانت متوقعة باعتباره رجل دين مسيحي وذلك بمجيء السيد المسيح ومحاربة الشيطان وأتباعه والفوز النهائي لأبناء الله، لكن الدراسة في جوانب عديدة تأخذ جانب فلسفي خاصة وأنه يحدد نهاية التاريخ بالعصر الذي يكون الانحطاط الخلقي فيه كبيرا، حتى تشارف مدينة الله على الزوال فينقذها الله بإرسال المسيح مرة أخرى. ومن ثم يصنف كل البشر إلى خيّرين وضالين وينال كل فرد جزاءه بالعقاب أو بالثواب، وهناك فقط تتحقق السعادة الأبدية يقول أوغسطين :"يا بني، أريد منك ألاّ تميل إلى من ينعمون في هذا العالم بسعادة كاذبة، باطلة ومغرية، (...) أريد منك ألا تنصرف إلى ما يرى، بل إلى ما لا يرى، لأن ما يرى زمني وما لا يرى أبدي، (...هناك) السعادة الحقيقية"[3]، فيحي الأبرار مع السيد المسيح إلى الأبد، "لأنه إذا لم يكن الإنسان بارا فلن تكون له حياة مع المسيح"[4].

وفي الأخير بعد مسار للتاريخ طويل سوف تنهي مدينة الله مسارها بتجسدها على أرض الواقع ويحكمها السيد المسيح، فبعد أن توقفنا في الجيل السادس الذي يجري حاليا ولا يقاس بعدد معين من الأجيال يبقى العدد مفتوحا إلى أن يقرر الله ذلك فالرب يقول: "ليس لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة التي جعلها الأب في سلطانه"[5]، ثم ينبئنا أن مجيء الرب في هذا الجيل السادس سيكون بتغلب مدينة الله على مدينة

[1] عبد الوهاب عبد السلام: المسيح المنتظر ونهاية العالم، دار السلام، مصر، ط7، 2007، ص 239.

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص205.

[3] أوغسطينوس: خاطر فيلسوف في الحياة الروحية، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط7، 2004، ص 8.

[4] أوغسطينوس: الحياة المسيحية، تعريب: إشعياء ميخائيل، لجنة التأليف والنشر، مصر، دط، 1987، ص 49.

[5] رسل، الاصحاح،(7/1).

الأرض وحكمها للعالم والقضاء أخيرا على مدينة الشر ومحاسبة الأشرار ليأتي بعده الجيل السابع والذي سيستريح فيه الله، لأن الخلق قد أتم مساره وعاد كل شيء إلى نصابه؛ الأشرار في النار والأبرار ينعمون في السلام الأبدي وبالسعادة مع الله الذي يحبونه ولا شيء سواه "السعادة تكمن في أن يكون الله لنا"[1]، ملأ حبه قلوبهم وازدادوا حبا بعد رؤيته والتسبيح لملكوته وألوهيته. هنا تكون النهاية لتبدأ اللانهاية مع الخلود الابدي ومحبة الله. وبهذا يكون الجيل السابع قد تم كما يتنبأ به القديس أوغسطين أين يقول:"...تلك الحقبة السابعة ستكون سبتنا الذي لن يكون له مساء بل يحدد أجله أحد أبدي يتكرس بقيامة المسيح من القبر ويرمز إلى الراحة الأبدية، راحة الروح وراحة الجسد، هناك سنكون في السلام وسوف نرى ونحب سوف نحب ونسبح ذاك ما سيكون في النهاية دون نهاية وأية نهاية لنا تكون سوى الوصول إلى الملكوت الذي لا نهاية له؟"[(2)].

إكتمل بذلك مسار التاريخ الكلي الشامل منذ بدايته المفارقة إلى غاية الملكوت الأبدي الذي يضم المسحيين دون سواهم، وأيّ حضارة أخرى لا تنتمي إلى ذلك الملكوت، إضافة لذلك تكون قد تحققت الوحدة الانسانية أو العالمية مع السيد المسيح والتي ضمت هي الأخرى مجموعة الأمم المسيحية دون سواهم ينعمون فيها بذلك السلام الأبدي تحقيقا لغاية التاريخ النهائي، هنا انتهى التاريخ ووجد أوغسطين ضالته؛ وجد الحقيقة في المسيح تلك الحقيقة التي قال عنها عقل أوغسطين "الحقيقة التي لا يمكن أن تزول"[3] الحقيقة المسيحية.

[1] نقلا عن موسى معيرس: مشكلات القيم في فلسفة اوغسطين، مجلة تبيّن، العدد 16، المجلد الرابع، المركز العربي للأبحاث والدراسات، 2016، ص105.

[2] أوغسطينوس: مدينة الله، مج 3، مصدر سابق، ص: 414.

[3] أوغسطينوس: محاورة الذات، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط1، 2005، ص 48.

خاتمـــــــــــــــــــــة

خـــــــــــــــاتمة

في ختام هذا البحث الذي حاولت فيه تحليل الفكر الأوغسطيني، بغية اجتراح المقولات الفلسفية ضمن منظومتة دينية منكفئة على ذاتها، انتهيت إلى جملة من النتائج كمقاربة للأسئلة التي تم طرحها في المقدمة والتي تتلخص فيما يلي:

العقل السؤول هو العقل الممسك بمطرقة السؤال موجها ضربات محكمة، رأسا للمفاهيم المركزية المتعالية والكيانات المتافيزيقية الناظمة لثقافة الفرد التي قام بتأليهها، لابستيميات ثقافتنا المؤسطرة، محاولا بجد إخراج العقل المسجون في كليشيهات القديم، وإزالة التكلسات الفكرية التي خلفها السبات الثقافي العميق بتفعيل أليات البحث واستحداث أخرى، من أجل نحت السؤال والمساءلة التي يجترحها العقل من جملة التكلسات تلو التكلسات التي قتلت الحس الإبداعي ابتداءً. تمخض عن القتل جملة من المشاريع الرجراجة التي تلوك تلك المفاهيم والمصطلحات الفارغة باعتماد طرق تقليدية لم تعد قادرة على الصمود أمام العقل السؤول الذي سيحطم بمطرقته رطانتها. رطانة شكلها الخطاب الديني الذي صنع قوالب من قوانين ومسلمات ومعتقدات جاهزة، صُبت فيها الذات وفرضت عليها السباحة في حدودها. قوالب في هيئة لغة مسرطنة بأحكام مسبقة جاهزة تسجن الفكر في هوّة المعتقدات، التي لم يبذل رائدوها ومريدوها عناء تفكيكها وخلخلتها.

العقل السؤول هو عقل أوغسطين الذي ضحك ضحكا شديد من تفاهة القصص التي أخبر بها الكتاب المقدس، الشبيهة بقصص العجائز المشوقة والساذجة والتي لا تقنع بخيالها الشاطح غير الأطفال الصغار، التي تعج بالتشبيهات وتُختلق فيها الأحداث التي لا يستوعبها العقل، فتقوم بتركيب ما لا يركب، فتخبرهم بأن إنسانا تبادل أطراف الحديث مع حيوان، وتقنعهم بأن هناك قدرات خارقة في العالم كأن تخرج ميتا من قبره ويباشر حياته معنا بصورة عادية وغيرها من الصور الرمزية، هي قضايا يقف أمامها العقل الحسي عاجزا عن إثباتها أو تصديقها، لهذا قام أوغسطين برمي الكتاب المقدس جانبا وانخرط في نص العالم المثبت أمامه.

لم يكن أوغسطين يوما مؤمنا ولم يقتنع بأي دين، كان دائم السؤال رافضا لكل حقيقة مصمتة، أفرغ عقله من كل مسلمة دينية أخلاقية أو أيا كانت طبيعتها، وهنا بدأ بصنع نفسه، عقله، حواسه، خلق نفسه من جديد، افترض الجهل ومنه انطلق باحثا عن الحقيقة، ووجدها، إنه أخطر ما قد يقدم عليه الانسان؛ أن يقرر العيش خاو من أي هوية إلى حين، بل إنما هي ما يجب أن يحمله الانسان معه وهو يطرح أول سؤال، من يضمن أن كل في ذهني الآن هو الحقيقة؟، لم يرفض وجود الحقيقة بل راح يبحث عنها بنفسه دون إملاء سماوي أو وضعي.

أوغسطين وهو يطرح السؤال لم يجد عقلا دينيا يوجهه ويدفع به إلى أفق أعلى وأعمق، بحيث يصل لفهم النص في كليته، –التي إن لم يصل إلى حقيقتها سيصطدم بتلكم الجزئيات المنفصلة التي يستحيل التصديق بها، فتجزيء النص المقدس ما يجعل الايمان به ممكنا وتعقله مستحيلا–، حينها سيؤمن بنص كلي يكافئ الوجود في كنهه والتاريخ في سيرورته.

بحث في الخطيئة وفي الإنسان الأول الذي خلقه الله ذو طبيعة حرة، وإرادة فعالة، ووفر له مساحة كافية من الحرية تتيح له الخيار، فاختار التمرد والإنقلاب على الأوامر الإلهية، بل وأكثر من ذلك طمع في أن يكون في مرتبة تعادل مرتبة الخالق ويكون مثله، تماما مثلما طمع إبليس قبله مع فرق أن إبليس طمع في مكانة آدم بينما آدم طمع في مكانة الله، تولد عن هذا الطمع إنسان جديد بقيم جديدة لم تكن موجودة من قبل في المجتمع السماوي، ولأن القانون اللإلهي صارم فلا يمكن لهذا الانسان الجديد أن يبق بجوار الرب بعد أن امتزج حب الله بحب الذات، فسقط سقطته الوجودية الأولى والتي نتج عنها الكثير من التغيّرات الحاسمة، تمرد آدم فتمرد جسده وصار يطلب شهوات ونزوات، وصار يتصارع مع النفس فتارة تسود عليه وتارة يسود عليها، لكن الأخطر من كل هذا حكم الله على الإنسان بالموت؛ الميتة الأبدية.

عاقب الله الانسان الأول (آدم–حواء) بمغادرة الجنة والسقوط في الأرض بمشقاتها ونزواتها وعذاباتها، سقط الإنسان الأول وتبعته خطيئته التي التصقت به وبنسله من بعده، رافقته منظومته القيمية التي صنعها بنفسه، فكان أن انتقلت إلى ابنه الذي قتل هو الآخر أخاه بسبب طمعه وحسده، بدأ التاريخ البشري يتشكل انطلاقا من جريمة قتل لأخ ضد أخيه، وبدأت جدران مدينة الأرض تبنى وكانت أول لبناتها ملطخة بالدم؛ دم الأخ، لكن وفي المقابل عوّض الله آدم بشيث الابن الصالح الذي سيبني بفضائله وخيريته المدينة السماوية التي تضم الناس الأبرار المحبين لله.

نزول الانسان الجديد إلى الأرض أدى به إلى تشكيل مجتمعات ودول يحكمها هو بنفسه، تضمن السلام والبقاء للأفراد، والحماية لمصالح بعضهم البعض من الآخر، فوضع قوانين تحكمها وتنظمها لكنها قوانين بشرية، أخذت عن الإنسان صفاته من نقص وتغيّر، مهما حاول الإنسان أن يبلغ بها حد الكمال لن يستطيع لأن الكمال ليس من صفاته هو، ومع ذلك ازدهرت الحضارات وتطورت بالقوانين الوضعية الناقصة، وأخذ أوغسطين لدراسة هذا الجانب السياسي روما كعينة دراسة، التي وجد أن قوانينها تتميّز بالعدل أهم صفة لقيام الحضارات،

ولهذا حقّ لها أن تكون دولة وإمبراطورية عظيمة، لكن سرعان ما بدأت الخطيئة الكامنة في الإنسان تظهر وتتغلب على النفس العادلة الفاضلة المحبة للوطن أكثر من حبها لذاتها، فبدأت الحضارة بالاندثار تدريجيا بسبب السقوط الأخلاقي الذي نتج عنه السقوط السياسي وبالتالي السقوط الحضاري.

ربط أوغسطين سقوط الحضارات بالجانب الأخلاقي ولم يربطه بالجانب الديني على الرغم من كونه رجل دين، ذلك أن الأخلاق الفاضلة الفطرية في الانسان تحاكي الأخلاق المسيحية وأخلاق المدينة السماوية، لكنها فضيلة آنية سرعان ما تصارعها الخطيئة الكامنة فيها، السقوط الأخلاقي له مظاهر متعددة حددها أوغسطين في فلسفته الأخلاقية من حسد وكبرياء وطمع، إلى حب للتملك والبذخ بمعنى حب لكل ما يجلب السعادة المادية للإنسان، وحالما يصل الانسان إلى هذه المرحلة تسقط حضارته لا محالة. البديل الذي طرحه أوغسطينوس هو المدينة السماوية أو مدينة الرب، الوحيدة التي تكون قوانينها عادلة عدلا كاملا، ويكون قيامها أبديا لا سقوط بعده، بكتت فيها الذات وملذاتها، وخضع فيها الجسد للنفس العاقلة، فلا طمع ولا تملك يصبون إليه.

حضارة زائلة (لا تدوم طويلا)= فرد + أخلاق.

حضارة زائلة (تدوم طويلا)= فرد + أخلاق+ دين.

حضارة أبدية = فرد + أخلاق + الدين المسيحي.

ظهر الشر وبدأ العقل يتساءل إذا كان الله خيّر خير كلي فماهو مصدر السر؟ هل هو من عند الله؟ أم أنه جوهر مستقل أوجد نفسه بنفسه، هنا يأتي الطرح الأوغسطيني الجديد، يرى أن الشر ليس بجوهر وليس من عند الله، بل الشر ليس موجودا من الأساس، الشر هو مجرد رد فعل عن نقص في الخير تماما كالمرض الذي هو نقص في الصحة، فجاء بفكرته الجديدة عن الشر والتي خالف بها كل الفلسفات التي سبقته جاء بفكرة تفاهة الشر.

دخول الرب الأبدي الأزلي داخل حيّز الزمان والمكان كانت أهم حادثة تاريخية عرفتها البشرية، هو دخول الكامل في الناقص والثابت في المتغير، كان الدخول الالهي في التاريخ بغرض فدائنا وتخليصنا من الخطيئة التي ورثناها من الإنسان الجديد فتم صلبه بتخطيط إلهي مسبق لا دخل للبشر به.

تعرض الحواريون وأتباع السيد المسيح لأشد أنواع العذاب كاد أن يقضي عليهم جميعا لولا العناية الإلهية التي حرصت على الحفاظ على هذا الدين من الزوال، فتمسكت الأقليات المسيحية بالكنيسة واحتموا بها، مشكلين

تكتلات متفرقة في العالم، تكتلات منظمة مخلصة لأوامر الرب مستعدة للتضحية بنفسها من أجل إعلاء كلمته مكتفية بذاتها، فشكلوا معا دولة مسيحية داخل دولة رومانية.

كان نظام الأقليات المسيحية من جهة وزهدهم من جهة أخرى، مطمعا لقسطنطين الذي استغل الأمر لصالحه وضمهم لجيشه وبهم حكم روما، وامتنانا لهم ورغبة منه في الحفاظ عليهم تم الاعتراف بالمسيحية دينا رسميا للدولة، وهنا بدأت المسيحية تربط علاقتها بالسلطة وبالدولة وصار الملك ورجل الدين وجهان لعملة واحدة هي الامبراطورية الرومانية المسيحية، فكان هذا أول اتحاد للدينيّ والسياسيّ معا.

عرف شباب أوغسطين مرحلة عدمية لم يعد يثق فيها بأحد، تجاوزها بعد أن أفرغ عقله من كل حمولة مسبقة جاهزة آمن بها دون أن يمحصها، وبدأ في تشكيل وعي جديد متين مثبت بأدلة واستدلالات عقلية، بدأ بصناعة وعيه ونفسه، فتوصل إلى المسيحية، صارت هويته وقضيته التي لن يتوان عن حمايتها حتى وإن اقتضى الأمر التحالف مع الإمبراطور، وهو ما حدث بالفعل عندما وقع أول اصطدام بين أوغسطين وأبناء جلدته الأمازيغ، لم يفكر في جغرافيتهم وعرقهم بقدر ما فكر في دينهم الذي زاغوا عنه، فأوغسطين بعد أن أفرغ ذهنه من حمولات الهوية والانتساب والعرق حافظ فقط على الدين، والأمازيغ الدوناتيون هم في نظره منشقون ومرتدون عن دين الحق وجب محاربتهم وردعهم.

حدد أوغسطين المسار التاريخي بخط مستقيم سائر نحو الملكوت الإلهي الذي سيتحقق في نهاية الزمان على يد يسوع المسيح، الذي سينزل من السماء ليوحد البشرية على رايته ويعاقب الأشرار، حدد المسار بخط مستقيم لا يتكرر نظرا لأن التاريخ البشري جرت فيه مجموعة من المعجزات التي منّتها العناية الإلهي على البشرية لحمايتها من خطر محتم، ولعل من أهمها دخول الله في التاريخ.

حدد أوغسطين المسار بعد أن حدد بدايته مع أدم وابنيه، ثم نهايته في الدينونة الأخيرة، ثم حدد المحرك الذي حصره في الصراع وهذا ما يشهد به التاريخ الذي ابتدأ بصراع إبليس وانشقاقه عن الملائكة مرورا بالصراع بين قابيل وهابيل الذي انتهى بجريمة قتل إضافة لصراع يعقوب الذي أخد بدهاء البركة من والده على الرغم من أحقية أخيه عيسو لها، فلو لم يتحايل يعقوب لسار التاريخ مسارا مختلفا عمّا يشهده الآن، ولشهدت الحضارات الكثير من التغيرات الجذرية، فديمومة الحضارة يشترطها وجود الصراع في التاريخ وحالما ينتهي هذا الصراع يحل السلام الأبدي وينتهي بالضرورة التاريخ، والسلام العالمي كما هو معروف عند المسيحيين يكون فقط بعودة السيد المسيح في نهاية الزمان، دون أن يغفل صاحبنا عن مقولات التاريخ من كلية وعلية.

يعتبر المشروع الأوغسطيني مادة دسمة للبحث والدراسة لتنوع المباحث الفلسفية فيه من فلسفة في الاخلاق، فلسفة سياسية، فلسفة في التاريخ، فلسفة في الدين وفلسفة في اللغة، استثمرها الغرب استثمارا كبيرا وبقيت مصمتة عند العرب، درست الفلسفة الوجودية الزمن عنده، واقتبس ديكارت الكوجيطو، درس بول ريكور الخطيئة ودرس دريدا الكذب، أما الجانب الديني فأغلب الجامعات الغربية أفردت فروعا جامعية متخصصة في الدراسات الأوغسطينية.

هذه الدراسة هي رغبة جادة في إعادة إحياء الفكر الأوغسطيني داخل الجامعة الجزائرية والعربية، إذ ينبغي إعادة النظر في الفكر الأوغسطيني كمشروع تأسيسي/تنظيري يساهم في تطوير الفكر العربي كما ساهم في تطوير الفكر الغربي، فإذا كانت القفزة الديكارتية في عالم الفلسفة بداياتها أوغسطينية، فلم لا نقسم مباحث الفلسفة الأوغسطينية لتكون مشاريع بحثية جادة تساهم في إنعاش فلسفتنا نحن أيضا.

قائمـــة المـــصادر والـــــمراجع

قائمة المصادر والمراجع

. الكتاب المقدس، التوراة.

. الكتاب المقدس، الإنجيل.

أولا: قائمة المصادر

أ. بالعربية:

3. أوغسطينوس: الحياة المسيحية، تعريب: إشعياء ميخائيل، لجنة التأليف والنشر، مصر، دط، 1987.
4. أوغسطينوس: حياتنا الأبدية، تر: الأنبا إيساك، دير السريان، لبنان، ط1، 1998.
5. أوغسطينوس أوريليوس: شرح رسالة القديس يوحنا الأولى، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط4، 2001.
6. أوغسطينوس: مزمور ضد الدوناتية، تر: محمد المبكر، منشورات كلية الاداب، الرباط، ط1، 2001.
7. أوغسطينوس: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط7، 2004.
8. أوغسطينوس: محاورة الذات، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط1، 2005.
9. أوغسطينوس أوريليوس: محاورة المعلم، تر: حسن حنفي(نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط)، دار التنوير، بيروت، ط1، 2005.
10. أوغسطينوس أوريليوس: مدينة الله، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط2، 2006.
11. أوغسطينوس: في الحياة السعيدة، تر: يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007.
12. أوغسطينوس: تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007.
13. أوغسطينوس أوريليوس: الإعترافات، تر: برتي شاكر، دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط5، 2011.

14. أوغسطينس، هيرونيمس: الرسائل المتبادلة بين القديسين هيرونيمس وأوغسطين، تر: سعد الله سميح جحا، دار المشرق، بيروت، ط1، 2011.

15. أوغسطينوس: لنفرح بميلاد المسيح، تر: نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أونطونيوس، القاهرة، دط، 2011.

16. أوغسطينوس: عظات في المزامير، نقلها إلى العربية: سعد الله سميح حجا، دار المشرق، بيروت، ط1، 2013.

17. أوغسطينوس أوريليوس: الإيمان بأمور لا ترى، تر: أسرة القديس ديديموس، كنيسة الشهيد مارجرجس، الاسكندرية، دط، دت.

18. أوغسطين: التجديف على روح القدس، تر: تادرس يعقوب ملطي، بيروت، ط2، دت.

19. أوغسطينوس: من تأملات أوغسطينوس، تر:بانوب عوض، كنيسه الشهيد مارجرجس بيروت، دط، دت.

ب. بالفرنسية:

20. Saint Augustin: La Cité de dieu Traduit du latin par l'abbé gabriel Vidal, Maison AUBANEL Père Avignon, 1930.

21. Saint Augustine: La Doctorine Chrétienne, traduction : *M. l'abbé Hussenot*, Tome 4, éditions BAR-LE-DUC, France, 1866.

ثانيا: قائمة المراجع

أ. بالعربية:

22. إبراهيم القمص عازر: مدخل إلى علم الثالوث، مر: موريس تاوضروس، إنسبريشن للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 2015.

23. أحمد علي عجيبة: دراسات في الأديان الوثنية (موسوعة العقيدة والأديان)، الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004، ج9.

24. أرثر كورتل: قاموس أساطير العالم، تر: سهى الطريحي، دار نينوى، سوريا، د ط، 2010.

25. آرسي سبرول: حقائق وأساسيات الايمان المسيحي، تر: نكلس سليم سلامة، مكتبة المنار، مصر، دط، 2000.

26. إسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مر:فؤاد زكريا، المطبعة الثقافية، مصر، دط، 1971.

27. إسماعيل زروخي: دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، ط1، 2001.

28. أطلس الكتاب المقدس، الخدمة العربية للكرازة بالانجيل ، لبنان، دط، 2008.

29. الأفستا (الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية)، إعداد: خليل عبد الرحمان، روافد للثقافة والفنون، سوريا، ط2، 2008.

30. أفلاطون: الجمهورية، تر: حنا الخباز، دار القلم، لبنان، ط6، 2000، ص 16.

31. أفلاطون، القوانين، تر: تيلور، نقله إلى العربيه: محمد حسن ظاظا، من مقدمه الاستاذ تيلور، الهيئة المصريه العامه للكتاب، مصر، دط، 1986.

32. أفلوطين: التاسوعة "5"، ، تر من اليونانية: فريد جبر، مر: جيرار جهامي، سميح دغيم، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 1997

33. آلبان.ج.ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه من كونفشيوس إلى توينبي، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط2، 1996، ج1.

34. ألبير بايه: أخلاق الانجيل دراسه سوسيولوجيه، تر: عادل العوا، دار كنعان-دار الحصاد، دمشق، دط، دت.

35. إبرهارد أرنولد: المسيحيون الوائل، تر: هناء عزيز حبيب، مر: عزيز حبيب، مكتبة المنار، القاهرة، دط، 2000.

36. أمبروسيوس: الأسرار، تر: بيت التكريس لخدمة الكرازة، مؤسسة القديس أونطونيوس، القاهرة، ط2، 1996.

37. إميل بروهيه: تاريخ الفلسفة، تر، جورج طرابسي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1987، ص 242.

38. أمين معلوف: حدائق النور، تر: عفيف دمشقية، دار الفرابي، بيروت، ط4، 1998.

39. إنجيل برنابا، دراسات حول الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليه السلام، تحقيق: سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، ط2، 1983.

40. أنطونيوس فكري: الأسرار السبعة، مشروع الكنوز القبطية، لبنان، دط، دت.

41. إيتين جلسون: روح الفلسفه المسيحيه في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبه مدبولي، مصر، ط3، 1996، ص165.

42. بول ريكور: فلسفة الإرادة (الانسان الخطاء)، تر: عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2002.

43. بولا البراموسي: القديسة مونيكا، مر: الأنبا موسى، بطريريكية الأقباط الأرثوذوكس، القاهرة، دط، دت.

44. توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، تر: بولس عواد، مج1، المطبعة الادبية، بيروت، دط، 1887، ص294.

45. تيسير عواد: محاضرات في النظم السياسية المقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1993.

46. ج. ويلتر: الهرطقة في المسيحية تاريخ البدع الدينية المسيحية، تر: جمال سالم، دار التنوير، بيروت، دط، 2007.

47. جاريث ماثيو: أوغسطين، تر: أيمن فؤاد زهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 1984،

48. جمال مسرحي: المقاومة النوميدية للاحتلال الروماني من سيفاقس إلى تاكفاريناسئس، موفم للنشر، الجزائر،دط، 2015.

49. جورافسكي أليكسي: الاسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، تر: خلف محمد جراد، دار الفكر المعاصر-دار الفكر، لبنان-سوريا، ط3، 2005.

50. جون لوريمر: تاريخ الكنيسة، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1972، ج2، ص 118.

51. جيبون إدوارد: إضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تر: محمد علي أبو درة، مر:أحمد نجيب الهامش، المؤسسة المصرية العامة، مصر، دط، 1969، مج1.

52. جيو وايد نفرين، ماني والمانوية، تر: سهيل زكار، دار حسّان، ط1، 1985.

53. حبيب بدر: المسيحيه عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، لبنان، ط1، 2001.

54. حسين شريف: المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ من العهد القديم إلى مفاوضات السلام الشرق أوسطية (1900 ق م- 1995م)، ج1(من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل (1900 ق م- 1948م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1995.

55. حنا الخضري: المسيح إله أم إنسان (قراءة في فكر كارل بارت)، مر: وائل ألبان حداد، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 2014.

56. حنا الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، مج1، دار الثقافة، القاهرة، دط، 1981.

57. حنه أرندت: ما السياسة، تر وتح: زهير الخويلدي، سلمى بالحاج مبروك، منشورات ضفاف-منشورات الاختلاف، الرياض-الجزائر، ط1، 2014.

58. رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، دار عين، مصر، ط1، 2000.

59. رأفت غنمي الشيخ: فلسفة التاريخ، دار الثقافة، القاهرة، دط، 1988.

60. رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة، ، دار قباء، مصر، دط، دت، ج1.

61. راندال إيه. زكري: الطوائف اليهودية في زمن كتابة العهد الجديد، تر: عادل زكري، مدرسة الاسكندرية، الاسكندرية، ط1.

62. رتبة القداس الالهي، المركز الاسقفي، الجزائر، دط، دت.

63. روبين دانيال: التراث المسيحي في شمال إفريقيا، تر: سمير مالك وآخرون، دار منهل الحياة، بيروت، دط، 1999.

64. رينيه ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت-باريس، التأمل السادس، الطبعة الرابعة، 1988.

65. سلامة موسى، أشهر الخطب ومشاهير الخطباء، مؤسسة هنداوي، مصر، دط، 2011.

66. زينب محمود الخضيري: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، (دار قباء، القاهرة، دط، 1997).

67. سيداروس اليسوعي: مدخل إلى الأسرار، منشورات الآباء اليسوعيين، مصر، دط، 1981.

68. شيشرون: علم الغيب في العالم القدم، ترجمة شرح وتعليق: توفيق الطويل، مكتبة الآداب، مصر، دط، دت.

69. صبحي أحمد محمود: في فلسفة التاريخ، (دار الوفاء، الاسكندرية، ط4، 2004).

70. ظريف سدرة محارب: الخطاب الإلهي في العهدين ومصير الانسان(رؤية مسيحية)، دار يوسف كمال للطباعة، القاهرة، دط، 2007.

71. عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، تر: كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت، ط1، 1980.

72. عبد الرحمان بدوي: فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات-دار القلم، الكويت-لبنان، ط3، 1979،

73. عبد الله ابراهيم: المركزية الغربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2003.

74. عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005.

75. عبد الوهاب عبد السلام: المسيح المنتظر ونهاية العالم، دار السلام، مصر، ط7، 2007.

76. عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، دط، 1940.

77. عزيز العظمة: العلمانية من منظور مختلف،مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط2، 1998.

78. عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقيه، تر: إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافه، مصر، ط1، 2005.

79. علي زيعور: أوغسطينوس، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1983.

80. علي زيغور: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة والاصلاح، دار الحياة، بيروت، دط، 1998.

81. علي شريعتي، الانسان والتاريخ، تر خليل علي، حققه ونشره محمد حسين بزي، دار الأمير، بيروت، ط2، 2007.

82. علي عكاشة وآخرون: اليونان والرومان، دار الامل، العراق، ط1، 1991.

83. كيرلس سليم بسترس وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، منشورات المكتبة البوليسية، لبنان، ط1، 2001

84. ف. أجرو: رسالة في النظام الفلسفي للرواقية، تر: يوسف هواويني، مر: علي حمية، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009.

85. فاضل سيداروس: تاريخ اللاهوت البشري، دار المشرق، بيروت، ط2، 2012.

86. فرج الله عبد الباري: يوم القيامة بين الاسلام والمسيحية واليهودية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004.

87. فرديريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، تر: إمام عبد الفتاح إمام، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2002، ج1.

88. فريديريك نيتشة، الفلسفة في العصر المأساوي الاغريقي، تقديم: ميشال فوكو، تعريب: سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 1983.

89. ويلرايت فيليب: هيراقليطس فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي، تر: علي سامي النشار وآخرون، دار المعارف، مصر، ط1، 1969.

90. كانتور ف نورمان: التاريخ الوسيط حضارة البداية والنهاية، تر وتع: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات، مصر، ط6، 2001.

91. كريستيان نادو: المفردات والأسلوب، تر: شادي رباح نصر، دار النايا، بيروت، ط1، 2014

92. كيرلس سليم بسترس وآخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، المكتبه البوليسية، بيروت، ط1، 2001.

93. لينين: الدفاتر الفلسفية، تروتعليق: إلياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1974، ج2.

94. ليوشتراوس جوزيف كروبسكي: تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتى سبينوزا، تر: محمود سيد أحمد، مر وتق: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، دط، 2005.

95. ماركوس أوريليوس: التأملات، تر: عادل مصطفى، مراجعة وتقديم: أحمد عثمان، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2010.

96. متى المسكين: الكنيسة والدولة، دير القديس أنبا مقار برية شيهيت، لبنان، ط7، 2009.

97. محمد المبكر: شمال افريقيا القديم حركة الدوناتيين وعلاقتها بالدوارية، منشورات كلية الاداب، الرباط، ط1، 2001.

98. محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي،ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1989.

99. محمد بن إسحاق النديم، الفرهست، تر وتح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1997.

100. محمد عبد الله الشرقاوي: مقارنة الأديان،(دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 2000.

101. محمد عويضة كامل محمد: أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.

102. مصطفى النشار: تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون، الدار المصرية السعودية، القاهرة، دط، 1982.

103. الملاح هاشم يحي: المفصل في فلسفة التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007.

104. مونتسيكيو: تأملات في تاريخ الرومان، تر: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2011.

105. مونيس بخضرة: تاريخ الوعي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009.

106. ميشال أبرص، أنطوان عرب: المجمع المسكوني الأول، المكتبة البوليسية، لبنان، ط1، 1997.

107. نعيم فرح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، جامعة دمشق، دمشق، دط، 1978.

108. نيقولو ميكيافيلي: مطارحات، تعريب: خيري حمّاد، دار الآفاق لجديدة، بيروت، ط3، 1982.

109. هنري إيرية مارو، القديس أوغسطين والأوغسطينية، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007، ص ص 80-81.

110. هيجل: حياة يسوع، تر: جرجي يعقوب، دار التنوير، لبنان، دط، دت.

111. هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ (العالم اشرقي)، تر وتقديم وتعليق: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط2، 2005، ج2.

112. هيراقليطس، جدل الحب والحرب، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة، مصر، دط، 1980.

113. وداد أبو النجا عجيزة: حرية الانسان عند الرواقيين، (فلسفة الحرية أعمال الندوة الفلسفية السابعة التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.

114. ويل ديورانت: قصة الحضارة (قيصر والمسيح)، تر: زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة، بيروت، دت، دط، مج 3، ج1.

115. ويلرايت فيليب: هيراقليطس فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي.

116. ياسين حسين الويسي: الكلمة واللوغوس في الفكر الفلسفي والديني، دار صفحات، سوريا، ط1، 2016.

117. هنري شادويك: مقدمات قصيرة جدا، تر: أحمد محمد الروبي، مر: هاني فتحي سليمان، مؤسسة هنداوي، مصر، ط1، 2016.

118. يؤانس: الاستشهاد في المسيحية، مطبعة الأنبا رويس العباسية، الإسكندرية، ط4، 1969.

119. يوحنا الذهبي الفم، العناية الالهية، تر نشأت مرجان، مر: إبراهيم صموئيل، دار النشر الاسقفية، مصر،ط1، 2009.

120. يير سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قلسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1984.

ب. بالفرنسية:

121. Peter brown, Le vie de saint augustine, traduirde l'anglais par Jeanne henri marrou,éditionsde seuil, Paris, 1971.

122. Jacque Chabanne: Saint Augustin, édition France-empire, Paris, 1961.

123. [1] Saint Augustine: La Doctorine Chrétienne, traduction : *M. l'abbé HUSSENOT.*, Tome 4, éditions BAR-LE-DUC, France, 1866, p :chapitre 1.

ثالثا: الموسوعات والمعاجم:

124. إبن منظور: لسان العرب، مج8، دار صادر، بيروت، ط1، 1883.

125. بدوي عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، (المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1984،ج1).

126. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الشركة العالمية، لبنان، دط، 1994، ج1.

127. لالاند أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط1، 2001، مج2.

رابعا: المقالات:

128. موسى معيرس: مشكلات القيم في فلسفة اوغسطين، مجلة تبيّن، العدد 16، المجلد الرابع، المركز العربي للأبحاث والدراسات، 2016.

خامسا: البرامج التلفزيونية:

129. برنامج جددوا فكركم: أر سي سبرول، 17/09/2000 ملكوت سات: تعريف الثلاث أقانيم. السلسلة رقم 11.

فـــــــهرس الموضوعـــــــات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	2
الفصل الأول	
الســـقوط الوجـــــودي للإنســـــان	
تمهيد	**10**
المبحث الأول: المرجعيات الفكرية للفلسفة الأوغسطينية	**12**
أولا: **أوغسطين والمانوية**	**15**
ثانيا: **أوغسطين والشكية**	**19**
ثالثا: **أوغسطين والأفلاطونية المحدثة**	**27**
رابعا: **أوغسطين والمسيحية**	**31**
المبحث الثاني: جدلية الحب/الخطيئة في التاريخ	**37**
أولا: الإنسان الأول	**37**
ثانيا: تفاهة الشـــر	**41**
أ. الجـــــــــسد	**42**
ب. في الارادة الحرّة	**44**
ج. مصدر الشـــر	**48**
ثالـــــثا: التثليث	**51**

رابعا: الموت كشر حتمي **61**

المبحث الثالث: جدلية الإنسان الأصل/الإنسان الجديد **66**

أولا: الزمن الأوغسطيني **67**

ثانيا: النظرية البذرية **69**

ثالثا: مدينة الله **71**

رابعا: مدينة الأرض **80**

الفصل الثاني

السقوط الحضاري للإنسان

تمهيـــــــــــد **87**

المبحث الأول: أخلاق القيام والسقوط **89**

أولا: فساد آلهة الوثنيين **91**

ثانيا: الفرد الروماني **97**

ثالثا: أخلاق السقوط **105**

رابعا: أخلاق القيام (البديل المسيحي) **108**

المبحث الثاني: من دولة المجد إلى مدينة الرب **113**

أولا: الدولة **113**

ثانيا: القانون **120**

ثالثا: الدولة الدينية **130**

أ. الأقلية المسيحية **131**

ب. دولة داخل دولة 136

المبحث الثالث: من أغسطس إلى أوغسطين 141

أولا: الدولة المسيحية 141

ثانيا: أوغسطين والدوناتية 144

الفصل الثالث

القيـــــــــــــــــــــــــــــامة

تمهيـــــــــد ***161***

المبحث الاول: دخول الأبدي في التاريخ 162

أولا: التأويـــــــــل 162

ثانيا: مسار التاريـــخ 167

ثالثا: حركة التاريـــخ 182

المبحث الثاني : الصراع والتاريخ 185

أولا: الله والتاريخ 185

ثانيا: الإنسان والتاريخ 197

المبحث الثالث: الكومنوولث المسيحي ***213***

أولا: الوحدة البشرية. 214

ثانيا: السلام الآني/الأبدي. 217

خاتمة 232

قائمة المصادر والمراجع **238**

فهرس الموضوعات **251**

ملـــــــــــخص:

يعد هذا العمل محاولة للوصول إلى الطرح الفلسفي الأوغسطيني الذي طمسته اللغة الدينية، وإبراز مكانة العقل السؤول في أعماله التي تناول فيها العديد من المقولات الدينية، والتي تعتبر ناظم فلسفته المسيحية: كالخطيئة، الشر، الصراع محركا للتاريخ، الإنسان الأصل والإنسان الجديد، فالخطيئة هي محاول الإنسان الأول للتمرد على الخضوع الأبدي وطمعا في الوصول إلى السلطة، والشر لا يمكن الحديث عنه كجوهر بل نقلنا لفكرة جوهرية هي تفاهة الشر، أما المحرك التاريخ فليست العناية الإلهية وإنما هو الصراع.

انطلاقا من هذه المفاهيم الدينية حاولت استخراج الجانب الفلسفي منها لتأكيد الطرح الذي انطلقت منه والمتمثل في كون أوغسطين انطلق من العقل للوصول إلى الإيمان؛ تعقل كي تؤمن ثم آمن كي تتعقل.

Summary:

This work is an attempt to reach the Augustinian philosophical narrative, which was eradicated by the religious language, and to highlight the position of the quizzical mind in his works, in which he dealt with many religious concepts, which are the center of his Christian philosophy: As sin, evil, conflict is an motive of history, man of origin and man of new, sin is the first human attempt to rebel against eternal submission and to reach power, and evil cannot be spoken of as a substance, but we have moved to a fundamental idea: The triviality of evil; the motive of history is not divine care but conflict.

In the light of these religious concepts, I tried to extract the philosophical aspect from it to confirm the argument that I started from, which is that Augustine started from the mind to reach the faith;be reasonable to believe and then believe to be reasonable